



العتبة العباسية المقدسة
في الشؤون الفكرية والثقافية

العملية الإرشادية وبناء الشخصية العبادية عند الأطفال

وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي انموذجاً
دراسة تربوية - إرشادية لوصيته لجابر بن يزيد الجعفي

تأليف

الاستاذ يوسف مدن

الكتاب الفائز في مسابقة أفضل مؤلف بحق الإمام الباقر (ع)

لعام ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

شعبة الإرشاد والنشر



الهيئة العامة للكتاب
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

شعبة الدراسات والنشر

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٣٣)

هاتف: ٢٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٢

www.alkafeel.net

info@alkafeel.net

مدن، يوسف، 1954-

العملية الإرشادية وبناء الشخصية العبادية عند الإمام الباقر : وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي انموذجا : دراسة تربوية-إرشادية لوصيته لجابر بن يزيد الجعفي / الأستاذ يوسف مدن ؛ مراجعة شعبة الدراسات والنشر. -الطبعة الأولى-. كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية ، 1438 هـ = 2017.

400 صفحة : جداول ؛ 24 سم

المصادر : صفحة 393-395.

الكتاب الفائز في مسابقة أفضل مؤلف بحق الإمام الباقر عليه السلام، 2016.

1. الباقر، محمد بن علي زين العابدين (عليه السلام)، الإمام، 57-114 هجري--وصايا.
2. الجعفي، جابر بن يزيد بن حارث، توفي 128 هجري. 3. الوعظ والإرشاد (شيعة) الف. العتبة العباسية المقدسة. قسم الشؤون الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والنشر. ب. العنوان.

BP193.15.A2 M3 2017

مركز الفهرسة ونظم المعلومات

الكتاب: العملية الإرشادية وبناء الشخصية العبادية عند الإمام الباقر عليه السلام .

الكاتب: الاستاذ يوسف مدن.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

مراجعة: شعبة الدراسات والنشر.

التدقيق اللغوي: مصطفى كامل محمود، عمار كريم السلامي.

الخراج الطباعي والتصميم: علاء سعيد الأسدي، محمد قاسم النصراوي.

رقم التسجيل في دار الكتب والوثائق في بغداد: ٢٣٦٨ لعام ٢٠١٧.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ١٠٠٠.

شعبان ١٤٣٨ هـ - أيار ٢٠١٧ م

مقدمة الناشر

دأبت العتبة العباسية المقدسة على الاهتمام الشديد بالشخصيات الاسلامية والرموز الدينية لاسيما اعمدة الدين الاسلامي من آل البيت النبوي الطاهر عليه السلام، لما في تاريخهم وشخصياتهم بشكل عام أثر كبير في توجيه المجتمع الاسلامي نحو الحق والكمال، فان سيرتهم الطاهرة تخبرك انهم رجال افنوا حياتهم في اعلاء كلمة الحق وكلمة لا اله الا الله، من جانب آخر فانهم يمثلون الوجه الانساني والحضاري للإسلام، ولا يوجد رجال لدى المسلمين أعز وانبل وافضل منهم، من هنا جاء الاهتمام في رفق الواقع الفكري والمعرفي بدراسات جديدة تتناول فكر وسيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقامت العتبة العباسية المقدسة بعقد مؤتمرات وندوات تهتم بهذا الجانب واجراء المسابقات المعرفية ذات المردود الثقافي الواعي وقد لاقت تلك الفعاليات رواجاً ونجاحاً واضحاً، كانت من ضمن تلك الفعاليات مسابقة (أفضل مؤلف بحق الامام الباقر عليه السلام) تخليداً للإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في نفوس احبائه واوليائه ومُعرفه بمنهجه وعلمه وفكره؛ لتستنير الامة به ولتتقوى على محنها ومصائبها، وبفضل الجهود المبذولة من قبل الكوادر المجتهدة نجحت المسابقة السنوية بعد مرور ابحاثها بمراحل مختلفة من المتابعة والفحص فانتخبت الكتب الثلاثة الاوائل منها للطباعة والنشر رفقاً للمكتبة الاسلامية وحفظاً لتلك الجهود المبذولة من قبل باحثيها وكتابها، وبذلك يواصل قسم الشؤون الفكرية والثقافية نجاحاته المتتالية في المضمار المعرفي والثقافي ليرسم اصالة مشروعه المهم في تأصيل المعرفة الدينية والهوية الايمانية لدى اتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

العتبة العباسية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمات خالدة

«ادفع عن نفسك حاضِر الشر

بحاضِر العلم، واستعمل حاضِر العلم

بخالص العمل، وتحَرَّز في خالص العمل من

عظيم الغفلة بشدة التيقُّظ، واستجلب شدة التيقُّظ بصدق الخوف، واحذر خفي

الرين بحاضِر الحياة

وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل،

وقفْ عند غلبة الهوى باسترشاد

العلم، واستبق خالص الأعمال

ليوم الجزاء»

الإمام الباقر (ع)

الإهداء

نهدي هذا المجهود المعرفي لإمامنا وسيدنا
ابن رسول الله باقر العلم الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر،
وصاحبه جابر بن يزيد الجعفي،
وكل مؤمن ارتبط عبادياً بطاعة الله سبحانه،
وحق الولاء لأئمة أهل البيت
عليهم الصلاة والسلام.

مَقْدَمَةُ الْكِتَابِ

ليست هذه الدراسة مجرد محاولة كتابية قد أعدّها الباحث لتفسير كلمات وألفاظ وجل ومفردات إحدى الوصايا الأخلاقية والتربوية التي نقلها جابر بن يزيد الجعفي رحمته الله عن سيده ومولاه الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وقد نقلها بعض العلماء في مصادرهم، فهذه الدراسة التي بين يديك هي محاولة علمية لا تستهدف تحليل المادة المعرفية لهذه الوصية الكريمة، وصياغة رؤية متصلة مع بعضها (في موضوعات تربوية ذات طبيعة إرشادية) سواء بطريقة تجزئية أو بدراسة موضوعية أو باستخدام منهج آخر.

فليس غرضنا من إعداد موضوعات هذا الكتاب القيام بعملية دراسة موسّعة ومستفيضة لنص الوصية المذكورة، وإنما يتحرك البحث في هذا النص على موضوع واحد، وأساسي يمكن التركيز على مرتكزاته في المحتوى اللفظي لهذه الوصية، ودراسته، وتكوين وجهة نظر تربوية للإمام الباقر عليه السلام في مجال إنساني، كمجال الإرشاد، وهو مجال كان الإسلام وسائر الأديان قد اهتم به، وكشف عن قيمته العلمية والعملية في واقع الادميين وحياتهم.

فكان اهتمامنا التركيز على أحد موضوعاتها، أو عدد منها ودراستها، وجمعها في شبكة فكرية واحدة شكلت هذا الكتاب، وفسحت المجال لفهم ومعرفة إطار متكامل يُمكننا من وضع قواعد رؤية معرفية ومرتكزاتها حول موضوع موحد يدور حول العملية الإرشادية في خطاب الإمام الباقر عليه السلام، وقد اتخذنا من إحدى وصاياه الكريمة

مادة رئيسية لدراسة أحد موضوعاتها، وصياغة خطوط أولية لنظرية تربوية - إرشادية ومعرفية في أحد مصادر الخطاب التربوي والإرشادي عند أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (ع).

إننا نعتقد بأن وصية الإمام الباقر (ع) لصاحبه جابر تنطوي على شبكة من الموضوعات الفكرية والإنسانية، وتستحق دراستها جميعاً وبناء وحدة معرفية، ويمكن للباحثين باختلاف تخصصاتهم بذل جهودهم العلمية لاستثمار الشمولية الفكرية الغزيرة في تراث أهل البيت (ع) لدراسة تراثهم في موضوعات كثيرة، ومن ذلك وصية الإمام الباقر (ع) لجابر الجعفي.

إن هذه الوصية يمكن دراستها كوحدة معرفية بالطريقة التجزئية، وبفهم معانيها جملة بعد أخرى، والسير بتفسيرها من الجملة الأولى إلى الثانية، ثم تفسير جملها وعباراتها بتتابع لفظي دون التركيز على موضوع موحد النظرة المعرفية ومناقشته في إطار بحث متشابك القواعد والأجزاء والمرتكزات، ومتكامل الرؤى بنحو يظهر للقارئ أنه يقرأ موضوعاً بحثه الإمام الباقر (ع) مع صاحبه، وفي الوقت ذاته ثمة فرص متجددة للباحثين لدراسة الوصية من خلال دراسة موضوعات عديدة، كل موضوع على حدة، وفي مجالات معرفية أخرى، فيدرس اللغوي مفردات هذه الوصية وكلماتها من حيث خصائصها اللغوية ودلالاتها الفنية، ويهتم باحث تاريخي بموضوع ثان يهتم بالجانب التاريخي للنص، ويصرف علماء الأخلاق اهتمامهم بدراسة القيم الإنسانية في وصية الإمام الباقر (ع) لجابر وصياغة وجهة نظر في هذه المسألة، وكذلك يمكن لعالم الدين وأصحاب الخبرات الروحية دراسة الجانب الروحي في الوصية دراسة مستقلة ومنفردة ومستفيضة.

أمّا نحن فدرسنا أحد موضوعات الوصية المباركة من زاوية نفسية وتربوية

وأخلاقية، وهي دراسة قائمة على دراسة موضوع مبني على وحدته المعرفية يعالج قضايا الإرشاد التربوي والنفسى وعلاقتها بعملية بناء نمط سوي وأساسى للشخصية العبادية، وقد انصبت كل جمل وعبارات ومفردات التركيب اللفظية لهذه الوصية على الاهتمام به - كما نعتقد - وحفزنا على ذلك تماسك النص في تكوين نظرة معرفية موحدة حول هذا الموضوع الذي نأمل أن يحظى باهتمامات الباحثين.

ومع تركيزنا على وحدة معرفية في معالجة موضوع محدد أشرنا إليه آنفاً، فإننا لا نزعم أننا قد قدمنا بهذه الدراسة تفسيراً لنص هذه الوصية جملة بعد أخرى، فثمة مفردات لأسباب متعددة لم تدخل في عملية التفسير الموضوعي، ويحتل في ذلك أننا لم ندرك بعد أهمية هذه الجملة أو تلك الكلمة من نص الوصية في تفسير بعض عناصر الموضوع الموحد الذي ندرسه، أو أننا أهملنا - لقصور في قدرتنا - لاسيما إذا كانت الألفاظ تتماثل في معانيها وإن كان غالب الجمل المكونة للتركيب اللفظية قد استفدنا منها في صياغة نظرة تربوية وإرشادية تساهم في تكوين وبناء نسق للشخصية العبادية المراد إعدادها في المحتوى اللفظي والمعرفي للوصية المباركة التي ندرسها يبحث أحد مواضيعها.

ولا نستبعد أن دراستنا الموضوعية لم تجد في بعض الأحيان حاجة إلى استثمار بعض الجمل والعبارات لعدم صلتها بموضوع البحث باجتهادنا الشخصي القاصر عن مقاصد الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) في صياغة نصه التربوي والإرشادي بهذه الوصية الكريمة التي نعدّها وثيقة إنسانية في مجال تربية الإنسان وإعداده العلمي وتهذيبه الروحي والأخلاقي.

ومن هنا فما تزال الوصية - وكما نعتقد بجزم - هي في نظرنا فرصة علمية لدراسة محتواها المعرفي كمشروع تربوي وفكري، واتخاذ مادة معرفية للدراسة والبحث المتجدد، ولا تحتاج إلا لجهود مستمرة من أهل العلم والبصيرة، وإلى مزيد من القراءة

المتأنية، والتأمل الذهني في بعض مفرداتها اللفظية وجملها، وأن يتاح لهذه الوصية أن تأخذ من جهود الباحثين والعلماء مجالاتها الممكنة، والمساحات المأمولة من الاهتمام العلمي، وتجدد الكتابات التربوية، وغير التربوية بتنوعها المعرفي طريقها إليها ومنها.

ومما لا شك فيه أن الخيوط الأولى التي نسجنا منها جوانب أساسية من النظرية الإرشادية في الوصية الباقرية كانت مستمدة من نصوصها، ومع ذلك لم نستطع الاستغناء تماماً عن تعزيز الأفكار الإرشادية للوصية بنصوص من الإمام الباقر (ع) نفسه، ومن خارج هذه الوصية، وبالرغم من أن حجم هذا التعزيز كان محدوداً، بيد أنه ساعد في النهاية على إثراء الأفكار الإرشادية المأخوذة من نص وصية أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (ع)، وهذا -كما نعتقد- يساعد على تقوية الخيوط الأساسية للنظرية الإرشادية في وصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع) التي ندرسها، وإنّ مساحة هذا الفكر الإرشادي جوانب عديدة من حياتنا الإنسانية، والآدمية مثل جوانب إشباع الحاجات، وضبط السلوك الانفعالي، والسيطرة على ردود الأفعال الناتجة عن أفعال ذات طابع غير سوي، ومضادة لأهداف النشاط العبادي الإسلامي كالمعاصي والذنوب.

وبالإضافة إلى ذلك هناك تجارب فشل ممكنة، وواقعية في الجانب الروحي من حياة الإنسان المؤمن كفشله في التوبة، وتعرضه لبعض العثرات والانتكاسات، وظهور صراعات مرتبطة بتجربته في مجاهدة النفس وأنشطته لتعديل السلوك، وظهور مشكلات سلوكية بطابع مَرَضِي في بعض الأحيان، وقد ذكرتها الوصية بإشارات المتفرقة.

ونعتقد بأنّ وصية الإمام الباقر (ع) -وهي تتحدث بلغتها الإرشادية- قد كشفت عن خيوط نظرية إرشادية مهمة كإشارات إلى مبادئ إنائية ووقائية وعلاجية، كما استبطنت أساليب للعلاج الإرشادي، هي اليوم تقدمية، وبكل تأكيد فإن ذلك قد وفّر

بعض الأوضاع الإيجابية التي هيأت للأفراد للسيطرة الصحيحة على السلوك وبواعثه غير المنضبطة، ومنح الشخصية المؤمنة إمكانية ضبط سلوكها الانفعالي، وفرصة الإشباع السوي المقبول للحاجات بطرق عبادية صحيحة، بأفكار إرشادية سليمة مثل الفضائل والقيم الأخلاقية الإيجابية، والعقل وقدراته، وخبراته العلمية، وطرائق التفكير المتولدة عن عقولنا، والاستعانة بها كمصادر فاعلة في إنجاح التجارب الجهادية النفسية، ومساعدة الفرد المؤمن في مرحلتي (الوقاية وتعديل السلوك).

وما ذكرناه يمثل - كما نرى - جوانب مهمة من النظرية الإرشادية في خطاب الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، ونقصد هنا (وصيته التربوية - الإرشادية) لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي عليه السلام، وهي وصية أرسّت مع نصوص أخرى منسوبة للإمام الباقر عليه السلام مبنى هذه النظرية التربوية - الإرشادية، وكثيراً من قواعدها ومرتكزاتها الأساسية.

وعلى كل حال فالحدود الأصيلة لهذه النظرية في تراث الإمام الباقر وخطابه التربوي أوسع من حدودها المرسومة في هذه الوصية، فما تزال مرتكزات وقواعد هذه النظرية ماثلة في نصوص منسوبة للإمام الباقر عليه السلام بمصادر معتبرة عند الشيعة الإمامية، وعند غيرهم، لكننا اكتفينا بدراسة الوصية كنص لمسوغات سنذكرها لاحقاً في طي هذا الكتاب، وقد وضعنا أيدينا بحمد الله سبحانه، وباجتهادنا الذاتي على مقومات مهمة وبناءة، وثمة فرص لتطويرها عبر تجارب زمنية للإنسان، والوصول بها إلى مستوى أفضل، وأعمق، وأقوى، وأكثر تأصيلاً.

وتكونت دراستنا التي بين يديك من عدة فصول نعتقد أنّها مترابطة الكيان، وموحدة في موضوعاتها بنحو يجعلها مادة متماسكة للدراسة والبحث، وبموضوع مؤثر في تشكيل النظرية الإرشادية التي استنبطنا مادتها من التركيبة اللفظية لنص الوصية

الباقرية، ومحتواها المعرفي، وأتاحت لنا بعد قراءتها بناء نسق، وصياغة مادة معرفية أولية عن (نظرية إرشادية مؤثرة في بناء النموذج العبادي للشخصية الإيمانية)، وهو انموذج مرغوب فيه من منظور المشرع التربوي الإسلامي، ومجال تطبيقي لأفكاره التربوية والإرشادية والأخلاقية.

وأهم عناوين هذه الفصول ما يأتي:

١. الإمام أبو جعفر الباقر، شخصيته، حياته، ومكانته العلمية.
٢. مقدمات أولية في دراسة الوصية كوثيقة تربوية - إرشادية.
٣. العملية الإرشادية في محتوى نص الوصية الباقرية.
٤. السلوك الإنساني، مفهومه ومكوناته وعناصره، وخصائصه.
٥. الانفعالات النفسية، مفهومها وشروط حدوثها، وأنواعها.
٦. العوامل المؤثرة في السلوك الانفعالي.
٧. الحاجات والقيم الإرشادية في الوصية ودورها في تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي.
٨. مبادئ العملية الإرشادية وعلاقتها بتنظيم السلوك العبادي.
٩. المشكلات السلوكية والحالات المرضية في الوصية.
١٠. الأساليب الإرشادية - العلاجية في وصية الإمام الباقر (ع).



الحلقة الأولى

(الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام، شخصيته، حياته، ومكانته العلمية)

عُرِفَ أهل البيت عليهم السلام بين أهل الأرض والسماء، وعند العلماء والباحثين والمحققين وأهل العلم ببيت الطهر والعفة، والقيم الكريمة، وينظر لهم كـ «نُخْبَةٍ» ليس لها مثيل في التاريخ، وهم أهل بيت تألقوا بمعايير التمايز والقدرات المتعددة، وهم أهل بيت اقترنوا في تاريخهم، وكـ «عترة» نبويّة ومطهّرة بالثقل الأكبر كتاب الله عزّ وجل، القرآن الكريم، الذي يعتبر المصدر الأول للتشريع في حياة المسلمين منذ عهد النبوة والرسالة حتى يرث الله أرضه ومن عليها.

وظل أئمة أهل هذا البيت الكريم عليهم السلام يَعدّلون الثقل الأول في حياة المسلمين وتاريخهم وفق رواية حديث جدهم المصطفى نبي الرحمة، ورسول الله صلى الله عليه وآله في بشارته المباركة، وهو حديث متواتر، ومشهور، وشائع في حياة المسلمين، ومصادرهم، وتراثهم الروائي والروحي والفكري، فالنبي العربي المكرم سيّدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله قد أوصى جموع المسلمين بثقل الأئمة وعمودها الأساسيين (القرآن والعترة)، وبحفظها، واحترامها، والعمل بما ورد عنهما من تشريعات تنظيمية لحياة المسلمين.

تنوعت اتجاهات الكتابة الروائية والتاريخية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الاثني عشر بحسب اهتمامات العلماء والمؤرخين والرواة بحسب قدراتهم العلمية وتنوعها، وبحسب نظراتهم إلى هذا الإمام أو ذاك من زوايا روائية أو تاريخية أو معرفية أو أخلاقية أو غيرها، وتعودنا هذا التنوع في حياة الأئمة الاثني عشر وتوثيق تاريخهم، وإسهاماتهم المتعددة بأدوات ومناهج فكرية وروائية، وبمصنفات مختلفة تؤرخ لمواليدهم أو وفياتهم أو نتاجاتهم الثقافية، وأدوارهم العلمية والسياسية والاجتماعية، فبعض هؤلاء العلماء رحمهم الله كتب منذ قرون بعيدة عن «مواليد الأئمة» الشريفة كاحدى مناحي حياتهم الشريفة، ووضعوا عناوين دراساتهم في تعزيز هذا الاتجاه البحثي، ليطم اعتماده كأحد مصادر معرفة الناس بهم.

وكتب آخرون دراساتهم عن (وفياتهم)، واقتضت هذه الكتابات تحديد تواريخ ولادات الأئمة، واهتم آخرون من العلماء والرواة بإعداد أبحاث ودراسات عن الأئمة الاثني عشر من عترة النبي محمد بن عبد الله ﷺ، وحصرت بعض هذه الدراسات اهتمامها بتدوين وكتابة وتوثيق جوانب مضيئة من تراثهم الروائي والمعرفي، ونقصد التراث الروائي والمعرفي لأئمة أهل البيت عليهم السلام كمجموعة، ونجد ذلك - على سبيل المثال - في كتاب «تحف العقول عن آل الرسول» للعالم الجليل أبي محمد الحسن بن علي ابن الحسين بن شعبة الحراني عليه رضوان الله عز وجل، وجعل هذا الكتاب ومادته الثقافية أحد المصادر المهمة لهذا التراث القيم.

وكان ابن شعبة الحراني كعالم جليل، وهو من أعلام القرن الرابع الهجري، قد وزع بعض ما جمعه في كتابه «تحف العقول» من روايات، وخطب، وجمل طوال، وحكم قصار، وأدعية، ومقاطع شعر قصيرة، ومواقف سلوكية، بترتيب وتسلسل زمني لتواريخ الأئمة أنفسهم، وبدأ هذا العالم في حصر بعض جوانب هذا التراث الفكري، ومواده المعرفية، وترتيبه بدءاً من بعض ما تركه المصطفى النبي محمد بن عبد الله من تراث ثقافي وديني وإنساني، ومن أقواله المباركة ﷺ، ثم قام الثقة الجليل أبو محمد الحسن ابن علي بن الحسين بن شعبة الحراني رحمه الله عز وجل في تسلسل متتابع بحصر وتجميع وتدوين تراث الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام، وبعد ذلك تابع ابن شعبة في كتابه المذكور حصر روايات هذا البيت وتجميعها لسائر الأئمة العشرة باستثناء أقوال الإمام المهدي آخر سلسلة أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ويحتمل أن هذه الأقوال لم تتوافر لديه من مصادر معتبرة؛ وذلك لقرب زمانه من زمان الغيبة الكبرى للإمام المهدي، وصعوبة توافر بعض أقواله في تلك الفترة الحرجة.

ويكاد هذا النظام في حصر وعرض بعض الجوانب المضيئة من التراث الروائي

والمعرفي لأئمة آل البيت ينطبق على الكتابة الروائية والمعرفية لتراث الإمام محمد بن علي الباقر سلام الله والمؤمنين عليه، حيث رصد العالم الجليل ابن شعبة لتراث الإمام الباقر عليه السلام - كإمام خامس من أهل البيت - خمس عشرة صفحة، وجمع فيها بعض خطب أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر، ووصاياه، وإرشاداته الأخلاقية والمعرفية لأصحابه، وكذلك بعض كلامه كالمواعظ، والنصائح الفردية، وبعض مقاطع الشعر، والحكم والجمل القصار في مختلف المعاني والاتجاهات المعرفية، وتعادل في نسبتها الكمية حوالي (٤٠٪) من صفحات كتابه «تحف العقول»، وما جمع فيه من تراث روائي ومعرفي متنوع للنبي محمد وأهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم جميعاً.

ومما لا شك فيه أن تجربة العالم الجليل ابن شعبة عليه رحمة الله سبحانه وتعالى في عملية حصر وجمع وتدوين جوانب من تراث أهل البيت عليهم السلام ^(١) أفادت الباحثين والعلماء في فهم ومعرفة تراث النبي محمد والأئمة من أهل البيت النبوي الكرام على مدار قرون متتالية من الزمان، وهناك دراسات متعددة في مصادر مختلفة حظي فيها الإمام الباقر بنصيب كبير كـ «مسند الإمام الباقر عليه السلام» للشيخ عزيز الله العطاردي، ودراسات روائية وتحليلية متعددة عن حياته وشخصيته وتراثه العلمي كتبها علماء ومحققون وباحثون.

ومما لحظناه بالتأكيد أن دراسات العلماء والمحققين ومصنفاتهم سواء في كتب «المواليد»، أم في كتب «وفيات أهل البيت عليهم السلام» أم في «كتب الحديث والرواية» أم في إطار دراسات وكتب جمعت تراثهم الروائي والمعرفي أنها جميعاً أسهمت كمصادر معرفية هامة وأساسية في تكوين ثقافة الناس عن أهل البيت عليهم السلام عبر قرون طويلة ومتعاقبة، وخاصة تكوين رؤى العلماء والمحققين والباحثين في سيرة أئمة هذا البيت الطاهر.

إنَّ هذه الكتب التي صنفها بعض العلماء عبر قرون متعاقبة من الزمان عن مواليد

(١) ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، ص ٢٠٦ - ٢٢٠.

الأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام أو عن «وفياتهم» أو بتناول جانب من سيرتهم الذاتية هي في كتب الرجال والتراجم، وفي كتب الرواية، وهي -بكل تأكيد- مصادر ذات أهمية كبيرة في الكتابات المعاصرة عن كل الأئمة بما فيهم أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وحال قيمتها العلمية كحال الأهمية التاريخية والمعرفية التي كانت عليه الدراسات القديمة، حيث تركت بصماتها في تكوين ثقافتنا عن تاريخنا، ومعرفتنا بأهل البيت عليهم السلام في اتجاهات معرفية وتاريخية متعددة، وقد أسسنا هذه الدراسة المتواضعة كما سيرى القارئ الكريم عن أئمتنا الأطهار من دعائم هذا التراث الروائي، وركائز خزانته التاريخية الطويلة وجدلياتها التفاعلية والمتشابكة.

وبالتأكيد لم تبتعد هذه الدراسة الاجتهادية التي نكتبها عن سيدنا حفيد الرسول الأكرم، وباقر العلم، وهو الإمام الخامس الذي زهرت بنوره سماء الولاية في عالم المسلمين، واستخدمنا تراثه من روايات، ونصوص متفرقة، وجمل طوال، وحكم ومعاني قصار، وبعض ما جمعناه في هذه الدراسة من مقاطع شعر قصيرة هي في نهاية الأمر مأخوذة من مخزون هذا التراث الروائي والمعرفي الهائل والثمين، إذ لم نَسْتَغْنِ عن الرواية، والنص، وخطب الإمام الباقر عليه السلام، والجمل بأشكالها الطويلة والقصيرة في عملية بناء نسيج دراستنا التي بين يديك -عزيزي القارئ- فكل فصولها وحلقاتها موصول بما حفظه الله لنا، والعلماء والرواة المتقدمون على زماننا من تاريخ روائي ومعرفي وأدبي.

وبالرغم من ذلك فما يزال غالب الكتابات الروائية من زمن بعيد حتى أيامنا الحاضرة هي السائدة عن حياة الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام وغيره من الأئمة، وأقل منها بكثير كما هو ملحوظ كتابات تحليلية في هذا الموضوع أو في غيره، وهي بنحو عام لم تعط الإمام الباقر، ولا غيره من آبائه أو أحفاده من الأئمة حقه الذي هو جدير به والليق.

ولادته المباركة

ثمة شبه إجماع، واتفاق بين المؤرخين والرواة والعلماء، وفي دراساتهم القديمة والمعاصرة، ورواياتهم على تحديد يوم ولادته المباركة في العقد السادس من النصف الثاني للقرن الأول الهجري، وبزوغ إمامته في سماء الولاية وإن كانت آراؤهم لم تخلُ من اختلاف في تحديد تاريخ سنة وفاة أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام، وقد وجدنا في سياق تراث جمع من هؤلاء المؤرخين ورواياتهم تعدداً نسبياً في آرائهم حول تواريخ ولادة الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وكذلك تعددت آراؤهم حول وفاته كما سيأتي بيانه.

لقد شهدت المدينة المنورة في يوم الجمعة (غرة شهر رجب الأصب) عام (٥٧هـ) هذه الولادة الميمونة للإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام خامس أقطار الإمامة، والولاية الهاشمية على المسلمين، إذ انعقد اتفاق جمع من المؤرخين وعلماء الرواية على هذا اليوم كتاريخ لمولده الشريف عليه السلام من أبوين علويين وفاطمين، وهاشميين كما يقول الشيخ علي بن محمد بن أحمد بن الصبّاغ المالكي^(١) مصنّف كتاب «الفصول المهمة».

فالإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام كان أول مولود هاشمي، وقد اجتمع فيه نسل الحسين (الإمامين الحسن والحسين) ابني أمير المؤمنين عليه السلام أو أنه «أول علوي تولّد من نسل الحسين عليه السلام»^(٢)، ومنهما انحدر نسل الأئمة الثمانية من الإمام الخامس

(١) ابن الصبّاغ المالكي، الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، ص ٢٠٠.

(٢) البحراني، حسين بن محمد بن أحمد بن إبراهيم آل عصفور، مجموعة وفيات الأئمة، وفاة الإمام

الباقر حتى الإمام الثاني عشر المنتظر، وهو محمد بن الحسن العسكري (ع)، وكانت ولادتهم المباركة واقعة ما بين منتصف القرن الهجري الأول والنصف الثاني من القرن الهجري الثالث وبالتحديد الزمني ما بين أعوام (٥٧ - ٢٥٥) من التاريخ الهجري.

وقد أكدت بعض الدراسات التاريخية والروائية سواء كانت قديمة أم معاصرة اتفاقها على أن أبا جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (ع) وُلِدَ في السنة المذكورة من أبوين هاشميين، وانحدر سلالياً من أم عبد الله وهي العلوية السيدة فاطمة بنت الإمام الحسن ابن علي بن أبي طالب، ومن أب هاشمي وهو الإمام السجاد زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع).

وتعرفنا على أكثر من رأي في هذا الصدد، وستوقف الآن عند نماذج متفرقة تحدد تاريخ الولادة المباركة للإمام أبي جعفر.. محمد بن علي الباقر (ع)، وأهمها سيأتي بيانه روايتان موثقتان في مصادر مختلفة، وهي كما يأتي.

الرواية الأولى: اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ).

لم يقل اليعقوبي في تاريخه بتاريخ محدد لولادة الإمام الباقر مباشرة، ولكنه ذكر وفاة أبي جعفر محمد بن علي بقوله: «وتوفي أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأمّه أم عبد الله بنت الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١١٧ هـ»، ثم قال كذلك: «وسنّه ثمان وخمسون سنة»، وأردف اليعقوبي بروايته عن الإمام الباقر قائلاً: «قال أبو جعفر، ويقصد الإمام الباقر (ع): قُتِلَ جدي الحسين ولي أربع سنين، وإني لأذكر مقتله، وما نالنا في ذلك الوقت^(١)».

الباقر، ص ١٨٣.

(١) اليعقوبي، أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٤.

وإذا ما أسقطنا بصورة تقريبية «السنوات الأربع» من تاريخ استشهاد الإمام السبط الحسين بن علي عليه السلام في فاجعة كربلاء الاستشهادية سنة (٦١هـ) يكون تاريخ مولده سنة (٥٧هـ)، فالإمام الباقر - بحسب رواية يعقوبي - كان موجوداً ضمن أبناء الحسين والبيت الهاشمي في كربلاء، وله من العمر كما نقل يعقوبي سنوات أربع، وهي فترة تقديرية لا تعادل أيام هذه السنوات الأربع بدقة تامة وفقاً للرواية المذكورة، وأنه عليه السلام شهد هذه الواقعة الدامية بنص شهادة الإمام الباقر - كما نقل يعقوبي - في تاريخه حينما قال ما لفظه: «قُتِل جدي الحسين ولي أربع سنين، وإني لأذكر مقتله، وما نالنا في ذلك الوقت» من محن الجيش الأموي ومآسيه، ومظالم جنوده القساة التي امتلأت بها صفحات مصادر تاريخية كثيرة.

الرواية الثانية: رواية الطبري في دلائل الإمامة.

وهو من أعلام القرن الرابع الهجري

حيث قال الطبري في «دلائل الإمامة» نقلاً عن قول لأبي محمد الحسن بن علي الثاني ما لفظه: «ولد أبو جعفر محمد الباقر بالمدينة يوم الجمعة غرة رجب سنة سبع وخمسين من الهجرة قبل قتل الحسين عليه السلام بثلاث سنين فأقام مع جده الحسين ثلاث سنين، ومع أبيه أربعاً وثلاثين سنة، وعشرة أشهر، وعاش بعد أبيه أيام إمامته بقية ملك الوليد، وملك سليمان بن عبد الملك وملك عمر بن عبد العزيز، وملك يزيد بن عبد الملك، وملك هشام بن عبد الملك، وملك الوليد بن يزيد، وملك إبراهيم بن الوليد»^(١)، وأمه «فاطمة بنت الحسن، ويروى بنت علي، ويروى بنت الحسن بن الحسن، وقيل أم عبد الله، وهي أول علوية ولدت علويًا»^(٢).

(١) الطبري، محمد بن جرير بن رستم، دلائل الإمامة ص ٩٤.

(٢) الطبري، مصدر سابق، ص ٩٥.

الرواية الثالثة: قول أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٢هـ).

العلامة المحقق أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي^(١)، عالم فاضل، ومحدث، وهو من أعلام القرن السابع الهجري، حيث قال في ذكر ولادة الإمام الخامس أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر^(٢) بما لفظه: «فأمّا ولادته^(٣) فبالمدينة في ثالث صفر سنة سبع وخمسين للهجرة قبل قتل جده الحسين بثلاث سنين»^(٤)، ثم قال: «وقيل غير ذلك»^(٥) دون تفصيل، فهذا العالم خرج عن قول كثير من المؤرخين القائلين بتاريخ الولادة في غرة رجب عام ٥٧هـ، وحدد تاريخاً آخر هو يوم (الثالث من شهر صفر) من السنة ذاتها، لكنه قال: «وقيل غير ذلك» في إشارة إلى تعدد الأقوال في تحديد سنة الولادة الميمونة لأبي جعفر محمد بن علي زين العابدين^(٦)، وبعد ذلك وزّع الشيخ الأربلي في عبارات أخرى متفرقة عمر الإمام الباقر وسنوات حياته على النحو التالي:

١. ثلاث سنوات من عمره الشريف عاشها^(٧) في أيام جده الإمام الحسين شهيد كربلاء لقوله: «فأمّا ولادته^(٨) فبالمدينة في ثالث صفر سنة سبع وخمسين للهجرة قبل قتل جده الحسين بثلاث سنين».

٢. ولم يحدد بدقة مقدار السنوات التي عاشها مع أبيه زين العابدين، واستخدم لفظ «بضع» للإشارة إلى سنوات تتراوح بين سبع وعشر، وعبر عن هذا التحديد في عبارته التالية عن عمر الإمام أبي جعفر الباقر: «أقام مع أبيه زين العابدين^(٩) بضعا^(١٠) وثلاثين سنة من عمره، وقبره بالمدينة.. بالبقيع، بالقبر الذي فيه أبوه، وعم

(١) أربيل، أو (أربل) مدينة قديمة في شمال العراق.

(٢) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٣) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، مصدر سابق، ص ٣٢٩.

(٤) لا تختلف لفظة (بضع) عن سائر الالفاظ العربية، حيث تتعدد معانيها في معاجم اللغة، ولكن

أحد معانيها (بكسر حرف الباء) يدخل في حكم العدد المفرد، مثل قولنا بضعة رجال، بضع سنين،

أبيه الحسن بالقبة التي فيها العباس رضي الله عنه^(١)، وهذه القبة التاريخية التي ذكرها الأربلي في نصه، وهو يعيش سنوات القرن السابع الهجري ليست موجودة الآن بعد هدم قبور أئمة البقيع عليهم السلام^(٢) الأربعة بعد أن كانت مبنية لعدة قرون.

٣. وسكت الأربلي عليه رحمة الله عن عدد سنوات إمامته في عبارته السابقة بعد ممات أبيه زين العابدين عليه السلام، ولكنها فترة تراوحت بوجه عام بين تسع عشرة^(٣) أو عشرين سنة بعد وفاة أبيه زين العابدين عليه السلام.

ثم نقل أبو الحسن الشيخ علي بن عيسى الأربلي بعد ذلك عبارته التي تقول: «وأمّا نسبه أباً وأمّاً فأبوه زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأمّه فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب وتدعى أم الحسن، وقيل أم عبد الله، وأمّاً اسمه فمحمّد، وكنيته أبو جعفر لا غير، وله ثلاثة ألقاب (باقر العلم، والشاكر والهادي)، وأشهرها الباقر، وسُمّي بذلك لتبقره العلم، وهو توسعه فيه»^(٤).

وتتراوح ما بين الثلاث والتسع في العدد، فإذا تجاوز العدد العشرة ذهب البضع، انظر معجم (مختار الصحاح)، وغيره، والاعلم أن هذا البضع هو (أربع وثلاثون سنة أو خمس وثلاثون) عاش مع إمامة أبيه زين العابدين عليه السلام.

(١) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، مصدر سابق، ص ٣٣١ - ٣٣٢.
(٢) تعددت الأقوال في تحديد تاريخ هدم هذه القبور، فمن قائل إنها في الثامن من شهر شوال عام ١٤٣٤ هـ، وقائل أن ذلك الهدم وقع عام ١٣٤٤ هـ، وذكر غيرهم سنة ١٣٤٥ هـ، ويقال أن هذه القبور هدمت مرتين، كان في المرة الأولى عام ١٢٢٠ هـ، والمرة الثانية في سنوات (١٣٤٣ هـ) أو السنوات القريبة منها باختلاف تواريخ القائلين.

(٣) ابن الصباغ، علي بن محمد، مصدر سابق، ص ٢٠٩.

(٤) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

الرواية الرابعة: قول ابن الصَّبَّاح المالكي (ت ٨٥٥هـ).

أمَّا ابن الصَّبَّاح رحمه الله عليه فأيد رأي المحقق العلامة الأربلي، وحدد في نصه التاريخي نفس التاريخ السابق لولادة الإمام الباقر (ع)، وهو يوم الثالث من شهر صفر عام (٥٧هـ)، وعبارته واضحة في هذا التحديد الزمني.

يقول الشيخ علي بن محمد بن أحمد بن الصَّبَّاح المالكي في «فصوله المهمة»:

«وُلِدَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْمَدِينَةِ»، وحدد تاريخ الولادة بقوله: «في ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة قبل قتل جده الحسين (ع) بثلاث سنين»^(١) «من الهجرة النبوية الشريفة»^(٢)، و«أمَّا نسبه أبا وأمَّا فأبوه زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، وهو هاشمي من هاشميين، علوي من علويين، وأمَّا كنيته فأبو جعفر لا غير، وله ثلاثة ألقاب (الباقر والشافر والهادي، أشهرها الباقر)، ولقب بذلك لـ «بقره العلم وهو تفجره وتوسعه»^(٣) في العلم والمعرفة.

والرواية الخامسة: مع ابن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣هـ).

هو العالم والمؤرخ الجليل، وهو من علماء القرن العاشر الهجري، وربما أدرك القرن

(١) إذا ما حسبنا تاريخ حياة الإمام الباقر من تاريخ ولادته بحسب ما نقله ابن الصَّبَّاح وهو الثالث من شهر صفر عام ٥٧هـ فإننا نجد عمره (ع) هو بالفعل أربع سنوات إلّا شهرا واحداً، وأمّا إذا أخذنا برأي الأغلبية من المؤرخين القائلين بتاريخ مولده في غرة شهر رجب سنة ٥٧هـ فيكون عمره ثلاث سنوات ونصف لحظة وقوع موقعة كربلاء التاريخية في العاشر من شهر محرم بالعام الحادي والستين الهجري.

(٢) يلحظ ان ابن الصَّبَّاح قد حسب الفارق بين عامي (٥٧) و (٦٠)، وأهل أيام وأشهر سنة (٥٧)، فهذا العالم لم يحسب الأشهر العشرة من العام السابع والخمسين، والعشرة أيام الأولى من شهر محرم سنة ٦١ هـ، واكتفى بعد سنوات (٥٨ - ٥٩ - ٦٠) فقط.

(٣) ابن الصَّبَّاح المالكي، علي بن محمد بن أحمد، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

التاسع الهجري، وكتب عن تاريخ الأئمة الاثني عشر عليهم السلام كتاباً، ويعرف هذا المصنّف باسم «الشذرات الذهبية»، ونشر هذا العالم كتابه بعنوان «الأئمة الاثنا عشر»، وتحدث فيه ابن طولون رحمه الله عن الأئمة بإيجاز، وبمساحة متفاوتة من الحديث عن سيرتهم، وذكر ابن طولون فيه خامسهم الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام بلغة مباشرة.

قال في مدخل كلامه عن أبي جعفر محمد بن علي الإمام الباقر عليه السلام:

«وخامسهم ابنه محمد، وهو أبو جعفر بن محمد بن علي بن زين العابدين بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، الملقب بالباقر، وهو والد جعفر الصادق رضي الله عنهما».

ثم قال عنه: «وكان الباقر عالماً سيّداً كبيراً، وإنّما قيل له الباقر لأنّه تبّقر في العلم، أي توسّع، والتبقر التوسع، وفيه يقول الشاعر:

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من سما على الأجبُل^(١)

وذكر ابن طولون الدمشقي مولد الإمام الباقر فقال ما لفظه:

«ومولده يوم الثلاثاء سنة سبع وخمسين من الهجرة، وكان عمره يوم قُتل جدّه الحسين رضي الله عنهما ثلاث سنين»^(٢)، وذكر أمّه الطاهرة بقوله: «وأمّه أم عبد الله بنت الحسن بن الحسن بن علي، رضي الله عنهم»^(٣).

(١) ابن طولون، محمد، الأئمة الاثنا عشر (أو الشذرات الذهبية)، ص ٨١.

(٢) ابن طولون، محمد، مصدر سابق، ص ٨١.

(٣) ابن طولون، محمد، مصدر سابق، ص ٨١.

الرواية السادسة: الشيخ حسين العلامة البحراني (ت ١٢١٦هـ).

المشهور أن الشيخ حسين بن محمد بن أحمد بن آل عصفور الدرازي البحراني مرجع ديني، وهو المسمّى في البحرين وإقليم البحرين شرق الجزيرة العربية بـ«العلامة»، واشتهر عليه رحمة ربه بكتابة مصنفات عن مواليد، و«وفيات الأئمة وأهل البيت» وتواريخ حياتهم، ومنها ما كتبه عن وفاة الإمام محمد الباقر عليه السلام، حيث قال «الشيخ حسين العلامة» في الصفحات الأولى من هذا الكتاب عن ولادته الطاهرة بما لفظه: «وُلِدَ يوم الجمعة غُرة رجب سنة سبع وخمسين كما في كتاب مصباح الشيخ رحمه الله برواية جابر الجعفي، وروي أنّه اليوم الثالث من شهر ذي الحجة، وعليه الأكثر واسمه محمد، وكنيته أبو جعفر عليه السلام، ولقبه «باقر العلم»، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي عليه السلام، وهو أول علوي تولّد من الحسين عليه السلام»^(١).

ثم نقل العلامة البحراني عن كتاب المناقب قوله: «أن الباقر عليه السلام هاشمي من هاشميين، وعلوي من علويين، فاطمي من فاطميين؛ لأنه أول من اجتمعت له ولادة الحسن والحسين عليه السلام، وكانت أمه أصدق الناس لهجة، وأحسنهم بهجة، وأبدلهم مهجة»^(٢)، فالعلامة البحراني حدد بوضوح تام «غرة شهر رجب الأصب من سنة ٥٧هـ» تاريخ ولادة الإمام الباقر عليه السلام، وهي رواية شائعة ومنتشرة في مصادر الإمامية وأديباتهم، ونقل كذلك في رواية ثانية يوم الثالث من شهر ذي الحجة من السنة ذاتها تاريخاً لهذه الولادة المباركة.

(١) كتاب الوفيات، وفاة الإمام الباقر، ج ٢، جمع من العلماء، ص ١٨٣.

(٢) كتاب الوفيات، وفاة الإمام الباقر (مصدر سابق)، ص ١٨٣.

تسميته المشهورة بالباقر

وكان عليه السلام: «يسمى أبا جعفر الباقر لأنه بَقَرَ العلم»^(١).

واشتهر بهذا اللقب العلمي، وهي تسمية نبوية كريمة وشائعة في مصادر روائية وتاريخية عديدة، وغالبها تشير إلى رواية نبوية شائعة في المصادر التاريخية، وقد نقلها الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري عليه الرضوان، كما أسندت بعض المعاجم اللغوية ما استبطنته هذه الرواية النبوية الكريمة، وقد أشار سبط بن الجوزي لمعنى البقر لغوياً واصطلاحاً.

البَقْرُ بمعناه اللغوي.

كما سنلاحظ أن بعض الروايات الشريفة فسرت معنى (تبقر العلم والتبحر فيه والتوسع) كما في كلام ابن الجوزي، والعلامة الشيخ حسين بن محمد البحراني صاحب السداد، وكذلك في بعض المصادر الروائية - التاريخية الأخرى، ولكن هذا لا يمنعنا من الاستفادة من بعض معاجم اللغة العربية لتعزيز معناه، ويمكننا الآن الوقوف - على سبيل المثال لا الحصر - عند معنى «بَقَرَ العلم» في هذه المعاجم كمصادر لغوية، وهم جميعاً يفسرون معنى «التبقر» بمعنى التوسع في العلم والتبحر به بذكر الإمام الباقر مباشرة، وتلك في اعتقادنا شهادات منهم على الاعتراف بمكانته اللائقة.

ولحظنا أن بعض المؤرخين قد استعانوا بالتفسير اللغوي مثل سبط بن الجوزي

(١) اليعقوبي، أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٤.

الذي ركز كذلك على توضيح الدلالة اللغوية لهذا الاسم أو «لقب الباقر» بالاستعانة بكلام اللغوي الجوهري صاحب «معجم الصحاح» فقال ابن الجوزي رحمه الله: «التبقر، التوسع في العلم، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام الباقر.. لتبقره في العلم، ويسمى الشاكر والهادي»^(١)، ومن أقوالهم كما ذكرنا ما قال ابن طولون في معنى التبقر بمعنى التوسع في العلم: «وكان الباقر عالماً سيّداً كبيراً، وإنّما قيل له الباقر لأنّه تَبَقَّرَ في العالم، أي توسَّع، والتبقر التوسع»^(٢) وقول ابن الصبّاغ: «ولقب بذلك.. أي الإمام الباقر.. لبقره العلم وهو تفجره وتوسعه»^(٣).

وهكذا تشابكت تفسيرات علماء المسلمين لمفردة «التبقر» بمطابقة معنيها اللغوي والاصطلاحي، وتطبق الأقوال والأوصاف وحقائق الأمور، وقد اخترنا لشرح معنى هذا اللفظ نماذج من الشروحات القصيرة بنحو لا تتجاوز أربعة معاجم لغوية غالبها قديمة نسبياً.

١. قال اللغوي المعروف محمد بن أبي بكر بن عبد القادر في مختار الصحاح: «التبقر، التوسع في العلم، ومنه محمد (الباقر) لتبقره في العلم»^(٤).

٢. وقيل في المعجم اللغوي (المعجم الوسيط): «بقر البطن بقرّاً (انشق)، وقال: انبقر: تشقق، وفي الكلام توسع فيه وأفاض، وفي العلم والمال، توسع وأكثر، والباقر: المتوسع في العلم، وبه سمي أبو جعفر محمد بن علي زين العابدين بن الحسين الباقر»^(٥).

(١) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣٠٢.

(٢) ابن طولون، محمد، الأئمة الاثنا عشر (أو الشذرات الذهبية)، ص ٨١.

(٣) ابن الصبّاغ المالكي، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

(٤) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، باب حرف الباء، مفردة (بقر) ص ٢٤.

(٥) المعجم الوسيط، باب حرف الباء، مفردة بقر، ص ٦٥.

٣. وفي لسان العرب للغوي المشهور ابن منظور حدد معنى (التبقر) بـ «التوسع في العلم والمال»، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي.. الباقر «رضوان الله عليهم لأنه بقر العلم، وعرف أصله، واستنبط فرعه، وتبقر في العلم، وأصل البقر: الشق والفتح، والتوسعة، بقرت الشيء بقرًا، فتحتة، ووسعته»^(١).

٤. أمّا معجم «الصحيح تاج اللغة وصحاح العربية» فيحدد التبقر بالمعنى اللغوي والاصطلاحي ذاته، يقول الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد: «بقرت الشيء بقرًا، فتحتة ووسعته، ومنه قولهم: أبقرها عن جنينها، أي شق بطنها عن ولدها، ثم قال الجوهري: «والتبقر: التوسع في العلم والمال، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (الباقر)، لتبقره في العلم»^(٢).

البقر بمعناه الاصطلاحي.

ويراد به معناه المتداول في نصوص الحديث النبوي ورواياته، فكما جاء في رواية الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضوان الله عليه في مصادر عديدة، أنه نقل جمع من الرواة والمؤرخين كاليعقوبي، وسبط بن الجوزي والأربلي، وابن الصبّاغ، وابن خياط، وغيرهم هذه الرواية النبوية المتواترة التي تسميه بهذا اللقب على لسان جده المصطفى رسول الله محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله قبل أن يولد الإمام الباقر عليه السلام في الحياة الدنيا بأكثر من أربعة عقود ونصف من سنين النصف الأول في القرن الهجري الأول.

لقد ذكر العلامة سبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) معنيين متداخلين لهذه التسمية،

(١) ابن منظور، لسان العرب، حرف الباء، ج ٤، ص ٣٢٤.

(٢) الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحيح تاج اللغة، وصحاح العربية، باب حرف الباء،

وحدد معناه اللغوي وما اصطلاح عليه في أدبيات العلماء، فقال عليه الرحمة في وصف أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (ع)، ووصف تبقره: «هو أبو جعفر محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأمّه أم عبد الله بنت الحسن بن حسن بن علي (ع)، وإنّما سمي الباقر من كثرة سجوده، بقر السجود جبهته، أي فتحها ووسّعها، وقيل لغزارة علمه»^(١).

وتابع سبط بن الجوزي توضيح الدلالة اللغوية لهذا الاسم أو «لقب الباقر» بالاستعانة بكلام اللغوي الجوهري صاحب «معجم الصحاح» فقال ابن الجوزي رحمه الله: «التبقر، التوسع في العلم، قال: وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) الباقر.. لتبقره في العلم، ويسمى الشاكر والهادي»^(٢).

وقد لاحظنا في نص اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) السابق انه يذكر ذلك في تاريخه، وأنّه، ويقصد سيدنا الإمام أبا جعفر محمد بن علي الباقر (ع)، يسمّى «الباقر» كصفة بارزة في شخصيته العبادية والعلمية، وقد جاء في تاريخه - كما تقدم القول - ما يوحي بذلك باللفظ الصريح، حيث قال: «وكان يسمّى أبا جعفر الباقر لأنّه بقر العلم»^(٣).

ونقلت مصادر تاريخية الرواية التالية عن لسان الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري بقوله:

«قال لي رسول الله: «إنّك تستقبّي حتى ترى رجلاً من ولدي أشبه الناس بي اسمه على اسمي، إذا رأيته لم يُخلّ عليك، فاقترئه السلام»، فلمّا كبرت سن جابر، وخاف الموت، جعل يقول: يا باقر! يا باقر!، أين أنت؟ حتى رآه فوقه عليه يقبّل يديه، ورجليه، ويقول:

(١) ابن الجوزي، سبط، تذكرة الخواص، ص ٣٠٢.

(٢) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣٠٢.

(٣) اليعقوبي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٢٤.

«بأبي وأمي شبيه رسول الله! إِنَّ أباك يقرئك السلام»^(١).

ونقل ابن الجوزي الحفيد عن المدائني قوله رحمه الله^(٢):

«عن جابر بن عبد الله أنه أتى أبا جعفر محمد بن علي إلى الكتاب وهو صغير، فقال له: رسول الله يسلم عليك، فقيل لجابر، وكيف هذا؟ فقال كنت جالساً عند رسول الله والحسين في حجره، وهو يداعبه، فقال يا جابر يولد مولود اسمه علي إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقيم سيد العابدين، فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمد، فإن أدركته يا جابر فاقرئه منِّي السلام»^(٣).

وتناول الإمام الشيخ علي بن محمد بن أحمد المالكي المعروف بابن الصبَّاح في كتابه «الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة» تاريخاً موجزاً من سيرة الإمام أبي جعفر محمد ابن علي بن الحسين فقال عنه هو «الإمام الخامس» انسجاماً مع الترتيب والتسلسل الزمني في ذكر أسماء الأئمة الاثني عشر من أهل بيت النبي الطاهرين عليهم السلام.

ونقل ابن الصبَّاح كلام العلماء بها لفظه:

«قال بعض أهل العلم: محمد بن علي بن الحسين الباقر، وهو باقر العلم وجامعه وشاهره، ورافعه ومتفوق درره وراصعه، صفا قلبه، وزكا عمله، وطهرت نفسه وشرفت أخلاقه، وعمرت بطاعة الله تعالى، ورسخ في مقام التقوى قدمه وميثاقه»،

(١) اليعقوبي، أحمد بن واضح، مصدر سابق، ج ٢، باب وفاة الباقر، ص ٢٢٤.

(٢) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣٠٣.

(٣) أشار لهذه الرواية وأمثالها في المضمون مصادر عديدة مثل كتاب «مطالب السؤل» عن طريق الزبير ص ٨١، وكذلك ابن الأثير في المختار من مناقب الأخبار ص ٣٠، مصورة عن مخطوطة الظاهرية، وراجع لسان الميزان، ج ٥، ص ١٩٨، وكتاب «كفاية الطالب» ص ٢٩٩، والصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٩٩، ومشارك الأنوار ص ٢١، والفصول المهمة ص ١٩٧، وينايع المودة ص ٣٣٣، والكواكب الدرية للمناوي، مجلد ١، ص ١٦٤، ونور الأنصار للشبلنجي ص ١٩٢.

وهذه العبارة دَوَّنَهَا ابن الصَّبَّاح عن عبارة المحقق الأربلي في «كشف الغمَّة في معرفة الأئمة»^(١) وغيره باختلاف يسير.

وعزَّز ابن الصَّبَّاح قوله بيت من الشعر عن القرطبي بقوله:

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لبَّى على الأَجْبَل^(٢)
وقال ابن الصَّبَّاح المالكي رحمه الله: «وَأَمَّا كُنْيَتُهُ فَأَبُو جَعْفَرٍ لَاغِيرٍ، وَلَهُ ثَلَاثَةُ أَلْقَابٍ (الباقر والشافر والمهادي، والأشهر الباقر)، وَلَقِبَ بِذَلِكَ لِبَقَرِهِ الْعِلْمَ وَهُوَ تَفْجَرُهُ وَتَوْسَعُهُ»^(٣).

ونلاحظ أن ابن الصَّبَّاح عزز معنى «بَقَرُ الْعِلْمِ» بالتفجر والتوسع من جهة، وأن ذلك سبب تسميته بهذه الكنية أو اشتهاره بهذا اللقب.

وروى بعد ذلك رواية جابر بن عبد الله الأنصاري بالنص التالي فقال:

«قال رسول الله ﷺ: يا جابر يوشك أن تلتحق بولد لي من ولد الحسين ﷺ، اسمه كاسمي، يبقّر العلم بقرّاً (أي يفجره تفجيراً)، فإذا رأيته فأقرأه عني السلام، قال جابر رضي الله عنه فأخّر الله تعالى مُدَّتِي (أي حياته) حتى رأيت الباقر ﷺ، فأقرأته السلام من جده رسول الله ﷺ»^(٤).

وهكذا نجد بعد تتبع معنى «بقر العلم» في معناه اللغوي، ومعناه الاصطلاحي الوارد في الروايات المذكورة في المصادر التاريخية، تطابق المعنيين، والتقاءهما في التعبير

(١) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، مصدر سابق، ص ٣٢٩.

(٢) ابن الصَّبَّاح المالكي، الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، الفصل الخامس، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) ابن الصَّبَّاح المالكي، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

(٤) ابن الصَّبَّاح المالكي، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

الموحد عن تفجّر علم الإمام الباقر وتوسعه وتفتح قدراته العلمية بين الناس.

وروى جابر بن يزيد الجعفي رحمه الله - كما في العلل - لما سأله عمر بن شمر: لم سمي الباقر باقراً؟ فقال: لأنّه بقر العلم بقرّاً، أي شقّه وأظهره إظهاراً.

ولقد حدثني جابر بن عبد الله الأنصاري (رضوان الله عليه) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«يا جابر إنك ستبقى حتى تلقى ولدي محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) المعروف بالباقر، فإذا لقيته فاقرئه مني السلام، فلقية جابر بن عبد الله الأنصاري في بعض سكك المدينة، فقال: يا غلام من أنت؟ فقال: أنا محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فقال له جابر: يا بني أقبل، فاقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال (رضوان الله عليه): شمائل رسول الله ﷺ ورب الكعبة، ثم قال: يا بني إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، فقال (عليه السلام): على رسول الله ﷺ السلام، فقال له جابر: يا باقر، يا باقر، أنت الباقر، أنت الذي تبقر العلم»^(١).

ثم كان يأتي إليه فيجلس بين يديه فيعلمه، وربّما غلط جابر فيما يحدث به عن رسول الله ﷺ فيرد عليه الباقر (عليه السلام)، ويذكره فيقبل ذلك منه، ويرجع إلى قوله، وكان يقول: «يا باقر، يا باقر، أشهد أنك أتيت الحكم صبياً»^(٢).

تلك رواية واحدة تتماثل مع عدد كبير من الروايات التي تشير إلى موضوع «التبقر في العلم»، وبلوغ الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري وامتداد عمره المبارك إلى زمن ولادة محمد بن علي الباقر (عليه السلام) بعد نصف قرن تقريباً، وإبلاغ جابر للباقر (عليه السلام)

(١) آل عصفور البحراني، حسين بن محمد بن أحمد، مجموعة وفيات الأئمة، وفاة الإمام الباقر، ص ١٨٤.

(٢) آل عصفور، حسين بن محمد بن أحمد، مصدر سابق، ص ١٨٤.

بأن جده محمد المصطفى يُقرئه السَّلام، وتعززت علاقة جابر بالإمام الباقر فيما بعد عن طريق حضور مجالس العلم بين يديه، وأخذ الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري «يتعلَّم منه»^(١).

(١) آل عصفور، حسين بن محمد بن أحمد، مصدر سابق، ص ١٨٥.

منزلته ومكانته العلمية بين المسلمين

تنبأ أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام مكانته الاجتماعية والتربوية، ومنزلته العلمية المتميزة في زمن حكم فيه الأمويون مجتمع المسلمين بقسوة شديدة وانحراف بعيداً عن قيم الإسلام وتعاليمه، ووضعت هذه المكانة حضوراً فاعلاً للإمام الباقر في تاريخ هذه الأمة منذ عصر النبوة والرسالة، وقد ارتكزت مكانته على ثلاثة جوانب أساسية جعلت شخصية أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام تنبأ هذه المكانة، وهي كما يأتي:

١. البشارة النبوية لجابر الانصاري والمسلمين بولادة حفيده «باقر العلوم»، وتحديد مكانته اللائقة.

٢. نمو القدرات الذاتية للإمام محمد بن علي الباقر في بيئة توجيه رشيد من أبيه وارتكازها على العبادة والتبحر في العلم والتوسع فيه، والسمو الروحي، ونشر العلوم الإسلامية، ومقاومة الانحراف المعادي للإسلام.

٣. وصف علماء المسلمين من مذاهب شتى وتصريحاتهم الصادقة بمكانة الإمام الباقر محمد بن علي بن الحسين، وعظمة شخصيته العلمية.

أولاً: البشارة النبوية بولادة الباقر ومستقبل مكانته.

أشارت مجموعة مصادر روائية وتاريخية إلى البشارة النبوية بشأن الوجود المستقبلي

لولادة الإمام محمد بن علي الباقر، وبروز شخصيته وتألقها في مجتمع المسلمين، وتمتد جذور هذه المكانة في جذورها التاريخية الأولى لبشارة مؤكدة ذكرتها روايات باختلاف يسير عن جابر بن عبد الله الأنصاري توصيه بنقل سلام رسول الله ﷺ إلى حفيده محمد الباقر متى التقى به بعد حوالي نصف قرن من الزمان، فهذه البشارة تضمنت تأكيداً نبوياً لصاحبه جابر الأنصاري بامتداد عمره بعده لأكثر من خمسين سنة، وكذلك بولادة حفيده أبي جعفر الإمام الباقر، واللقاء بينهما في أرض المدينة، وإبلاغ جابر للإمام الباقر على لسان النبي بأنه يقرر العلم بقرأ، وكما ذكرت بشارة النبي محمد ﷺ، وهي تعني تبخره في العلم والمعرفة، وأنه يقرئه السلام.

وتفيد المصادر الروائية والتاريخية بتحقيق هذه البشارة في حركة الزمان، وبعد مضي حوالي خمسين عاماً من وفاة النبي ﷺ، فالرسول العربي الكريم محمد بن عبد الله ﷺ أخبر صاحبه المحب جابر بن عبد الله الأنصاري بأنه سيعيش مدة من الزمن يلتقي فيها في المدينة مع حفيد له يولد بعد حوالي (٤٦) سنة واسمه محمد ويعرف بـ(باقر العلوم).. أي: أبو جعفر محمد بن علي الباقر خامس أئمة أهل البيت (عليه السلام).

وطلب منه حينما يلتقي مع حفيده الباقر، ويراه وجهاً لوجه بأن يقرئه السلام، ويبلغه بميزة تبخره في العلم وتبخره وتوسعه في المعرفة وعلوم الإسلام ونشره، وقد تحقق هذا اللقاء بعد الولادة، وبعد مرور أكثر من خمسين سنة من عمر هذه البشارة النبوية، وتحديث المصادر عن اهتمام شديد وملفت من النبي ﷺ، ووصفه بـ«باقر العلم»، وتكليف صاحبه جابر بالسلام على حفيده الباقر وتأكيد ميزة في شخصيته، وهي ميزة تبخره في العلم التي ارتكزت عليها مكانته.

وقد بدأت خيوط هذه المكانة في التشكل والتكون لدى العلماء والمحققين والباحثين من صدور هذه البشارة النبوية الصادقة والمؤكدة، ومن الاهتمام النبوي المبكر بولادة

الباقر عليه السلام، وتعاظم شأن شخصيته وسموها العلمي والروحي في طي الزمان وحركته المتتابعة، وتبقره في العلم وتبحره، وتفسحه في معارف الإسلام وعلومه.

لم يكن تكليف جابر رضوان الله عليه بإقراء أبي جعفر الباقر سلام جده المصطفى عليه السلام مجرد عاطفة خاصة بين جد وحفيد، بل هو في منظور العارفين بحقائق الزمان عملية استشراف لمستقبل زاهر لدين الله، ول مستقبل زاهر يحتل فيه أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام مكانته اللاتقة بين المسلمين، وبين سائر أتباع المذاهب والعقائد الدينية الأخرى، وهو أمر مرتبط بالإبلاغ النبوي الدقيق، ومطابقة البشارة النبوية مع حقائق المستقبل من تاريخ مبكر متصل بما قبل وفاة النبي محمد بن عبد الله عليه السلام، وفي فترة وجوده المبارك.

وتمثل ذلك فيما يأتي:

١. امتداد عمر جابر بن عبد الله الأنصاري أكثر من (٥٠) سنة حتى تمكن فيها الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري من رؤية حفيد النبي كما وعده عليه الصلاة والسلام، وأدّى أمانته من تبليغ الباقر السلام نيابة عن جده المصطفى عليه السلام.

٢. عبرت البشارة النبوية عن دقتها في التأكيد على «ولادة باقر العلم» وتبحره وشهرته، وبزوغ مكانته اللاتقة بين الناس منذ طفولته المبكرة، واكتشاف جابر ذلك، وأثرها في استشارة تفكير واهتمام السامعين، وما صحبه من حوار قصير بين الإمام الباقر، وهو صغير، وبين جابر بن عبد الله الأنصاري وأحد السامعين لهما.

٣. وضعت هذه البشارة النبوية الجذور التاريخية لبروز المكانة اللاتقة التي حظي بها الإمام الباقر عليه السلام، ووضوحها التدريجي منذ لحظة التقاء جابر بـ «الإمام الباقر» حتى وفاة هذا الصحابي عليه الرحمة والرضوان، ونقصد تاريخ نمو قدراته الذاتية التي مكنته

من تبوئ منزلته العلمية اللاتقة، وهي جذور بدأت أرضيتها من كلمات رسول الله ونبى الرحمة (ﷺ)، ثم تناقل المسلمون هذه البشارة النبوية بعد أن حفظ الصحابي الجليل جابر هذه البشارة وأدى أمانته، وأبلغها حفيد النبى أبا جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (ع).

٤. ارتبطت مكانته (ﷺ) اللاتقة، وما تبوأته شخصيته من منزلة عظيمة من سجايا الشخصية الإيمانية، وقدراته الذاتية وبخاصة ما عُرف عنه من عبادة وسمو روحي، وتبحر في العلم ونشره الواسع لمعارف الإسلام.

ثانياً: نمو قدراته الذاتية التي حددت مكانته.

بالرغم من اهتمامنا المحدود في هذه المقدمة لكتابنا هذا بالنص الروائي، فقد وجدنا في باطن بعض الروايات القليلة إشارة بارزة لبعض القدرات الهامة في شخصية الإمام الباقر (ع)، والتي تمتع بها وعرف بها، وفي صدارتها (التبقر، وبقر العلم والتبحر فيه) ووصف ذاته الكريمة بها.

وإذا ما توسعنا في استخدام النصوص الروائية والتاريخية وإضافة بعضها، وهي كثيرة في مصادر المسلمين نكتشف مزيداً من الخصائص الإيجابية والسلوكية التي أسهمت في تكوين النمط الأساسي المتميز لشخصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع)، وقد برزت تجلياتها في بروز قدرات أساسية في كيانه الذاتي، وهيئاته (ﷺ) لتبوء منزلته العلمية ومكانته الروحية والأخلاقية والاجتماعية بين الناس وبخاصة بين مجتمع عصره.

فهذه المكانة العالية للإمام الباقر (ع) لم تهبط عليه من فوق أو علياء بلا جهد، ولا اجتهد، وبلا عمل عبادي مقتدر تبناه آباؤه الكرام من أئمة أهل البيت (ﷺ) في برنامج

تربوي كفء، ورشيد، وهذا مكنهم جميعاً من مهامهم التربوية على أنفسهم، وإعداد شخصيات الأئمة (عليهم السلام) بقدرات ذاتية عالية كالعبادة والسمو الأخلاقي، والتبحر في العلم، وحقيقة التمايز الذاتي في نشر معارفه، وعلوم الإسلام، وقد فسحت هذه الظروف التربوية الضابطة العالية للإمام الباقر، وسائر أئمة أهل البيت (عليهم السلام) تبوأ مكانته اللائقة.

وسوف يتضح في تضاعيف دراستنا جانب مهم من التميز العلمي، ونبوغ فكر الإمام الباقر في أداء مهامه العبادية والأخلاقية والإرشادية، ويسمح لنا بدراسة اجتهادية لعنصر الجانب الإرشادي في فكر الإمام الباقر، وفعاليته، وعلاقته الإيجابية المؤثرة بتحقيق الصحة النفسية ومظاهرها للأفراد في مجتمع عصره، وفي المجتمعات اللاحقة.

وليس ذلك في اعتقادنا إلاّ شاهداً على كفاءة البرنامج التربوي الناجع الذي أعده الإمام الباقر (عليه السلام) في المجال الإرشادي والأخلاقي واقتداره، ومكنه باقتدار وكفاءة معرفياً وتطبيقياً، فنجح في تربية كوادراً أمدت الوجود الإسلامي بعناصر قوة مستمرة ومتجددة بخاصة أصحابه «وتلاميذه ممن كان لهم دور كبير في نشر معارف أهل البيت (عليهم السلام)، وفي طليعتهم أبان بن تغلب، وزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم الثقفي»^(١)، وجابر بن يزيد الجعفي، وأبو حمزة الثمالي، وغيرهم.

ثالثاً: تصريحات علماء المسلمين بمكانة الإمام الباقر (عليه السلام).

ودلت هذه التصريحات على المكانة اللائقة التي حظيت بها شخصية أبي جعفر الإمام الباقر محمد بن علي زين العابدين (عليه السلام)، وهي في نظرنا بمثابة قرينة مادية وتاريخية

(١) السيد كمال، درر البحار في سيرة النبي وآله الأطهار، ص ٢٧٦ - ٢٧٧. (بتصرف)

مؤثرة على تقدير علماء المسلمين من مذاهب شتى، ومن غير أتباع أهل البيت عليهم السلام لأبي جعفر محمد بن علي الباقر، وتقدمت أقوال بعض اللغويين، وهم أتباع هذه المذاهب في تفسير مفردة التبقر بمعنى التوسع في العلم بالإشارة دائماً إلى تبحر أبي جعفر محمد بن علي الباقر في العلم، ونضيف اليهم آراء وتصريحات مؤرخين وعلماء رواية.

وقد دوت مصادر روائية وتاريخية ولغوية - كما تقدمت - أقوالاً وتصريحات إيجابية من بعض اللغويين العرب، ونفر من علماء المسلمين في تقدير شخصية الإمام الباقر محمد بن علي زين العابدين واحترامها، والشهادة على نبوغها العلمي وتميزها الروحي والجهادي.

ويمكننا الاكتفاء بنماذج من هذه التصريحات فحسب لبيان مدى تألق شخصية الإمام الباقر واقتدارها في مجالات عديدة، وهي مدونة، وموثقة في عدد من المصادر الروائية والتاريخية المختلفة، ونقتطع بعض هذه النصوص من مصادرها الأصلية أو عن طريق مصادر غير مباشرة نقلتها إلينا كما في بعض الدراسات، ومن هذه النصوص التي تعتبر بمثابة شهادات تقدير وإعزاز ما يأتي.

١. نص ابن الصبّان.

أما الشيخ محمد الصبّان فذكر الباقر في نص قال فيه: «وأما محمد الباقر رضي الله عنه فهو صاحب المعارف وأخو الدقائق واللطائف ظهرت كراماته، وكثرت في السلوك إشاراته، ولقب بالباقر لأنه بقر العلم، أي شقّه فعرف أصله وخفيه»^(١).

(١) الصبّان، محمد، إسعاف الراغبين، فضائل أهل البيت، ص ٨٨.

٢. شهادة ابن طولون الدمشقي.

ومن ذلك قول ابن طولون الدمشقي رحمه الله في حق الإمام الباقر عليه السلام وبالذات في التركيز على تبقره وتبحره العلمي الواسع، كما تلاحظ من النص التالي: «وكان الباقر عالماً سيِّداً كبيراً، وإنَّما قيل له الباقر لأنَّه تَبَقَّرَ في العالم، أي توسَّع، والتبقر التوسع، وفيه يقول الشاعر:

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من سما على الأَجْبَل^(١)

وفاة أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام.

وفي هذا المجال تعددت كذلك آراء المؤرخين والرواة وأقوالهم، ومنهم سبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) الحفيد، وهو (يوسف بن فرغلي بن عبد الله البغدادي سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنفي^(٢))، حيث نقل لنا ثلاثة أقوال في تحديد سنة وفاة الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام، وعدَّدها بقوله:

- «أحدها، أنه توفي سنة سبع عشرة ومائة، ذكره الواقدي».

-و«الثاني سنة أربع عشرة ومائة، قاله الفضل بن دكين».

- و«الثالث سنة ثمانى عشرة ومائة»^(٣).

وترتب عن هذا الاختلاف في أقوال المؤرخين، اختلاف في تحديد سنِّه عليه السلام، وعرضها ابن الجوزي السبط في ثلاثة أقوال، أحدها: ثمان وخمسون، والثاني سبع

(١) ابن طولون، محمد، الائمة الاثنا عشر (أو الشذرات الذهبية)، ص ٨١.

(٢) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣.

(٣) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣٠٦.

وخمسون، والثالث ثلاث وسبعون، ثم قال ابن الجوزي: «والأول أشهر»^(١).

وبالتأمل في ترجيحه الرأي الأول، فإن ابن الجوزي قد حدد سنة (٥٩هـ) كتاريخ لسنة ولادة الإمام الباقر عليه السلام، وهذا ما خالف أقوال مؤرخين آخرين قبله وبعده لاسيما الرواية الإمامية التي تحدد سنة (٥٧هـ) لولادته، وسنة (١٤هـ) لوفاته عليه السلام.

أمّا الشيخ علي بن عيسى أبو الحسن الأربلي عليه الرحمة فتجاوز العمر السابق، وقد يُنف على الستين على حد تعبيره، فقال عن سنوات عمره، ووفاته عليه الرحمة: «وأمّا عمره فإنّه مات في سنة سبع عشرة ومائة، وقيل غير ذلك»^(٢)، ولم يدخل الشيخ الأربلي عليه شآبيب رحمة ربه في تفصيل توضيحي لكلماته الأخيرة من الجملة السابقة، بيد أنها في معناه الإجمالي تفيد بتعدد الأقوال في تحديد تاريخ وفاة الإمام أبي جعفر محمد ابن علي الباقر عليه السلام، وهذا ما عناه الشيخ أبو الحسن الأربلي وبعض المؤرخين من قوله: «وقيل غير ذلك» بعد أن حدد سنة (١٧هـ) كتاريخ لوفاة الإمام الباقر عليه السلام، وهذا لا يتفق مع آراء غالبية علماء الشيعة الإمامية.

فاليقوي رحمته الله ذكر في تاريخه أن تاريخ وفاته كان سنة (١٧هـ)، وهذا ما ذهب إليه ابن الصبّاغ كذلك، حتى وإن عدّد في كتابه بعض الأقوال^(٣)، أما خليفة بن خياط فقال: «وفي سنة ثمان عشرة ومائة مات أبو جعفر محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب بالمدينة»^(٤)، ولقد مر علينا قبل قليل كلام العلامة ابن الجوزي السبط يوسف بن فرغلي ابن عبد الله البغدادي في تعدد آراء تواريخ وفاته عند عدد من العلماء والمحققين.

(١) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣٠٦.

(٢) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى، مصدر سابق، ص ٣٣١.

(٣) ابن الصبّاغ، علي بن محمد بن أحمد، مصدر سابق ص ٢٠٩.

(٤) انظر تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٢٦ نقلاً عن تاريخ اليقوي، ج ٢، ص ٢٢٤.

أما الخصيصي أبو عبد الله الحسين بن حمدان فأشار للإمام الباقر، ولقبه (الباقر، والهادي، والأمين) ورواية لقاء جابر بالإمام الباقر، وذكر تاريخ وفاته وعمره «سبع وخمسون سنة مثل عمر أبيه وجده عليه السلام» عام مائة وأربعة عشر من الهجرة في شهر ربيع الآخر^(١).

وذكر الطبري في دلائل الإمامة: «وقبض في أول ملك إبراهيم في شهر ربيع الأول سنة مائة وأربع عشرة وشهرين، وصار إلى كرامة الله سبحانه، وقد كمل عمره سبعة وخمسين عاماً»^(٢).

وتحت عنوان «العشرة الثانية من المائة الثانية» قال ابن قنفذ (٨١٠هـ): «توفي محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين سنة أربع عشرة ومائة»^(٣).

أمّا المؤرخ الدمشقي محمد بن طولون أحد علماء القرن العاشر الهجري فقد قال عليه الرحمة - كما ذكرنا - في شأن وفاة خامس أئمة المسلمين من أهل البيت الإمام الباقر: «وتوفي - يقصد الإمام الباقر عليه السلام - في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ومائة، وقيل سبع عشرة بـ «الحَمِيْمَة»، ونقل إلى المدينة، ودفن بالبقيع في القبر الذي فيه أبوه، وعم أبيه الحسن بن علي رضي الله عنهم في القبة التي فيها العباس رضي الله عنه»^(٤).

أمّا الحميمة التي توفي فيها الباقر ونقل منها إلى المدينة كي يدفن فيها فقد قال عنها أنّها تلفظ: «بضم الحاء المهملة وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح الميم الثانية،

(١) الخصيصي، الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) الطبري، محمد بن جرير بن رستم، دلائل الإمامة، ص ٩٤.

(٣) ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد بن حسن بن الخطيب، كتاب الوفيات، ص ٩.

(٤) ابن طولون، محمد، مصدر سابق، ص ٨١.

وبعدها هاء ساكنة: اسم لقرية كانت لعلي بن العباس وأولاده في أيام بني أمية^(١).

وذكر الشيخ محمد الصبّان في باب فضائل أهل البيت من كتابه (إسعاف الراغبين):
أن الإمام الباقر «مات مسموماً رضي الله عنه سنة سبع عشرة ومائة عن نحو ثلاث
وسبعين سنة، وأوصى أن يكفن في قميصه الذي كان يصلي فيه^(٢)».

وقال جمع من علماء ومؤرخي الشيعة الإمامية بأن الإمام الباقر عليه السلام توفي عام
(١١٤هـ) عن عمر ناهز (٥٧) سنة، وهذا التعدد يفسر كلام الأربلي وغيره من المؤرخين
بقولهم: «وقيل غير ذلك» بشأن الاختلاف في تاريخ وفاة الإمام الباقر عليه الصلاة
والسلام.

ومضى على هذا القول العلامة الشيخ حسين بن محمد بن أحمد آل عصفور
الدرازي البحراني، وهو من علماء القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين في جزر
البحرين فقال رضي الله عنه في هذا الصدد: «واختلفت الأخبار في يوم وفاته عليه السلام،
وكذلك المؤرخون، فالمشهور بين علمائنا (ويقصد علماء الإمامية^(٣)) أنها في السابع من
ذي الحجة سنة ست عشرة ومائة من الهجرة، وفي رواية أنها في سابع ربيع الأول، وفي
رواية أنها في سابع ربيع الثاني^(٤)».

والسيد محمد بن حسين الطالقاني كتب في دراسته التاريخية عن الإمام الباقر عليه السلام،
فذكر أمر وفاته بقوله: «توفي أبو جعفر بن علي بن الحسين عليه السلام بالمدينة يوم الاثنين سابع

(١) ابن طولون، محمد، مصدر سابق، ص ٨١.

(٢) الصبان، محمد، إسعاف الراغبين، ص ٨٨.

(٣) جملة زائدة عن نص العلامة الشيخ حسين العصفور البحراني، أي أضفنا على النص للتوضيح.

(٤) البحراني، حسين بن محمد بن أحمد آل عصفور الدرازي، كتاب الوفيات (وفاة الإمام الباقر)

ذي الحجة سنة أربع عشرة ومائة، وله سبع وخمسون سنة، وقبره في البقيع مع والده وعمه الحسن عليه السلام في القبة التي فيها العباس^(٥)، وذكر أحد علماء الشيعة الإمامية من المعاصرين عن تاريخ وفاته أن أبا جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه أفضل الصلاة والسلام قد «استشهد في (٧) ذي الحجة سنة ١١٤ هـ بعد أن عاش (٥٧) سنة قضاها في التقوى والصلاح وخدمة الإسلام والمسلمين، ونشر علوم أهل البيت عليهم السلام»^(٦).

وفي دراسة معاصرة للجنة التأليف بـ (دار التوحيد الكويتية) أعدت عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م) جاء في آخرها وخاتمتها كلمات النص التالي:

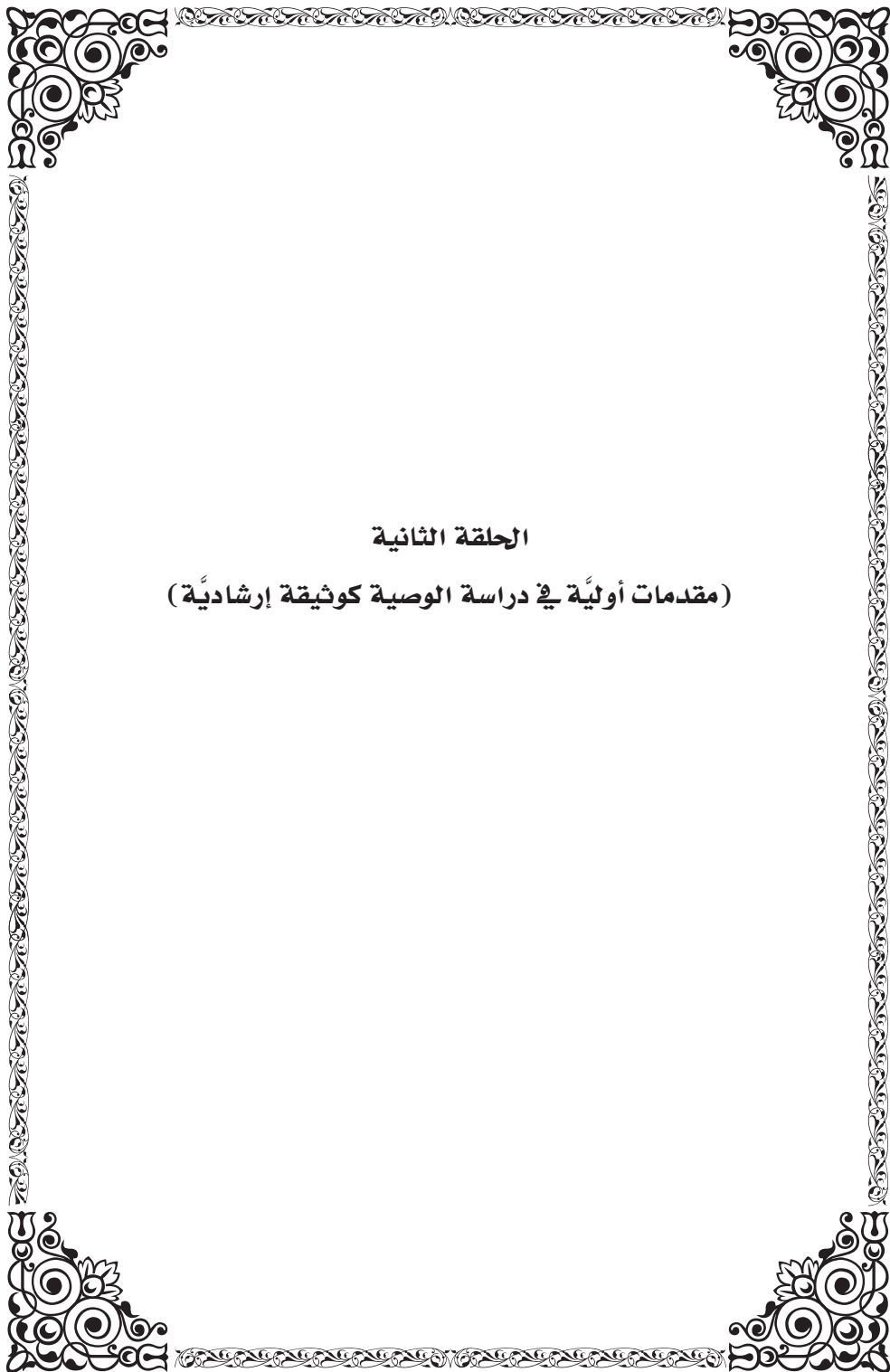
«إذ لم تحقق المضايقة الأموية غاياتها الدينية في صد الإمام الباقر عليه السلام عن النهوض بمهامه الرسالية العظمى، فقد رأت السياسة المنحرفة أنه ليس عن اغتياله بديل، وهكذا دُسَّ إليه السم في عام ١١٤ هـ، فرحل إلى ربه الأعلى سبحانه صابراً محتسباً»^(٧).

ويحدد هذا النص سنة (١١٤ هـ) كتاريخ لوفاة أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وطريقة استشهاده، واغتياله المتعمد من قبل الدولة الأموية بالسم، بعد استنفاد أساليبها في مضايقاتها، وصد الإمام الباقر عن جهاده السياسي والعقائدي، وإضعاف مقاومة انحرافات العقائدية والسياسية والأخلاقية، فكان قتله قرارها النهائي، وبهذه الطريقة القاسية والظالمة، وبآخر خطوات عدوانها على أهل البيت عليهم السلام للتخلص منه عليه السلام.

(٥) الطالقاني، السيد محمد حسين، كتاب «نور الأبصار في مواليد الأئمة الأطهار»، ولادة الإمام الباقر، ص ٢٥٤.

(٦) السيد، كمال، درر البحار في سيرة النبي وآله الأطهار، ص ٢٧٧.

(٧) الإمام الباقر، دراسة صادرة عن دار التوحيد الكويتية، ص ٤٧، نقلاً عن أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين، ج ٤، ق ٢، ص ٤.



الحلقة الثانية

(مقدمات أولية في دراسة الوصية كوثيقة إرشادية)

مدخل الحلقة

مَنْ قرأ شيئاً من تراث الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي المعروف بـ « الباقر » (عليه السلام) في مصادر الشيعة الإمامية، أو في مصادر غيرهم من كتب ودراسات علماء المسلمين الآخرين سيجد نفسه أمام تراث ثقافي، وروحي مدوّن، وموثق بآليات متنوعة، وأدوات ثقافية متعددة، وكان ذلك النظام الثقافي سائداً في الأزمنة المتقدمة من تاريخنا الهجري، وما يزال منهجاً قائماً ومعتبراً في التوثيق والتدوين حتى وإن أصبحت هاتان العمليتان شائعتين بأساليب متطورة حسب حركة الزمان وتقادمه، وهو مؤسس في المقام الأول على حفظ المرويات، ونقلها الشفهي، وسماعها، حتى كتبت في فترة متأخرة عنها نسبياً.

ومن فوائد هاتين العمليتين أنه قد جعل هذا التنوع في أساليب النقل والحفظ ذاكرتنا المعرفية موصولة بجوانب متعددة من التراث الثقافي والعقلي والروائي والأخلاقي والتربوي الذي تركه الإمام محمد بن علي الباقر لنا بعد استشاده (عليه السلام)، وحفظته على امتداد زمان طويل، ومنذ القرن الثاني الهجري، فكل ما نعرفه عن الإمام وآبائه أو أبنائه وصلنا عن طريق حفظ تراثهم في مصادر المسلمين على مختلف أطرافهم ومذاهبهم الدينية.

وممّا لا شك فيه أن تراثه المعرفي والروائي الذي حفظه العلماء - وهو الآن بين أيدينا - قد عبّرت عنه اهتمامات الإمام الباقر في روايات وأسئلة وأجوبة ونماذج من وسائل التعبير الثقافي، وتجسّد في قضايا دينية، وأفكار في الإرشاد الديني، والتوجيه

الأخلاقي، ودائرة أمراض السلوك البشري، وقواعد السلوك العبادي المرغوب فيه، وفي نواحي عن محرمات شرعية، وأفعال غير شرعية، وهي موثقة في مصادر تراثه بآليات وأدوات ثقافية شائعة في عصر الإمام محمد الباقر عليه السلام.

وما تزال هذه المصادر - لحسن الحظ - حتى يومنا الحاضر معتبرة الشأن، وذات أهمية علمية ومعرفية وروحية، وهي متداولة في المصادر القديمة التي حفظت النصوص، ونشرت بعض معارفه، وكذلك في الدراسات والمصادر المستحدثة التي استمرت في كتابة جوانب من هذا التراث إلى زماننا، فأضافت إلى سابق التجارب تجارب جديدة عن حياة الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام بدراسات معاصرة، وإنه باستخدام هذه الأدوات المتعددة بحدود ظروف قرون متعاقبة من تاريخنا، نكون قد تعرفنا على جوانب من تراث وفكر أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وتعاليمه وإرشاداته في موضوعات شتى، وقضايا عديدة تتصل بالعقيدة والأخلاق وشؤون الدين وقضايا حياتية، وأنه لولا وجود نماذج مبثوثة من أدوات الخطاب الباقرى وآلياته في مصادر تراثه عند الشيعة الإمامية وغيرهم لصعب علينا، وعلى من عاش في أزمنة سابقة ولاحقة (تكوين معرفي) عن حياة الإمام محمد الباقر، وشخصيته وتراثه العلمي عليه السلام، وفضائله الروحية والأخلاقية، ولخفيت علينا معرفتنا بتاريخ حياته أو بكثير من تفاصيلها بخاصة أن أعداء الحق يمسكون بخيوط منع التدوين فضائل أهل البيت عليهم السلام، وكبت ومصادرة حريات العلماء، والناس بوجه عام.

ويمكننا بعد هذا، تحديد مصادر وآليات وأدوات العلاقة الثقافية بين الناس، والإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، ونذكر منها ما يأتي:

١. مجموعة وصايا أخلاقية وإرشادية في مجال التربية العبادية التي يبتغيها المشرع الإسلامي، ومثال ذلك - على هذه الآلية - وصيته لصاحبه الكريم جابر بن يزيد

الجعفي عليه شآبيب رحمة ربه، وهي في مجملها المصدر الرئيسي لدراستنا في فهم العلاقة بين العملية الإرشادية، وبين الاتزان الانفعالي، والنفسي.

٢. المواعظ والنصائح الفردية.

٣. الخطب، على قلة عرض نماذج منها.

٤. الروايات الشريفة.

٥. الأدعية.

٦. نظم الشعر ومقاطععه.

٧. النصوص والجمل، والحكم القصار.

٨. التفسيرات، والشروحات الكلامية.

٩. مناظراته ومحاججاته مع الآخرين.

نص الوصية

النص الإرشادي للإمام الباقر عليه السلام

عنوان هذا النص التربوي - الأخلاقي، وبطبيعة مادته الإرشادية كان مدوّنًا في عدد من المصادر، وأولها كتاب (تحف العقول عن آل الرسول) للشيخ الثقة الجليل الأقدم أبي محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني رحمته الله، وهو من علماء القرن الرابع الهجري، ثم في مصادر متأخرة عن هذا القرن، ونشر هذا العنوان لهذه الوصية في أول نص ذكره ابن شعبة عن الإمام محمد الباقر بن علي زين العابدين عليه السلام.

وكان مدخل هذا العنوان بهذه الكلمات التالية:

« في طوال هذه المعاني »^(١)

« وصيته » لجابر بن يزيد الجعفي »^(٢).

روي عنه أنه قال لجابر:

« يا جابر اغتنم من أهل زمانك خمساً، إن حضرت لم تُعرف، وإن غبت لم تُفتقد، وإن شهدت لم تُشاور، وإن قلت لم يُقبل قولك، وإن خطبت لم تُزوج، وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كُذِّبت فلا تغضب، وإن مُدِّحت فلا تفرح، وإن دُئمت فلا تجزع، وفكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله جلَّ وعز عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك.

وأعلم بأنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك، وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه فأثبت وأبشر، فإنه لا يضررك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فماذا الذي

(١) انظر كتاب تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ٢٠٦ - ٢٠٧، وبحار الأنوار للمجلسي، ج ٧٥، ص ١٦٢ - ١٦٥.

(٢) الجعفي رحمه الله تعالى صاحب الإمام الباقر، وهو على زنة الكرسي، ومن جعف، ونُسب إليها فقيل (الجعفي) بحار الأنوار، ج ٧٥، باب وصايا الباقر، ص ١٦٢، وكما ذكر كذلك في كتاب تحف العقول فهو « جابر بن يزيد بن الحرث بن عبد يغوث الجعفي، من أصحاب الباقر والصادق »، وخدم الإمام أبا جعفر سنين متوالية، مات رحمه الله في أيام الصادق سنة ثمان وعشرين ومائة من الهجرة النبوية بحوالي عشرين عاماً قبل وفاة الإمام الصادق، انظر تحف العقول لابن شعبة، الفصل الخاص بمعارف الباقر، ص ٢٠٦، هامش رقم ١ من الصفحة نفسها.

يغرك من نفسك.

إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش ويقل الله عثرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزاءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضِر الشر بحاضِر العلم، واستعمل حاضِر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضِر الحياة، وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة.

واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجماع القلب، وتخلص على إجماع القلب بقلّة الخطأ، وتعرض لركة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزَيّن لله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتحبّب إليه بتعجيل الانتقال، وإيّاك والتسويق فإنه بحر يغرق فيه

(١) الأود: محرّكة (العوج)، وقد تأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار،

ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

الهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم.

وتخلّص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، والتوسل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العز بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس ببعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحّة الأبدان، وإيّاك والثقة بغير المأمون، فإنّ للشر ضراوة كضراوة الغذاء^(١).

وأعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز، ولا رجاء كرجاء مُعين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغارك الدنيا، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ولا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا شرف كبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالمنافسة في الدرجات، ولا عدل كالإنصاف، ولا تعدي كالجور، ولا جور كموافقة الهوى، ولا طاعة كأداء الفرائض، ولا خوف كالخزن، ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين كفقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد خوف، ولا مصيبة كاستهانتك بالذنوب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذل كذل الطمع،

(١) الضراوة: مصدر ضري بالشيء، أي لهج به، وفي بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٤ الضراوة هي (الاعتقاد، ومصدره ضرى بالشيء، أي اعتاده، ويقصد بهذا الكلام في نهاية الأمر (تأثير الشر هو بقوة تأثير العادة السلوكية وشدة إلحاحها على الفرد بوجه عام، مثل تأثير الغذاء وإلحاحه الشديد على الإنسان حينما يجوع أو يحتاج للشراب، فالشر كالغذاء لهما تأثير شديد الإلحاح علينا).

وإيّاك والتفريط عن إمكان الفرصة، فإنّه ميدان يجري لأهله الخسران»^(١).

وصف عام ومجمل للنص وفرصة دراسته

قد يكون من الصعوبة بمكان - بخاصة عند غير المتخصصين في فن الأدب العربي أو علمي الحديث والأخلاق - وصف هذه الوثيقة التربوية والأخلاقية، وطبيعتها الإرشادية وصفاً دقيقاً يعبر عن مستواها العلمي والأخلاقي، فهي تحتاج إلى قدرات علمية وأدبية وتربوية لدى الباحث قد لا تكون متوفرة بقوة في إمكانياته الذاتية، ولكن مع ذلك لا يترك هذا النص الأدبي بلا محاولة تفهم معانيه، ومن هنا نعتقد أنه بالمقدور وصفه على نحو مجمل، وتحديد هويته كنص أدبي وأخلاقي وتربوي انطوى على وصفات إرشادية لبناء الذات البشرية بخاصة المؤمنة، فهذا النص استهدف بمادته اللغوية والإرشادية عملية إرشاد الإنسان المؤمن في أزمنة متجددة، وهدايته الإيمانية والشخصية بخطوات متقنة، ومحكمة، ونظام بناء سليم وقوي للنمط الأساسي للشخصية المرغوبة لدى المؤمن وفق محددات إيمانية ارتضاها المشرع التربوي الإسلامي، وتتوافق مع معايير هذه الوصية وشروطها.

وتوزع النص الباقي إلى أربع فقرات متفاوتة في حجمها لفظياً، وكل واحد منها مكون من عدة جمل وعبارات تطرح جميعها أفكاراً تربوية رائعة في معانيها، ويمكن النظر لكل واحدة منها على حدة، ولكنها مترابطة المعاني، وفي كل جزء يتم التأسيس على ألفاظه لخدمة هدف من عمليات بناء النمط الرئيسي من السلوك العبادي الذي يحقق الأهداف الإيمانية لنص الوصية، واجتمعت فيه - كما لحظنا ذلك - قيم وانفعالات،

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي بن الحسين، تحف العقول، ص ١٧٩ - ١٨١، وبحار الأنوار الجامعة

لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ٧٥، ص ١٦٢ - ١٦٥.

وشبكة إرشادات، وإشارات لدوافع إنسانية، وقواعد أخلاقية، وأساليب بنائية من أجل تنمية الذات البشرية وتطوير مستواها.

وكانت هذه القواعد والأساليب متوزعة في محتوى النص الإرشادي، ونقصد الوصية بين أنماط وقائية وإنمائية وعلاجية تنتظم جميعها في بناء النمط المرغوب من الشخصية العبادية التي ركزت وصية الإمام الباقر على تأسيس مبناها بقواعد إرشادية رائعة، كما تضمّن نص هذه الوصية - وهي مفتاح تعلم جديد يستهدف الوصول إلى نمط الشخصية المراد تكوينها - مجموعة أهداف عبادية، ومحتوى أخلاقياً ونفسياً، ولغوياً، وأديباً متكاملًا، واحتوى في طي تركيبته اللفظية على أسس، وأدوات، وأساليب تأمل ونظر في مجالات متعددة من سلوكنا الإنساني المتشابك.

ويلحظ منه تكوّن هذا النص بمجموعه، وترابطه في وحدة معرفية متعددة الأبعاد والجوانب، موحدة الأهداف والغايات، ويهتم النص بأكمله، وكوحدة مترابطة بشخصية الإنسان وتربيته إمّا بطرائق البناء التربوي الوقائي الذي يستبق أي خلل وانحرافات فكرية وعاطفية وسلوكية، أو بطرائق إنمائية معززة للبناء الوقائي، وذلك قبل أن يضطر المربي إلى اتخاذ خطوات علاجية لإعادة بناء نمط الشخصية من جديد وفق محدداتها الإيمانية.

وتتنوع المادة الإرشادية للنص بجمال لغته الأدبية بنحو يسمح للباحثين من اتجاهات تخصصية معاصرة ومختلفة بدراسته، كل من الزاوية التي يجد نفسه متمكنًا منها، فيتم - بمجهود فردي أو جماعي - استخراج معانيه الإنسانية، ودلالاته الأدبية والأخلاقية والسيكولوجية، وينتظر منهم أن يحظى هذا النص بانتباههم العلمي، وبرغبتهم في تفهم معانيه، ومعرفة كنوزه الفكرية والأخلاقية، ظاهرة في النص أو متخفية في باطن بعض ألفاظه وجمله وعباراته.

فاللغوي، والأديب يمكنه دراسة الوصية كنص أدبي، ويتم استخراج خصائصه اللغوية والأدبية، والسيكولوجي كذلك يستطيع دراسة ظواهره السلوكية، ويتفهم دلالاتها النفسية، ومعرفة نتائجها التربوية، ولعالم الأخلاق فرصة أخرى في القيام بعملية تفسير أخلاقي، وتحليل مضامينه الأخلاقية بخبرته التربوية والإرشادية بنحو يحقق للمؤمن الأهداف العبادية والإيمانية التي يسعى إلى الوصول إليها، وهكذا فالنص الإرشادي الكريم مجال علمي وفكري، ويستبطن في تركيبته اللفظية، وباطنه الداخلي (إثارة علمية) حياة من وجوه شتى لهذا الباحث وذاك.

تاريخ النص

كان من الممكن أن تكون هذه الدراسة تاريخية في بعض جوانبها، ولا بد أن تكون بسبب وجود بُعد تاريخي لنص الوصية الباقية، ولكننا في المعتقد العام لا نرى أن المادة التاريخية التي قدمها أئمة أهل البيت عليهم السلام سواء بهذه الوصية أو غيرها هي مادة تاريخية محضة حتى وإن كان زمن صدورهما منذ تاريخ بعيد يتصل بالنصف الأول من القرن الثاني الهجري، وربما في القرن الأول، فأهل البيت دائماً هم مصدر رئيسي لثقافة المؤمنين وتوجيه حياتهم، ولا نتعامل مع أدوارهم الثقافية والروحية كشيء من التاريخ، وقع في الزمان، ولم نعد نستلهمه أو لا نتفاعل معه، بل هو في نظرنا مادة فكر حي موجه لنا ولجميع الناس عبر أزمنة متعاقبة، ومتجددة، ولا تتوقف عند حدود زمنية أو بقاع جغرافية ومكانية.

ومع ذلك فيمكن إخضاع نص وصية الإمام الباقر عليه السلام لصاحبه الكريم، والوفي جابر بن يزيد الجعفي لدراسة تعالج بمنهج تاريخي، ونقصد أنه يمكن للعلماء والمحققين والباحثين تتبع تاريخ صدور هذا النص في فترة زمنية متقدمة جداً من تاريخنا الهجري،

قد تكون في نهاية القرن الهجري الأول أو في السنوات الأربع عشرة الهجرية الأولى من القرن الهجري الثاني، ثم تعقب وضع نص الوصية في المصادر التي نقلته منذ تلك الفترة إلى يومنا الحاضر في مصادر العلماء والمحققين ودراساتهم، وتتابع زمن متصل كتعقب اهتمام العلماء ونقلهم لهذا النص في مصادر مختلفة عند المسلمين، وبذلك يتاح لباحث معاصر التعرف على هذه المصادر التي ذكرت النص في باطنها.

وربما كنا قد تمكنا بالاجتهاد التقريبي من تحديد الفترة التاريخية التي صدر فيها نص الوصية، ولكننا نجد بالتأكيد صعوبة في التحديد لصدور النص بدقة تامة، فالإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر (ع)، وهو صاحب النص عاش بين (٥٧ - ١١٤ هـ)، وربما لسنوات أكثر لا تزيد عن ثلاث، وعاش صاحبه جابر الجعفي حتى عام (١٢٨ هـ) في عصر الإمام الصادق (ع)، وعليه لا نجد صعوبة في القول بأن تاريخ صدور هذا النص الكريم كان ما بين أعوام (١١٤ هـ) وأعوام سابقة عليه، مع إقرارنا بصعوبة التحديد الزمني بدقة تامة، كأن نقول بأن تاريخ الزمن كان في يوم معين، من شهر هجري محدد، وفي سنة مذكورة بعينها.

وبذلك يصبح تاريخ نص الوصية مماثلاً لتواريخ صدور نصوص كثر في الفترة الممتدة من ولادة الإمام عام (٥٧ هـ) إلى سنة وفاته (١١٤ - ١١٧ هـ) بحسب أقوال بعض المؤرخين، وهذا التحديد هو مهمة بعض الدارسين لتراثه الفكري بمنهج تاريخي قادر على فحص ظواهر الحياة الروحية والثقافية في تاريخ الإمام الباقر (ع)، ويحدد تواريخ ممكنة لصدور بعض نصوصه في المجالين المذكورين (الروحي والثقافي).

الإشارات الذهنية الرئيسية في نص الوصية أو موضوعاتها الأساسية

ونريد أبرز محتويات النص وموضوعاته المجملّة، وهي ثلاثة تتمثل فيما يأتي:

١. تحديد نص الوصية لمشكلة سلوكية كبرى ذات طابع غير توافقي، وهي بالمنظور العبادي مشكلة تتداخل فيها المشاعر المضطربة بالأفكار غير السوية، فتنعكس على سلوكيات حذرت من استمرارها وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي.

٢. والجزء الآخر من محتوى النص مجموعة إرشادات الإمام الباقر لجابر الجعفي، وما ارتبط بها من تنبيه بوجود المشكلة، وأهمية وضع برنامج وقائي، وإنمائي، وعلاجي لتربية الذات وضبط سلوكها في مسارات تعبدية سليمة.

٣. أما الجزء الثالث من المحتوى اللفظي والمعرفي للنص فنراه في توجيه قدرة الفرد المؤمن على الملاءمة بين الطبيعة البشرية بما فيها من استعدادات للخير والشر، وبين منهج العمل الضابط لحركة الذات، ونرى تداخل طرائق علاجية وإرشادية لوقاية الشخصية العبادية أو إعادة تعلم الفكر والسلوك العبادي السليم، واستبدال المشاعر السلبية بالإيجابية لتتقي مع النظرة التربوية والمعرفية الإسلامية.

ونلاحظ برؤيتنا المستمدة من مفردات هذا النص أنّ لهذه المشكلة السلوكية ثلاثة أوجه متعددة، وينبغي للفرد المؤمن فهم دلالاتها في تشخيص مشكلته السلوكية هذه، والتركيز عليها لتخليص نفسه منها، وفك رهانه من مخاطرهما، وهي كما يأتي:

أ- جانب من المشكلة هو وضع الذات من نظرة الإنسان الآخر، وما يثيره لها من مشكلات وتحديات، أي تتمثل المشكلة بهذا الوجه في قدرة الإنسان الآخر على إثارة مشكلات سلوكية تعرقل نمو الذات المؤمنة، وسيرها في الاتجاه النّمائي والسيكولوجي من جهة، وحركتها الصحيحة في الاتجاه العبادي القويم من جهة ثانية.

ب- وللمشكلة السلوكية في نص الوصية وجه كبير آخر يتمثل في سقوط الفرد المؤمن في دنياه، وآخرته ما لم يتدارك نفسه من عين الله، ومن أعين الناس كذلك، فيجتمع على نفسية الإنسان وعقله نوعان من السقوط الصعب أحدهما في الدنيا بسقوط اعتباره، وتقديره من أعين الناس في دنياه، وقد يكون السقوط أصعب في الآخرة من عين الله سبحانه ما لم يتدارك أمره بتوبة خالصة، وبالتفكير فيما قيل فيه بطرائق إيجابية مُحسِّن من وضعية ذاته عبادياً، وهو في ميدان الحياة والعمل، وقبل فوات الأوان، وتسترشد لما فيه من الخير وتقوى الله سبحانه.

ج- أمّا الوجه الثالث لمشكلة الفرد في محتوى الوصية فلا ينفصل عن حالتي «السقوط» من عين الله، ومن أعين الناس، وما يزال الفرد المؤمن بعد في عالم دنياه، عالمه الأول، وثمة فرصة لتغيير الحال، والتأكد من أوضاعه العبادية.

وتحدد المشكلة السلوكية - بهذا الوجه المهم والخطير - في نطاق تأثيرها على مصير الحياة الفردية للشخص المؤمن نفسه بما أسماه نص الوصية الباقرية بـ «عَلَبَةِ الْهَوَى» على إرادته كعبد مؤمن ضعيف، وخانع لشهواته وضغوطاتها الجاثمة على نفسه، وفشله المستمر أو في غالب الأحيان في تَوْقِي (مجازفة الهوى)، ودفع مخاطره لا باسترشاد العلم، ولا بدلالة العقل، ولا بشدة تيقظه الذهني، ولا بصدق خوفه من الله تعالى، ولا بدفع حاضر الشر عن أنفسنا بحاضر العلم، ولا بتحرز الفرد في خالص عمله من عظيم الغفلة، ولا ببادرة منه نحو الخير وانتهاز فرص الحصول على مطالبه الطيبة برضا الله، واغتنامها والنهوض بها بالتزود من الدنيا بقصر الأمل، ولا بتأصيل وترسيخ قيم التربية العبادية السوية التي شددت عليها الوصية في كل عباراتها مثل (أداء الفرائض، استصغار الدنيا، معرفة النفس، السيطرة على سراديبها المظلمة بقيم النور الإلهي)، ولا بالمنافسة في الدرجات العلى، ولا برشده في مخالفة الهوى ومجاهدتها بالدين والعقل

والفطرة السويّة، ولا برغبته المخلصة في تحرير داخل نفسه من أصفاد الشيطان ونوازه الماجنة، ومن معصية حب البقاء في غير طاعة الله سبحانه وتعالى، وحتى من باب التفلسف، والادعاء بالعلم والتحضر، وقد نسي هذا العبد أن «العلم في غير طاعة الله مادة للذنوب» كما قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

مسوّغات وضع نص الوصية في مدخل الدراسة

موضوع هذه الدراسة التي بين يديك هو ما أوصى به الإمام محمد الباقر (عليه السلام) صاحبه جابر بن يزيد الجعفي رحمه الله في نص أخلاقي، تربوي، وإرشادي كريم، وكان غرضه توجيه الأفراد المؤمنين نحو الحق، وبناء أنفسهم على تكاليف المشرع التربوي الإسلامي وأحكامه، وقد اخترناه كموضوع للدراسة لكونه أشبه ببرنامج تربوي لبناء الشخصية العبادية في مراحل مختلفة، إمّا بالاستفادة منه في مرحلة البناء الوقائي، أو مرحلة لاحقة قد وقع فيها الفرد بأخطاء وذنوب تستوجب تعديل السلوك بإزالة الرذائل، واستبدالها بفضائل السلوك العبادي، وإحداث حالة تغيير تتفق ونظرة المشرع الإسلامي، وكما أراد الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين.

واستوجبت دراستنا لهذه الوصية وضع (نصها بالكامل) في مدخل الفصل الثاني بعد انتهائنا من الفصل الأول من هذا الكتاب والخاص بسيرة الإمام الباقر (عليه السلام)، وكان لوضع النص في نظرتنا المتواضعة (مسوغات) هي كما يأتي:

١. إنّ وضع النص في مدخل الدراسة لهذا الكتاب يتيح للقارئ قراءته كاملاً، ويستجمع في ذهنه فكرة عامة، ومجملّة لمعاني النص وسياقاتها اللغوية والمعرفيّة، وقد يتجاوز بعض من يتاح له الاطلاع على هذه الوصية التقدم في فهم معانيها التفصيلية،

ويبدأ بقراءة هذا الكتاب لفهم المزيد من تفاصيله.

٢. يأتي وضع (نص وصية الإمام الباقر) بأكمله كخطوة مسبقة، ومهمة يحتاجها الباحث نفسه، ومنهم معد هذه الدراسة في أثناء عملية الموضوعات الفرعية لدراسة، ومراجعة النص بشكل مستمر كلما احتاج، وتثبت ما يريده من نصوص فرعية في الموضوع الذي يحتاجه بعد انتقائها من جديد لتناسب سياقات الكلام الذي يبحث فيه، أو لمعرفة مدى التلاؤم بين المادة المدروسة، والموضوع الفرعي الذي كان يناقش أفكاره الجزئية، وبين التفسير والتحليل الذي كتبه الباحث، أي تلاؤم بين نص الكلام، وفهم الباحث.

٣. يسمح وجود النص (كاملاً) بعمليات ذهنية يستفيد منها الباحث، والقارئ معاً، كمراجعة النصوص الفرعية الداخلية في موضوعات متفرقة من الدراسة ومقارنتها بمثيلاتها في متن النص الكامل للوصية، وكتناسب تفسير الباحث مع ما يراه من المضمون المعرفي للنص، والحكم عليه بوجهة نظره.. مؤيدة لوجهة نظر الباحث أو معارضة.

النظرة العلمية للنص

ما تطلب منا إثارة وطرح هذا العنوان الجانبي في مقدمة دراستنا التي بين يديك الآن هو ما أثير في مصادر متفرقة حول شخصية جابر عليه السلام، والطعن فيه بتكذيبه، والتشهير به إلى حد السخرية منه، وهذا ما استدعى النظر للنص كموضوع علمي محض، ومادة إرشادية ببناء، ومعزولة عن طعون بعض المرجفين وتشكيكاتهم في هذا الناقل لرواية الإمام الباقر عليه السلام، والانتفاء الديني الذي يؤمن به في حياته الروحية والفكرية.

إن جابر بن يزيد الجعفي عليه الرحمة هو من نقل رواية النص، وهو نص دراستنا، ويتوافق هذا النص مع المعاني الإنسانية للمشرع التربوي الإسلامي من جهة، ومتلائمة مع وصايا المنهج العلاجي والإرشادي في العلوم النفسية الجديدة والمعاصرة، ومحدداتها العلمية المحضة، فالنص الذي ندرسه هو في حقيقته نص إرشادي، وكما نراه بنظرنا المتواضعة، وهو في الوقت ذاته ذو قيمة علمية تصلح للبحث، والدراسة وتحليل مفرداته، وعباراته، وصياغة مادة إرشادية، وبلغة معاصرة ما أمكننا، بغض النظر عن جملة التشكيكات والطعون في شخصية جابر، وهي في نظرنا لا تخلو من حساسيات مذهبية لا تتوافق مع القواعد العلمية، والأسس الموضوعية للبحث العلمي.

إنَّ وظيفتنا - كباحثين - متعددة الجوانب، وبطبيعة الحال التفكير، والتأمل في الطبيعة المعرفية للنصوص، ومادتها التي نبحثها، وندرسها، وأن نعزل ما أمكننا، وبموضوعية تامة كل الظروف والمؤثرات التي من شأنها تقليل القيمة العلمية لمادة النص، ومنها مزاعم الناس وافتراءاتهم، فيما يهمننا، ونحن نبحت في المادة الإرشادية لنص (وصية الإمام الباقر) هو «النظر فيما قيل فيه».. أي في مادة القول، لا النظر فيمن قال «أي لا ننظر في شكل الأشخاص وصفاتهم» كما قال الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام)، وتأسيساً على قوله الكريم: «لا تنظر إلى مَنْ قال، وانظر إلى مَا قال»^(١)، وفي نص آخر «وانظر إلى ما قيل».

ولعل نصيحة الإمام الباقر (عليه السلام) لجابر في مدخل وصيته الإرشادية أن يطلب منه أن لا يشغل نفسه بمواقف الأشخاص وتصرفاتهم الاستغزائية، وإنما يهتم فقط بـ «ما قيل فيه» لتطوير نفسه والبحث عن وضع ذاته من حيث (الاستقامة أو الانحراف) بالمعيار العبادي، ولتجنب السقوط من عين الله وأعين الناس معاً، ويعني هذا أنه يدعو للتفكير

(١) التميمي، عبد الواحد الأمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٢، رقم الحديث (٤٠)، ص ٣٢٠.

الموضوعي فيما قيل كمادة بحث ودراسة تتم معالجتها بطريقة علمية لا الانجرار وراء دوافع شخصية.

ولهذا، فدراستنا هذه، تهتم بموضوع، ومادة إرشادية تشغل تفكيرنا، لا انشغالنا بمشكلة (ناقل الوصية) كرواية ذات موضوع معتبر، أي ما يهمنا هو طبيعة (المادة الإرشادية) للنص، وليس موضوع بحثنا، ما يثيره البعض من تشكيكات وطعون في شخصية جابر الجعفي رحمه الله، فهذا أمر متروك للعلماء والمحققين الذين ذهب كثير منهم، وبالأخص من علماء الإمامية إلى اعتبار جابر عليه الرحمة رجل ثقة، والنظر إليه كـ (عالم جليل، وثقة معتبر)، ويكفيه أن عالمين كبيرين كابن شعبة الحراني في القرن الرابع الهجري، والعلامة المحدث الشيخ محمد باقر المجلسي رحمه الله في القرنين الحادي عشر والثاني عشر قد وثّقاه، ونقلّا عنه، ولم يطعنّا في روايته.

مفهوم الوصية الإرشادية

لاحظنا في مدخل هذا النص الإرشادي، وفي السطر الأول منه استخدام ابن شعبة الحراني عليه رحمة الله ورضوانه - وهو مؤلف كتاب (تحف العقول عن آل الرسول)، وجامع رواياته، وخطبه، وجمله، وحكمه القصار - لمصطلح (وصيته)، وهو أول لفظة، وكلمة في عنوان هذه الرواية بهذا المصدر، وكتب ابن شعبة عنوان هذه الوصية هكذا: (في طوال هذه المعاني.. وصيته^(١) لجابر بن يزيد الجعفي)، وكان ضمير (الهاء) يشير إلى (وصية الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام) لصاحبه المذكور.

والوصية في مجمل معناها الكلي بالقواميس والمعاجم اللغوية العربية مرتبطة عند

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص ٢٠٦.

العرب، وعلماء اللغة بمعناها الأصلي وهو ما يتصل بأمر الميت، فهي (ما يوصي به^(١))، فالوصية ما يُوصى به^(٢) أو (ما أوصيت به^(٣))، ومضت تفاسير المعاجم على هذا المنوال، ولم تذكر شيئاً عن وصايا غير مالية كالوصايا الإرشادية، ومع ذلك شاع ذكر (الوصية) كلفظ، ومنظومة وصايا إرشادية في بعض مصادرنا استخدام ألفاظ وكلمات مثل (وصيته، وصايا، وصاياه) خارج سياق المعنى المالي والمادي، فلفظ (وصيته) المذكور في أول الرواية التي رواها جابر الجعفي عن إمامه الباقر هو لفظ شائع في ثقافتنا العربية، ويستفاد منه في الاتجاه المناسب، وهو مجرد مثال تطبيقي.

فالوصية (اسم)، وجمعها وصايا أو وصيات، وتعدد معانيه في معاجم اللغة العربية، ولها معنى فقهي، ومعانٍ متعددة في اللغة والقانون، وعادة ما يشترك في نسيجها أطراف متفاعلون كـ (الوصي، والموصى له، والموصى به)، وغالباً ما يتبادر لأذهان الناس إلى الوصية المالية التي بمقتضاها يتم توزيع المال وثروة الشخص والممتلكات بعد وفاته كالأب، أو غيره.

وقد تكون الوصية وثيقة أو مستنداً خطياً يُخبر فيها الرجل عن رغبته في كيفية توزيع أمواله وممتلكاته بعد موته، ولكن مفهوم الوصية كما في مثال وردنا في نص الإمام الباقر أعلاه (معناه المالي والمادي)، وامتد ليدخل مفهوم الوصية في سياق معنى ثقافي، أخلاقي، وتنظيمي للسلوك، كأن تكون الوصية نسقاً لمجموعة من القواعد السلوكية التي يوصي بها الأب أبناءه، أو أحد العلماء تلاميذه، أو هي وصايا لله عز وجل يعمل بها كقواعد توجيه للعمل، وتوجيه كما جاء في وصايا النبي محمد ﷺ، والإمام علي،

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (وصي) باب حرف الواو، ص ٤٨٥٤.

(٢) ابن منظور، مصدر سابق، ص ٤٨٥٤.

(٣) المعجم الوسيط، ص ١٠٣٨، ومختار الصحاح للرازي، ص ٣٠٢.

والسيدة فاطمة الزهراء وباقي الأئمة الأطهار عليهم جميعاً السلام.

وقد قيل قبل ذلك بما يعرف بالوصايا العشر، ويقصدون الشرائع والحكم، والقواعد الثقافية والأخلاقية والسلوكية التي تحفظ لتنظيم حياة الفرد، وعلاقات جماعات الناس مع بعضهم من غوائل الانحراف، وبالتالي يفهم من الوصية الثقافية التي نحن بشأنها (كل شريعة ملزمة أو كل منظومة قواعد سلوكية يراد العمل بها أو يجب الالتزام بها، وتطبيقها، وتنفيذ ما جاء في بنودها)، فوصية الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام لصاحبه الكريم جابر بن يزيد الجعفي رحمه الله تعالى هي فعلاً (وثيقة إرشادية وثقافية وتربوية) كانت مسموعة لحظة صدورها الأول، ثم أصبحت مروية عن طريق التناقل الشفهي حتى كتبت في وقت لاحق بمصادر العلماء الثقات، والموالين لأهل البيت عليهم السلام، ودونت بعد ذلك في بعض المصادر الروائية والتاريخية عند الشيعة الإمامية وغيرهم من أئمة الإسلام وعلمائه، فأصبحت هذه الوصية بمثابة (وثيقة مخطوطة ومكتوبة) صدحت بها أفواه وكتب، وما يزال تراث أهل البيت عليهم السلام يفخر بمثل هذه الوصية كسائر ما جاء عن الأئمة الأطهار من وصايا وحكم.

مصادر وصية الإمام الباقر لجابر الجعفي

قلّبت عدداً من مصادر الإمامية باحثاً عن ذكر هذه الرواية التي يمكن أنها نقلت لنا (وصية الإمام الباقر عليه السلام) في الإعداد التربوي، والتوجيه الإرشادي، لكن لسوء الحظ، وتقصيرنا في البحث، ورغبتنا في استثمار الوقت الذي بات يضيق علينا، لم تتمكن من العثور على مصادر كثيرة لهذا النص الحيوي والمهم، ولهذا اكتفينا بما تحصلنا عليه من مصادر نعتقد أنها تكفي لاعتمادها كنص إرشادي معتبر القيمة، من حيث تناسب موضوعها الإرشادي للنصوص الدينية والأخلاقية، ومع تقصيرنا في البحث عن

مصادر لنص وصية الإمام الباقر لصاحبه جابر بدرجة كافية، إلا أن المعروف من هذه المصادر حتى الآن أنها تعد في نظر علماء الإمامية رضوان الله عليهم (معتبرة، وأساسية، وموضع ثقتهم).

أهداف دراسة وصية الإمام الباقر (عليه السلام).

نرى بنظرنا الاجتهادية المتواضعة أن أهداف هذه الوصية كنص إرشادي كريم قد توزعت على مستويات ثلاثة:

أولاً: أهداف الموجه المرشد.

ثمة أهداف أراد الإمام الباقر تحقيقها، ونلخصها فيما يأتي:

١. تحقيق الإمام محمد الباقر رضا ربه الكريم (الله سبحانه)، وجعل هذا النص في خدمة عباده الصالحين من أهل الإيمان، وإرشادهم بالطرائق والأساليب التي تهين لهم شعوراً إيجابياً بحياة آمنة في عالم الآخرة.

٢. سعي الإمام الباقر (عليه السلام) إلى توظيف خبرته الروحية والمعرفية في صياغة مادة إرشادية في نص مطوّل يستفاد منها بين أجيال المؤمنين على مدار قرون متتالية من الزمان في بناء النمط العبادي من أوجه متعددة.

٣. ترسيخ الموجه المرشد بتعاليمه وقيمه، ونعني به هنا (إمام الحق محمد الباقر (عليه السلام)) لروابط الولاء والفكر الإيماني والعبادي بينه وبين أصحابه آنذاك، وتنمية علاقاته الواسعة مع جميع المؤمنين على امتداد الدهر، وخير مثال لذلك تواصل هذه الجموع معه بآليات ووسائل اتصال كثيرة لم تنقطع طوال هذا التاريخ.

ثانياً: على مستوى الوصية كنص موضوعي:

ويرتبط بنص هذه الوصية رغبة الإمام الباقر عليه السلام بتحقيق بعض الأهداف من شيوع نصه كأحد مصادر التوجيه والتربية الإرشادية، ومنها- كما نراها- ما يأتي:

١. تربية الإمام محمد الباقر عليه السلام لأصحابه المقربين، والموالين له في عصور متتالية من الزمان على اكتساب قدر مناسب من الحصيلة اللغوية التي تصب خيراً نهايتها الأمر لصالحهم، وتثري قدراتهم اللغوية واللفظية^(١) كآليات في تحصيل وتحقيق أهداف حياتهم العبادية على المدى البعيد، فالقدرات العقلية- سواء أكانت لفظية أم غيرها- هي في نظر المربي المسلم مجرد وسائل وآليات، وليست غايات بالمنظور العبادي.

٢. توجيه الأفراد الموالين- وكل بحسب إمكانياته الذاتية- نحو توظيف الثروة اللفظية التي اكتسبوها من نص الوصية واستثمارها في عمليات بناء شخصياتهم.

٣. تمكين النص بمفرداته اللفظية، ومادته الإرشادية والمعرفية من التأثير على شخصيات الأفراد المؤمنين بتوجه ذاتي أو الاستعانة بمربٍّ.

ثالثاً: على مستوى المتلقي للنص.

١. تعزيز الروابط بين المتلقي، وبين أهل البيت جميعاً، ومنهم موجه هذا النص ومرشده.

٢. نقل المادة الإرشادية للنص ما أمكن إلى مستوى التفاعل الأوسع بين الموجه، والمتلقي.

(١) هي في دنيانا، وبالنسبة للفلسفات والثقافات غير العبادية تعتبر أهدافاً يمكن بذل الجهد لتحقيقها، وهي في نظر المشرع وسائل لبلوغ أهداف المؤمنين في آخرتهم، والتقرب بها- كنعمة إلهية- إلى الله عز وجل.

٣. إثبات قدرة المتلقي لهذه المادة الإرشادية، وبجهد الذاتي على استثمار هذه الوصية، وما تقدمه من عون وخدمة إرشادية في تربية شخصيته الخاصة.
٤. تحقيق الفرد لرضاه النفسي عن ربه عز وجل، وبلوغ حالات معقولة من التوافق، والرضا عن الذات، والصحة النفسية.
٥. أن يكتشف الفرد ذاته من خلال وسائل متعددة، ويعرف خصائصها الصحيحة وغير الصحيحة وفق معايير المشرع الإسلامي.
٦. تسخير عملية التأمل الذهني، والتفكير فيما يقوله الناس عن الفرد بغرض تمييز أنماط السلوك السوي، والعصبي في شخصيته.

مصادر توجيه الإنسان وضبط حركته في النص

عنيت بعض الدراسات الإسلامية قديمة ومعاصرة - وهي في مجملها دراسات أخلاقية وسيكولوجية وروحانية - بمصادر حركة الإنسان وتوجيه تفكيره، وعواطفه، وحياته الوجدانية، ومسار نشاطه اليومي، وقد عدّتها، واعتبرتها (منابع أساسية) في إدارة عمل الذات البشرية ونشاطها، وقد حصرها الشيخ محمد مهدي الآصفي طيب الله ثراه في دراسته عن (الهوى) بستة مصادر أو منابع أساسية، وهي «الفطرة، العقل، الإرادة، الضمير، والقلب أو الفؤاد، وآخرهم ما يعرف بالهوى»^(١).

وقال العالم الجليل الشيخ الآصفي - رحمه الله تعالى - بشأنها، وفي بيان أدوارها، وأهميتها في حركة الإنسان وتوجيه حياته ما لفظه:

١. الفطرة: وفيها أودع الله تعالى الميل والنزوع والانجذاب إلى الله تعالى ومعرفة،

(١) الآصفي، محمد مهدي، الهوى في حديث أهل البيت، ص ١٦ - ١٧.

وإلى الفضائل والقيم الأخلاقية كالوفاء، والعفة، والرحمة، والكرم...

٢. العقل: وهو مركز التمييز والتشخيص في تكوين الإنسان.

٣. الإرادة: وهي مركز القرار، وتؤمن للإنسان حرية القرار واستقلاله.

٤. الضمير: وهو محكمة قائمة في داخل النفس مهمته محاكمة الإنسان، وتوبيخه، وممارسة الضغط عليه لتعديل سلوكه.

٥. القلب أو الفؤاد أو الصدر: وهو نافذة أخرى للوعي والمعرفة، كما نفهم من خلال آيات كتاب الله تعالى، يتلقى الإشراق والوعي من لدن الله تعالى.

٦. الهوى: وهو مجموعة الغرائز والشهوات المودعة في نفس الإنسان، والتي تتطلب الإشباع بقوة، وتكسب الإنسان لذة عند الإشباع.

ثم قال في خاتمة إشارته لهذه المصادر: «وهذه المنابع الستة التي ذكرتها للحركة والوعي في نفس الإنسان، هي من أهم المصادر التي أودعها الله تعالى لدى الإنسان»^(١) لتسيير وإدارة حياته بتوجيه من هذه القوى الأساسية وفعلها الإيجابي والسلبي.

وما ذكره شيخنا المرحوم الآصفي قد أشارت إلى بعضه وصية أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام كنص تربوي وأخلاقي وإرشادي بألفاظها المباشرة وبأسماؤها المعروفة في المصادر الإسلامية كـ (الهوى، والعقل، والقلب أو الفؤاد)، وأشارت إليه ضمناً، ونحن غير مباشر كالمصادر الثلاثة الأخرى، وهي (الفطرة، والإرادة، والضمير) في عدد من جملها، وعباراتها، وسيدرك القارئ في طي كلامنا في هذه الدراسة ما كان مذكوراً بمصطلحات مباشرة، وما كان مشاراً إليه ضمناً في طي النص ومفرداته اللفظية بنحو غير مباشر يوجه الفهم إليه.

(١) الآصفي، محمد مهدي، مصدر سابق، ص ١٦.

ونحسب أن بعض المصادر المكتسبة من خارج الذات الإنسانية لم يذكرها الشيخ الآصفي رحمه الله عزّ وجل، وذكرتها وصية الإمام الباقر (عليه السلام) في نصّها مباشرة أو بنحو غير مباشر، مثل العلم والاسترشاد به كما في نص الوصية وعدد من مصادر الإسلام، وكذلك (الدين أو الوحي الأمين) في تكاليفه الشرعية، وأوامره ونواهيه، وفرائضه، وأحكامه المتعددة، إلّا إذا كان الشيخ الآصفي رحمه الله قد أدخل (الدين، والوحي) كجزء من الفطرة الإنسانية كما هو شائع في المصادر الدينية، وأدرج (الاسترشاد بالعلم) ضمن (قوى العقل)، وكأحد مصادر التوجيه الإنساني في حركة الحياة، ونعتقد أنه رغم اتصاليهما (العلم والوحي أو الدين) بالفطرة، وتركيبية العقل وقواه إلّا أنها قوتان أساسيتان في عملية التوجيه الفكري والوجداني والسلوكي للكائن الآدمي.

مسوّغات دراسة وصية الإمام الباقر لجابر بن يزيد الجعفي.

وجدنا في بعض المسوّغات ما يستثير رغبتنا في دراسة نص وصية الإمام الباقر (عليه السلام) لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي، ويمكننا تحديد بعض هذه المسوّغات التي اقتضت دراسة الوصية كنص مليء بتوجيهات وإرشادات خاصة بتربية الشخصية المؤمنة، وجعلتها في اعتقادنا المتواضع جديرة بالبحث والدراسة وتحليل مادتها اللفظية والمعرفية، ومنها ما يأتي:

١. الطبيعة الإرشادية لنص هذه الوصية، وخصوبة مخزونها المعرفي الخاص بهذا الموضوع التربوي، وثروته الأخلاقية الفاعلة في تكوين نظرة إرشادية تعين المربي على بناء النمط العبادي لشخصية الإنسان المسلم المعاصر.
٢. حاجة الأفراد المؤمنين لمجموعة التعاليم والتوجيهات والإرشادات التي

تضمنتها هذه الوصية، وبكيفية مباشرة في عمليات الإعداد التربوي للشخصية المؤمنة في مراحل مختلفة من تاريخنا.

٣. الطول النسبي لنص الوصية قياساً لنصوص أخرى من تراث الإمام الباقر (ع)، فهذه الوصية هي من أكثر نصوصه التي عثرنا عليها طولاً.

٤. تناسب حجم هذه الوصية في طولها، وفي وفرة مفرداتها اللفظية وغزارة معانيها، مع إمكانية استخدام جزئي للمنهج الموضوعي، والإفادة منه في عملية تفسير موضوع حيوي، واستمداد رؤيته المعرفية من باطن هذه الوصية.

٥. وضوح لغة النص، ونعني الوصية، وتناسب مستواه اللفظي مع ثقافة كثير من الناس سواء كانوا من الباحثين أم من القراء.

٦. توثيق نص هذه الوصية في مصادر إمامية قديمة ومعتبرة، ومدونة في كتب وموسوعات علماء ثقات، والاطمئنان إلى مستويات كفاءتهم.

٧. نقص الدراسات بوجه عام المستخلصة من تراث الإمام الباقر (ع)، ودراسة هذه الوصية فرصة لقراءة بعض تراثه العلمي والروائي.

كيفية دراسة الوصية

يحتاج كل باحث يريد دراسة هذا النص ومعرفة مضامينه الداخلية لانتقاء منهج مناسب يساعده على نجاح مهمته في التعامل مع هذا النص وتفكيك محتواه وتحليل بنيته المعرفية، وهذه الخطوة تمثل ضرورة علمية، وهناك أكثر من منهج يمكن استخدامه في دراسة نص هذه الوصية، فاختيار المنهج المناسب من مهمة الباحث نفسه، ومعرفته بقدرته على استخدامه في تفسير مفردات هذا النص، وإدراك معانيه، واستثمارها في

تحديد مقاصده البنائية، وأهدافه التربوية بنحو خاص، وكل باحث هو في نهاية الأمر حر العمل، وفي اختيار المنهج بما يخدم أهدافه، ويصل به إلى النتائج المراد تحقيقها. ويبدو أمامنا منهجان رئيسيان هما: (المنهج التجزيئي، والمنهج الموضوعي).

أ- المنهج التجزيئي.

وتاريخياً ساد في أوساط كتابات العلماء الأقدمين، وكثير من المعاصرين اتجاه ومنهج تفسيري يقوم في عملية (تفسير النصوص) المراد دراستها إلى جمل وعبارات ومقاطع صغيرة ما أمكن، حيث يتحرك المفسر هنا - وبهذه العملية - من جملة سابقة ومتقدمة، إلى تفسير جملة لاحقة، ومتأخرة تتلوها، وتتصل بها حتى يصل المفسر شيئاً فشيئاً إلى آخر جملة، أو نهاية النص الذي يفسره بطريقة تجزيئية، ومفككة الأجزاء إلى نهايته.

وتتداخل في هذه المهمة أشكال محدودة من المعارف، ويختلط فيها ما هو أدبي، ولغوي، وفلسفي وأخلاقي بمعارف جزئية ومحدودة أخرى، وغير مترابطة أحياناً، ولا تمكن الفرد من تكوين نظرة معرفية موحدة إزاء قضية أو موضوع معين، ونعتقد أنه يمكن استخدام هذا المنهج التفسيري في دراسة نص هذه الوصية، وتفسير معانيها بهذا المنهج التجزيئي، ويعطي بعض الفوائد، ولكن لا يخدم العملية الإرشادية التي يتبناها نص وصية الإمام الباقر كوحدة معرفية متكاملة.


ب- المنهج الموضوعي.

وثمة اتجاه تفسيري هو الآخر قديم، ومعروف نسبياً في بعض الكتابات ومجالاتها المعرفية، ولكن لم يجد هذا المنهج الموضوعي انتشاراً في مجالات المعرفة الإسلامية سوى في مجال علم الحديث وتدوين الروايات في أبواب، وفصول مقسمة، ويسهل الوصول

إليها، فكل مجموعة منها قائمة بذاتها، وعلى حدة بحسب نوع موضوعها، وسار على منواله علماء معاصرون في رواية الحديث كما في موسوعة (ميزان الحكمة) بمجلداته العشرة.

بيد أن علامتنا الكبير، والمفكر الإسلامي الشهيد السيد محمد باقر الصدر طيّب الله ثراه قد خطا بالمنهج الموضوعي خطوات تقديمية أوسع، وقدم تجربة علمية انموزجية قائمة على تحليل نصوص قرآنية وآياته الكريمة في موضوع موحد معرفياً، ومتكامل في جوانبه الفكرية أسماه بـ (السنن التاريخية في القرآن الكريم)، وطبع كتابه -بدء الأمر- بعنوان (الاتجاه الموضوعي، والتجزئي في تفسير القرآن الكريم)، وقد عالج فيه الموضوع ذاته برؤية جديدة غير مسبقة.

الدراسات السابقة

هناك مصادر -بحدود خبرتنا المتواضعة- نشرت نص هذه الوصية وتناقلتها عبر أجيال متعاقبة من الزمان، فهذا النص موثق في كتاب (تحف العقول عن آل الرسول)، وهو من مصادر الإمامية في القرن الرابع الهجري، وعرفنا كذلك أن العلامة المحدث محمد باقر المجلسي، وهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري قد نقل هذه الوصية، وأثبتها كنص في موسوعة (بحار الأنوار^(١))، وفي بعض النسخ من الكتب، وهذه إفادة بتعدد مصادر نقل هذه الوصية كرواية عن جابر الجعفي ينقلها عن أبي جعفر الإمام محمد الباقر .

ومما لا شك فيه أن المتقدم السابق هو الأصل، والآخر ناقل عنه، بيد أن هذين

(١) انظر موسوعة البحار للمجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٦٢ - ١٦٥.

المصدرين، وربما في غيرهما اكتفيا بنقله من مصدر إلى آخر، ويعني ذلك مجرد استنساخه من مصدر سابق ليستقر في مصدر لاحق، وبالتأكيد وجدنا في بعض المصادر كما في تحف العقول، وفي (موسوعة البحار للمجلسي) عليه الرحمة والرضوان استخدام تفسير تجزيئي لبعض كلماته فقط، ووضع معانيها في هوامش نص الوصية أسفل الصفحة في هذين المصدرين، وتعتبر هذه الخطوة بمثابة (تعليق) على بعض الكلمات، وتفسير غوامضها بحسب ما يراه المحقق، وما قد يعتقده الباحث من وجهة نظر، ولكن هذا لا يعني أن دراسة تحليلية سابقة لنص هذه الوصية سواء كانت بطريقة تجزيئية أم بمنهج آخر.

ونعتقد -وربما كنا مخطئين- أن هذه الوصية على أهميتها التربوية والإرشادية في توجيه الفرد المؤمن لم تجد اهتماماً مناسباً يجعلها مادة بحث ودراسة وتحليل واستقراء، ولم تحظ بدراسة مستقلة ومنفردة ومستفيضة سواء بطريقة تحليلية أو غيرها، وتعدّر علينا معرفة وجود دراسة لهذا النص حتى لحظة دراستنا بعض محتوياتها المعرفية باعتقاد جزئي للمنهج الموضوعي، ولا يسعنا سوى القول إن الحقيقة عند الله عز وجل.

عوائق الدراسة

كما تعودنا في إعداد الدراسات مطولة أو قصيرة، فإنها لا تخلو عادة من مشكلات وعوائق، وقد واجهتنا في تحضير مادة هذا الكتاب عوائق محدودة -كسائر ما عهدناه من عوائق في إعداد دراساتنا السابقة- ويسّر الله المضي في جمع مادة هذه الدراسة، وتنظيمها منهجياً حتى وصلت إلى وضعها الآن، ونحن لا علم بمدى رضا القارئ عنها أو اعتراضه عليها، ويمكننا القول إن هناك أكثر من عائق سنشير إليه بإيجاز، ولكنه لم يمنع من إعداد دراستنا لأحد الموضوعات التي تضمنتها هذه الوصية، ومن ذلك تم

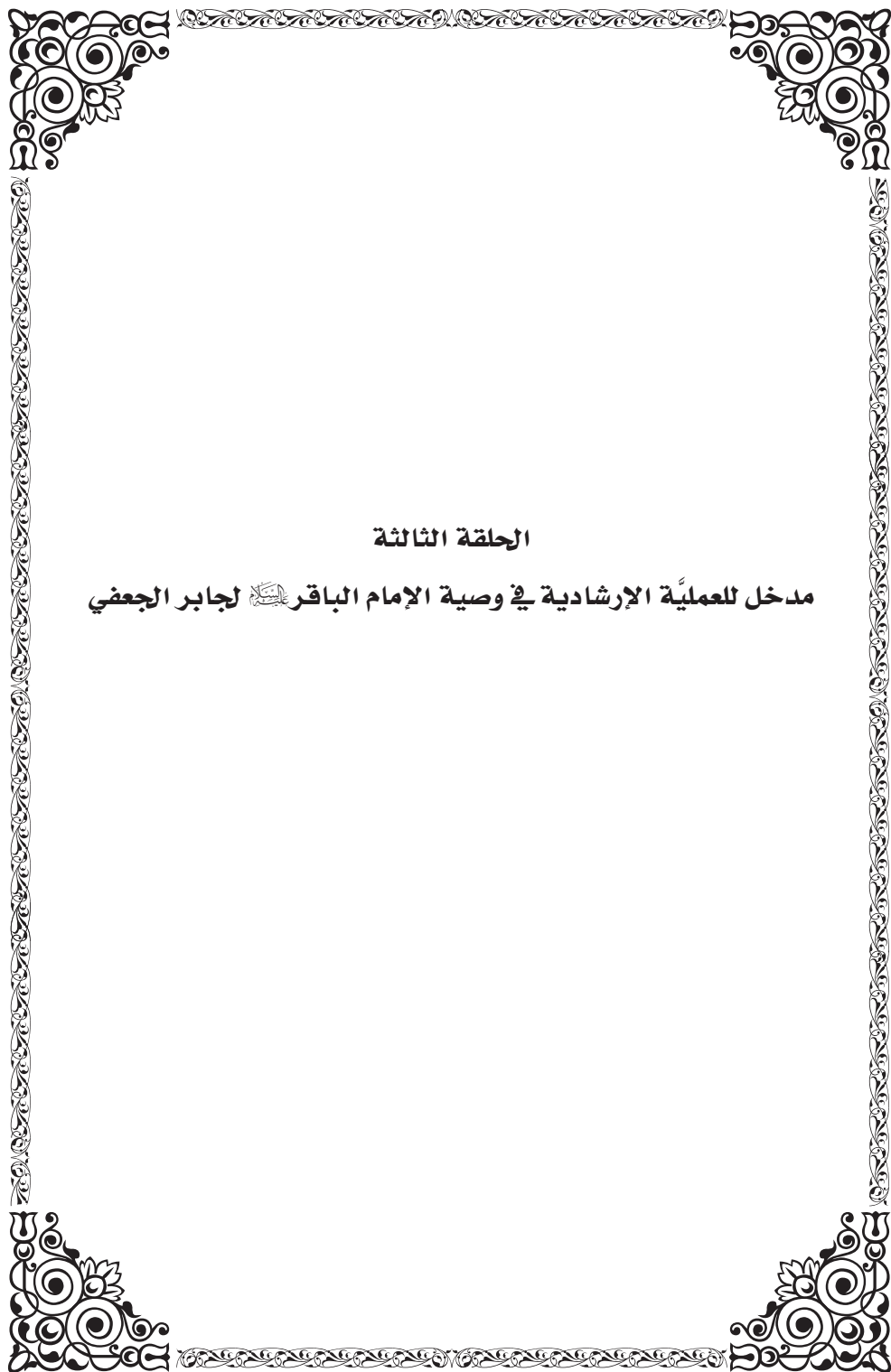
إعداد هذا الكتاب.

١. ويقوم العائق الأول على أننا لم نجد في المصادر التي نشرت هذه الوصية شروحات وتفسيرات كافية، باستثناء وضع هوامش أسفل بعض صفحات الوصية، وهي أشبه بتعليقات على معاني بعض الكلمات في هذه الوصية، وبعدد قليل، وعلى نطاق ضيق، ولعل علماء الشيعة الإمامية بالأمس، وفي مراحل تاريخية سابقة، وبعيدة، ربّما كانوا لا يتحسسون حاجتنا إلى وجود هذه الشروحات والتعليقات الموسعة التي نتحسس قيمتها، ونحتاجها اليوم بعد أن فقدنا كثيراً من المفردات اللفظية باللغة العربية، وذلك - كما نعتقد - أنهم بسبب تمكنهم من اللغة العربية وعلومها، وضوابطها، وفهمهم في الوقت نفسه معاني دينية تسهّل عليهم فهم مفردات الوصية ومعانيها، وإدراك مقاصدها فقد تجاوزوا عن شروحات لمفردات لفظية كثيرة، ويعني ذلك أنّهم آنذاك كانوا (قريين من لغتنا العربية)، ومهاراتهم - كما نظن من فهم هذا النص - كانت من خبراتهم اللغوية للعربية التي ألفوها، فلم يعد في نظرهم اهتمام كبير بشرح مفردات ومعاني كلمات عربية.

٢. بالرغم من جدّتنا في البحث عن مصادر لنص رواية هذه الوصية، وتناقلها بين أيدي الناس، وعبر أجيال متعاقبة برواية صاحبه جابر الجعفي عن إمامه الباقر (عليه السلام)، إلّا أنّ ما تم بذله من جهد بحثي في هذا الشأن لم يساعدنا حتى الآن على تحصيل معرفة موسعة بمصادر هذه الرواية في كتابة العلماء الأقدمين، وأنه حتى لحظة الانتهاء من إعداد هذه الدراسة لم نوفق سوى في معرفة عدد قليل من المصادر، ومع اعتقادنا بأن نص الوصية كرواية عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام)، وبلسان صاحبه الكريم (جابر الجعفي) هي في واقع الحال وصية ذات قيمة علمية وأخلاقية، ومبثوثة كإداة إرشادية في عدد من

المصادر الروائية لعلماء الإمامية، وبنسخ أخرى^(١) كما جاء في موسوعة (كتاب بحار الأنوار).. للمحدث الكبير الشيخ محمد باقر المجلسي رحمه الله عز وجل، وكما نقل محقق كتابه في طبعته الثانية التي وصفها بـ «المحققة».

(١) استخدم محقق موسوعة (بحار الأنوار) الصادر عن مؤسسة الوفاء في طبعته الثانية المحققة لعام (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م) جملة (وفي بعض النسخ) على تعليقاته في شرح بعض معاني كلمات هذه الوصية، وتكرر الاستعمال للجملة المذكورة في موضوع ((وصية الإمام الباقر لجابر الجعفي))، انظر هوامش ص (١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٧٥، وصفحات عديدة)



الحلقة الثالثة

مدخل للعملية الإرشادية في وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي

مقدمة

ونقصد موضوع هذه الحلقة الرئيسية من كتابنا، وهو حديثنا عن وجود نزعة إرشادية بارزة في نص وصية الإمام الباقر عليه السلام بألفاظ مباشرة وصریحة أو بألفاظ وجمل تعبيرية تنتهي دلالتها ومعانيها إلى تأكيد وجود هذه النزعة أو اتجاه إرشادي يجيد ما يسميه البعض من العلماء والباحثين بـ (المنهج الإرشادي)، وهو منهج إنساني يتعهد فيه المرشد والمربي المسلم، وبثقافته التربوية الإسلامية بتقديم خدمة إرشادية ذات مضمون عبادي تعين الأفراد على مساعدة أنفسهم، وتخطي صعاب الحياة وعقباتها وآلامها والتغلب على ظروف سوء التكيف فيها، والوصول إلى أهداف مأمولة يرتضيها المشرع التربوي الإسلامي.

إنَّ (الإرشاد) بمعانيه السيكلولوجية والأخلاقية والثقافية لا تقتصر على وجود نزعة إرشادية يؤكد عليها نص الوصية الباقية في ألفاظها، وعباراتها، وتركيباتها اللغوية، بل يلحظ من سياق المحتوى اللفظي والمعرفي تجاوز النص للمعنى العام للإرشاد كنزعة فطرية في تركيبتنا الآدمية إلى مستوى تنظيم هذه النزعة وتفعيلها كخبرة إنسانية تؤدي أغراض المنهج الإرشادي الذي يتبناه المشرع التربوي الإسلامي سواء في نص الوصية الباقية أم في مئات الروايات والأحاديث والنصوص بمختلف تصنيفاتها المعرفية والروحية، وهي خبرة إرشادية تنظيمية للسلوك البشري وتوجيهه في مسارات العمل العبادي المقبول في حياة الإنسان، وبمحدداته الإيمانية.

كما أن النزعة الإرشادية في هذا النص الكريم لوصية الإمام الباقر عليه السلام تجاوزت

- كما فهمناه- الطابع الفردي من توجيه وإرشاد لشخص واحد من الناس اسمه جابر بن يزيد الجعفي، وهو صاحبه المخلص رضوان الله عليه إلى طابع جماعي بتوجيه الأفراد المؤمنين، وبخدمة إرشادية منظمة إلى طريق الهدى والاستقامة وطاعة المعبود، وطلب رضاه سبحانه بمجموعة من التوجيهات والإرشادات انطوت على أوامر حيناً، ونواهٍ حيناً آخر، وكان غرض الإمام الباقر عليه السلام توحيداً في قوة تنظيمية ضابطة للسلوك الإنساني بخطوات وقائية إذا كان الموقف التربوي يتطلب العمل الاستباقي أو بخطوات علاجية حين تغرق الذات في بعض أمراضها السلوكية الشهوية، فيكون قدر المربي والمعالج والمرشد استخدام الأوامر والنواهي الإرشادية التي تتطلبها ظروف الشخصية في مواقف علاجية.

وما نعينه بانتقال فهم النص إلى عمل جماعي هو بتقبل جماعات المؤمنين وأفرادهم الروح الجماعية للنص، فالواضح أن حديث الإمام الباقر عليه السلام كان موجهاً كما أشرنا لصاحبه جابر الجعفي، وهذا قد يراه البعض مناً فردياً، ونعتقد أن هذا الفهم خاطئ وغير منطقي، إذ لو كان الأمر كذلك لما نشره جابر بين الناس ليتعلموا مضامين دعوته الإرشادية ووصاياه المعرفية والأخلاقية، ولكان نص الوصية في تراث جابر وحده، ولكنه رحمه الله أثر نشره ليستفيد منه المؤمنون وعامة الناس، ويتعلموا منه أفراداً وجماعات، وهكذا فهمنا أنه نص للجميع لا لواحد دون غيره من الناس.

المفهوم اللغوي للإرشاد

تعددت اجتهادات اللغويين في تحديد معاني لفظة (رَشَدَ) وما تفرع عنها، ورد في بعض هذه المعاجم: عن (مفردة رَشَدَ) ما لفظه: «رَشَدَ (الرَّشَاد) ضد الغي، تقول (رَشَدَ) يَرُشِدُ مثل قعدَ يقعدُ، (رُشِداً) بضم الراء، و(أرشدَه) الله، والطَّرِيقَ (لأرشد)

مثل الأَقْصَد، ونقول هو (لرَشْدَة) ضد قولهم لِرْزِيَّة^(١)، وتوسع ابن منظور رحمه الله في تحديد معاني لفظة (رَشَدَ) ومشتقاتها اللفظية، ونأخذ منها ما توافق مع مفهومه العام والسائد في الثقافة اللغوية العربيّة.

قال ابن منظور في معجمه: «راشد، من أسماء الله تعالى الرشيد، وهو الذي أرشد الخلق إلى مصالحهم، ودلّهم عليها، أي دلهم تدبير الله على سبيل السداد من غير إشارة مشير ولا تسديد مُسَدِّد، والرُّشْد، والرَّشْد، والرَّشَاد: نقيض البغي، رَشَد الإنسان (بالفتح) يرشد رُشْدًا بالضم، ورشِد بالكسر، يرشد رَشْدًا ورشادًا، فهو راشد ورشيد، وهو نقيض الضلال إذا أصاب وجه الأمر والطريق... والراشد: اسم فاعل مِنْ رَشَدَ يَرُشِدُ رُشْدًا»^(٢).

وقال ابن منظور: «وأرشدَه الله وأرشدَه إلى الأمر، ورشدَه: هداه، واسترشدَه: طلب منه الرشد، ويقال استرشد فلان فلاناً لأمره إذا اهتدى له، وأرشدته فلم يسترشد، وفي الحديث: وإرشاد الضال، أي هدايته الطريق، وإذا أرشدك إنسان الطريق فقل: لا يعم عليك الرُّشْد، قال أبو منصور: ومنهم من جعل رَشْدَ يَرُشِدُ، ورَشْدَ يَرُشِدُ بمعنى واحد في الغيِّ والضلال، ثم قال: والإرشاد الهداية والدلالة»^(٣)، وذكر ابن منظور رحمه الله قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي أهدكم سبيل القصد^(٤)، سبيل الله عز وجل، وأخرجكم من سبيل فرعون.

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، باب حرف الراء، ص ١٠٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، باب حرف الراء، ص ١٦٤٩.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، باب حرف الراء، مفردة رَشَدَ، ص ١٦٤٩.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، باب حرف الراء، مفردة رَشَدَ، ص ١٦٥٠.

وفي القاموس المحيط والمعجم الوسيط تنوّعت استعمالات اللفظ (رَشَدَ) ومشتقاته، وننتقي منها، وبتصرف، ما حدد معناها اللغوي العام لكلمة الإرشاد^(١)، وبمعنى الهداية والطريق الأصوب، والاستقامة على طريق الحق، وجاء في السياق نفسه بعض المعاني القريبة منه، حيث نقل اللغويون في هذا المعجم والقاموس اللغوي معاني فعل (رَشَدَ) وانتقينا منها ما يناسب حديثنا، فقالوا في هذا القاموس: رَشَدَ: رُشِدًا، اهتدى فهو راشد، (رَشَدَ - رُشِدًا - وَرَشَادًا: رَشَدَ فهو رشيد، ويقال رَشَدَ أمره: رَشَدَ فيه وُفِّقَ له، و(أرشدَه): هداه ودلّه، يقال أرشده الله، وأرشده على الأمر، و(رَشَدَه): أرشده وهداه، والقاضي الصَّبِي: قضى برشده، و(استرشدَ) له: اهتدى له، وفلانٌ طلب منه أن يُرشدَه، والترشيد: حكم القاضي ببلوغ الشاب الرُّشد، و(الراشد): (المستقيم على طريق الحق)^(٢)، وتابع بعض هؤلاء اللغويين تحديد معناه في مسارات متعددة فقالوا:

أ- (الراشد): (عند الفقهاء): أن يبلغ الفرد الصَّبِي حد التكليف صالحاً في دينه مُصْلِحاً لماله.

ب- وفي القانون: السن الذي إذا بلغها المرء استقل بتصرفاته.

ج- والرشيد: من أسماء الله الحسنى، وحسن التقدير.

د- والمرشُد، هو الواعظ، ومن بلغ سن الرشد فهو «رشيد»^(٣).

وذكر الراغب الأصفهاني معاني واضحة للرشد ومشتقاته، وعزّزها بآيات

(١) انظر القاموس المحيط، والمعجم الوسيط، باب حرف الراء، ص ٣٤٦.

(٢) القاموس المحيط، والمعجم الوسيط، باب حرف الراء، مفردة رشد، ص ٣٤٦.

(٣) القاموس المحيط والمعجم الوسيط، مصدر سابق، ص ٣٤٦ (بتصرف).

ونصوص قرآنية، ففي مادة (رَشَد) من باب حرف الراء قال: «رشد: الرُّشد، والرُّشد خلاف الغي يُستعمل استعمال الهداية، يقال: رَشَدَ يَرُشِدُ، ورَشِدَ يَرُشِدُ قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرُشِدُونَ﴾^(١)، وقال: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾^(٣)، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾^(٤)، وبين الرُّشدين، أعني الرُّشد المؤمنس من اليتيم الرُّشد الذي أوتي إبراهيم (ع) بون بعيد، وقال: (هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)^(٥)، وقال: (لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رُشْدًا)^(٦)، وقال بعضهم: الرُّشد أخص من الرُّشد، فإنَّ الرُّشد يقال في الأمور الدنيوية والأخروية، والرُّشد يقال في الأمور الأخروية لا غير، والرَّاشد والرَّشيد يقال فيهما جميعاً، قال تعالى: (أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِدُونَ)^(٧)، و﴿وَمَا أَمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرُشِيدٍ﴾^(٨)»^(٩).

وحَدَّدَ اللغوي المعاصر (جبران مسعود) في معجمه الطلاي بعض المعاني الواضحة للرشد كمعنى (الهداية والاستقامة على الحق)، وهو المعنى المراد في نص وصية الإمام الباقر، قال جبران في رائد الطَّالِب: «رَشَدَ، يَرُشِدُ: رُشْدًا، ورَشَادًا، اهتدى، عرف طريق الرِّشاد والاستقامة»، رَشَدَ يَرُشِدُ، رَشَادًا، ورَشَادًا، وعدَّد جبران مسعود بعض

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) النساء: ٦.

(٤) الأنبياء: ٥١.

(٥) الكهف: ٦٦.

(٦) الكهف: ٢٤.

(٧) الحجرات: ٧.

(٨) هود: ٩٧.

(٩) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، باب حرف الراء، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

معاني (رَشَدَ) فقال: وهو يعدد بعض معاني هذه اللفظة: «الرُّشْدُ» هو:

أ- مَصَّ، رَشَد.

ب- الاستقامة على طريق الحق.

ج- الهدى، الصَّواب.

د- بلوغ الأولاد مبلغ الرجال أو النساء^(١).

المفهوم الاصطلاحي للإرشاد

وهو ما يشار إليه في علوم إنسانية متداخلة في مادتها.. كالأخلاق، والتصوف وعلم النفس، وعلم الإرشاد النفسي مع اختلاف في صياغة مفهومه، وتحديد معناه بحسب مفردات العلم الذي يشتغلون به، ومع ذلك لا نريد هنا تحديد مفهوم الإرشاد كما هو شائع عند الأكاديميين، ولا التوسع في مجالاته المتعددة كالإرشاد النفسي، والمدرسي، والاجتماعي، والديني، والعلاجي، وفي مؤسسات العمل ومجالاته المتعددة، وغيرها، فالإرشاد بالمساحة التي تحدَّث بها علماء الإرشاد النفسي هي واسعة، وتصل لمجالات عديدة من نواحي حياتنا، وهذا شغل المهتمين بالدراسات الأكاديمية، وهم بالتأكيد قد حددوا معناه بطائفة من التعريفات التي تهتم الأكاديميين والمهنيين، ولا نجد شغلاً لنا بها.

ومن هذه التعريفات ما ذكره معجم المصطلحات التربوية والنفسية بأنَّ الإرشاد هو (محاولة فرد مساعدة آخر على فهم مشكلات تكيفه وحلّها، ومنه الإرشاد التربوي،

(١) جبران مسعود، رائد الطلاب، ٤٦٠ - ٤٦١.

والإرشاد المهني، والإرشاد الاجتماعي^(١)، ومن أنواعه كذلك «الإرشاد العلاجي، وهو تخفيف وطأة المشكلات السلوكية بالإرشاد، والمهن المساعدة بالإرشاد في حل مشكلات اختيار المهنة أو التمييز لها»^(٢).

والإرشاد كمصطلح شائع في أدبيات علماء النفس يؤسسون مفهومه على اختلاف ألفاظهم في تعريفه بأنه علاقة فريدة لمساعدة مسترشد وصاحب مشكلة بجهد مرشد، مربٍّ يملك مهارات العمل الإرشادي، وتقوم هذه العلاقة على سرية وتفاعل ومقابلة بينهما واتصال عقلي وعاطفي بين شخص يملك مهارات العملية الإرشادية كما ذكرنا، وقد يكون نشاطاً بين مرشد ومجموعة أشخاص لمواجهة مشكلة معينة مع مساعد يمتلك نفس المهارات الإرشادية، ويعملون على توفير الأوضاع التي تسهم في حل المشكلة وتغيير السلوك بما يتفق وأهداف وقيم المسترشد، كما يرى آخرون منهم أن الإرشاد عملية مساندة ومساعدة بين مرشد ومسترشد، ويتاح فيها للمتعلم، والمسترشد، وصاحب المشكلة فرصة التعلم والتفكير والاختيار والتجربة وتغيير الأفكار والمشاعر والسلوك بطرائق مقبولة ومرغوبة، وبطوعية لا قهر فيها، وتساعد على فهم نفسه وحل مشكلاته الخاصة.

وتمضي تعريفات علماء الإرشاد على اختلاف لغتها اللفظية في هذا المنحى، ويمكن للقارئ، أو الباحث اللجوء لمصادر هذا العلم ليجد جملة من التعريفات شبه متقاربة في معانيها، وتوصيفاتها مع تفاوت قل أو كثر في لغتها اللفظية، وفي تحديد بعض خصائصه^(٣)، أو جميعها مع أنها تؤدي خدمة إرشادية إنسانية، إلا أنها لا توجه أهدافها

(١) حسن شحاتة، وزينب النجار، معجم المصطلحات التربوية والنفسية، ص ٣٣ - ٣٤.

(٢) حسن شحاتة، وزينب النجار مصدر سابق، ص ٣٣.

(٣) انظر مثلاً كتاب الارشاد التربوي والنفسى في المؤسسات التعليمية للدكتورة رافدة الحريري،

والدكتورة سمير الإمامي، ص ٢١ - ٢٣.

لخدمة الأهداف العبادية، لكنها بالتأكيد تلتقي معها في بعض ما تذكر من خصائص ومهام وأهداف.

إنَّ مفهوم الإرشاد في دراستنا محدود ومرتبط بالمحتوى المعرفي لوصية الإمام الباقر عليه السلام، وهو ذو صبغة دينية، وعبادية، وإنسانية، وتم بواسطة نص هذه الوصية تقديم خدمات إرشادية للفرد المؤمن كي يفهم نفسه، ويدرك جوانب القوة ومكامن الضعف في شخصيته، ويستبصر أساليبه في وقاية نفسه من مخاطر قواها الداخلية، والمثيرات المحيطة، ويساعد نفسه على اعتماد أساليب علاجية في نواح معرفية وروحية وسيكولوجية وأخلاقية، وفهم علاقات الذات بنفسها، ومع الإنسان الآخر، ومع الله عزَّ وجل، وبالعالم الأشياء، والاهتداء لطرق التربية والإصلاح وتقويم الذات بآليات المشرع التربوي الإسلامي المحددة في نص الوصية، وفي نصوص أخرى للإمام الباقر عليه السلام.

وتتوقف مهمة المنهج الإرشادي لدى المشرع الإسلامي في جوانبه الثلاثة (الإنمائي والوقائي والعلاجي) على تنمية روح المسؤولية لدى الفرد المؤمن، وعلى أخلاقية السلوك وإذكاء الصيغة الإيمانية، وعلى أداء الوظيفة العبادية: «للكائن الآدمي على هذه الأرض، وبدون هذا التفسير لا يمكن أن يتم أي نجاح في تعديل السلوك، ويتم ذلك من خلال الالتزام بمبادئ السلوك الإسلامي في مستويات النشاط، وبدون هذا الالتزام لا يمكن أيضاً أن يتم أي نجاح في تعديل السلوك»^(١).

وصاغ العلامة البستاني مبادئ السلوك الإسلامي في التصور التالي، فقال:

«تنطلق الشخصية الإسلامية من تصوّر خاص لدلالة وجودها في هذه الحياة

(١) البستاني، محمود، دراسات في علم النفس الإسلامي، ج ١، ص ١٦٧ - ١٦٨.

المحددة:

١. هذا التصوّر يقضي بأن وجودها (هادف)، وبأنّه يرتبط بالقيام بمهمة خاصة هي: (الخلافة على الأرض).

٢. المهمّة الخلافية أو العبادية المذكورة تحددها السماء، متمثلة في الالتزام بجملة من المبادئ (فعل ما هو واجب، مندوب)، وترك ما هو (محرم ومكروه)، والخيار بين سلوك لا يتسم بأمر أو نهي (المباح).

٣. ويتميّز (الوجود الدنيوي) بأنّه (مؤقت) أولاً، وبأنّه (وسيلة) وليس (غاية) ثانياً.

أ- أمّا كونه (مؤقتاً) فلاّنه قبال حياة أبدية هي (الدار الآخرة).

ب- أمّا كونه (وسيلة) فلاّنه من أجل تحقيق (الحياة الأخرى).

٤. إنّ مجرد (اختبار) يشبه الاختبار المدرسي تماماً لتسلّم (درجة) النجاح أو الرسوب في اجتياز الشخصية للدار الآخرة.

٥. يترتّب على (الاختبار) أن تواجه الشخصية (شدائد) أو (إحباطات) للذة، أي صراعاً بين (الشهوة والعقل)، بين (الذات والموضوع).

٦. ولكي يمضي (الاختبار) بنجاح يتعيّن على الشخصية أن تمارس نمطاً من اللذة هي (اللذة الموضوعيّة)، و(تأجيل) اللذة الذاتيّة (بغية تحقيقها في الدار الآخرة... بعد التخرّج)^(١).

(١) البستاني، محمود، مصدر سابق، ج ١، ص ١٦٨.

وقد عرّفنا باجتهاد علمي منّا مفهوم العملية الإرشادية في دراسة تربوية سابقة ورأينا بأنها: «العملية القائمة على تبصير الإنسان بذاته، وتقديم العون له، ومساعدته على تعديل سلوكه بقيم، وأساليب عبادية وإرشادية سواء اتّسمت بصيغة وقائية أو إنمائية أو علاجية»، فالعملية الإرشادية جهد بشري هادف ومنظم وموجه نحو تعامل صحيح مع الخصائص الإيجابية في الذات الإنسانية، بحيث تستجيب للأهداف العبادية^(١) التي توختها مختلف النصوص التربوية الإسلامية بما فيها نص الوصية الباقرية من توجيه وإرشاد ومساعدة وخدمة للمحتاج صاحب المشكلة، وهي تلتقي مع مضمون العملية الإرشادية وتفصيلها المجمل في أحاديث النبي محمد بن عبد الله ﷺ، وفي أقوال ونصوص الأئمة المعصومين الأطهار من عترته الكريمة.

ونعني من ذلك اعتبار هذه الوصية:

«وثيقة إرشادية مهمة، وآلية عمل عبادية يحاول المربي المسلم عن طريقها اكتشاف خصائص الذات، ومعرفة قواعد السلوك السوي في منهج الله، وتفعيل العلاقة بينهما، بهدف تمكين الإنسان من فهم ذاته، ومعرفة قدراته وتوجيهها في ضوء منهج إرشادي واضح الخطوط والمعالم.. منهج يساعده على القيام بالأدوار والوظائف العبادية المكلف بها من قبل خالقه سبحانه وتعالى، وتحقيق الأهداف الكبرى للإنسان»^(٢).

مفردة (الاسترشاد) بالعلم في نص الوصية.

بعد تعرفنا على معاني متعددة للفظ (الرشد) في مصادرها اللغوية، كان أبرز معانيها.. الهداية والاستقامة، ووضوح الطريق، نتوقف عند اللفظ الوحيد المباشر

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ٤٤.

الذي ورد في نص الوصية المباركة، ويذكر هذه العملية، وهو مصطلح (استرشاد العلم) المكوّن من لفظتين، ودلّت هذه الجملة القصيرة التي ورد فيها هذا المصطلح على دعوة واضحة ومباشرة، ومحفزة للعبء المؤمن على أداء الفعل الإرشادي كوظيفة عبادية لحماية الذات الإنسانية من مزالق الهوى ومخاطره سواء كان هذا المؤمن في دور (مرشد) أم كان في دور (مسترشد)، وكما علمناه فهذه اللفظة (استرشاد) اقترنت بكلمة (العلم) إذ جاء لفظ (الاسترشاد) في إحدى جمل الوصية الباقرية المباركة في الجزء الثالث من نصها عندما قال الإمام الباقر (ع) في سلسلة أوامر متتابعة الجملة التالية في كلام مباشر لا لبس فيه ولا غموض لمن يتقن العربية ومفرداتها، وكان (ع) يدعو آنذاك لمواجهة الهوى بدلالة العقل وباسترشاد العلم، فقال (ع)، وهو يأمر صاحبه جابر الجعفي، وكل مؤمن موحّد لله سبحانه وتعالى: «وَتَوَقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقِفْ عند غلبة الهوى باسترشاد العلم».

الخطوة السابقة هي خطوة وقائية (استباقية) باستخدام أهم النعم الإلهية على الإنسان في مواجهة هوى نفسه وشهواتها، ودوافعها المنفلتة، وباستعمال (العقل) القادر على التمييز بين الحق والباطل، وكذلك بالاسترشاد بالعلم كأحد مقومات الذات الإنسانية، ويمثل بالنسبة للإنسان خبرة ذاتية متولدة من نمو العقل، ونمو قدراته ونشاطها في حركة الحياة، فالعقل هو القدرات التي يولد الإنسان مزوداً بها من قبل الله عز وجل، أمّا العلم فهي خبرات الفرد، وما نشأ عنه من تجارب وتدريب هادف ومنظم في حركة الحياة، فكان منها الخبرات العلمية التي تدله على اختيار الطريق الصحيح، وترشده لما فيه خيره وهدايته واستقامته على منهج الحق، ولكن ذلك بخطوة وقائية قبل أن يُلَوِّث الإنسان نفسه وعقله بالانحرافات والذنوب وأنماط الإعاقة لنموه النفسي والذهني، فيضطر حينذاك إلى معالجات مكثفة وموجهة لإزالة ما لَوِّث النفس الإنسانية

من انحرافات، وما أصابها من أضرار الدنس والإثم، ومعوقات واضطرابات، وعلل، ورواسب فاسدة، وقد أسماها الإمام الباقر عليه السلام في نص وصيته لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي بـ (سالف الذنوب).. أي مجموعة الذنوب والمعاصي التي عصفت بالذات في تجارب ماضيها واستحكمت بمصيرها، ويعني هذا أن (الاسترشاد) لا بد أن يكون منهجياً، يعتمد على العلم والخبرة المعرفية المتولدة عن نجاح العقل وقدراته الذاتية على توليد حقائق معرفية سليمة تعينه على التمييز بين ما هو سليم، وما هو خاطئ.

وكانت الجملتان السابقتان تربطان العلم بالعقل؛ لأن العقل هو في الأصل (عقل ولادة) أي القدرة العقلية العامة، فأحد النصوص صرح قائلاً: «العقل أصل العلم، وداعية الفهم»^(١)، وما تميز عنها من قدرات خلال نمو الفرد وتفاعلاته مع مثيرات الحياة وظروفها، أمّا (العلم) فهو في أصله (عقل) إفادة أو استفادة أو تجربة^(٢)، أي

(١) محمدي ريشهري، ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٤٠٠، وكتابنا (التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية) ص ١٧٧.

(٢) إن العقل نوعان أحدهما الذكاء، وهو عقل فطري موهوب وفطري يولد الفرد أو الإنسان مزوداً به، ويسميه الإمام علي عليه السلام بـ «عقل ولادة، وعقل طبع، وعقل مطبوع»، أما النوع الآخر للعقل فهو تجارب الإنسان وما يكتسبه من بيئته بعد تفاعلاته المستمرة مع المثيرات في محيطه، ويسميه الإمام علي بعقل التجربة أو الإفادة، والمهم أن العقل - بقسميه معاً - أحد أهم العوامل المؤثرة في فهم الإنسان وتعلمه، واكتسابه الفضائل، والقيم وأنماط السلوك، ونذكر في هذا الصدد بعض النصوص التربوية الواردة عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، وقد جاءت في بعض المصادر الإسلامية مثل قوله: «العقل ولادة، والعلم إفادة»، والعقل عقلان: عقل الطبع، وعقل التجربة، وكلاهما يؤدي إلى المنفعة، ويعني عقل الولادة ما يرثه الفرد من ذكاء فطري زوده الله به، أما عقل الإفادة فهو العلم والخبرات المتولدة عن استخدام الذكاء وتنميته في صور متعددة من القدرات العقلية لدى الكائن الآدمي في مراحل متدرجة وتساعدية من عمره، وبخاصة في سني الطفولة، انظر ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٤١٣، وكذلك كتابنا (التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية)، يوسف مدن، ص ١٧٧.

أنَّه مجموعة خبرات تكوَّنت بعد نجاحنا في تنمية قدرات العقل ومهاراته الأساسية والفرعية بسلسلة من التجارب الدنيوية المقصودة كما ذكر الإمام علي (عليه السلام) في بعض أقواله، ولهذا السبب - كما نعتقد - تقدمت في الجملتين المذكورتين لفظة (العقل) على لفظة (العلم)، وأتت في جملة من نص الوصية الباقية لفظنا (دلالة العقل) قبل لفظي (استرشاد العلم)، فالعقل في أصله قدرة ذهنية فطرية كامنة في تركيبنا الآدميَّة، وقد وُلِدَ الإنسان مزوداً بها كي يتم تنميتها، بينما يشكل (العلم)، وهو أهم مظاهر العقل الفطري مجموعة «قدرات وخبرات متولدة عنه، ومكتسبة تنشأ عادة عن التجارب وعن أنشطة المربي لتفعيل القدرات الفطرية الكامنة للعقل وتنميتها أو هو بلغة متداولة اليوم ينشأ العلم من الذكاء وليس العكس، وقد ذكرنا حديث أن «العقل أصل العلم، وداعية الفهم»^(١).

كانت لفظة (الاسترشاد) لفظة واضحة، وتوحي لنا بالعملية الإرشادية في نص وصية الإمام الباقر (عليه السلام) بتفعيل قدراته وقواه الداخليَّة والمكتسبة، ومنها العلم، والإرادة وشدة التيقظ الذهني في مخالفة الهوى، ومواجهة شهوات النفس للسيطرة عليها وضبطها، وجعلها تحت الطوع والإرادة والمشیئة الإنسانيَّة، ولكن مع ذلك فثمة مفردات قليلة تصب في مسار الفعل الإرشادي وتعزيزه بالقيم العبادية كإشارة الوصية للفظ (التشاور)، والتفكر فيما قيل في الفرد من أقوال تزوير أو صحيحة، وهما شكلان من أشكال الفعل الإرشادي المراد تفعيله، وتأصيله، أمَّا باقي ما ورد في نص الوصية من جمل وعبارات فهي مجموعة مواعظ ونصائح وأوامر ونواهي تجتمع كلها في تعزيز العملية الإرشادية لاستخدامها في بناء نمط عبادي لشخصية الفرد المؤمن باتباع كل أمر يرشد إليه العقل والعلم والدين، وتجنب كل ما ينهون عنه من السيئات، والمعاصي

(١) محمدي ريشهري، ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٤٠٠.

وأفعال السوء.

قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «الأمور ثلاثة:

- أمر بان لك رُشدُه فاتبعه.
- وأمر بان لك غيُّه فاجتنبه.
- وأمر أشكل عليك فرددته إلى عالمه»^(١).

وبوجه عام - وكما عرفنا النفس - لن تترك صاحبها يختار رُشدَه وهدايته وصواب الطريق بسلام وراحة واطمئنان، لذلك لا بد من تنبيهه لمقاومة ما تريده من وسوسات شيطانية ونوازع إبليسية، وقد نصح أمير المؤمنين بما قاله لابنه الإمام الحسين عليه السلام بضرورة اختيار مخالفة شهوات النفس.

ولنقرأ بعض النصوص القصيرة في هذا الشأن:

«يا بُنَيَّ كم من عاص نجا، وكم من عامل هوى، من تحرَّى الصدق خَفَّت عليه المؤن، في خلاف النفس.. رُشدُها»^(٢)، وقول ابن أبي طالب سلام الله عليه في هذا الشأن: «الرُّشد في خلاف الشهوة»^(٣)، والمراد هنا نوع الاستجابة، وتعني كما قلنا في دراسة تربوية وأخلاقية سابقة: «الاستجابة للشهوة المحرمة، غير السَّوِّية بالمعيار الديني والإنساني هو خلاف الرُّشد العقلي للإنسان»^(٤)، وقوله: و«املكوا أنفسكم بدوام جهادها»^(٥).

(١) الحاراني، الحسن بن الحسين بن شعبة، تحف العقول، ص ١٤٩.

(٢) الحاراني، ابن شعبة، مصدر سابق، ص ٦٦، وميزان الحكمة، لمحمدي الريشيري، ج ١٠، ص ٣٨٤.

(٣) الحاراني، ابن شعبة، مصدر سابق، ص ١٥٣.

(٤) مدن، يوسف، العلاج النفسي وتعديل السلوك بطريقة الأضداد، ص ٢٥٩.

(٥) محمدي الريشيري، ميزان الحكمة، ج ١، ص ١٤٣.

ويستفاد من التركيبة اللفظية لنص وصية الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام)، ومحتواها المعرفي الحكيم أنها دعت في مادتها الإرشادية للعملية الإرشادية بألفاظ مباشرة وقليلة ومحدودة، لكنها بألفاظ أخرى.. غير مباشرة، وفي شكل أوامر ونواهي وأساليب إنائية، وقائية، وعلاجية، وتنمية خصائص سلوكية إيجابية وتجنب رذائل سيئة قد غطت هذه الوصية الميمونة - كما نعتقد - عناصر مهمة من العملية الإرشادية، وامتدت إلى جوانب عديدة من كيان الكائن الإنساني كي يكون شخصاً مؤمناً قادراً على أداء وظيفته التربوية - العبادية في حركة الحياة، ومتقيداً مخلصاً بالتكاليف الشرعية من أوامر ونواه وباقى الأحكام.

أهداف العملية الإرشادية

ثمة مكونات لنص وصية الإمام الباقر (عليه السلام) كسائر النصوص في مجالات فكرية وتربوية وغيرها، فهناك مكونات أساسية لهذا النص ك (المحتوى المعرفي، والأساليب والطرق، ومناهجها العامة، وعملية تقويم السلوك)، وإلى جانب ذلك نجد في الأهداف جزءاً هاماً من مكونات نص هذه الوصية الكريمة، وقد مررنا في حلقة ماضية على أهداف عامة للنص بأكمله.

ونتوقف هنا على أهداف عامة للعملية الإرشادية، وأخرى خاصة أو فرعية، وجميعها موصول العلاقة بالأهداف السابقة، أو متفرع منها، أي مشتقة منها، وهي في الحلقة السابقة، وفي هذا الموضع من دراستنا هي أهداف حيوية بالنسبة للفرد، وقد تم صياغتها برؤية اجتهادية قد تكون مقبولة للقارئ أو يجد فيها ما يتحفظ عليه أو يعتبر، فإن أصبنا فأجرنا على رب العالمين، وإن أخطأنا نسأل الله عز وجل أن يغفر لنا ما تقدم من ذنب وما تأخر.

ونقسم هذه الأهداف إلى عامة وفرعية.

أ - الأهداف العامة.

كما فهمنا من باطن هذه الوصية فإن العملية الإرشادية التي استوعبها نص وصية الإمام الباقر (ع) تستهدف تحقيق هدفين أساسيين، وهما:

١. تحقيق الفرد المؤمن في جهده العبادي حالة من الشعور بالأمن، والاطمئنان، والرضا الإلهي عن أداء ذاته حتى بالحد الأدنى.

٢. تحقيق قدر طبيعي من الاتزان الانفعالي، والتوافق النفسي، وقدر مطلوب ومقبول من الصحة النفسية والعقلية.

ب - الأهداف الفرعية (الخاصة).

١. السعي إلى تدريب الشخصية المؤمنة بطريقتين وقائية وعلاجية على فضائل السلوك العبادي وقيمه، وعاداته الحسنة التي يرتضيها الله عز وجل.

٢. تعويد الفرد المؤمن على اكتشاف نفسه، وتنمية مهاراتها، ومعرفة خصائصها لمساعدة نفسه على التربية الوقائية بتنمية الخصال الحميدة، وعلى التربية العلاجية التي تعيد الذات إلى الحالة الإيمانية.

٣. تنمية صفات الشخصية المؤمنة سواء في مرحلة التربية الوقائية أو في مرحلة التربية العلاجية باكتشاف خصائص النفس ومعرفتها.

٤. التعرف على مبادئ وأساليب تنظيم السلوك في نص الوصية وتسخيرها في بناء النمط العبادي للشخصية الإيمانية.

٥. اكتشاف قوى مصادر التوجيه والإرشاد الموجهة التي تمكن الأفراد من ضبط

سلوكهم، وتنميته بالمحددات الإيمانية والتوافقية.

٦. التعرف على أمراض السلوك العصابي كما حددتها الوصية كالاستهانة بالذنب وقبول الحالة التي يكون عليها الفرد العاصي المذنب، وتحديد أساليب التغيير، والمعالجة وطرائق تعديل السلوك المرغوب نحو الأفضل بالقيم والفضائل.

٧. تنبيه أذهان الأفراد إلى مخاطر الهوى وتسويق التوبة وقساوة القلب.

٨. تفعيل قدرة الأنا المؤمنة على تنمية روح المسؤولية والتأكيد على فاعليتها في معرفة السلوك، والتمييز بين أنماطه الخاطئة والصحيحة.

٩. استثمار أخلاقية نص الوصية وجذوته الدينية في ضبط السلوك الإنساني وتوجيهه وتقويمه، وتقوية عناصر القوة في شخصية الفرد المؤمن.

١٠. تمكين الفرد المؤمن من معرفة نفسه وفهم خصائصها، ومعالجة مشاكله، وإثارة دافعية المسترشد وتفسيرها، ووضع حلول علاجية لهذه المشكلات.

مصادر الاسترشاد وينابيعه الأساسية

الاسترشاد - بحسب ما قرأناه في نص الوصية - واجب شرعي، وضرورة تربوية دينية تحقق للفرد المؤمن أهداف وجوده في الحياة، وتشعره بأهميته ككائن مكلف شرعاً، وكما يلحظ من طبيعة الخطاب الإرشادي للوصية الباقية وقوفنا على بعض مصادر توجيه السلوك وإرشاده لدى الكائن الآدمي كالعقل بقدراته الفطرية لتمييز ما هو حق عمّا هو باطل ثم عمل الفرد بنتيجة هذا التمييز الراشد، وكذلك العلم، والدين، والضمير الأخلاقي الوجداني، والفؤاد أو القلب، وتجتمع هذه المصادر كقوة إيجابية داخل تركيبتنا الآدمية لمواجهة قوة هي من داخلنا أيضاً، وهي (قوة الهوى) وشهواته

ووساوسه، وهو مصدر رئيسي لانحرافات الإنسان ومعين ذنوبه ومعاصيه، وغرضها تحقيق راحة للنفس واجمام القلب، أي تحقيق توافق نفسي، وقدر معقول من الصحة النفسية والعقلية للإنسان، وصولاً إلى الهدف الأكبر وهو رضا الله سبحانه، وتجنب حالات سقوط الفرد من عين الله وأعين الناس معاً.

إنَّ الفعل الإرشادي لن يكون مفيداً إلا بتأسيسه على دلالة العقل، واسترشاد العلم، وحكمة الدين والتكاليف الشرعية، وحيوية الجهاز القيمي، والضمير الأخلاقي، ورقة الفؤاد أو القلب الإنساني وعطفه ولطفه، فهذه القوى يمكن أن تتآزر معاً، ويستفاد منها كمصادر توجيه في ضبط العمل الإرشادي وتسخيرها في تقديم خدمات معرفية وروحية ونفسية وذهنية تعين الأفراد على مناصحة أنفسهم من أجل تنمية مهاراتهم، وتطوير قدراتهم، وبناء نمط عبادي مطلوب لشخصياتهم.

وكانت وصية الإمام الباقر صريحة في إسناد الفعل الإرشادي بأوامره ونواهيه (كسلوك عبادي) للأفراد، وهم يحاولون مجاهدة أنفسهم ومخالفة أهوائها، وانتقاء حالات إشباع للشهوات بأساليب حلال ومشروعة، وهذه الوصية صريحة في تدعيم القوى للأفراد في التعود على اكتساب الفضائل والقيم، والمفاهيم المعرفية المرغوبة في النظرية التربوية الإسلامية، ثم المران، وتدريب الذات على تأصيل وترسيخ المشاعر الإنسانية النبيلة التي يسعى المربي المسلم بأدواته المتعددة كهذه الوصية الكريمة إلى تنميتها في كيان الفرد وتقويتها.

ولنقرأ - كأمثلة - بعض المقاطع اللغوية المهمة التي تستبطن وجود هذه القوى الداخلية في كيان بني آدم كمصادر توجيه وإرشاد متفرقة في نص الوصية وجملها وعباراتها وضبط سلوكنا نحو الفضائل وتجنب الرذائل، فهذه المقاطع جمعت بين دفتيها قوى:

١. العقل (الذكاء العقلي الوراثي للفرد) أو عقل الولادة.

٢. العلم، وهو العقل المستفاد أو عقل التجربة.

٣. الفؤاد أو القلب.

٤. صدق الخوف، والإرادة الذاتية للإنسان.

٥. الضمير الوجداني، والقيم الأخلاقية وغيرها.

وجميعهم من القوى الإيمانية التي يستخدمها الإنسان (مؤمن أو غير مؤمن) لردع قوة الهوى وكبح دوافعه، وشهواته الشيطانية الماحنة، وتطويعه على إشباع ما هو طبيعي، وما هو مقبول منها بالأساليب السوية التي يقرها المشرع التربوي الإسلامي.

ولنتأمل في الجمل والمقاطع اللغوية التالية:

• «ادفع عن نفسك حاضِر الشر بحاضِر العلم، واستعمل حاضِر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضِر الحياة، وَتَوَقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وَقفْ عند عَكة الهوى باسترشاد العلم».

وفي مقطع آخر مكون من سلسلة جمل متتابعة قال الإمام الباقر (ع):

• «واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة، واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجماع القلب، وتخلص على إجماع القلب بقلة الخطأ، وتعرّض لركة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام

الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزنيّ الله عز وجل بالصدق في الأعمال».

وإذا كان العقل والعلم بارزين بوضوح في المقطع الأول، وفي دورهما المؤثر فإنه قد اجتمع في النص الثاني والمكون من عدة جمل تأثير قوى أخرى هي مصادر لضبط الفعل الإرشادي وهي بعض القيم والأخلاق (القناعة، والزهد، وقصر الأمل، ورد اليأس، ومعرفة النفس، والوجدان أو ليونة القلب والفؤاد، وأساليب ذكر الله تعالى في الخلوات، والخوف الصادق من الله عز وجل ودوام الحزن على معاصي النفس، وحماقتها، وارتكابها المستمر أخطاء متفاوتة الشدة والضعف في الماضي، والحاضر، ومحاولة التغلب على سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار وحسن المراجعة).

مهارات الطرفين (المُرشد والمسترشد) في العملية الإرشادية

ترتكز العملية الإرشادية على نشاط متبادل لطرفين هما (المُرشد والمسترشد) أو الناصح ومستقبل النصيحة، وقد يكون بين مرّب ومُرشد واحد ومجموعة أشخاص كما في عمليات الإرشاد الجماعي، ومنها ما ذكره بعض الرواة والمحدثين عن نصّح الإمام الباقر ومواعظه في أكثر من مرة لجماعات من شيعته، وهذا نمط من المقابلة الجماعية للأفراد في ممارسة العملية الإرشادية عند أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ولكليهما (المُرشد والمسترشد) ككائنين آدميين قدرات ومهارات خاصة بالعملية الإرشادية، وتحسب - غالبها - بلغة بعض العلماء المعاصرين كمهارات في الاتصال التعليمي، ونعني بها مهارات المُرشد والمسترشد، ولاحظنا باجتهادنا الشخصي بعضاً

من هذه المهارات اللازمة لنجاح العملية الإرشادية، وهي كما يأتي:

أ- مهارات للمرشد:

١. تمتع المرشد بمهارة الكلام والتحدث، وكان نص الوصية شاهداً على قدرة الإمام الباقر (عليه السلام) كمرشد تربوي وأخلاقي وروحي في مهارات التحدث والإملاء وصياغة الأفكار ومعانيها، وتوصيلها بلغة واضحة.

٢. قدرة المرشد -وهو هنا الإمام الباقر (عليه السلام)- على تعليم الآخرين، وتوفير المعونة الإرشادية المطلوبة، وتقديم الخدمة النفسية والروحية والأخلاقية.

٣. قدرة المرشد على تحديد حاجات المسترشد، والقيم اللازمة، والمصادر والأساليب والطرق ومبادئ عملية الإرشاد.

٤. مهارة المرشد النفسي، والمربي الأخلاقي في تشجيع المسترشد على مناقشة موضوعات مهمة من المشكلة المطروحة، ومن المادة الإرشادية التي هي موضوع الحوار بدون خوف وبطريقة مشجعة، وإرساء علاقات الاحترام المتبادل بمشاعر إيجابية مع المسترشد.

٥. مهارة المرشد على توجيه المسترشد ومساعدته على الاستفادة من فرص التعلم والتفكير الإيجابي والاختيار السليم، وتغيير السلوك بما يتفق وأهداف المشرع الإسلامي العبادية في نص الوصية.

ب- مهارات للمسترشد:

١. للمسترشد كذلك مهارات الاستماع إلى مرشده، والإنصات إليه في حديثه، وذلك مقابل مهارة المرشد في التحدث، فأحدهما، وهو المرشد (الإمام الباقر) بنص

الوصية كان يتكلم ويتحدث، والآخر (وهو جابر أو أي مسترشد من الأفراد المؤمنين) يستمع إلى حديثه.

٢. يكون للمسترشد كالمُرشد قدرة متفاوتة على فهم معاني التوجيهات، والإرشادات والتفاعل مع المرشد بتسامح وتعاطف واحترام متبادل بينهما.

٣. قدرة المسترشد على فهم المادة الإرشادية (التوجيهات والتعاليم)، وما يتصل بها من معلومات وتوظيفها في عمليات التغيير المراد إحداثه.

٤. القدرة على ملاحظة السلوك اللفظي بنفسه أو الاستعانة بمرشد، وفهمه، وتنفيذ التعاليم الإرشادية الخاصة بشأنه من نص الوصية المباركة.

٥. لديه قدرة فاعلة في التعلم الذاتي، والتفكير الذاتي، والقدرة على مقابلة ما كان صحيحاً من فكره وسلوكه ومشاعره، وما كان خاطئاً بمعايير ومحددات إيمانية.

مكونات العملية الإرشادية

لقد تطلبت عملية تأملنا الذهني في نص الوصية الباقية ومادتها المعرفية- الإرشادية تحديد أهم المكونات الأساسية للعملية الإرشادية التي تضمنتها هذه الوصية المعنوية، ولا يمكن تصور وجود مثل هذا النص بدون وجود فعلي لمكونات لهذا الوجود، وهي ما يأتي:

١. المكون الأول وهو المادة الإرشادية:

وهو نص وصية الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وهي رسالة بلغة الإعلاميين، وقد وصلتنا مادتها ومعانيها بواسطة المروي له، وتعتبر هذه المادة (منهج التوجيه وفقه

العمل الإرشادي)، ويتكون من قسمين هما:

أ - التركيبة اللفظية.

وهي التركيبة اللغوية للنص، ونعني بها مجموع الكلمات والألفاظ، والجمل والعبارات المتلاحقة، والمتصلة والمكتوبة بلغتنا العربية، وقد احتوت هذه التركيبة على محتوى معرفي في مجال توجيه وإرشاد الفرد المؤمن، وتحديد علاقاته الأربع مع الله ونفسه والإنسان الآخر وعالم الأشياء المادية المحيطة بكيان شخصيته.

ب - المحتوى المعرفي الإرشادي.

ويراد به المحتوى المعرفي - الإرشادي الذي تضمنته التركيبة اللفظية ومفرداتها اللغوية، وتضمن هذا المحتوى إرشادات وقيماً وفضائل وأخلاقاً، وآداباً اجتماعية، وأساليب وأدوات بناء السلوك العبادي المطلوب بالنسبة للفرد المؤمن وأساليب وطرائق تعديل سلوكه في حالة وقوعه بانحرافات السلوك، وغرقه في بحر من الذنوب والمعاصي والأخطاء.

٢. والمكوّن البشري:

ويدخل في سياقات هذا المكون أطراف بشرية فاعلة ومتفاعلة، ويشمل هذا المكون أطراف التفاعل البشري مع المادة الإرشادية للوصية، وهم كما يأتي:

أ- إمامنا أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر، صاحب النص ومصدره، وهو المرشد، ومُنظّر الخطاب الإرشادي في هذه الوصية الميمونة.

ب- جابر بن يزيد الجعفي صاحب الإمام الباقر (عليه السلام)، وأي فرد مؤمن آخر يعيش في أزمنة متعاقبة، وهو بلغة الإعلاميين (المستقبل) لمفردات النص ومعانيه، وهو (المرسل)

له، وهو من اوصل لنا ولغيرنا في آن واحد الرسالة والمادة الارشادية، والمتفاعل مع مفردات النص اللفظية ومحتواه المعرفي، ومعانيه وعظاته التربوية.

ج- أمّا الطرف البشري الثالث، وهو كل عالم، مربّ، ورجل أخلاق، وكل من يستعان به من ذوي التخصصات في مساعدة الفرد المؤمن وتقديم خبرات إرشادية له، أو هو كل من يقوم بمهمة التوجيه للفرد المؤمن في تفاعله مع المضمون المعرفي والأخلاقي والإرشادي لهذه الوصية المهمة.

٣. مدى التفاعل بين المكون البشري والمادة الارشادية.

وهذا التفاعل ضرورة تربوية لتحقيق أهداف العملية الارشادية، ويكون هذا التحقق بمقدار تفاعل الإنسان مع نص الوصية ومادتها الارشادية، ويتوقف ذلك على ما انطوت عليه طبائع الإنسان بمختلف أدواره، وقواه الفاعلة من إيجابيات واستعدادات داخلية تمكن الأفراد من التفاعل مع وصية الإمام محمد الباقر عليه السلام كنص إرشادي.

إنّ منهج العمل الإرشادي واضح في لغة النص، وفي مطالبه، أمّا الطبيعة البشرية فمتساوية في مكوناتها الفطرية من دوافع وبواعث واستعدادات وقوى وقدرات ذاتية متصلة، بيد أن المشكلة تكمن في تفاوت الأفراد، ومن انضووا تحت المكون البشري المشار إليهم من حيث تفاعلهم مع النص ومادته الارشادية بخاصة المسترشد ومدى تعاونهم مع مطالب النص أو الوصية، وقدرته على اكتساب أنماط السلوك العبادي من قيم، وفضائل، وعادات السلوك الحسن، والمرغوب فيه كما حدده هذا النص، ومن جهة أخرى يعمل الفرد على تخليص نفسه من عوائق السلوك العبادي كالذنوب والغفلة عنها، وتسويق النفس عن محاربتها، وافتعال أعذار غير مقبولة تنتهي إلى تعطيل

العملية الإرشادية وإبطال تأثيراتها على النفس في جانبها العلاجي.

٤. المكوّن الزمني والمكاني.

ويخص الظرف التاريخي لصدور نص وصية الإمام محمد بن علي الباقر، وأسباب وبواعث كلامه (ع) لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي رضوان الله عليه، ويشمل تاريخ صدور النص في زمن غير معلوم بدقة تامة من القرنين الأول أو الثاني الهجريين، وإن كانت فترة صدوره واقعة في هذا الزمان، ثم تداوله على مدار زمن تاريخنا الهجري بين أهل العلم والخبرة والإيمان والصلاح في مصادرهم وأدبياتهم.

وكذلك يتضمن هذا المكون الأزمنة التي تستغرقها عملية البناء العبادي للشخصية أو تعديل سلوكها في فترات متعاقبة من تاريخنا الهجري فيما بعد فترة صدور النص، ويدخل في هذا المكون فترة استيعاب النص، إعداد شخصية كل فرد تفاعل مع القيمة المعرفية للنص، من كل عصر، أمّا المكان فالمدينة المنورة التي صدر فيها هذا القول الحكيم أو أي مكان تم فيه تطبيق هذه الوصية.

٥. المكوّن الخامس (أجر العمل بهذا النص وتنفيذه).

لو قُدِّرَ لنا أن نتعامل مع هذه الوصية كبيعة فإنَّ لها في حساباتنا الدنيوية (بائعاً ومشترياً وثنماً)، كذلك نجد هذه الوصية أشبه بهذه البيعة الثمينة، لها (بائع) هو الإمام الباقر صاحب النص، و(مشتري) هو جابر بن يزيد الجعفي، ومن بعده كل فرد من المؤمنين، و(ثمن) هذه البيعة، وهو (الأجر) الذي نحصل عليه عادة من التزامنا - قدر استطاعتنا - بآداب هذه الوصية وتفاعلنا مع أخلاقياتها في حياتنا الإيمانية والعبادية.

ونتصور أن للعلاقة بين مكونات نص الوصية ثمناً نحصل عليه إذا ما تقيدنا بمحتواها الداخلي، ونسجنا نسقاً لـ (ذاتنا)، فالثمن الطبيعي هو ما نحصل عليه من

أجر العمل بمضمون هذه الوصية وتطبيقها على أنفسنا، ومصدر هذا الأجر من الله سبحانه، إذ يجازينا على أفعالنا الحسنة خيراً، كما يعاقبنا على ما فعلناه من سيئات، فالعمل الإرشادي له - كبيعة - عنصر آخر هو تحصيل الأجر من الله لطاعتنا لأوامره ونواهيه التي يمثلها نص الوصية، وإذا ما تحققت مرضاة الله عز وجل، وشعر الفرد المؤمن بالرضا وسعاده والارتياح في داخل نفسه عن الله عز وجل، وعن رضا الفرد على نفسه يكون للوصية ثمنها، وثوابها.

المحادثة كأسلوب عام للعملية الإرشادية في نص الوصية

ساد في نص الوصية الإرشادية أسلوب عام ميّز هذه الوصية كخطاب إرشادي، واختزن هذه الوصية مجموعة أساليب فرعية، ويمكننا تحديد ذلك فيما يأتي:

١. كانت (المحادثة) تجسّداً لعلاقة ثنائية (وجهاً لوجه) بين الإمام الباقر (ع)، وصاحبه جابر الجعفي هو الأسلوب الإرشادي العام، والظاهر في هذه المقابلة بينهما، وبالرغم من أن المحادثة لم تظهر (حواراً مباشراً) بينهما، إلا أنه في نهاية المطاف قد تكونت علاقة إرشادية، وبصورة مباشرة على نمطية (المحادثة) الواضحة، فقد أظهرت الوصية الإرشادية أن الإمام الباقر يتكلّم أو يملي أقواله، وصاحبه جابر يستمع أو يكتب أو يحفظ ما يقال، وهذا على كل حال مؤشر على التفاعل والاتصال العقلي والعاطفي بينهما، وتتيح لجابر وكل مؤمن فرصاً متجددة للتعليم والتفكير الإيجابي والاختيار، وتغيير الأفكار والمشاعر والسلوك طواعية، وبطرق مقبولة، بل ومرغوبة كذلك.

٢. وبرزت كذلك طريقة (التوجيه الفردي) بصورة مباشرة، وكانت مرتبطة بالمحادثة، ومن ثم قامت - فيما هو ظاهر بهذه العملية - على معاونة الإمام الباقر (ع)،

وتقديم خبرته المعرفية، والتربوية كـ (مرشد وكمرب) على أساس فردي وشخصي خاصة فيما يتعلق بمشكلات الفرد والشخصية المؤمنة.

٣. ومع بروز الأسلوب الفردي في التوجيه والإرشاد، فنص الوصية وجه الأنظار وبصورة غير مباشرة، لتوجيه الأفراد، والجماعات، فالكشوف في هذا النص علاقة بين مرشد هو الإمام، ومسترشد هو جابر، وكان ذلك لحظة صدور النص، أمّا الآن فالإمام الباقر، وجابر غير موجودين، ولكن تجاوزت الوصية أسلوب التوجيه الفردي، فجماهير المؤمنين الأحياء بعدهما يمكنهم، وعلى امتداد العصور الاستفادة الجماعية من هذه الوصية، وبطريقة التوجيه الجماعي إذا ما توافرت فرصة اللقاءات، والجلسات الجماعية بين مرشد يفسر معاني هذه الوصية وجماعة إيمانية، ويتلقون منه توجيهات الإمام الباقر (ع) من وصيته.

٤. ثمة أساليب نصت عليها الوصية كالنصح والموعظة، وتقديم المساعدة للمسترشد للاستفادة منها في تنمية قدراته الذاتية بـ (القيم الأخلاقية كالقناعة والزهد، وصدق الخوف من الله، وقصر الأمل، واستخدام المعالجة بأسلوب (أضداد السلوك وتقابلها)، وتأجيج المشاعر الوجدانية الإيجابية كتفجير مشاعر الندم، واستخدام أساليب الاستغفار، والذكر في الخلوات، وحسن المراجعة، ونقد الذات، والتفكير، والدعاء، وأداء الفرائض، وأساليب عديدة متفرقة في نص وصية الإمام (ع).

أسس هامة في العلاقة الإرشادية

ثمة أسس يجب مراعاتها كما توحى الوصية الإرشادية، ونذكر بعضها:

١. تقوم هذه العلاقة الإرشادية على التفاهم، والاحترام المتبادل بين المرشد

والمسترشد.

٢. تركز هذه العلاقات على أساس إنساني، وعلى معرفة خيرة بنفسية المسترشد.
٣. أن تتوافر في العلاقة الإرشادية صفات الإخلاص والوفاء والأمانة الأخلاقية من المرشد والمسترشد معاً.
٤. أن تكون لدى المرشد ثقة كافية بنفسه وقدراته على أداء مهمته الإرشادية، ومراعاة مشاعر المسترشد واحترامها.

جوانب المنهج الإرشادي (الوقائي والعلاجي والإنمائي).

يتحرك المنهج الإرشادي في نص الوصية باعتماد طريقتين معاً هما الجانب الوقائي والعلاجي، ويتقدم أحدهما على الآخر بحسب الموقف التربوي للذات، ويتداخل في أداء أدوارهما نوع ثالث يسميه بعض العلماء بالجانب الإنمائي، ويمكن وصف التأثير الإيجابي لكل جانب بنحو مختصر يتناسب وموقع هذه الجوانب الثلاثة من البحث.

١. الجانب الإنمائي.

ودور المنهج الإنمائي، ويسمى (الإنشائي)، حيث تقدم الخدمات الإرشادية إلى (العاديين لتحقيق زيادة كفاءة الفرد الكفاء، وإلى تدعيم الفرد المتوافق إلى حد ممكن، ويتضمن هذا المنهج الإجراءات التي تؤدي إلى النمو السوي السليم لدى الأسوياء والعاديين خلال رحلة نموهم طوال العمر حتى يتحقق الوصول بهم إلى أعلى مستوى ممكن من النضج والصحة النفسية، والسعادة والكفاية)^(١).

(١) أبو أسعد، أحمد عبد اللطيف، مصدر سابق، ص ٣٤٩.

ويتوزع الجانب الإنشائي للذات على مستوى الجانبين السابقين (الوقائي والعلاجي)، فيتجه جهد الذات المؤمنة في استخدام عمليات تنمية لصفات الذات وتزويدها بالقيم الطيبة، والفضائل وعادات السلوك الحسن، حين تقوم بالتربية الوقائية لتصل الذات إلى أعلى ما يمكن من النضج والكفاية، وعندما تبدأ الذات في توبتها أو تقوم بعمليات تعديل أخطائها، وسلوكها تلجأ إلى إنماء الشخصية بالصفات الحسنة محل صفات السلوك السيئ والخطأ، وتبذل جهداً مناسباً لتزويد هذه الشخصية بما يساعدها على استئناف الحياة السوية بنحو يجعل الذات أكثر قرباً من الله سبحانه ومنهاجه القويم، وهذا أهم أهداف هذا النص، ثم تحقيق حالة مقبولة من الصحة النفسية، وهو هدف يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة للمؤمن.

إنَّ عملية (إنماء صفات الذات وخصائصها) لا تتوقف على الجانب الوقائي فحسب، بل ويشارك مرة أخرى في فترة العلاج وتعديل السلوك، واستعادة التوازن النفسي المفقود، فالجانب الإنشائي يوازن بين كفتي الجانبين ويختار ما يرجح انتصار الخير في الذات، ويقوي صفاتها الطيبة، وينمي كذلك قدراتها الذاتية معتمداً على مصادر العملية الإرشادية في توجيه الذات المؤمنة وضبط مسارات حركتها العبادية بما يحقق للفرد زيادة صفاته الحسنة في نفسه سواء كان في فترة وقائية أم في مرحلة علاج سلوكي للذنوب والسيئات والمعاصي.

وهكذا فمساحة هذا الجانب تمتد على مدار عمر الفرد، والزمن الذي يستغرقه بقاءه في هذه الدنيا، ولهذا نجد الأساليب الوقائية، والمقترحات العلاجية في نص الوصية متداخلة مع بعضها في جمل وعبارات متشابكة، مما يشعر بأن لا فصل زمنياً في مهمة الفرد المؤمن، وهو يمارس الجانب الإنشائي من العملية الإرشادية طالما كانت الذات المؤمنة على قيد الحياة، ويقدم المقطع الأخير من نص الوصية هذا التداخل بنحو

لا فصل في مهمة العملية الإنمائية لوصية الإمام الباقر (ع) للفرد في جوانبها الثلاثة المتصلة مع بعضها، ففي الجزء الأول منه، وهو قوله: «وتخلص على إجماع القلب بقلّة الخطأ، وتعرّض لرقّة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزَيّن لله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتحبّب إليه بتعجيل الانتقال» يدخل ضمن الفترة الوقائية.

ويكون المقطع الثاني منه، وهو قوله: «وإيّاك والتسويق فإنّه بحر يغرق فيه الهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم» ضمن سياق المرحلة العلاجية، وإن كانت بعض هذه الأساليب تستخدم في التربية الوقائية كذلك، ولكن المهم أن الفرد يقوم بعملية تنمية صفات الخير، والقدرات الذاتية لدى الكائن الإنساني كتنمية قدراته العقلية وإبراز كوامنه في خبرات علمية وأنشطة إيجابية.

ولهذا جاءت عبارات وقائية وأخرى علاجية تخدم دور الجانب الإنمائي للذات مثل قول الإمام في الفقرة التالية من وصيته:

«يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل».

ثم حث الوصية على اغتنام الفرص، والمبادرات في انتهاز الفرص والبغية أو

المطالب، والتزود من الدنيا بقصر الأمل، وتنمية الصفات العلمية والأخلاقية كالقناعة والزهد وقصر الأمل والعدالة وشدة التيقظ وغير ذلك.

٢. الجانب الوقائي.

ففي بداية العمل مع تربية الشخصية يركز المربي المسلم على التربية الوقائية واستباق الأمور بتأصيل صفات وفضائل وعادات السلوك الحسن، وقيم إيجابية مرغوبة من المشرع الإسلامي، وتأصيلها وتثبيتها وتمكين الفرد من التفاعل الصحي معها في إدارة حركة ذاته مع داخلها، ومع الآخر ومع الله سبحانه، بل ومع عالم الأشياء المحيطة به، وكان الغرض التربوي من البناء الوقائي للذات تسهيل تعبدها وطاعتها لله ومنهجه، وتجنبها مزالق الهوى، وذنوب النفس ومعاصيها، ووقايتها من مخاطر شهوات النفس، وسيئات الأفعال الشريرة على كيان الفرد، ويؤكد العمل بالتربية الوقائية سلامة التفاعل مع المنهج الإرشادي وقيمه التربوية تحقيقاً لأمن الذات في الدنيا والآخرة، ودرءاً لها من مخاطر الشر ووسوسات الشيطان ونزغاته المظلمة، فيحوّل حياته إلى كآبة وعبث، ويتعلم قلبه تدريجياً قساوة قد لا يجد بعدها فرصة للتلين وترقيتها.

ويقصد بالوقاية.. «أي جهود أو ممارسات علمية تبذل بهدف تجنب أو منع أو تقليل من فرص وقوع المشكلات سواء كانت هذه المشكلات جسمية أو نفسية أو اجتماعية أو ثقافية التي قد يواجهها بالأخص الأفراد أو الجماعات المعرضة أكثر للمخاطر»^(١).

وهذا المنهج، ونعني الوقائي، ويطلق عليه أحياناً منهج (التحصين النفسي) ضد المشكلات والاضطرابات والأمراض النفسية^(٢) يوفر وقت وجهد المربين، ويخفف

(١) أبو أسعد، أحمد عبد اللطيف، علم النفس الإرشادي، ص ٣٦٢.

(٢) أبو أسعد، أحمد عبد اللطيف، مصدر سابق، ص ٣٦٢.

عليهم عبء العمل العلاجي وتكاليفه، بالإضافة إلى تجنب المعاناة مع الرواسب النفسية التي تتولد عادة عن المشكلات النفسية ورواسبها، كتسببها في مشاعر القلق والتوتر

وقد استبطن نص الوصية اهتمامه الشديد، وبوضوح تام للجانب الوقائي في العمل الإرشادي، ونجد كلماته وبطريقة مباشرة ومكشوفة إلى البدء بوقاية النفس من (مجازفة الهوى) باستخدام القوى المضادة له المعرفية والروحية والأخلاقية كالعقل والعلم والدين، والوجدان الأخلاقي الفطري في داخل تركيبتنا الآدمية، ويمكن معرفة هذا الاهتمام من كلمات متفرقة في نص الوصية، لكنها تشكل قاعدة البناء المعتمدة والرئيسية والأولى لمرتكزات الشخصية الإيمانية.

ففي كلمات وجمل وعبارات داخل نص الوصية مثل قوله ﷺ: «وَتَوَقَّ مجازفة الهوى كالبعد عن الانحراف حتى لا تحتاج إلى التوبة، وادفع عن نفسك حاضِر الشر بحاضِر العلم، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة»، وكلمات وجمل أُخر موزعة في نص الوصية نلاحظ عناية الوصية بتربية الفرد المؤمن بطريقة وقائية، وقبل أن تفترسه المعاصي، ويغرق في بحر الشهوات والذنوب، فيصعب عليه التغيير، وربما يجد مسافة شاقة بينه وبين عودته إلى الله سبحانه وتعالى من جديد.

ولنأخذ أمثلة مدونة في نص الوصية تطالب ببدء الوقاية قبل خطوات المعالجة السلوكية، فقلوه: «لا تظلم، لا تغضب، لا تحوّن، لا تجزع وغيرها» هي تعبير عن رغبة الإمام الباقر ﷺ في وقاية الفرد من شر الآخرين، وأن يبدأ بتعويدها على الضبط الانفعالي الهادئ كفضيلة أخرى هي الحلم، والصبر على أذى الناس بأخلاق الإسلام، وتطالب جملة أخرى باستكثار الفرد لنفسه من الله قليل الرزق تجنباً للوقوع في الطمع،

وتدريباً للنفس على شكر الله حتى وإن بدا العطاء قليلاً.

ونجد في جملتين متصلتين هما: «وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة» دفعاً للنفس بطريقة وقائية، وتدريبها وتعويدها على القناعة كخاصية وقيمة، وقبول ما توافر في اليد حتى لا يطمع فيما هو بأيدي الناس، ويكون - فيما بعد - مفتاحاً للنهب والسرقة واغتصاب الحقوق، وكذلك ما قالته الوصية بـ «استجلاب حلالة الزهد بقصر الأمل»، وإشباع الذات بقدر ما تحتاجه وما ترتاح فيه، وثمة جمل أخرى في هذا السياق الوقائي لتحقيق أَمْن الذات.

٣. الجانب العلاجي.

هذا الجانب ملحوظ في باطن النص الباقر الميمون، فالإمام محمد بن علي الباقر (ع) لم يترك إشارات له للجانب العلاجي في مواقف عديدة من وصيته المباركة، وكان نصه المقتطع في نهاية الجزء الثاني من النص «إنَّ المؤمن معني بمجاهدة نفسه، وإشارته للفزع من انتكاسة النفس في إصلاح اعوجاجها، والمبادرة للتوبة وخافة الله» أوضح هذه الإشارات، وثمة أقوال متفرقة بالنص تشير إلى الانحرافات، والمعاصي، والاستهانة بها، ورضا الفرد بالحالة التي يكون عليها، وما ترتب عليه من ذكر لبعض أساليب المعالجة الإيمانية للذنوب مثل (التوبة، وشدة الذنوب، وحسن المراجعة، وتحذيراته من التسويف والتواني فيما لا عذر للأفراد فيه، والغفلة، وغير ذلك).

لقد تباعدت الأفكار العلاجية في مواضع متفرقة من نص الوصية، فمرة يتحدث الإمام الباقر عن التوبة، وأهميتها الجهادية، وضرورتها الأخلاقية والسلوكية، وهي حالة عالية من العمل العلاجي، ومداداة أمراض السلوك التي تغرق الفرد في شهواته

ومآسيها، ولا سبيل له سوى التوبة حتى يتمكن من استبصار ذاته، ويقبل على مواجهة هذه الذنوب بثورة تغييرية وعمليات جهادية داخل كيانه، وضد شهوات نفسه المنفلتة، يقول نص وصية الإمام الباقر عليه السلام في هذا الشأن:

«إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فيتتعش ويقل الله عثرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة والخافة، فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢)».

ويعود النص الكريم للوصية الباقرية، وفي مقطع آخر على التحذير من عوائق تحرير النفس والاستسلام لها كالغفلة، وتسويق مواجهة النفس من ذنوبها، وافتعال أعداء غير مقبولة لا حصر لها تسويقاً لهم في بدء التوبة، وتصفية المعاصي، وتنتقد الوصية كوامن الإعاقة للتوبة، ومنع النفس عن الوصول إلى تحقيق أهداف توبته وإصلاح ذاته بما يرضي الله سبحانه، كتسويق النفس، واستمرار غفلة صاحبها، والتواني فيما لا عذر له، والخضوع لتأثير سالف الذنوب، ورواسبها النفسية، حيث جاء في الوصية الكريمة قول الإمام الباقر عليه السلام: «وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجمام القلب، وتخلص على إجمام القلب بقلّة الخطأ، وتعرض لركة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزنيّ لله عز وجل بالصدق

(١) الأود: محرّكة (العوج)، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار،

ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

في الأعمال، وتَجَبَّ إليه بتعجيل الانتقال، وإيَّاك والتسوية فإنه بحر يغرق فيه الهلكى، وإيَّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيَّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم».

وتستمر الوصية في تأجيج روح القوة لدى الفرد المؤمن لضمان نجاح عمليات التوبة ومراجعة الذات وإصلاح حالها من جديد، والوصول بها إلى بر الأمان فينبت الوصية تحذيراتها من آثار استمرار عوائق التوبة، وقدمت للفرد المؤمن مقترحات علاجية عملية كتحديد بعض الأساليب المعرفية والوجدانية والسلوكية التي تدفع بحركة الذات في توبتها نحو الأهداف المرسومة، والوصول بها لمساراتها الطبيعية الآمنة، فتبين الوصية كيفية مواجهة الهوى وغلبته بالعقل والعلم، والسيطرة على سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار والذكر في الخلوات، وطلب عفو الله ورحمته، وحسن مراجعة الذات في أفكارها وعواطفها وسلوكها، واستخدام خالص الأدعية والمناجاة في الظلم.

تقول بعض الجمل والعبارات في نص الوصية الباقية، وقد تداخلت فيها الأساليب الوقائية والعلاجية والإنشائية: «وإدفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء».

وفي مقطع آخر من الوصية يقول (عليه السلام): «وتخلص الى إجماع القلب بقلة الخطأ،

وتعرّض لرقّة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزيّن الله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتحبّب إليه بتعجيل الانتقال، وإيّاك والتسويق فإنّه بحر يغرق فيه الهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حُسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم».

أدوات ومصادر جمع المعلومات عن مشكلات الذات

شدت الوصية الباقرية على أهمية معرفة النفس في أكثر من موضع، وعلى وقاية الذات، ومعالجتها من أمراضها ومشكلاتها في جمل وعبارات وفقرات عديدة، ومع أن النص الباقرى ليس مادة مماثلة لما هو معتمد لدى الأكاديميين، إلّا أن فهمنا يدرك أنّ بعض الأدوات والمصادر التي تساعد الأفراد على جمع معلومات عن أنفسهم لمعرفة والتصرف معها على ضوءها هي ملحوظة على نحو غير مباشر، ومن تلك المصادر التي يتم بواسطتها جمع بعض المعلومات عن الذات ما يأتي:

١. ملاحظة سلوك الذات:

ويكون عادة بجهد الفرد نفسه أو استعانة بمواقف من الآخرين كانت له أو عليه كما في دعوة الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي بأن يكف سلوكه عن الاستجابات المحرمة، ويدعوه إلى الصبر وثبات النفس والحلم وضبط النفس في مواجهة مواقف انفعالية صادرة من الأفراد الآخرين في ظروف استفزازية تبتغي إيذاء الفرد.

٢. والمقابلة الإرشادية:

وهي أحياناً فردية أو ثنائية)، وقد تكون جماعية في أحيان أخرى.

إنَّ الملحوظ في نص هذه الوصية أنَّ ألفاظها ومفرداتها تُبيِّن لنا -لقارئها ومستمعها- أنَّها (مقابلة ثنائية بين الإمام الباقر (عليه السلام) وصاحبه جابر بن يزيد الجعفي رحمة الله عليه)، وما نشأ عن هذه المقابلة بشكلها المعروف في النص من محادثة كان فيها المتكلم هو الإمام الباقر، وقد تعرف فيها جابر على مجموعة من الآداب والقواعد الإرشادية التي استهدفت تربية شخصيته، وضبط سلوكه وتربيتها، وتحفيزه على أداء وظائف ومهام السيطرة على دوافعها، وبهذه المقابلة والمحادثة جمع جابر هذه المعلومات المتوافرة في نص وصية الإمام الباقر (عليه السلام).

وإذا كانت مقابلة الإمام الباقر لجابر ومحدثته تصنف كـ (مقابلة فردية، وثنائية) فإنَّ ثمة نوعاً آخر من المقابلة نسميها بـ (المقابلة الجماعية) ونذكر نص الخطبة التالية كنموذج لذلك، وقد ابتدأت خطبته، وهي في شكل (موعظة توجيهية وإرشادية) بقوله (عليه السلام):

«وحضره -أي الإمام الباقر^(١)- ذات يوم جماعة من الشيعة فوعظهم وحذَّهم، وهم ساهون لاهون، فأغاظه ذلك فأطرق مليّاً، ثم رفع رأسه إليهم فقال: «إنَّ كلامي لو وقع طرف منه في قلب أحدكم لصار ميتاً، ألا يا أشباحاً بلا أرواح، وذباباً بلا مصباح كأنكم خشب مسنَّدة وأصنام مَرَبدة، ألا تأخذون الذهب من الحجر، ألا تقتبسون الضياء من النور الأزهر، ألا تأخذون اللؤلؤ من البحر، خذوا الكلمة الطيبة ممَّن قالها، وإن لم يعمل بها، فإن الله يقول: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ

(١) انظر هذا النص في تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ٢١١ - ٢١٢، وبحار الأنوار

للمجلسي، ج ٧٥، ص ١٧٠ - ١٧١.

هَدَاهُمْ اللَّهُ^(١)، ويحك يا مغرور ألا تحمد من تعطيه فانياً، ويعطيك باقياً، درهم يفنى بعشرة تبقى، إلى سبعمائة ضعف مضاعفة من جواد كريم، آتاك الله عند مكافأة هو مطعمك وساقيك، وكاسيك ومعافيك وكافيك وساترك ممن يُراعيك من حفظك في ليلك ونهارك، وأجابك عند اضطرارك، وعزم لك على الرشد في اختبارك، كأنك نسيت ليالي أوجاعك وخوفك دعوته فاستجاب لك، فاستوجب بجميل صنيعه الشكر، فنسيته فيمن ذكر، وخالفته فيما أمر، وبلغك إنما أنت لص من لصوص الذنوب^(٢)، كلما عرضت لك شهوة أو ارتكابت ذنب سارعت إليه وأقدمت بجهلك عليه، فارتكبتك كأنك لست بعين الله، أو كأن الله ليس لك بالمرصاد، يا طالب الجنة ما أطول نومك، وأكل مطيتك، وما أكسبك لما يوقعك فيها، انظروا إلى هذه القبور سطوراً بأفناء الدور، تدانوا في خططهم^(٣)، وقربوا في مزارهم، وبعدهم في لقاءهم، عمروا فخرى، وآنسوا فأوحشوا، وسكنوا فأزعجوا، وقنطوا فرحلوا، فمن سمع بدارٍ بعيد وشاحط^(٤) قريب، وعامر مخرب وآنس موحش، وساكن مزعج، وقاطن^(٥) مرحل.. غير أهل القبور؟

وتابع قوله في نصيحهم:

«يا بن الأيام الثلاث: يومك الذي ولدت فيه، ويومك الذي تنزل فيه قبرك، ويومك الذي تخرج فيه إلى ربك، فإيا له من يوم عظيم، يا ذوي الهيئة المعجبة والهيم المعطنة^(٦)،

(١) الزمر: ١٨.

(٢) اللص بالكسر (فعل الشيء في السر)، ومنه قيل للسلار (لص) وجمعه لصوص.

(٣) جمع خطة بالكسر، ما يخططه الإنسان من الأرض ليعلم أنه قد اجتازها ليبينها داراً، والأرض التي تنزلها، ولم ينزلها نازل قبلك، وبالضم (الأمر والخصلة).

(٤) الشاحط هو (البعيد).

(٥) القاطن هو المقيم.

(٦) الهيم هي الإبل العطاش، العطن بالتحريك (وطن الإبل ومبركها حول الماء)، وأعطنت الإبل: حبسها عند الماء فبركت بعد الورد، وعطنت الإبل (رويت ثم بركت).

مالي أرى أجسادكم عامرة وقلوبكم دامرة، أو ما والله لو عاينتم ما أنتم ملاقوه، وما أنتم إليه صائرون لقلتم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، قال جلّ من قال: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٢).

٣. دراسة الحالة:

تركت لنا الوصية إيعازاً بأهميّة (دراسة المرشد لسلوك) المسترشد -إيجابياته وسلبياته -من خلال نصها الكريم، أو قيام الفرد نفسه، وهو (صاحب المشكلة، وبلاستعانة بمرشد، مربٍ، خبير) بدراسة نفسه في مشكلة معينة أو أكثر، مستخدماً مضمون نص الوصية وآدابها وتوجيهاتها، وقوى التحفيز وتحريك الإرادة والهمة، حيث يساعد المرشد (المسترشد) في دراسة حالته الذاتية وتبين كوامن الضعف والقوة فيها، كي يتم العمل على أساسها من حيث ما ينبغي إصلاحه، وما ينبغي تقويته، ومع أن مشكلات السلوك متعددة نسبياً، لكنّ أوضح مثال على ضرورة دراسة الفرد لمشكلاته الذاتية بنفسه أو بالاستعانة بغيره لتغيير طباعها الخاطئة ما قالته الوصية عن مشكلة «الاستهانة بالذنب، والرضا بالحالة التي يكون الفرد عليها»، فيمكن لكل فرد تصدق عليه هذه الحالة أن يدرس حالته بنفسه أو بالاستعانة بمرشد أو مربٍ، ومستفيداً كذلك من المادة الارشادية لنص هذه الوصية وتوجيهاتها الميمونة.

٤. استخدام ملف، صحيفة وسجل تراكمي للمعلومات:

لم نجد في ثنايا كلمات الوصية إشارة مباشرة إلى استخدام سجل تراكمي، صحيفة، ملف، كتاب معين لجمع المعلومات عن حالة الذات، ولكنّ تفصيلها لأعراض السلوك

(١) الأنعام: ٢٧.

(٢) الأنعام: ٢٨.

والتوبة والعوائق، والإجراءات الوقائية تقتضي استخدام (ذاكرة الفرد) لجمع معلومات عن حالة ذاته، وقد يستخدم ما ذكرناه كمعزز لما يجمعه في ذاكرته عن حالته الذاتية، حيث يقوم المسترشد بملاحظة سلوك ذاته وتسجيلها في كراسة خاصة أو غيرها، وهذا السجل التراكمي عبارة عن تجميع أعمال المسترشد والراغب في تغيير ذاته، وبواسطته يمكن الكشف عن قدراته ومدى تقدمه وتحديد ما أتقن وما لم يتقنه، وعناصر الإعاقة مقابل خطوات التقدم، وكذلك تسجيل وتدوين أنماط السلوك العصابي ومشكلاته التي يحتاج المرء إلى تعديل وتغيير سلوكي، وتسجيل ما أحصاه الفرد من عيوبه في السلوك والرأي والأخلاق والممارسات اليومية كما قال الإمام علي عليه السلام في نصه التالي.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نصه التالي:

«وعلى العاقل أن يحصي على نفسه عيوبها في الدين، والرأي والأخلاق، والأدب، فيجمع ذلك في صدره، أو في كتاب، ويعمل على إزالتها»^(١).

ربما لم نلاحظ إشارة واضحة وقريبة عن تسجيل إشارات في نص الوصية عن مشكلات السلوك وأمراضه، وجمعها في صحيفة، ملف، كتاب، أو أي سجل تراكمي للمعلومات، وتحفظ فيه مشكلات السلوك المشار إليها في الوصية كالغفلة، والجزع المرضي، والرغبة في الرد على الآخرين بسلوك انتقامي، وإعجاب النفس بذاتها، والرياء أو ما عرف بخفي (الرّين)، وهو الدنس والآثام، وكذلك ما أسمته الوصية بـ (ذل الطمع) الذي وصفه الإمام علي عليه السلام بـ (رق مخلد، والفقر الحاضر) الذي لا يتوقف من داخل النفس ولا تنقطع النفس عن الحرص والاشتھاء (التشهي)، والرغبة مما في أيدي الناس، وأيضاً ما جاء في الوصية من تحذير من التسويف، والتواني، والرجاء الكاذب،

(١) كتاب غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٢ للآمدي، ص ٢٩، وكتاب الطفل بين الوراثة والتربية،

ج ٢، للشيخ محمد تقی فلسفی، ص ٤٣٤.

وقسوة القلب وتبلد الوجدان، والاستهانة بالذنب وقبول الفرد بحالته التي عليها، ثم تدرس وتفهم وتواجه بحلول ومعالجات عبادية مرغوبة، كل على حدة، أو جميعها... ذلك على سبيل التمثيل.. لا غير، والعقل الإنساني قادر على التمعن والتأمل حتى الإبداع.

الحلقة الرابعة

السلوك الإنساني في وصية الإمام الباقر عليه السلام مفهومه،
ومكوناته، وعناصره، وتنظيمه وخصائصه

نسعى في هذا المبحث من كتابنا الذي بين يديك عزيزي الكريم - وبمنظرة هي بطبيعة الحال اجتهادية لا تلزم أحداً - لتحديد مجموعة من المبادئ السيكولوجية التنظيمية، والموجهة لسلوكنا وأفعالنا البشرية، والحديث عنها كمبادئ إرشادية واضحة في نص وصية الإمام الباقر لجابر الجعفي رحمه الله تعالى، ومفردات تركيبته اللفظية، وبعض فقراته، وعباراته، ومحتواه المعرفي والقيمي والسيكولوجي، وغرضنا من ذلك الاطلاع على منظومة هذه المبادئ وتحديد كجزء حيوي وهام من البحث لكشف المزيد من الثروة المعرفية والسيكولوجية من محتوى هذه الوصية الكريمة، وتحديد أثرها وفعاليتها وقيمتها التربوية في السمو والارتقاء الطبيعي بالإنسان المؤمن وتكوين شخصيته العبادية التي تستمد هويتها من مصادر المشرع التربوي الإسلامي وأحكامه الشرعية.

ونحن هنا نفعل ذلك بدوافع البحث، ومحاولة الاجتهاد الفكري، ولا نزعم بالتأكيد أننا نأتي في هذا الموضوع بشيء جديد، ولا نبالغ في مقاصد الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وقدرنا - كبشر - أن نبدأ المحاولة الأولى التي تصيب أو تخيب، وكي توضع هذه التجربة للقراءة والفهم والتمحيص والنقد بغرض تطويرها، وتوظيفها في عمليات التربية الروحية والمعرفية في زمن صعب يواجه جموع المؤمنين بالإسلام وتعاليمه وقيمه، والتأمل في المادة الإرشادية والمعرفية والروحية لهذه الوصية بمحتواها القيم وفهم موضوعه، وتحليل مادته، والاستفادة من معانيه في عمليات التوجيه والإرشاد للشخصية العبادية، واستثمارها كذلك في عملية (انضباطها) وسلامة تكوينها الإيماني والعقائدي والمعرفي والسيكولوجي في هذا الزمن الصعب.

المكونات الأساسية للشخصية الإنسانية

نجد من الفائدة تناول إشارات وصية الإمام الباقر عليه السلام لمكونات شخصية الإنسان قبل الدخول في تفاصيل مباحث هامة من هذه الدراسة؛ لأنَّ موضوعات هذه المباحث كالسلوك والانفعالات وغيرها مؤسّسة على جملة من المكونات الأساسية للشخصية البشرية، وطالما أن نص الوصية المباركة مرَّ بالإجمال على هذه المكونات فيستحسن ربط مباحث دراستنا بهذه المكونات، والتمهيد لها بحديث غير مفصل، ولكنه ذو قيمة علمية تربط بعض المفاهيم الأولية في البحث بهذه المكونات.

إنَّ المخاطب بهذا التوجيه الإرشادي القويم كما هو ملحوظ هو الإنسان ذاته باعتباره الكائن الوحيد المكلف شرعاً من قبل الله سبحانه وتعالى في عالمه الدنيوي القصير، وفي أدبيات المشرع التربوي الإسلامي بتنفيذ شبكة ومنظومة (الأوامر والنواهي) العبادية في مجالات عديدة من حياة الإنسان، وقد وردت في التركيبة اللفظية للوصية الخالدة، وبطريقة مباشرة ألفاظ وكلمات تذكر أهم مكونات الكائن الآدمي، وتشير لتفاعل هذه المكونات مع بعضها في تشكيل وصياغة النمط الأساسي للشخصية الإيمانية (العبادية) كما يريدّها الله عز وجل للناس في حركة واقعهم اليومي بعالم الدنيا.

وأهم المكونات الأساسية للشخصية الإنسانية كما جاءت في نص الوصية هي ما يأتي:

أ- المكونات الرئيسية وهي:

١. البدن (الجسم الإنساني).

وهو جسم الإنسان بكل أعضائه وأجزائه، وجاء ذكره في الجملة التالية من الفقرة الثانية: «واطلب راحة البدن بإجمام القلب»، وقوله في نهاية الفقرة الثالثة: «وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحّة الأبدان»، ثم ذكرت ألفاظ قليلة تشير، وبطريقة غير مباشرة لبعض أعضاء البدن وأجزائه مثل لفظة الغذاء، وتعني مجموعة أعضاء مثل اليد واللسان، والمعدة، وكل ما يقوم بمهمة هضم الغذاء، ومثل لفظة «الفرائض» التي لا تنجز إلاّ بحركات صادرة من نشاط أعضاء فاعلة في جسم الإنسان كحركات اليدين، والوجه، والرجلين، واللسان وغيرها.

٢. العقل الإنساني.

ويشير لفظ (العقل) أولاً، وكما يبدو لنا إلى وجود (المخ) كخلق إبداعي، وكجزء طبيعي في أعلى رأس الإنسان، وقد أُنيطت بالعقل من قبل الله عز وجل مهمة أداء التكاليف الشرعية، وتفعيل التفكير والعمليات والوظائف العقلية كالتفكير والتذكر والاستبصار والوصول إلى اليقين ومعرفة الحقائق ما أمكنه إلى ذلك سبيلاً، وأيضاً مهام عقلية أخرى كنقد سلوك الذات وغير ذلك، وكما يلحظ من نص الوصية فلفظة (العقل) وما يتصل بها) من قدرات كالعلم والاستبصار والتيقظ والتذكر والمعرفة ذكرت مباشرة، وبنحو لا يتجاوز (خمس مرات).

ومع ذلك فهذه الألفاظ والمصطلحات تؤكد وجود مكوّن أساسي ثانٍ هو (العقل) بما اشتمل عليه من وجود المخ في رأس الإنسان، وما تولد عنه من عمليات ذهنية، ووظائف عقلية تنتج أفكاراً ومعرفة يستفيد منها الكائن الأدمي في حياته وفي أداء مهامه

الوظيفية والعبادية.

ويتجلى هذا المكون بحسب التصنيف الإنساني وبعض الدراسات السيكلولوجية المعاصرة في نمطين رئيسيين هما (عقل ولادة) تسميه الروايات والأحاديث وهذه الدراسات المعاصرة بـ (الذكاء) بمستويات متفاوت فيها الأفراد على حسب ظروف حياتهم، وإن كان عدل الله عز وجل يجعلهم متساوين في نسبة توافره فيهم، لكنهم تفاوتوا بحسب ظروف ولادتهم وانتسابهم لتتناسل بشري مختلف الأعراق والأنساب، وهذا الذكاء في مجمله هو (قدرة عقلية عامة فطرية)، ويقابله وجه آخر له أو نوع ثانٍ هو ما تسميه بعض روايات أهل البيت (عليهم السلام)، ودراسات علم النفس الحديث بـ (عقل التجربة)، ويتفاعل كلاهما في حياة الإنسان، فيؤديان إلى تكوين تجارب من التعلم بأشكال متعددة، وتوليد الخبرات العلمية المطلوبة، وهذا ما أسمته الوصية في بعض مفرداتها بـ (العلم والمعرفة والاستبصار).

٣. النفس البشرية.

وهي المكون الأساسي الثالث الذي يجمع الجسم والعقل في كيان واحد، وتتمثل حركتها جميعاً في علاقة تفاعلية تنتج فكراً وسلوكاً وحياة شعورية بعواطفها وانفعالاتها وإراداتها، ومشاعرها الإنسانية المختلفة، وقد خوطبت في نص الوصية بلغة مباشرة، وباستخدام اللفظة ذاتها (مصطلح النفس) كما في قول الإمام الباقر (ع) لصاحبه جابر ابن يزيد الجعفي رحمه الله في أول مقطع من الفقرة الثانية من نص الوصية: «إزراءً على النفس» و«معرفة النفس» و«راحة النفس» و«كغنى النفس».

وذكرت بالفاظ قريبة منها مثل «فإن عرفت من نفسك، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ومجاهدة نفسه، تصرعه نفسه، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله، وادفع عن

نفسك حاضر الشر»، أو كانت الإشارة إليها بكلمات وإشارات مخاطبة مثل: «حضرت، غبت، شهدت، قلت، قولك، ظلمت، خانوك، كُذِّبتَ، مدحت، ذممت، وفكر، عرفت، فسقوطك، خفت»، وكلمات كذلك كثيرة ومتفرقة في التركيبة اللفظية للوصية، وجميعها تدل على إشارة مباشرة أو غير مباشرة للإنسان، وكل فرد مؤمن معني هنا بـ (التوجيه والإرشاد والنصح ومواعظ الإمام الباقر) كما في قوله (ع): «إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها»، وما يؤكد في النهاية، وبنحو واضح توجيه الخطاب إليه في نص الوصية.

ب- ومكوناتها الفرعية.

وهي ما نعتقد بالعناصر الفرعية الناتجة عن تفاعل المكونات الأساسية فيؤدي عملها جميعاً إلى انتظام سلوك الشخصية وبروز ما يسميه عدد من علماء النفس المعاصرين بـ (الشخصية المتكاملة) مثل الجانب الوجداني والانفعالي أو الإرادي، والجانب الاجتماعي، والجانب اللغوي.

وقد عبرت الوصية في بعض مفرداتها اللفظية عن هذه المكونات كما في حديثها عن:

١. بعض أنماط السلوك الانفعالي، والعواطف، ورقة القلب، وقساوته، وفقره، وغنى النفس، والحزن والسرور، والمخافة والخوف والرغبة في العفو الإلهي، وإجمام القلب، ودوام الحزن، وشدة الندم، وذلل الطمع، وشهوات النفس وهواها، وخالص الدعاء، فجميعها يعبر عن انفعالات الإنسان وإرادته.

٢. أما الجانب اللفظي فقد ذكرته الوصية في مواطن عديدة كالمحادثة بين الإمام الباقر (ع)، وصاحبه جابر الجعفي، وخالص الدعاء والمناجاة في الظلم، وفي ألفاظ

معبرة مثل كلمات «وقالوا، كثرة الذكر، كثرة الاستغفار، والتواني فيما لا عذر للإنسان فيه، وأداء الفرائض»، فهذه شواهد على الإشارة للجانب اللغوي.

٣. أما الجانب الاجتماعي للذات فإنَّ ما هو ملحوظ في نص الوصية الباقية من تعبيرات عن الاجتماع البشري وتفاعلاتهم متفرق هنا وهناك، ولكنها تعبيرات دالة على هذه الظاهرة الاجتماعية، وثمة مواقف اجتماعية تجسد هذا الجانب كمكون كبير ومهم من الشخصية، وإن كانت أهميته بمساحة كبيرة من حياة الأفراد والجماعات، ويتمثل حضور الحياة الاجتماعية والتعبير عنها من مفردات الوصية فيما ذكرته من إشارات مثل:

أ- تمثل بروز الجانب الاجتماعي من الشخصية الإنسانية في المحادثة ذاتها، وفي مقابلة الإمام الباقر (ع) لصاحبه جابر وتفاعلها اللفظي، وترتب عن كليهما صياغة نص (الوصية)، ودل هذا كله في الوقت نفسه على اجتماعها الثنائي كمظهر لإشباع حاجتهما للاجتماع البشري، وإبراز أنشطة تعبيرية عن هذا الجانب.

ب- هناك مواقف في نص الوصية تعبر عن مواقف تفاعلية بين البشر، وفي حياتهم الاجتماعية كتحذيرات الإمام الباقر (ع) لجابر الجعفي عليه الرحمة من الرد على مظالم غيره من الناس بنفس أساليبهم العدوانية والظلمة الاستفزازية، وهي مواقف تنطوي على علاقات وعمليات نفسية واجتماعية ولكنها غير سوية، ولهذا أوصى الإمام الباقر (ع) صاحبه (جابر الجعفي) بأهمية السمو الأخلاقي للذات عن رذائل الآخرين وسفالاتهم، وضرورة وضع ضوابط ترشيد للسلوك الاجتماعي في مقابل ذلك، ومن جهة أخرى مبادلة هذا السلوك المنحط بإعلاء النوازع الذاتية في التعامل مع الآخر، وباستجابات أسمى، ومتوافقة من المحددات الإيانية، وكما يريد المشرع التربوي الإسلامي في دوائر ضبط السلوك البشري والسيطرة عليه.

وتستبطن التركيبة اللفظية للوصية جملاً وعبارات تفيد بحديثها عن الجانب الاجتماعي للناس، ومن ذلك استخدام الوصية لمفردات تنطوي على (واو الجماعة) كإشارة على وجود الجماعة كقول الإمام الباقر مثلاً: «وقالوا، ولو قالوا، والنادمون».

كما استخدمت الوصية ثلاث جمل تؤكد على وجود جانب اجتماعي مثل قول الإمام الباقر (ع) للجعفي:

- «حتى لو اجتمع عليه أهل مصرك».
- وقوله: «سقوطك من أعين الناس».
- وما جاء في الوصية من توجيه للناس: «فإليه يلجأ النادمون».

مفاهيم أولية في مدخل المبحث.

نعتقد أن هناك مفاهيم - ذات أهمية أولية، وهي قليلة ومحدودة - نحتاج بادئ ذي بدء تحديد معانيها بإيجاز، وهدفنا أن يتمكن القارئ الكريم من متابعة معانيها منذ البداية، وأن يتوقف عند بعض هذه المفاهيم في سياق حركتنا مع المباحث اللاحقة، ونحدد معانيها في مواضعها المناسبة، وما يهمنا في هذا المبحث قبل الدخول في تفاصيل هو التوقف المجمل عند بعض معاني المصطلحات المهمة وتأمل مفاهيمها بصورة مجملة، وهي كما يأتي:

- السلوك.
- تنظيم السلوك.
- المبادئ التنظيمية للسلوك الإنساني.

• خصائص السلوك.

مفهوم عام للسلوك.

السلوك كما يراه علماء النفس المحدثون والمعاصرون في عدد من تعريفاتهم المتداولة بينهم، وفي أدبياتهم ومصادرهم هو (كل ما يصدر عن الكائن الحي - بخاصة الإنسان والحيوانات العجماوات - من نشاط وفعل أو حركة أو مشاعر وجدانية بمختلف أشكالها) سواء كانت سوية أو غير سوية، وهو عندهم سلوك خارجي، ظاهري يمكن قياسه بالملاحظة المنظمة وبأدوات، وأجهزة ضابطة للداخل والحركات وغيرها، ويخضع السلوك الإنساني والحيواني لهذا التحديد العام السائد في كتابات علماء النفس، ولمجموعة مبادئ لضبط وتنظيم وتوجيه سلوك الكائن الأدمي الذي تعرفوا عليه.

وقد حدد معجم المصطلحات التربوية والنفسية السلوك بأنه: «ظاهرة يهتم علم السلوك الإنساني بدراستها»^(١)، ويعرف كذلك بأنه: «ذلك الجزء من تفاعل الكائن الحي مع بيئته الذي يمكن من خلاله تحري حركة الكائن الحي وحركة جزء منه في المكان والزمان، والذي ينتج عنه تغيير قابل للقياس في جانب واحد على الأقل من جوانب البيئة»^(٢).

ويعرف أيضاً: «بأنه الاستجابة الكلية التي يبديها كائن حي إزاء أي موقف يواجهه»^(٣).

ويمثل هذا الموقف بيئة سلوكية تتكون من المثيرات التي يستجيب لها الفرد في

(١) حسن شحاتة، وزينب النجار، معجم المصطلحات التربوية والنفسية، ص ١٩٦.

(٢) حسن شحاتة، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ١٩٦.

(٣) حسن شحاتة، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ١٩٦.

موقف معيّن»^(١).

إن علم النفس هو العلم الذي يبحث في سلوك الإنسان وخبرته ونشاطه من خلال تفاعله مع مثيرات بيئته الداخلية، ومكوناتها المحيطة به من داخله وخارجه كظروف النمو النفسي للجنين وهو ما يزال في رحم أمه، ثم في مراحل تفاعله المتلاحقة مع مثيرات بيئته خارج بطنها، وتتمثل في كل ما يواجه الفرد من مثيرات انفعالية، وعواطف وأحاسيس وأفكار وصور مختلفة، ومنبهات مختلفة، وأنماط النشاط كالمشي والجري والكلام والصمت، والابتسامة، وكل تعبيرات الوجه وحركات اليدين، وغيرها من أنماط السلوك الكثيرة، ودراستها بطريقة موضوعية كما يدعي علماء النفس، وتقوم طريقتهم هذه على الخطوات التالية:

١. قياس السلوك الخارجي لمعرفة.

٢. وقيام عالم النفس بضبط السلوك والتحكم فيه والتنبؤ به.

٣. وأخيراً تفسيره على أسس علمية وصحيحة في مجالات عديدة من نواحي حياتنا، والتعرف على قوانين السلوك الحاكمة له.

تحديد معنى (المبادئ) ومفهومه العام.

مفردة (مبدأ) اسم مفعول، وجمعه (مبادئ) كما في بعض معاجم اللغة ومصادرها، إذ جاء في بعض المعاجم أن المبدأ هو (مبدأ الشيء).. أي أوله، ومادته التي يتكون منها ك (النواة مبدأ النخل) أو ما يتركب الشيء منها.. كالحروف هي (مبدأ الكلام، والجمع مبادئ)، وهذا التفسير - كما هو ظاهر - لغوي محض وجيه لالتقاء بحركة الواقع

(١) حسن شحاتة، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ١٩٦.

وتطابقه مع دلالاته.

والمبدأ في مصدر لغوي آخر يطابق معناه الاصطلاحي، فهو «معتقد، وقاعدة أخلاقية أو عقيدة، ومبادئ الأخلاق: معتقد، قاعدة ومعياري علمي تبنى عليه قيم الأعمال، ومبدأ الشيء: قواعده الأساسية التي يقوم عليها، وفي قول (المبدأ) هو القانون، البند، وتعني مبادئ العلم أو الفن أو الخلق أو الدستور أو القانون، وقواعده الأساسية التي يقوم عليها»^(١) في حياتنا البشرية اليومية، وكذلك المبادئ هي «صيغة جمع لمفردة (مبدأ) المتداولة بكثرة في لغتنا، فيقال عند بعض اللغويين العرب (مبادئ هذا العلم أو الفن أو غيرهما.. وهي قواعده الأساسية»^(٢).

ويستخدم البعض من الباحثين لاسيما من المعاصرين لفظة (المبادئ القيمة)، «وهي نمط أو صورة من التعميمات تأخذ هيئة قواعد خلقية أو مبادئ أو مثل عليا يتوجب على الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات إتباعها في تعاملهم مع بعضهم ومع غيرهم، ويكون مصدرها الدين والدستور والعادات والتقاليد والأعراف المهنية وغيرها من مكونات التراث الثقافي في مجتمع ما»^(٣)، ومما لا شك فيه أن النظام القيمي المركب مهمته سلوك الفرد ويوجهه لفترة طويلة، ويؤدي إلى تكوين أسلوب في الحياة مميز له»^(٤).

ومصطلح (المبدأ) يسميه معجم المصطلحات التربوية والنفسية بـ (القاعدة الوصفية)، وهو عبارة عن: «تعميم مصوغ في صورة جملة أو عدة جمل خبرية تعبر

(١) مجموعة لغويين عرب، المعجم الوسيط، باب حرف الباء، ص ٤٢.

(٢) مسعود، جبران، قاموس: رائد الطلاب، باب حرف الميم، ص ٨٠٦.

(٣) حسن شحاتة، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ٢٥٣.

(٤) حسن شحاتة، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ١٥٥.

عن وجود علاقة، ويمكن تطبيقها على وجه العموم، كما يمكن استنتاجها بالتعميم من حالات خاصة (حقائق مثلاً)، فالمبدأ أو القاعدة القائلة بأن معظم المعادن جيدة التوصيل للحرارة، قد استخلص من عدة حالات (حقائق نسبية^(١)).

والمبادئ بوجه عام (قيمة وعلمية وغيرها) كما يذهب بعض المهتمين بعلم النفس والتربويين المعاصرين بأنها «مجموعة قواعد ونظم وقوانين تفسر السلوك كالنمو الإنساني على سبيل المثال أو تفسير العلاقة القائمة بين ظاهرتين أو نمطين أو أكثر من ظواهر السلوك وأناطه عند الكائن الآدمي وتضبط حركته في اتجاه معين» كالعلاقة - على سبيل التمثيل - بين النضج الطبيعي وتعلم الكائن الآدمي أو الفرد عادات السلوك وأناطه، وبالتالي فمهمة هذه المبادئ (تفهم طبيعة السلوك، ومعرفة طرائق تنظيمه وضبطه، وكذلك معرفة مستويات النضج عند الأفراد في ظروف مختلفة، وأيضاً معرفة طبيعة التغيرات التي تطرأ في حياتهم تحت تأثير متغيرات محددة).

وهكذا يراد لهذه المبادئ - وهي ذات طبيعة نفسية - أن تعمل على ضبط العلاقة السلوكية للإنسان سواء كانت تعبيراً عن حالة سلب أم حالة إيجابية، وكما في علوم الاقتصاد والسياسة، والمنطق، وغيرها من العلوم مبادئ عامة، كذلك ثمة مبادئ تنظيمية وسلوكية ذات طبيعة سيكولوجية تترك بصماتها على التكوين النفسي للأدميين من مختلف أصنافهم.

مكونات السلوك وعناصره.

ما قدمناه كان تحديداً لمفهوم (السلوك) وتعريفه مبسطاً لقارئ متخصص أو غير

(١) حسن شحاتة، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ٢٥٢ / ٢٥٣.

متخصص، بيد أن للسلوك لدى الكائن الآدمي بوجه خاص مجموعة عناصر ومكونات تحدد هويته، وتذكر في أدبيات علم النفس ومصادره، ويبدو السلوك بمفهومه الإنساني، والعبادي على وجه التحديد كان محكوماً بعدد من المكونات والعناصر الحاكمة لحركته، وتحديد مساراته، وثمة أكثر من عنصر تتداخل فيما بينها لتقوم بضبط السلوك وتوجيهه في مساراته المرغوبة، فهذه العناصر هي قوة مؤثرة، وفاعلة في توجيه الفعل، وضبط حركته ككيان موحد، فكل (سلوك) يتكون في نظرنا من مجموعة عناصر نشير كذلك بإيجاز، وهي:

- المثير والاستجابة.
- الهدف أو الغاية.
- النية أو التوجه الداخلي للإرادة نحو فعل معين.
- المبادئ التنظيمية.

ويمكن بإيجاز تحديد دور هذه العناصر المكونة للسلوك بكلمات قليلة على النحو التالي:

أولاً: المثير والاستجابة.

تعبير (المثير أو المنبه) أحياناً هو من مفردات المدرسة السلوكية، فعلماء هذه المدرسة وفي مقدمتهم واطسون الأمريكي اهتموا بدراسة السلوك الإنساني، ورأوا أنه كوحدة سلوكية مكون من (وحدات فرعية أو أجزاء).. أولها (المثير ثم الاستجابة)، ويأخذ المكون الأول ونعني به (المثير) دوره الفاعل في استثارة إحساس الإنسان وتنبيه شعوره، ثم تحريك سلوكه بقوة دافعة تنطلق من داخله، فلا ينفعل المرء أو يظهر سلوكاً كأن (يبكي أو يفرح أو يتكلم) بدون وجود مؤثر داخلي أو خارجي يحرك سلوكه، وهذا هو

المثير سواء كان من داخل الفرد أم في محيطه الاجتماعي والمادي، فالمثير في قوته بمثابة (دافع تنبيه.. يحرك وينشط ويوجه نحو موضوع ما، وبالتالي يصدر فعل مريح كتحقيق (إشباع جزئي أو كامل لحاجة معينة).. أو يكون هذا الفعل الصادر بصورة غير سارة.

أما الاستجابة فهي رد فعل الإنسان أو الكائن الحي تجاه المثير، وهي بلغة بسيطة (سلوك صادر عن الكائن الحي، والآدمي كذلك بعد ظهور مثير) كما في المثال السابق (استجابة الإشباع)، وكاستجابته في شكل بكاء الفرد من خطاياه أو تفاخره بمعاصيه في السر والعلن أمام الملأ لوقوع استشارة مؤقتة أثارت سلوكه فتفاخر بعزة الإثم، وتتعدد الاستجابات في حياة الإنسان بتعدد الوجوه في أرض الله الواسعة، وبتنوع المواقف التي يكون فيها الناس، بل وتتنوع استجابات الفرد الواحد حتى في الموقف السلوكي، وتزداد كثرة وتنوعاً في مواقف عديدة يمر بها الكائن الآدمي، وكان الرابط بين المثير والاستجابة وجود كائن حي زوّده الله عزّ وجلّ بجهاز عصبي يستقبل المثيرات ويعطي إشارات للدماغ، فيفسر نوع الإثارة على شكل سلوك خارجي ملحوظ، يسميها علماء النفس بـ (الاستجابة).

ونعتقد أن (وصية الإمام الباقر لجابر الجعفي) وما احتواه نصها من مفردات لفظية ومعرفية قدم مواقف سلوكية مكونة من (إثارات واستجابات) في سلوك الكائن الآدمي، وسنمر على بعضها لاحقاً كمنهج في دراستنا، فمفردات هذه الوصية تنطوي على مثيرات (لإثارة المشاعر والأحاسيس، وتهيئة النفس للتفاعل باستجابة معينة سلبية أو إيجابية)، فالوصية بمجملها قول أو كلام يمثل مثيراً لجابر ولكل إنسان يستمع لهذا القول أو يقرأ هذه الوصية، واستجابة جابر أو استجاباتنا نحن المؤمنين المتأخرين تتمثل في الاستماع لهذه الوصية أو قراءتها وكتابتها ونقلها باللسن، وأدواتنا الثقافية، هذا بالنسبة للمثير الكلي العام، وللاستجابة الصادرة عنه منّا.

أمّا في باطن النص الإرشادي لهذه الوصية، وبين كلماتها وأسطرها فتكثر المثيرات وتنوع، ولا يسعنا في هذا الموقع من البحث سوى ذكر أمثلة محدودة، ونترك بعض تفاصيل ذلك في مواقع لاحقة من بحثنا، وأول ما يلفت النظر استخدام الإمام الباقر (ع) لصيغة (المناداة بقوله: يا جابر) ثم استخدام صيغة (أفعال التنبيه وإثارة الشعور) وتكرارها أكثر من مرة مع صاحبه جابر بن يزيد الجعفي عليه رحمة الله، وتحريكها كمثيرات ومنبهات أوليّة تؤدي إلى تكوين استجابات سلوكية مرتبطة بها، وصادرة عنها، ويمكن لهذه المثيرات أن تستثير شعورنا فتكوّن لدينا، وعلى أساسها استجابات سلوكيّة كذلك في مواقف مختلفة.

فالإمام محمد الباقر (ع) كرّر في نص وصيته فعل (اغتم) مرتين، وأفعالاً كثيراً ومتنوعة مثل: «إِنْ كُذِّبْتَ، ظَلِمْتَ، خَانُوكَ، مُدِخْتَ، ذُمْتَ، عَرَفْتَ، ادْفَعْ، تَحَرَّزْ، تَوَقَّ، وَاقِفْ»، وكلها أفعال تنبيه وإثارة شعورية تأتي من خارج الذات، وبعضها يستمد قوة نشاطه من داخلها كما في قوله: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَعْنِي بِمُجَاهِدَةِ نَفْسِهِ لِيُغْلِبَهَا عَلَى هَوَاهَا»، فبدء انطلاق حركة مجاهدة شهوات النفس تأتي عادة إمّا بدافع ذاتي أو بتوجيه من الآخرين والاستعانة بهم، ولكن الاستثارة الشعوريّة والوجدانية داخلية بالتأكيد، وتنبعث قوتها من دافعية الفرد، وتكون المجاهدة ذاتها في أنماط من السلوك هي (استجابات) لهذه المثيرات الدافعة والمحركة، ومن هنا تعتبر هذه الأفعال جميعاً مثيرات تستدعي ردود فعل أو استجابات طبيعية، فالاستجابة الطبيعية تصدر من الإنسان (الكائن الآدمي) سواء كان المثير من تجربة في بيئته الخارجيّة والمادّيّة أو باستثارة ذاتية من الداخل كما تقدم كلامنا في مثال مجاهدة النفس المشار إليه أعلاه.

ويلحظ من بعض جمل وصية الإمام الإرشادية أنّ مثيراتها متنوعة، ومن المنطقي أيضاً أن لا تكون الاستجابات دائماً من نمط واحد، وسبب ذلك تفاوت طبائع العباد

واستعداداتهم، وتعدد مثيرات الشعور، واختلاف نواياهم وسرائرهم، وتضمنت الجملة التالية انموذجاً لهذا التنوع في مثيرات السلوك بصرف النظر عن نوع الاستجابات الصادرة، بل وتنوعها فعلياً بحسب نوع المثير وقوته.

قال الإمام الباقر (ع):

«وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كُذبت فلا تغضب، وإن مُدحت فلا تفرح، وإن دُممت فلا تجزع».

هذا مجرد مثال على تنوع منبهات الموقف الانفعالي في حياة الأفراد، ولكن يتوقع في حياة شخص غير جابر الجعفي، أن لا تتساوى مشاعره مع إيمان جابر وقربه العبادي، وأن تتنوع استجابات هذا الإنسان الآخر، بينما مطلوب من جابر عليه الرحمة (كف سلوكه) بحزم وضبط شديدين لنفسه عن معاملة الآخرين بمثل أفعالهم، أي أن يمنع جابر استجابته عن أن تكون مماثلة لسلوك الظالمين له، والمكذبين عليه، والخائنين إياه، والمبالغين في مدحه، والذّامين القادحين في شخصه، كما أن في نص الوصية المباركة على سبيل مثال آخر على ترابط المثير والاستجابة في وحدة سلوكية واحدة، ومترابطة بقوله (ع) في نص وصيته الشريفة والمعتبرة لجابر الجعفي:

«إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها (عوجها)، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش، ويقيل الله عشرته فيتذكر، ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف».

وبتأمل مفردات هذا المقطع اللفظي المهم في وصية أبي جعفر محمد بن علي الإمام الباقر (ع) نعرف في سياقه اللفظي على بعض المثيرات والاستجابات المتصلة والمتبادلة، فبدء عملية (جهاد المؤمن لنفسه) هو مثير من داخلها، ويترتب عنه إما أن يتمكن منها

فيقيم أودها (عوجها) ومواطن الخلل فيها، ويخالفها في محبة الله (ويكون ذلك كله استجابات للمثير - جهاد النفس - أو تكون الاستجابات فاشلة حينما تصرعه نفسه فيتبع هواها، ويعقبه (انتعاش كمثير، فينتعش، ويقيل الله عثرته ويتذكر، ويفزع إلى التوبة، ويخاف، ويزداد بصيرة ومعرفة، وجميعها أشكال من الاستجابات السلوكية والمعرفية والوجدانية)، وهكذا فنص الوصية كما في هذا المثال وحدة سلوكية مكونة من إثارة شعورية، واستجابات مترابطة في علاقتها، ومتنوعة في أنماطها.

وكل ذلك يفسر اختلاف الاستجابات السلوكية حتى لو كانت الاستثارة واحدة، فالممكن من تاريخ السلوك الإنساني يشهد بأن المثير الواحد لدى الكائن الأدمي قد يصدر عنه مجموعة من الاستجابات المختلفة ليست على نمط موحد في كل الحالات.

وقد تقدمت منّا الإشارة إلى ذلك، وبالطبع أخيراً، لا توجد علاقة بين المثير والاستجابة كمكونين أساسيين للسلوك إلا بتزويد الكائن الحي، ومنه (الإنسان) بجهاز عصبي حي وفَعَّال قادر على استقبال (الإثارات أو المثيرات أو المنبهات)، وتحويلها إلى ردود أفعال، واستجابات وجدانية، وفلسجية وعقلية وإدراكية، وغير ذلك.

انموذج تطبيقي لمجموعة من مثيرات السلوك الإرشادي واستجاباته :

يمكن النظر للوصية - كنص إرشادي - بأكمله كوحدة سلوكية مترابطة في مثيراتها واستجاباتها، وككيان معرفي مكون من عناصر أساسية في وحدة السلوك الإنساني، ويبدأ هذا الكيان من مثير داخلي أو آتٍ من جهة خارجية، وينتهي في العادة إلى تكوين استجابات سلوكية مختلفة الأشكال، ويكون وضع (المثيرات والاستجابات) في السلوك الإنساني، بل في سلوك كل كائن حي لاسيما الحيوانات أشبه بوضع (الفعل

والفاعل) في قواعد النحو العربي، فالفعل الإرشادي سواء كان في شكل وصية كوصية الإمام الباقر (ع) لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي، أم في شكل موعظة، ونصيحة، وموقف عظة واعتبار يظهر في بداياته الأولى كمثير، ودافع ومحرك ذاتي للسلوك من داخل الفرد، وبقوة ذاتية، فإن كانت العظة الإرشادية كما في (وصية الباقر أو مواعظه أو نصائحه أو غيرها) منبثقة من داخل كيان الفرد كان المثير (داخلياً) وقوة دفعه هي الأخرى ذاتية، وهذا ما كان الإمام الباقر (ع) يؤكد عليه في وصيته كنص إرشادي، وفي خطابه الإرشادي.

يقول (ع) في هذا الصدد:

«مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظاً فَإِنَّ مَوَاعِظَ النَّاسِ لَنْ تَغْنِيَ عَنْهُ شَيْئاً»^(١).

وجاء في نص آخر له قوله: «كفى بالمرء غشاً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من أمر نفسه، أو يعيب غيره بما لا يستطيع تركه»^(٢).

ويراد بالإثارة الداخلية في الموقف الإرشادي تحسس الفرد، وبواعث ذاتية وداخلية في تقبل المواعظ والنصائح، والسعي للفعل الإرشادي من داخله، وبمحض إرادته، وقد تعزز هذه الإثارة الذاتية الداخلية بإثارة داعمة ومساندة من موقف اجتماعي أو خارجي، كأن يتطوع أحد الناس في إسداء نصيحة فاعلة أو تنبيه لنا على ضرورة تغيير سلوك خاطئ صدر عننا، ويفترض في سياق هذا الموقف زيادة نشاط الفرد بتأثير التدخل الاجتماعي، فكلاهما، الوعظ الذاتي للفرد، والوعظ الخارجي يحركان سلوك الفرد في اتجاه البحث عن حل موفق للمشكلة، وضبطها، والسيطرة عليها.

(١) الحرّاني، ابن شعبة، تحف العقول، ص ٢١٤، وبحار الأنوار للمجلسي، ج ٧٥، ص ١٧٣.

(٢) الحرّاني، ابن شعبة، مصدر سابق، ص ٢١٦.

وإذا ما صدر من داخلنا مثير ذاتي محرك لسلوكنا أو بمعونة آخرين، فالمنطقي أن يقابل هذه الإثارة الداخلية أو الخارجية ظهور (استجابة سلوكية) سواء كانت معرفية، وجدانية، اجتماعية وأخلاقية أم غيرها، وهذه الاستجابة تكون في حقيقتها بمثابة ردود فعل منعكسة قد تختلف من فرد لآخر، أو بحسب تنوع المواقف أو من زمن إلى آخر، فالاستجابة بأي شكل هي الجناح الآخر للفعل الإرشادي كوحدة سلوكية مترابطة ومتناسكة.

ونعتقد أن وصية أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (ع) التي ندرسها كوثيقة تربوية وإرشادية هي موعظة روحية - أخلاقية لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي، ولكل إنسان مؤمن، وينبغي له (أي المؤمن) الاستعانة بزادها الروحي والإرشادي، ومخرونها الأخلاقي والسيكولوجي في الرقي بذاته وتطوير قدراته، والسمو بسماتها وصفاتها، وقد اجتمع في نص وصية الإمام (ع) العنصران الأساسيان المكونان للسلوك كوحدة مترابطة؛ حيث أن النص بأكمله يمثل في نظرنا شبكة من المنبهات والإثارات المحركة للسلوك، وهي مختلفة الأشكال سواء كانت معرفية، روحية، وجدانية أم جانباً آخر من جوانب الشخصية.

ومما لا شك فيه أن هذه المثيرات الإرشادية تساعد، وبطرائق إيجابية على توليد قدر ممكن من الرغبة في التغيير لدى الفرد، وتعديل السلوك، وذلك من أجل بناء نمط عبادي للشخصية الإيمانية المرغوبة بما يتفق ومعايير المشرع التربوي الإسلامي، وبما يحقق رضا الله سبحانه، ورضا الفرد نفسه عن أفعال ذاته، وهذا ما نراه عنصراً مهماً في وحدة السلوك لدى الكائن الحي، وهو ما يجسد في نظرنا (الاستجابة السلوكية) المترتبة عادة عن مثير مسبق في اتجاه معين.

وكما أن الوصية الباقرية - كوثيقة إرشادية - اخترنت أشكالاً من المثيرات

والمنبهات المحركة للسلوك كاللفظية والسمعية والحسية وغيرها، فالنص ذاته استوعب جملة ظاهرة من الاستجابات السلوكية، وتوزع هذا التنوع في المثيرات والاستجابات السلوكية في جميع فقرات الوصية الباقية، ويستطيع كل قارئ وباحث متأمل في مضمون المادة الإرشادية للوصية المذكورة إدراك العلاقة بين المثيرات والاستجابات كعنصرين أساسيين للسلوك الآدمي، وتدرج جميعها من مثيرات واستجابات في العلاقة الإرشادية، وهي في حصيلتها العامة تمثل (فعلاً إرشادياً)، فيكون جزء من الجملة مثيراً أو منبهاً إرشادياً، ويكون الجزء الآخر منها استجابة إرشادية قائمة أو ينبغي أن تكون.

وسنمر في طي مباحث دراستنا التي بين يديك على نماذج عديدة من مثيرات السلوك الإرشادي واستجاباته، وردود الأفعال الصادرة عن الأشخاص، وسيلحظ القارئ الكريم نماذج من مكونات السلوك الإرشادي، وتشكل هذه النماذج منظومة التوجيه والإرشاد في الخطاب الباقرى بوصيته لجابر الجعفي، ومن هذه النماذج ما يأتي:

١. السلوك الإرشادي بمثيراته واستجاباته كما في نص الوصية ومحتواه المعرفي.
٢. الانفعالات النفسية في المادة الإرشادية للوصية الباقية الميمونة.
٣. العوامل المؤثرة في السلوك الانفعالي، وهي تتراوح بين مثيرات و استجابات سلوكية.
٤. الحاجات النفسية والمادية.
٥. القيم الإرشادية وتأثيراتها في ضبط السلوك الفردي.
٦. مبادئ تنظيم السلوك الإرشادي.
٧. مشكلات السلوك وحالاته المرضية.

٨. الأساليب الإرشادية (وقائية وعلاجية).

ومن هذه المثيرات التي تؤدي دوراً مهماً في العملية الإرشادية مثيرات الجنس والغذاء، ومثيرات سلوكية كما في الاستفزات والسلوك العدواني كالظلم والتخوين والتكذيب والذم والقدح في أعراض الناس، والخوف، والوقاية من هوى النفس، والترغيب والترهيب، ومثيرات العملية الجهادية للنفس وشهواتها، والفرع إلى التوبة وبروز مقاومة لمثيرات رواسب النفس الناجمة عن سالف الذنوب، والشهوات الحاضرة، ويقابل هذه المثيرات كذلك استجابات من طبيعة المثير ذاته وجنسه كنماذج فقط للترابط بين المثيرات والاستجابات في العلاقة الإرشادية كما في الجدول التالي:

المثيرات الإرشادية	نوع المثير	الاستجابات الإرشادية المأمولة	نوع الاستجابة
إِنْ ظَلِمْتَ	نفسي (عدواني)، أخلاقي واجتماعي	لا تظلم	أخلاقية
إِنْ خَانُوكَ	نفسي وأخلاقي (عدواني)	لا تَخُنْ	أخلاقية
إِنْ كُذِّبْتَ	سلوكي أخلاقي (عدواني)	لا تغضب منهم، واردد الغضب، أي تجنبه.	وجدانية
إِنْ مُدِّحْتَ	لفظي، سمعي، وجداني	لا تفرح بأقوالهم	وجدانية، أخلاقية

وَجْدَانِيَّة، أَخْلَاقِيَّة	لَا تُجْزَعُ مِنْ ذِمِّ النَّاسِ	لفظي، سمعي، وجداني، و(عدواني)	إِنْ دُمِمَتْ
استجابة معرفية وذهنية	التفكير فيما قيل من كلام عدواني	مثير خارجي، لفظي وسمعي	ما قيل فيك من قول الزور
استجابة روحية ووجدانية لما تنطوي عليه من رغبة وأمل وطمأنينة وبشارة	الثبات على القرآن والتمسك بما جاء فيه	مثير ديني، روحي، وجداني، ونفسي، وعملي أو سلوكي	الرغبة في القرآن والخوف من تخويفه
استجابة عملية وتطبيقية تجتمع فيها جوانب متعددة من مكونات الذات البشرية كالجانب الروحي والنفسي، والوجداني وغير ذلك	الاستجابة بالتذكر والفرع إلى التوبة	مثير روحي، نفسي، سلوكي	تعثر حركة الفرد المؤمن في عملية المجاهدة النفسية
استجابة وجدانية، وروحية	استجابة الندم الشديد، وكثرة الاستغفار والذكر في الخلوات والعلن	المثير النفسي ذو طبيعة روحية وإيمانية	استرجاع سالف الذنوب
استجابة أخلاقية اجتماعية	استجابات التعود على عادات السلوك الشرير.	نوع المثير (نفسي، واجتماعي، و سلوكي).	الثقة بغير المأمون

ثانياً: الهدف المراد تحقيقه.

لكل سلوك، وفعل، وشعور في حياتنا البشرية غاية، وهدف محدد أو أكثر يراد تحقيقه في حركة الواقع، أو على المستوى الشخصي لحياة الفرد نفسه، وبالكيفية التي يتطلع إليها العبد من عمله، والهدف كما أشرنا.. غاية إنسانية يراد الوصول لها بعد أداء عمل عبادي معيّن أو مجموعة تكاليف شرعية تحقق الغاية التي يرضى الله عنها، أو نشعرنا كبشر بحالة من الارتياح النفسي والشعور بالسعادة والمتعة الذاتية.

وللههدف معنى تربوي يحدده بعض المشتغلين بالدراسات التربوية والسيكولوجية فجاء في بعض المصادر أن الهدف (Goal) يُعرّف لدى بعض علماء النفس بأنه: «طموح الإنسان وما يرغب في أن يكونه، ويقصد به التغيير البناء الذي يحدث في سلوك المتعلم نتيجة مروره بمواقف تعليمية معينة، وتفاعله معها، ويمكن قياسه وتقويمه»^(١).

والهدف في معناه البسيط، وكما نعرفه هو (كل سلوك متوقع، ويرجوه الإنسان)^(٢) ويطلبه مؤمناً كان، أم غير مؤمن من ممارسة سلوك معين أو أداء فعل ما، ولذلك يحرص الإنسان العابد على تحديد هدف واضح مما سيفعله أو غاية مرجوة ومأمولة من سلوكه، ومن أجلها يبذل الفرد المؤمن جهده لتحقيقه، وإضفاء طابع المسؤولية عليه، وصبغه بالطابع العبادي السوي الذي رسمه المشرع الإسلامي في أحكامه التكليفية الشرعية بمختلف أنواعها لضبط وتوجيه حياة الكائن الآدمي، فيطلب من الفرد المؤمن وصوله إلى هدف مهم، وتحقيقه - على سبيل المثال - طلب إرضاء الله عز وجل تعالى، أو تحقيق قدر معين ومناسب من التوافق النفسي والاجتماعي أو انجاز شيء معين أملاً في الوصول إلى قدر معقول من الصحة النفسية.

(١) حسن شحاتة، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) مدن، يوسف، سيكولوجية الانتظار، ص ٤٢.

وعادة ما يتم استخدام الوسائل والأدوات والآليات الممكنة لبلوغ الهدف المحدد، ومن ذلك استخدام ثقافة الدعاء وطابعها المعرفي والروحي، وتفهم نص الوصية المذكورة طلباً من العبد المؤمن لتنمية علاقته مع خالقه عز وجل، وحث هذا الطابع بطابعه الأخلاقي والإرشادي للفرد المؤمن بخاصة زماننا المعاصر زمن غيبة إمامنا المهدي (ع)، وزمن المنتظرين لظهوره الميمون على طلب التوافق السوي بإشباع الحاجات، وإزالة الهموم وتفريج الكرب، وقبول نعم الله سبحانه وتعالى، والتعامل معها بشكل سوي، وتوافقي، وتكثيف سليم مع قواعد البناء السوي لنمط الشخصية العبادية المطلوبة، أو القرينة من دوائرها على أقل تقديراتها.

ومما نلاحظه أنه في نص الوصية تحدت بعض مطالب الإنسان المؤمن بتوجيه من الإمام الباقر، ورغبة منه في تحقيق أهدافه من الله سبحانه، وتتوقف غالبية مقاطع هذه الوصية كأمثلة عند الهدفين الرئيسيين، وهما (طلب رضا الله، وتحقيق التوافق النفسي والاجتماعي)، ثم ما ارتبط بهما من أهداف صغيرة ومشتقة تلتقي بخيوط مع الهدفين الأساسيين المذكورين، وتقدمت إشارة لبعض أهداف الوصية الإرشادية في حلقة سابقة، وجاء في الوصية قول الإمام الباقر (ع) بعد إشارته لنماذج من المثيرات الانفعالية ومطالبته جابراً بكف سلوكه عن المعاملة الظالمة والمنحرفة بالمثل فقال (ع) محذراً من نتيجتين تسقطان المؤمن في هاوية، وتحرمه من تحقيق هدفه.. رضا الله، ورضاه عن نفسه، ورضا الآخرين عنه، وطلب منه التفكير فيما قيل حتى يتجنب هذا السقوط المزدوج، قال الإمام الباقر (ع) في توجيه نصيحة لجابر بن يزيد الجعفي رحمه الله عز وجل:

«وفكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله جل وعز عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس،

وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك».

أي بهما يعرف رضا الله عن الذات، ورضا الفرد عن نفسه.

وينتهي المقطع التالي الآخر إلى تأكيد أهمية الهدفين السابقين، تحقيق نصر على الذات، والوصول إلى حالة من الاتزان والرضا الذاتي، وإنعاش الله للإنسان بعد استبصاره، ودفع مخاطر ما مسه من طائف الشيطان ووساوسه الخطيرة، وهو ما يحقق به الفرد المؤمن رضا ربه، وهو في الوقت ذاته مطلب وهدف يؤدي بالنسبة للفرد المؤمن إلى تحقيق هدف أقل منه وأصغر وهو تحقيق حالة معقولة من التوافق والصحة النفسية، قال مقطع من نص الوصية: «إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فيتعش ويقبل الله عثرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢)».

وتوزعت في النص الإرشادي للوصية مطالب عديدة من الإمام الباقر لضمان بلوغ الهدفين الرئيسيين مثل استقلال كثرة الطاعة، وتعرض النفس لطلب عفو الله، وخلاصها من الغفلة، وتيقظها الذهني، وصدق الخوف، وغلبة الهوى باسترشاد العلم ودلالة العقل، ومراجعة الذات، والتحبب لله بالمسارعة في تعجيل الأعمال الصادقة، واستبقاء خالص الأعمال الصالحة ليوم الجزاء واتقاء الحرص بإيثار القناعة، وتذوق حلاوة الزهد بقصر الأمل، وكثرة الذكر في الخلوات وكثرة الاستغفار لتلين القلب

(١) الأود: محرّكة (العوج)، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار،

ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

وترقيقه، وخاصة الدعاء، وعظيم الشكر، وتزيين النفس بصدق الأعمال وسلسلة من الأعمال العبادية نصح الإمام الباقر (ع) بتنفيذها.... الخ.

ثالثاً: النية الإنسانية،

ويراد بهذا المصطلح العبادي (التوجه الداخلي الحاسم للنفس نحو الإيمان الكامل بهذه العقيدة أو غيرها بلا تردد أو حيرة)^(١)، وهذا ما قاله أحد العلماء واللغويين كابن عشيرة البحراني (رحمه الله)، إذ قال عن النية: «هي القصد من غير تردد»، أما العزم فهو الحاصل بعد التردد، وهو العقد على الأمر بالإرادة^(٢)، والنية كما قال ابن عشيرة البحراني «من أفعال القلوب، فلا يصح إطلاقها على الله، والإرادة يصح إطلاقها، فيقال إرادة الله سبحانه وتعالى»^(٣)، بحيث يوجه العبد المؤمن عمله العبادي كله لله عز وجل، وتكون إرادته موجهة نحو فعل معين مطلوب بنية نقية ونظيفة لله خالية من الشوائب والرياء والشرك الخفي وطلب الشهرة.

فالنية الصالحة في نظر المشرع التربوي الإسلامي هي روح العمل، والفقهاء بها وضبطها هو وعاء العمل وقاعدته، وكلاهما يحقق مواءمة بين عمل الذات وبرنامج المنهج على هدي الإسلام وقيمه وتعاليمه، وهنا تتوجه النفس في سلوكها نحو بارئها بنية صالحة وموافقة من الناحية العبادية وموافقة لمعايير المشرع الإسلامي ومحدداته الإيمانية.

ونتلمس الإشارة إلى النية كمحدد مهم وأساسي في تكوين السلوك وتلويحه بطابع

(١) مدن، يوسف، مصدر سابق، ص ٤٢.

(٢) ابن عشيرة، يحيى بن الحسين، بهجة الخاطر ونزهة الناظر، ص ٦١.

(٣) ابن عشيرة، يحيى بن الحسين، مصدر سابق، ص ٣٩.

الخير في مقطع مهم ومثير ذكره الإمام الباقر (ع)، حيث لم يترك (ع) تأكيداً على دور النية الصالحة أو الطالحة في جمل عديدة من وصيته (ع) لجابر، وتحديد نوع الفعل وإضفاء طابع عبادي أو خلافه عليه، ونذكر القارئ بكلمات الإمام في مقطعين لتأملها واستلهاهم معانيها.

قال الإمام الباقر (ع) عن إرادة الخير في الإنسان:

«يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة، واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجماع القلب، وتخلص على إجماع القلب بقلّة الخطأ، وتعرّض لركة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق».

وقال في مقطع آخر:

«واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم، وتخلص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة

النعم بعظيم الشكر، والتوسل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العز بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس ببعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحّة الأبدان، وإيّاك والثقة بغير المأمون، فإنّ للشر ضراوة كضراوة الغذاء، وأعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف عاجز، ولا رجاء كرجاء مُعين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغارك الدنيا، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ولا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا شرف كبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالمنافسة في الدرجات، ولا عدل كالإنصاف، ولا تعدي كالجور، ولا جور كموافقة الهوى، ولا طاعة كأداء الفرائض، ولا خوف كالخزن، ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين كفقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد الخوف، ولا مصيبة كاستهانتك بالذنوب ورضاك بالحالة التي انت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذل كذل الطمع.

ورد في نص الوصية الباقرية عن إرادة السوء لدى العبد قوله (ع):

«وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق»، ودعا في مواجهة ذلك الى قوله: «وتزيّن لله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتحبّب إليه بتعجيل الانتقال».

ثم قال في جملة ثانية:

«وإيّاك والتسويق فإنّه بحر يغرق فيه الهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة

القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون».

«ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها».

«وإيّاك والتفريط عن إمكان الفرصة، فإنّه ميدان يجري لأهله الخسران».

ففي هذه المقاطع تأكيد على وجود القصد أو النية أو الإرادة الداخلية، وعلى نوعها الآخر من حيث الاستقامة أو الفساد، ويشهد المقطع كله على فساد نوايا بعض الناس، والمهم في هذه المقاطع جميعها تأكيدها على وجود النية (خيرة وشريرة) كعنصر ومكون للسلوك عند الآدميين، ودورها في تشكيل شخصياتهم سواء كانت بنية خالصة لله سبحانه أم بنية تخاذل وسوء، بل شر، فالنية مكون ملحوظ الأثر في بُنية الفعل الإنساني وتكوينه، بل ويوصف الإنسان بالخير أو الشرير على أساسه.

وبقيت الإشارة إلى مكونات أساسية للنية الإيمانية الصادقة، والمفترض تحققها في شخص جابر الجعفي أو من سائر جابراً على منواله الإيماني، وإن كانت نية كل فرد كان (جابراً أم غيره من الأفراد) تتكون من مكونات ثلاثة أساسية، ونوجزها فيما يأتي:

١. مكون معرفي:

ويقصد بهذا المكون معرفة الفرد بالامر المراد عمله، ويشمل مجموعة الآراء والأفكار والمعتقدات والحجج العقلية سواء أكانت (خاطئة أم سليمة)، وهي معنية بتفسير وفهم الباعث على النشاط والعمل، والغاية من الفعل، وبالنتيجة المتوقع أن تترتب عنه، فيختار الإنسان أو الكائن الآدمي، وبنية صحيحة يعلم الفرد بنتائجها، ويعرف بعقله وإرادته الواعية جهة القصد التي توجه إليه.

٢. والمكون الثاني (المكوّن الوجداني):

ويحدد هذا المكون كل المشاعر الوجدانية المرتبطة بـ «موضوع النية» كالحب أو الميل النفسي والانجذاب نحو شيء معين أو الرغبة القلبية تجاه تحقيق فعل معين، أو حالة الجذب الداخلي نحوه، فالنية التي وراء صدور الفعل قد تكون مشحونة بمشاعر «الحب أو الكره، بالسلام أو العدوان، بالتفاؤل أو التشاؤم».

٣. والمكون السلوكي:

وهذا المكون مهم، وهو مكون عملي وتنفيذي يتم بعد وضوح الرؤية المعرفية وتحديد مشاعر الحب والبغض للموضوع، ويقوم هذا المكون على نزوع النفس عملياً إلى تنفيذ الأعمال والاستجابة السلوكية نحو موضوع معين^(١) سواء أحبته النفس أم كرهته.

ونلفت نظر القارئ إلى مسألة توجيه الإمام الباقر ﷺ لصاحبه جابر الجعفي بكفّ أية استجابة مماثلة لمن ظلمه أو خاناه أو كذّبه... الخ، ورد الفعل أو الاستجابات المطلوبة - وكما يريد الإمام الباقر ﷺ - لا بد أن تتصف بالأمور التالية:

أ - خلوها من الظلم.

ب - وأن لا يكون رد الفعل هو نفسه خيانة مماثلة لسلوك الخائن نفسه.

ج - ولا تكون الاستجابة على فعل التكذيب استجابة غضب، ويقصد الغضب العلني، المخلوط بالحماقة، والطيش، والشتائم وبذاءة القول.

قد تتنوع استجابات الشخص الذي تعرض لهذه المثيرات الاستفزازية، ولكن بحسب وصية الإمام الباقر ﷺ عليه أن يتجنب استجابات الظلم والتخوين والتكذيب والاستجابة بالمثل، وربما بردود فعل سيئة، أمّا في تربية ردود فعل جابر، ومن يجب

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ٢٢٨ - ٢٣٠.

الإمام ويمثل لأوامره ونواهيه، فهذا الموقف يُبنى على مثيرات واستجابات، ووجود كائن آدمي، ويرتكز على وجودانية صادقة لديه كي تكون الاستجابة كما أراد الإمام مثالية ومنضبطة، وهي لا تخلو من مكوناتها الثلاثة التي ذكرناها قبل قليل.

فالمكون المعرفي قد تحقق، وهو أن جابراً يعلم بالامر المراد منه فعله، وهو عدم ظلم من ظلمه أو تخوين من خونه وغير ذلك، وتكون هذه المعرفة سبباً في الامتثال والطاعة لأوامره؛ لأنها تكسبه الفضل على غيره، ويكون ثوابها مجزياً عند الله، وتتيح للفرد تربية نفسه، وسموه عن البذاءات وفحش القول وغير ذلك.

أما المكون الوجداني لنية جابر هنا، فيميل جابر أو من يوالي الإمام الباقر (ع) إلى طاعته حباً في الانقياد لأوامره، وميلاً لطلب الأجر، والبعد عن الفواحش، وحب السلام لا العدوان أم الكراهية، فالتعاطف مع هؤلاء الأشخاص هو حب للإمام الباقر (ع)، وتصديق لقوله بأن كف السلوك هو الخيار الأفضل، وفي المكون التنفيذي أو السلوكي عمل بمشورة الإمام كخيار عبادي سليم، حيث تعبر النية عن صدقها، ورشدها، وإخلاص جابر أو غيره من المؤمنين للإمام الباقر وطاعته لأوامره، وتنقية قلبه من الشوائب، وهكذا فنية الصحابي الكريم كلها -لإمام الباقر أو غيره- إن تمكن فعلياً من التقيد بأوامر الوصية وضوابطها تجسّد تعبيراً للنية الصادقة والرشيدة، وهي تعبر عن نجاح جهادي بتنقية داخل الفرد من شوائب الدنيا، وما انسحب على هذا الموقف السلوكي ينسحب على ألفاظ وجمل وعبارات في نص الوصية من حيث توافر مكونات ثلاثة للنية، وهذا ما يساعد على تنظيم السلوك وتوجيه مساراته نحو أهدافه العبادية المرغوب بها.

رابعاً: مبادئ تنظيم السلوك:

مررنا في مدخل هذه الحلقة بتحديد (مفهوم المبادئ التنظيمية) للسلوك الإنساني، وهي عنصر يرتكز عليه البناء العام والأساسي للشخصية العبادية الإيمانية، وتشكيل سلوكها ومشاعرها وبناء تنظيمها سواء في مجال عقائدي، أو في مجال آخر كالمجال السلوكي، وسنعالج هذا الجانب في هذه الحلقة لاحقاً بعد الوقوف المختصر عند خصائص هذه المبادئ.

ويتحدد على أساس هذه المبادئ نمط أساسي للشخصية العبادية للأفراد المؤمنين في عصور مختلفة بخاصة في زمن غيبة إمامنا قائم آل البيت عليه السلام، إذ تتعاون جميع المبادئ، وتعمل كوحدة موحدة في تنظيم سلوكنا، وبناء النمط العام لشخصية الفرد منّا، فالنص الكامل بأسره لوصية الإمام الباقر عليه السلام، وما تضمنه هذه الوصية من مفردات لفظية استبطن عدداً من المبادئ بشقيها (الأخلاقي والسيكولوجي)، وهي جميعها مترابطة تستهدف تنظيم بناء النمط العبادي الأساسي لشخصيات الأفراد المؤمنين، ومما لا شك فيه أن التعرف على مجموعة هذه المبادئ يحتاج إلى ثقافة سيكولوجية ودينية معقولة من الباحث، وإلى توافر مفردات لفظية من داخل نص الوصية ذاتها كي تساعد الباحث على الجمع والحصص والتحديد وربط هذه المبادئ في نسق فكري يمنحه فرصة مناسبة لصياغة نسق عام قريب لنظرية معرفية عن مجموعة المبادئ التنظيمية للسلوك، ونأمل التوفيق.

معنى تنظيم السلوك.

لفظة: تنظيم (اسم)، وقيل (فعل)، نَظَمَ، وَيُنَظِّمُ، تنظيماً، فهو مُنَظَّمٌ، والمفعول (مُنَظَّمٌ)، وجمعه تنظييات بأشكال مختلفة ومتعددة، ومصدر (نَظَمَ)، ويقال في بعض أدبياتنا (تنظيم العمل، وهو ترتيب الأمر بطريقة مسبقة، وتديرها ليأخذ نسقاً معيناً)

في الحركة والتوجيه وتنظيم الجهد، فمفهوم مصطلح (تنظيم السلوك) يعني جعل أجزائه وعناصره كتلة عمل واحدة، وتعمل متآلفة، ومتآزرة لأجل أداء غرض مُعَيَّن أو هدف مشترك، ويتم ترتيب نشاطها كوحدة سلوكية، فتنظيم السلوك يعني «نظم مكوناته وأجزائه وترتيب حركتها، وخاضعة لقانون أو قاعدة كترتيب العلاقة مثلاً بين مثيرات السلوك واستجاباته».

وهكذا ف«السلوك الإنساني على اختلاف أنماطه واستجاباته، وتباين أغراضه وأوصافه يعتبر سلسلة من العمليات المتتابعة، بشكل يجعل من مجموعها صيغة فعلية واحدة، تؤدي غرضها بعد أن تتجسد حقيقة سلوكية على مسرح الحياة»^(١)، وهذا وجه فعال من أوجه تنظيم السلوك في اتجاهاته المطلوبة، ووجهة قصده.

أولاً: خصائص مبادئ تنظيم السلوك في نص وصية الإمام الباقر.

قد تمكنك الملاحظة الأولية لنص وصية أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام بتماذك مفرداتها ومعانيها ودلالاتها الإنسانية، وتبسط لدى الإنسان قليلاً من التأمل الذهني في محتوى المادة الإرشادية - التعليمية لوصية الإمام محمد بن علي الباقر عليه الصلاة والسلام من رؤية مبادئ وأفكار، ومضامين أنظمة، ومعاني قيم مؤثرة، وهي بكل تأكيد قوى مؤثرة، وضابطة للسلوك في تكوينه الأولي وحركته المتتابعة.

كما أن هذه المبادئ بمثابة (أدوات ضبط) تستخدم للمساعدة على تحقيق هذه الأهداف وتنظيم سلوك الإنسان، وتنظيم حركة العلاقة البشرية في إطار دوائر متعددة كالعلاقة بين الإنسان وربه سبحانه، وعلاقته مع الآخر، وعلاقة ثالثة مع نفسه،

(١) تنظيم السلوك الإنساني، دراسة من إصدارات دار التوحيد الكويتية، ص ٧.

وكذلك علاقته مع عالم الأشياء المادية المحيطة به في الدنيا، ويرتبط هذا الكشف بمعرفة خصائص عامة لهذه المبادئ التنظيمية للسلوك، وفهمها كضرورة تربوية لتربية (الذات العبادية) بطريقة وقائية، أو مساعدتها بطريقة علاجية على التخلص من بعض عيوبها وأمراضها، ورذائلها.

ومن هذه الخصائص:

- طابعها رباني.
- إنسانيتها.
- تنظيمها وطابعها الأخلاقي.
- هدفية هذه المبادئ.
- تشابك وتداخل هذه الخصائص مع بعضها.

١. ربّانية المبادئ.

والمراد من مضمون هذا المبدأ ارتباط محتواه الداخلي بتعاليم السماء، والقيم الإلهية الخالدة، فالتوجيهات الإلهية هي المصدر الأساسي لمادة ومحتوى هذه المبادئ التنظيمية الموجهة لـ (سلوك الإنسان) في علاقته بالله تعالى.. الرب الكريم للمخلوقات كلها بلا استثناء، وكذلك في علاقات الإنسان الخاصة مع ذاته، ومع الآخرين في محيطه الاجتماعي الواسع والمتنوع، ومع عالم الأشياء في البيئة الخارجية للفرد ومثيراتها ومكوناتها، إذ تستمد هذه المبادئ روحها، وقوة عملها من رؤية الدين ومن تعاليم الله سبحانه وقيمه ومبادئ منهجه القويم، ونقصد الإسلام كدين موجه للسلوك في مجالات متعددة من حياة الإنسان على أزمنة مختلفة، وفي بيئات مكانية متعددة.

فإذا طلب المرء الحصول على شيء من (اللذة) على سبيل المثال أو أراد تجنب (الآلم)، ودفع الضرر عن نفسه كانت توجيهات الله سبحانه وتعالى ماثلة أمامه لتنظيم تحقيق هذا المبدأ، والاستفادة منه في توجيه مساره في حركة الحياة الإنسانية وضبطها إمّا بتحقيق الرغبة في إشباع (اللذة المطلوبة) أو (تجنبه آلاماً تؤذيه)، وقد أسس نص هذه الوصية الكريمة كل (مبادئ التنظيمية) وفق اجتهادنا الخاص، وهي كما نعتقد مبادئ موجهة للسلوك على أساس طابعها الرباني.

فكل ما يحقق تنفيذ هذا المبدأ موكول إلى الله سبحانه وتعالى، باعتباره هو المصدر الأساسي في تأمين ما يحتاجه الأفراد من طلباتهم، وحاجاتهم المختلفة، وأنه سبحانه الذي خلق الإنسان، وهو على علم بتركيبته العضوية والنفسية والذهنية، وما يحتاج إليه وما لا يحتاج إليه، وتطابق مبادئ وصية وليه في أرضه الإمام محمد الباقر (ع).

وهكذا فكل مبدأ من مبادئ تنظيم السلوك مستمد من تعاليم الله وتوجيهاته، ومرتبطة تنظيمياً بالأوامر والنواهي الإلهية، وتكون الاستفادة من هذه المبادئ بأكملها دون استناد في مهمتها المحددة، وهي الارتقاء بالذات وإنضاج كيائها بالتعاليم والأساليب والقيم العبادية وتحقيق رضا الله سبحانه وتعالى.

٢. إنسانية مبادئ الوصية.

ونعني بـ (إنسانية هذه المبادئ) الواردة في نص وصية الإمام الباقر (ع) ان المرشد -الإمام- قد قام بتسخيرها في خدمة الانسان، لاسيما المؤمن المتدين، فالغرض من الوصية، ومن مبادئها أن تكون في خدمة الإنسان وموجهة لمنفعه، وغرضها القيام بعمليات (ضبط وتنظيم) تفكيره ومشاعره وأنشطته وأفعاله التكليفية بمحددات المشرع التربوي الإسلامي وأحكامه الشرعية، وقد سُميت بهذا الاسم لاتصالها المباشر

بخدمة الإنسان.

وتمتاز هذه المبادئ على تعددها بـ (سمو طابعها الإنساني)؛ لأنها تصبغ بصماتها بالطابع الإنساني، فمن حيث كون هذه المبادئ منظمة للسلوك البشري، وما يقوم به مجموع الناس من أدوار ومشاركات إنسانية مباشرة في صنع الأفعال الصادرة عنه والإتيان بها سواء أكانت من الأفعال (الخاطئة) أم من الأفعال (العبادية الصحيحة)، والإفادة منها في تكوين وتوجيه السلوك الإنساني؛ إذ إنها مستمدة من مصدر رباني.

فهذه المبادئ - إذن - ليست موجهة لكائن آخر غير الإنسان كالحوانات والجمادات التي تفتقر للتفكير السامي، والشعور بالمسؤولية، وحيوية الإرادة والارتباط بعالم الغيب، ولهذا تهتم بإدارة شؤون الإنسان وإدارة نشاطه مستلهمة روحها من المحتوى المعرفي لهذه الوصية، وتستهدف تنمية قواه الذاتية في مرحلة تطوره المعرفي والأخلاقي والروحي لاسيما في (المرحلة الوقائية) للذات، وكذلك تهتم بالإنسان ومشكلاته وهمومه كما رأينا في مرحلة العلاج وتعديل السلوك بمحددات إيمانية يرتضيها الله سبحانه لعباده، ولهذا لم تسم هذه المبادئ بـ (إنسانية) إلا لكونها تخدم الإنسان وتحقق له درجة مقبولة من (كماله الروحي والمعرفي) يهيئه للقاء الله تعالى في عالم الآخرة، وقد تمكن بنجاح من بناء نمط شخصيته العبادية.

٣. الطابع الأخلاقي لمادة دعاء الافتتاح ومحتواه المعرفي والروحي.

تمتاز كل وصايا، ونصوص وأدعية أئمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة وأزكى سلام الله عز وجل بثروة قيمية وأخلاقية ومعرفية مُربِّية، وتنطوي على أهم المبادئ الضابطة والتنظيمية لحركة السلوك البشري، ولا يشذ نص وصية الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) عن هذه القاعدة، إذ تتسم مادته الإرشادية - التعليمية بطابع أخلاقي ومعرفي

وروحي يحقق (صدق العبودية) كما جاء في أقوال أئمة أهل البيت، وهو هدف عبادي كبير يشدد المشرع التربوي الإسلامي على تحقيقه والعمل من أجله، فجميع مبادئ هذه الوصية الكريمة كالعفو عن الذات، وطلب الاعتذار والاعتراف بالذنوب والتوبة وكثرة الذكر في الخلوات، وتكرار الاستغفار وطلب إشباع الحاجات الإنسانية، والاستعلاء على شهواتنا والبحث عن اللذات وتجنب الألم مؤسسة على طابع أخلاقي واضح، وفاعل ومؤثر في (تربية المؤمنين) وصياغة كياناتهم الذاتية.. أفراداً وجماعات.

فما يميز هذه المبادئ (التنظيمية) في هذه الوصية هو ما اتسمت به من قيم، وتعاليم ذات طابع أخلاقي مؤثر يساعد على تكوين أفعال سلوكية موسومة بالأخلاق العبادية التي يتبغى الإمام محمد بن علي الباقر عليه أفضل الصلاة والسلام تحقيقها في حياة الفرد المؤمن من تطهير داخل النفس الإنسانية من الشك والشرك والنفاق، وتخليصها من وثاق الشهوة وأسر الهوى وأمراض السلوك ومشكلاته، فليس هناك قوة تحرر النفس من أوزارها، ومشاعر الاستياء والإثم أهم من تفعيل الأخلاق العبادية التي شدد الإمام الباقر (ع) عليها في مواجهة الهوى، وبذل الممكن من أجل تنظيم السلوك الإنساني وضبطه والارتقاء به واستثماره في تحقيق الاتزان النفسي المفقود.

٤. الهدفية السامية للمبادئ التنظيمية في نص الوصية.

تقدم قولنا بأنَّ الهدف طموح إنساني، وسلوك مرجو التحقق، ومما لا شك فيه أنَّ هذه المبادئ لم توضع في نص الوصية عبثاً، وأنما وضعت من أجل أن يحقق عباد الله المؤمنون أهدافهم بواسطتها، بل هي (منظومة معرفية وروحية وأخلاقية) تبتغي ضمن أهدافها القيام بمهمة ضبط وتنظيم سلوك الإنسان المؤمن، وهي في نظرنا (آليات عمل) موصولة بأهداف عبادية واضحة أكد عليها الإمام محمد بن علي الباقر في نص وصيته، فمبادئ هذه الوصية ليست غاية في حد ذاتها، وإنَّما أدوات قوة موجهة للسلوك، وغايتها

أن ترعى عمليات بناء الشخصية العبادية المطيعة لله سبحانه وتعالى.

وأهم ما تريد هذه المبادئ تحقيقه - كما ذكرنا مراراً - هدفان أساسيان هما:

أ - تحقيق الرضا الإلهي، وتحقيق رضا الله على عباده بأدنى حد.

ب - تحقيق حالة رضا العبد عن ذاته، بتعديل سلوكها أو إزاحة مؤشرات التوتر النفسي المؤلم، وهذا ما نسميه بحالة التوافق النفسي للذات مع نفسها.

فعلى سبيل المثال نجد (طلب العفو عن الذات كمبدأ تنظيمي للسلوك) يستهدف محور الأثر النفسي المترتب عن ضغوطات السيئات أو قهر الذنوب وتحديات المعاصي وتراكماتها الجاثمة على كيان الشخصية الإنسانية، واستبداله بتحقيق أثر نفسي إيجابي مضاد كالشعور بحالة من الرضا النفسي، والإحساس بالراحة داخل النفس، وإزاحة ضغوط مشاعر الاستياء الناجمة عن ارتكاب الذنوب ومنغصاتها، والوصول إلى راحة النفس كما أوصت الوصية باجمام القلب وقلة الخطأ، وبتلبية مطالب العملية الإرشادية بأكملها.

ويلحظ أن تحقيق الهدف الثاني مع قدرته على الوصول بالفرد المؤمن إلى مستوى عال، ومتقدم من الإنجاز الإيجابي فإنه في الوقت نفسه مظهر لتحقيق هدف أكبر.. هو الرغبة الكبرى في تحقيق رضا الله عز وجل ورضا الفرد عن ذاته، وفي كلا الحالين يتحقق لدى الفرد رغبة في نيل الطلب الفعلي والمهم (الرضا الإلهي كهدف رئيسي)، وتحقيق قدر معقول من الصحة النفسية، وهذا ما ينسحب على مبادئ أخرى موجهة لسلوك الفرد في نص هذه الوصية.

٥. شموليتها.

ونعني بذلك شمول هذه المبادئ مختلف جوانب شخصية الإنسان المؤمن

(الجسمية، والروحية، والنفسية والاجتماعية، والعقلية والوجدانية)، فالإنسان يمثل كياناً واحداً، ولا تتعامل هذه المبادئ مع جزء من هذا الكيان دون غيره، فإذا داومت نفسه على شيء من السلوك العبادي انعكس ذلك على مكونات أخرى من كيانه كالتفكير والحياة الوجدانية، وأعضاء جسمه، وحياته الاجتماعية، وإذا أدى فرائضه اليومية المكلف بأدائها انتظمت جوانب الشخصية مع بعضها وتفاعلت مع مجموعة من المبادئ، وتحركت الذات الإنسانية في اتجاه منتظم واحد.

كما أن هذه المبادئ تندرج في حركة توجيهها للذات البشرية تحت تأثير مناهج ثلاثة هي (المنهج الإنشائي، والمنهج الوقائي، والمنهج العلاجي)؛ لأن الكيان الآدمي كله كتلة موحدة، يتأثر فيه كل عضو، أو جانب بالأجزاء الأخرى، وقد رأينا تداخل مفردات نص الوصية في حديثها عن إنسان مؤمن موحد الكيان، وموحد الوجود المادي والروحي والعقلي والاجتماعي.

٦. عمل هذه المبادئ كمنظومة موحدة في تأثيرها التربوي.

تتداخل مبادئ تنظيم السلوك الإنساني وضبطه في التركيبة اللفظية لهذه الوصية مع نفسها، ومع الأساليب العلاجية - الإرشادية، فمختلف القضايا التي اهتم بها نص وصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع) لا تخلو فعلياً من تداخل وتشابك وتفاعل فيما بينها، فكل أنماط العلاقات ودوائرها الأربع في مادته موحدة معرياً، ومرتبطة بالعلاقة الكبرى، وهي علاقة الإنسان مع الله سبحانه وتعالى، ومؤسسة على مبناها الروحي والعقائدي والمعرفي، فكل خاصية من الخصائص الأساسية لهذه المبادئ مرتبطة بالأخرى تتأثر بها وتؤثر فيها.

ونعتقد أنَّ هذه المبادئ كلها لا تعمل منفصلة عن بعضها في توجيه الذات في سلوكها، وأفكارها ومشاعرها، ولهذا لا تتحرك هذه المبادئ مفككة عن بعضها في عمليات الضبط، وفي تأثير مجموع كيائها من أجل تحقيق الأهداف التي تريد الوصية الوصول إليها، وأهمها، وفي صدارتها الهدفان الكبيران:

- (طاعة الله وطلب رضاه عز وجل).
 - (وبناء شخصية الإنسان على مرتكزاتها بنحو يرضي الفرد عن أداء ذاته).
- إنَّ جميع مبادئ الوصية أو غالبها - كما نراها - تتحرك معاً كمنظومة معرفية ونفسية وقيمية في إدارة الذات وتنميتها، وفي اتجاه واحد يساعد على بلوغ الهدف الأكبر.. رضا الله سبحانه، وهدفها الرئيسي المرتبط بهدف تحقيق رضا الذات عن نفسها، واكتمال حالة النضج لديها، وتحقيق مستوى معقول من الصحة العقلية والجسدية والنفسية.
- فلا يمكن على سبيل المثال الاستفادة من مبدأ الإثابة، وتطبيقه على الأفعال العبادية بدون قيام الفرد بالأعمال العبادية من طاعات وأعمال حسنة، وتجنب المعاصي، وبدون تفعيل مبدأ الاعتراف والندم، والتوبة وتعديل السلوك، وحل صراعاته الداخلية، وتكرار الأفعال العبادية، والاستعلاء على الشهوة والانتصار على الهوى، والإشباع المنظم المشروع، وغير ذلك؛ حيث إن جميع هذه المبادئ منظومة واحدة لا تتعارض مع بعضها في حركتها الضابطة والتقويمية والتوجيهية لسلوك الذات البشرية، ونفهم من المادة الإرشادية للدعاء المذكور ومحتواها المعرفي والروحي تأكيدها على هذا التداخل، وعلى عملها الموحد كمنظومة توجيه للسلوك الإنساني.



الحلقة الخامسة

الانفعالات النفسية

مفهومها، وشروط حدوثها، وأنواعها

وترشيدها في وصية الإمام الباقر عليه السلام

المقدمة

مررنا في حلقة سابقة على نص وصية الإمام الباقر (عليه السلام)، وهي إحدى أهم نصوصه الأخلاقية والتربوية والإرشادية لديه، فعثرنا على جمل وعبارات ومفردات لفظية تشير إلى نماذج من السلوك الانفعالي المعتاد في الحياة اليومية للكائن الأدمي، ومن المنطقي أن يختزن التراث الروائي والفكري للإمام الباقر (عليه السلام)، وهو يتعامل مع الناس وبخاصة أهل بيته وتلامذته والمحيطين به، جمل وعبارات انفعالية شكلت جزءاً من رؤيته للانفعالات النفسية البشرية وكيفية ضبطها وتوجيهها بقيم الإرشاد الأخلاقي وأساليبه الروحية والمعرفية.

ومما لا شك فيه أن هذه الإشارات جاءت في سياقها الطبيعي، وهي تعرض على جموع الناس لا بقصد التركيز على انفعالات معينة في نصوص الإمام وأحاديثه، وإنما أشارت إليها مصادر عند الإمام الباقر (عليه السلام) إن صح استخدام هذا المصطلح في سياق حديثه العام عن رؤيته الإرشادية، وتوجيهه الأخلاقي والمعرفي للناس المحيطين بالإمام الباقر (عليه السلام) من أجل ضبط سلوكهم، فيكون الإمام الباقر (عليه السلام) بهذا الاهتمام بفكره الإرشادي قد أدى وظيفته في التوجيه والنصح والتربية والإرشاد وضبط السلوك الإنساني بمعايير ومحددات إيمانية تحقق في نهاية الأمر الأهداف العبادية التي توخى أبو جعفر محمد بن علي الإمام الباقر (عليه السلام) الوصول إليها من خلال عمليات نشر وبث تعاليمه الإرشادية بأساليب متعددة كما في وصيته هذه العبادية - الإرشادية لجابر بن يزيد الجعفي أو في حكمه القصار ومعانيها أو في غيرها من مصادر فكره التربوي - الإرشادي.

وبالتأكيد فالإشارة لنوع هذا (الانفعال) كالفرح أو الحزن لا يتم - كما نفعل اليوم - له إعداد دراسات موضوعية ومفصلة ومنفردة عنه عند الكائن الحي ولا سيما لدى الكائن الأدمي، وتحديد مفهومه وعناصره وشروط حدوثه، وتحديد العوامل المؤثرة فيه، والبحث عن نتائجه على سلوك الشخصية الإنسانية لاسيما النمط (العبادي) للشخصية.

وإنما يتم ذلك في إطار الوظيفة الإرشادية العبادية الكبرى التي اضطلع بها (ع) في ميدان توجيه الناس ومحاولته الهادفة - بعمليات إرشادية موجهة - ضبط سلوكهم الانفعالي والارتقاء بواقع ذواتهم وتطوير قدراتهم في مواقف متعددة من حياتنا اليومية، وبحسب أنواع الانفعالات المختلفة التي تواجه الناس في حركة الحياة، وباستعدادات وقابليات أو باستجابات انفعالية سوية تتفق مع معايير حقل الصحة النفسية وعلم النفس المرضي، ومع محددات النظرة العبادية التي تبناها الإمام الباقر (ع) وقواعدها المعرفية والأخلاقية، وهي نظرة معرفية سليمة مستمدة من مصادر التشريع الإسلامي من آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي الكريم ونصوص المعصومين من أهل بيته الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام.

إنَّ الملحوظ في نصوص الإمام الباقر (ع) ومصادر أحاديثه سواء في رواياته، وخطبه، والجمل الطوال، والحكم القصار الواردة في تراثه أو في مقاطع الشعر التي ينظمها أو يستخدمها في التعبير عن قضايا يحتاج إلى بيانها ومعالجتها، وما استبطنته هذه النصوص والمصادر من مفردات لفظية ولغوية تعبر عن عناية فائقة ومقصودة من الإمام الباقر (ع) بتنظيم وضبط السلوك الأخلاقي ومثيراته واستجاباته، وأنواعه، وأوامره التنظيمية ونواحيه بضبط أنماط السلوك الانفعالي والسيطرة على استجاباته الظاهرية لدى الكائن الأدمي.

وإذا ما بسطنا النظر، وتأملنا في مفردات بعض تراث الإمام الباقر (عليه السلام) نجد أنفسنا بين كلمات دقيقة ومعبرة عن حالات وجدانية وانفعالية متنوعة، وهي بالتأكيد ليست للترف الفكري أو لاستخدامات غير هادفة، فأهل البيت (عليهم السلام) يشغلون أنفسهم بتعزيز الحق، ولا يتسلل الباطل في حياتهم، فالإمام الباقر كسائر الأئمة (عليهم السلام) يؤدي مهاماً إرشادية لضبط السلوك الانفعالي واستقامته، وتعديله أو تقويمه بجهد إصلاحي، وتسخيره في خدمة الأهداف العبادية التي تحقق أمرين أساسيين هما أهم أهداف التربية الإرشادية عند الإمام الباقر وهما:

١. السعي إلى تحقيق رضا الله سبحانه وتعالى.

٢. والعمل من أجل تحقيق الرضا النفسي عن الذات الفردية عن طريق تحقيق توافق نفسي واجتماعي في داخل كيانه الذاتي، وفي علاقاته مع الآخر.

وكلا الهدفين السابقين يحققان للإنسان علاقات سوية وإيجابية وفاعلة في دوائرها الأربع (مع الله عز وجل، ومع نفسه في كيانه الداخلي، ومع الإنسان الآخر، وفي تعامله مع عالم الأشياء)، وتجعله يتمتع بقدر من الصحة النفسية المريحة.

النصوص الانفعالية في وصية الإمام الباقر (عليه السلام)

ورد في متن الوصية ما يؤكد النزعات والاستجابات الانفعالية، وهي مجرد جانب من الحياة الوجدانية للكائن الآدمي، ومن هذه العبارات ما يأتي:

• روي عنه (عليه السلام) أنه قال لجابر:

«يا جابر اغتنم من أهل زمانك خمساً، إن حضرت لم تعرف، وإن غبت لم تفقد، وإن شهدت لم تشاور، وإن قلت لم يقبل قولك، وإن خطبت لم تزوج، وأوصيك بخمس: إن

ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مدحت فلا تفرح، وإن ذممت فلا تجزع، وفكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله جلّ وعز عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من عين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك.

وقال في الفقرة الثانية من وصيته:

«وأعلم بأنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك، وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزيده، راغباً في ترغيه، خائفاً من تخوفه فأثبت وأبشر، فإنه لا يضرّك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فماذا الذي يغرك من نفسك، إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش ويقيّل الله عثرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

وتخلل الفقرات الأخرى للوصية كلمات معبرة عن بعض الانفعالات وجوانب من حياتنا الوجدانية البشرية مثلاً: «يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعريضاً للعفو»، وقوله عن الهوى وضرورة السيطرة على تأثيراته الشهوية: «وتوقّ مجازفة الهوى بدلالة

(١) الأود: محرّكة (العوج)، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار،

ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم».

وأقوال متتابعة متأخرة في النص كقوله:

«واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجماع القلب، وتخلص على إجماع القلب بقلّة الخطأ، وتعرّض لركة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن».

وأيضاً ما قاله من تحذيرات لا تخلو من انفعالات واضحة كشدة الندم وكثرة الذكر والاستغفار وما ينتج عنها من رقة قلب أو قساوة وتبلد، حيث جاء في النص:

«وإيّاك والتسويق فإنّه بحر يغرق فيه المهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم»، وقوله عليه سلام الله: «واطلب بقاء العز بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس ببعد الهمة».

«ولا خوف كالحزن، ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين كفقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد الخوف، ولا مصيبة كاستهانتك بالذنوب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذل كذل الطمع»، وإشارات متفرقة في جمل متأخرة من نص الوصية.

ويمكن للباحثين التعرف على موضوعات سيكولوجية متعددة كالانفعالات النفسية ومشكلاتها، والدوافع، والحاجات، وظاهرة الفروق الفردية، ومبادئ تنظيم السلوك الإنساني، والقيم الإرشادية وغيرها من تجارب العلماء وتحليلاتهم، وفهم بعض النصوص لأئمة أهل البيت عليهم السلام ونظرياتهم وأفكارهم الإرشادية، ثم دراستها بلغة معاصرة، ونظراً لظهور العلاقة بين إرشادات الإمام الباقر عليه السلام وأنماط من السلوك الانفعالي فقد آثرنا دراسة هذه العلاقة معتمدين على نص الإمام الباقر عليه السلام في وصيته لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي عليه الرحمة والرضوان.

قد يكون من الصعوبة على بعض الباحثين -أمثالنا- القيام بحصر كلي لأنماط السلوك الانفعالي واستجاباته التي أشارت إليها نصوص وتعاليم الثقافة الإرشادية التي توزعت مادتها المعرفية في عدد من أحاديث الإمام الباقر عليه السلام، لكنَّ الحصر الجزئي - لهذه الأنماط - ممكن في نص محدد إذا ما كان مطوّلاً نسبياً، ويكون بمقدور كل باحث جمع بعض النصوص الروائية الفرعية من هذا النص الطويل كي تشكل جزءاً من التجربة الانفعالية والوجدانية والسلوكية لجماعة المؤمنين وتوجيهها بقيم إرشادية مبنوثة في النص الإرشادي الباقرى المتقدم أو في أي مصدر من مصادر فكر أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه الصلاة والسلام.

لهذا فالمنطقي أن يتوقف باحث مثلنا عند بعض النصوص والوقائع التاريخية التي تستبطن ظاهرة (الانفعالات النفسية، ومكوناتها، وعناصرها، وخبراتها ومشكلاتها) الشعورية والسلوكية، وما يصحبها عادة من اضطرابات واستثارة انفعالية بعد حالة من السكون والهدوء، كان المؤمنون -أو حتى غيرهم- وما تزال الجماعات الإيمانية تعيشها إلى يومنا الحاضر، وتؤدي إلى تغيرات مفاجئة أو شبه مفاجئة، ويترتب عليها - بالضرورة - ظهور آثار انفعالية واضحة في سلوكهم الخارجي، وفي وظائفهم الجسمية.

وقبل الدخول في تفاصيل العلاقة بين التوجيه الإرشادي وعملية ضبط السلوك الانفعالي ومعرفته نحتاج إلى تحديد مفهوم الانفعال، ومعرفة شروط حدوثه، وعناصره، ونعتقد أن القارئ العادي غير المتخصص يحتاج إلى هذا التحديد وفهم معناه وشروط تكونه في حياة الكائن الأدمي.

تحديد مفهوم الانفعال

والانفعالات تجربة شعورية مهمة في حياتنا الوجدانية، تنقل الأفراد من المؤمنين، ومن غيرهم على حد سواء من موقف إلى آخر.

وثمة تعريفات متعددة للانفعال كحال العلماء في اختلافهم لتحديد معانٍ سيكولوجية.

١. التعريف الأول:

الانفعال النفسي هو «الانتقال من حالة سكون وانتظام وهدوء إلى حالة من الاضطراب والاستثارة، ويعيشون خلالها تغيرات مفاجئة مصحوبة بآثار بادية على سلوكهم الخارجي، ووظائف أعضائهم الداخلية».

٢. التعريف الثاني:

يتم تعريف مفهوم (الانفعال النفسي) بأنه حالة تغير تصيب الكائن الحي.. إنساناً وحيواناً.. من سكون وانتظام وهدوء إلى حالة من الاضطراب والاستثارة، ويصحب الموقف الانفعالي تغيرات مفاجئة مصحوبة بآثار تظهر في سلوكهم الخارجي، ووظائف الأعضاء الداخلية للأفراد».

٣. التعريف الثالث.

وفي تعريف ثالث للانفعال النفسي مشابه للتعريف السابق قيل في بعض الدراسات في علم النفس المعاصر: إن الانفعال النفسي هو (اضطراب حاد يشمل الفرد كله، ويؤثر في وظائفه الداخلية وسلوكه الخارجي)^(١).. أو هو (حالة من الاضطراب والاستثارة تسبقها حالة سكون وانتظام)، أو هو (تغير مفاجئ أحياناً يصيب الكائن الحي كبنّي آدم، وتظهر آثاره في السلوك الخارجي للفرد، وفي وظائف جسمه الخارجية).

وتمّ في سياق تعريف آخر معرفة ظاهرة الانفعالات النفسية في حياة الكائنات الحية بمجموعة «استجابات نفسية وفسولوجية (أي داخلية) تؤثر في جميع أوجه النشاط التي يقوم بها الكائن الحي، وتجعل حياته النفسية مليئة بخبرات وتجارب متنوعة»، فحياتنا النفسية - كما يدرك القارئ الكريم - مليئة بخبرات وتجارب وجدانية متنوعة، وهي كما يدرك الكثيرون منّا لا تسير على وتيرة واحدة، بل يختزن الفرد الواحد نهراً متدفقاً من الانفعالات والعواطف والمشاعر الوجدانية.

شروط حدوث السلوك الانفعالي

على الرغم من تعدد الانفعالات النفسية في حياتنا الإنسانية كالفرح والسرور والحزن والحنان والهرب والخوف والغيرة والغضب واليأس وغيرها إلا أنها تخضع في حركتها لشروط ما تهيم الأفراد، والكائنات الحية الأخرى إلى النشاط والاضطراب والاستثارة، وقد حدد علماء النفس المعاصرون شروطاً ثلاثة واضحة لحدوث الانفعال، وهي:

(١) العمران وآخرون، مبادئ علم النفس، ص ١٤٩ - ١٥٠.

١. وجود مثير داخلي أو خارجي.

ويطلق عليه في لغة علماء النفس كذلك مصطلح (المنبه) أو المحرك، وهو ما يتسبب في إثارة شعور الفرد، فيدفعه نحو إصدار استجابة سلوكية معينة، وقد يكون هذا المنبه أو المثير داخلياً أو خارجياً، فالألم المفاجئ - كان نفسياً أم عضوياً - وسواء كان في داخل جسم الإنسان أم في خارجه، كالمغص على سبيل المثال هو منه ومحرك للشعور، وهو مثير داخلي يدفع الفرد نحو استجابة انفعالية معينة كالصرخ، والبكاء، أو الخوف، وقد يصاحب ذلك غضب واضطراب وتهيج وجداني شديد، وقد يكون هذا المثير (خارجياً) في المحيط المادي للفرد أو الكائن الحي.. كأن يكون المثير الخارجي كروية كلب أو حيوان مفترس كالأسد أو الذئب سبباً لحدوث انفعالات نفسية تصيب الكائن الحي بتغيرات تؤثر على نشاطه الخارجي، وأعضائه الداخلية، كمحاولته الهرب أو الاستعداد لفعل شيء ما للدفاع عن النفس وتجنب الوقوع في موقف صعب.

٢. كائن حي له جهاز عصبي.

لا بد للكائن الحي من وجود جهاز عصبي يقبل الاستشارة ويستقبل المثيرات بمختلف أشكالها ويتجاوب معها عن طريق فعالية الجهاز العصبي، وهذا لا يتوافر لكائن جامد وأصم، لذلك يعتبر الجهاز العصبي آلية استقبال واستشارة وتمهيد لإصدار استجابة مناسبة أو غير مناسبة، ولا يعتبر الكائن كائناً حياً بدون فعالية لجهاز استقبال من أي نوع، وينطبق هذا الحال على كل إنسان بصرف النظر عن كونه ينتمي لتيار ديني معين أو مذهب سياسي أو اتجاه ثقافي أو غير ذلك.

٣. صدور استجابة أو رد فعل من الكائن تجاه المثير.

وينطبق هذا الشرط على الكائن الحي في مواقف انفعالية سواء كانت صيغة الانفعال إيجابية أم سلبية، وما يصحب الموقف من تغيرات وآثار الانفعالات في حياة الناس من العاديين ومن المنتظرين، ويمثل هذا الشرط وحدة في بنية الموقف السلوكي. فمن يفاجأ بوجود حيوان مفترس بالقرب منه، وقريب يجد ان نفسه تصدر عنها استجابة معينة أو رد فعل ما كالبكاء، أو الاستعداد للهرب، أو حمل آلة دفاع عن النفس، أو الإقبال على مواجهة هذا الحيوان لتطويعه أو الاستئناس به بحسب خبرة كل إنسان به (المثير) الخارجي وحجم تأثيراته النفسية عليه.

تأملات علمية في نص الوصية

ويمكننا بعد التأمل المركز حيناً في النص الإرشادي السابق أو العابر حيناً آخر على حد سواء إدراك الجمل والعبارات اللفظية المعبرة فيه عن السلوك الانفعالي ونماذج من أنواعه بغرض توجيه الانتباه إليها في أحد أهم نصوص الإمام الباقر (ع)، والسعي لتربية القدرات الذاتية لدى الأفراد وتدريبهم على ممارسة تجارب السيطرة الوجدانية على انفعالاتهم الظاهرة والمستترة في حياتهم اليومية المستمرة، فبعض مصادر التراث الفكري والتربوي والمعرفي للإمام الباقر (ع) قد اختارت مصطلحات وألفاظاً وجلاً انفعالية واضحة ومعتبرة في علم النفس، وهي في الوقت نفسه شائعة ومتداولة في ثقافتنا ولغتنا اليومية، أو استوعبت معانيها كما في معرفة الألفاظ الانفعالية وتحديدتها، واستخراج قائمة للانفعالات بحسب التصنيف الدارج في الدراسات المعاصرة.

- مفردات ومصطلحات انفعالية.
- قائمة الانفعالات.
- ربط المثيرات والاستجابات الانفعالية في نصوص لفظية من وصية الإمام الباقر (ع).

- أساليب التعبير عن الحالات الانفعالية.
- شروط توجيه الانفعالات نحو أهداف عبادية.
- خصائص للسلوك الانفعالي.
- نماذج من الحالات المرضية في مجال السلوك الانفعالي.
- العوامل المؤثرة في السلوك الانفعالي^(١).
- تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي في نص الوصية الإرشادية.

أولاً: ألفاظ انفعالية (مفردات ومصطلحات انفعالية).

ونلاحظ على سبيل المثال في أنماط من تراثه ومصادره المتعددة، لاسيما في وصيته الارشادية لجابر كلمات عن مواقف وحالات انفعالية، وهي مصطلحات سائدة في علم النفس نفسه، ففي النص الإرشادي الذي اخترناه لاستخراج النظرية الإرشادية عند الإمام الباقر (ع) ألفاظ وكلمات، بل وجمل قصيرة مثل:

(١) سنعالج - إن شاء الله عز وجل - مجموعة العوامل المؤثرة على السلوك الانفعالي في فصل مستقل، كما سنمر على مسألة تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي في مواضع متفرقة من مباحث الكتاب.

أ - ألفاظ وكلمات: (تفرح، يسرُّك، أبشِر، ينعشه الله، ينتعش، حب البقاء، زاهداً، راغباً في ترغيبه، راحة النفس، راحة البدن، شدة التيقظ، إجمام القلب، رقة القلب، قساوة القلب، فقر القلب، سلامة القلب، عز اليأس، كثرة الاستغفار، المناجاة في الظلم، ولا رجاء كرجاء مُعين).

ب - وكلمات وجمل: (تغضب، غضبك، رد الغضب، تجزع، يفزع، إزراء النفس والضيق منها، خفت، تخويفه، صدق الخوف، الخوف الصادق، المخافة، الخوف، خائفاً، فقد الخوف، خوف زوال النعم، يحزنك، ولا خوف كالحزن، قلة الحزن، يسرك، غلبة الهوى، غنى النفس، استهانتك بالذنوب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها، راحة النفس، شدة الندم، وذل الطمع).

وهكذا تضمن النص الإرشادي الكريم للإمام الباقر (عليه السلام) لصاحبه جابر الجعفي مفردات ومصطلحات وجدانية تلامس الحالة الانفعالية على نحو خاص وبأشكال عديدة مألوفة في الكتابات السيكلوجية المعاصرة، وتوضح في الوقت نفسه حالات من السلوك الانفعالي المتوقع إن التزم الإنسان بمبادئ هذه الوصية، أو لم يلتزم بها في مقابل ذلك.

ثانياً: قائمة السلوك الانفعالي وأنواعه.

نعني بذلك قائمة للانفعالات المذكورة بنص صريح أو بألفاظ غير مباشرة في النص الإرشادي للإمام محمد الباقر (عليه السلام)، ونؤكد مرة أخرى بأن الوصية لم تكتب كنص معرفي إرشادي بغرض فرز وتصنيف الحالات الانفعالية التي عادة ما تواجه الأفراد في مواقف حياتهم اليومية، وتتيح لنا كباحثين دراسته وتفهم معانيه لعموم الناس.

ولكن مع ذلك اقتضى تأملنا الذهني - كما في الإشارة السابقة - أن نذكر أنماطاً من

السلوك الانفعالي، وتطلب ذلك -باجتهادنا- تصنيف هذه الأنماط في قائمة مبسطة تضم انفعالات إيجابية، ويقابلها في الوقت نفسه انفعالات تعرف عن الناس بانفعالات سلبية، مع أخذ الاعتبار بتصنيف كل انفعال بحسب الموقف الانفعالي الذي يكون عليه الفرد، ولكون بعض الانفعالات متداخلة بين دخولها في وضع إيماني سوي أو دائرة عدم التوافق الصحيح، وأهم ما ذكرناه من حالات انفعالية يتم تقسيمها وفقاً للتقسيم العام المذكور إلى موجب وسالب، وإن كانت في بعض الأحوال إيمانية سوية وتوافقية، أو غير توافقية، وفقاً للموقف الانفعالي الذي يكون عليه الفرد وحالته الإيمانية، وبذلك تكونت هذه القائمة كما يبينه الجدول التالي:

الانفعالات السالبة وغير التوافقية	الانفعالات الموجبة والسوية
حالات وجدانية كانفعالات الغضب غير المعتدل وغير المتزن، وحالات الجزع والخوف، والحزن، والضيق وإزراء النفس، وقساوة القلب أو يصل لمستوى ما يسمى أحياناً بـ «التبلد الانفعالي».	الفرح والسرور، والاستبشار، والانتعاش النفسي، واجسام القلب، ورد الغضب والسيطرة على النفس والصبر على المكروه وتقبلها، ورقة القلب وتلين عواطفه الإنسانيّة، والدهشة المصحوبة بالتيقظ العقلي التي تتيح للفرد استكشاف المخبوء.

ثالثاً: ربط المثيرات والاستجابات الانفعالية في مقاطع لفظية من وصية الإمام

الباقر .

أوضح النص الإرشادي -ونقصد وصية الإمام الباقر (ع) - جانباً مهماً من صور وحالات الارتباط الوثيق بين المثيرات والاستجابة في المواقف الانفعالية المتوقعة في سلوك الناس مع بعضهم، فإذا ما ظهر أحد هذه المثيرات في موقف معين ترتب عليه

بالضرورة تكوين استجابة سلوكية انفعالية تتسم بالرشد أو بالحماقة أو بالتبلد، وبروز رد فعل - بشكل تلقائي - في مواجهة هذا المثير أو ذاك، وجرت مقادير حياتنا كبشر أن ننفعل لظهور مثيرات من داخلنا أو من بيئتنا الخارجية، فتتصرف بكيفية تلحق الضرر بنا أو تساعدنا على حماية أنفسنا.

وينطبق هذا الحال على سلسلة من الأنماط الانفعالية السليمة أو الخاطئة المعتادة في حياتنا اليومية، وكما تقدم فالنص الإرشادي للإمام الباقر عليه السلام وضع نماذج من هذا الترابط بين مثيرات الموقف الانفعالي واستجاباته حتى وإن لم يستخدم له ألفاظاً اعتاد علماء النفس، والدارسون لهذا العلم استخدامها بنفس مسمياتها، لكن من خِبر الدراسات السيكلولوجية، لاسيما التي اهتمت بدراسة الحياة الوجدانية يمكنه معرفة كل إشارة للارتباط بين المثيرات الانفعالية واستجاباتها، وإدراك عناصر كل موقف انفعالي على حدة وتفسيره باستخدام عبارات وجمل وألفاظ وردت في نص الإمام الباقر عليه السلام، ووصيته الإرشادية الموجهة لجابر الجعفي رحمه الله تعالى، ومعني بها.. كل المؤمنين ممن يعينهم أمر المتابعة للإمام وطاعته والولاء له، والاستماع لإرشاداته في الأوامر والنواهي على حد سواء.

وطالما أن هذه الوصية ليست درساً منفرداً في موضوع الانفعالات فسأخذ من تركيبها اللفظية نماذج منتقاة نوضح فيها إشارة هذا النص الإرشادي الثمين المهم إلى مسألة الارتباط بين مثيرات بعض المواقف الانفعالية، وردود الفعل إزاءها، وهذا ما يسميه علماء النفس بـ (الاستجابة السلوكية) في سلوك الكائن الأدمي، لأي مثير انفعالي يواجهه في حياته اليومية.

نماذج مختارة

النموذج الأول لشروط الموقف الانفعالي.

إذا تأملنا قليلاً في مدخل الوصية، وبدائيات كل جملها، سوف نضع أيدينا على المثيرات، والاستجابات في كل مقاطع هذه الوصية، وجميعها مثيرات صوتية تحوّلت بعد ذلك إلى مثيرات واستجابات مكتوبة، وتشكل في النهاية وعياً معرفياً نحتاج إليه، ونفاعل مع مكوناته اللفظية في حركة حياتنا على مَدِّ أعمارنا، وفي البدء نقرأ الوصية كرواية إرشادية (يا جابر: اغتنم من أهل زمانك خمساً)، فهذه الجملة في حد ذاتها تمثل آنذاك، لاسيما لسمع جابر الجعفي رحمه الله (مثيراً صوتياً)، فاستجاب عليه الرحمة بحفظ النص في ذاكرته كرواية سمعها، وتم تدوين مفرداتها، وتناقلها، ونشرها على مدار زمن طويل من القرن الثاني الهجري إلى يومنا الحاضر.

إنَّ المثير هنا (صوتي) كما تقدم، وهو مناداة الإمام الباقر عليه السلام لصاحبه جابر باسمه: «يا جابر»، وكان ذلك في الجملة الأولى من الوصية، ثم تابعت الاستشارة الصوتية بتحول الألفاظ والجمل والعبارات والمقاطع اللفظية إلى نص لغوي معرفي وإرشادي ومدوّن، نقرأه اليوم، ونعترز بهادته الإرشادية، ونستفيد من مضامينه، ويلحظ اجتماع عناصر الموقف الانفعالي لمضمون نص الوصية ومادته الإرشادية بما يأتي:

١. الاستشارة الأولى، وهي تعليمية محضة:

الاستشارة الصوتية لم تكن على نمط واحد، فمرة يستثار جابر بذكر اسمه (أسلوب مناداة)، وفي غالب الأمر يستخدم الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أفعالاً في صيغة أمر، تكليفاً شرعياً مثل: «اغتنم يا جابر، وأعلم بأنك، واستكثر لنفسك، واستقل من نفسك، وادفع عن نفسك، واستعمل، وتحرز، واستجلب، وتوق مجازفة الهوى بدلالة

العقل، وَقِفْ عند غَلَبَةِ الهوى، واستبق خالص الأعمال، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص»، وهكذا تواصلت صيغة استخدام أفعال الأمر باستخدام مثيرات صوتية تستثير في لحظة الاستماع بين الإمام وجابر سمع الأخير، وتستثير معاني يراد فهمها، وتقبلها، والعمل بها في برنامج تربوي من أجل إعداد شخصية إيمانية.

٢. الاستجابة التعليمية:

وما يقابل الاستشارة الصوتية بألفاظ اسمية وفعلية فهو استجابة تصدر عن الإمام نفسه بإلقاء النص، واستجابة تصدر عن جابر بالاستماع إليه وحفظه ونقله، ولا تبدو هذه واضحة أول الأمر في سلوك جابر، ولكنها كانت واضحة على نحو مكشوف في سلوك الإمام الباقر (عليه السلام)، ثم في سلوك جابر الجعفي وعلى نحو متأخر، إذ ظل جابر يستمع للوصية كنص إرشادي ويتأمل معانيه، ثم رواه للناس نقلاً عما سمعه عن إمامه الباقر (عليه السلام)، وتم حفظه وتدوينه ونشره وتداوله في مصادر الحديث عند الشيعة الإمامية، وبقيت هذه الرواية إحدى أهم مصادر الوعي الإرشادي، في مجال هداية الناس وتوعيتهم، وتوجيههم نحو العمل العبادي.

٣. والشرط الثالث هو توافر (جهاز عصبي) في الكائن الآدمي:

وتوافر الآن - بمقتضى ما ذكرناه - شرطان في هذا الموقف التعليمي، وهو لا يخلو من طبيعة وجدانية وانفعالية هما (المثير والاستجابة الصادرة) عنه في سلوك الإمام الباقر (عليه السلام) وصاحبه جابر، وبقي توضيح الشرط الثالث الذي ربط المثير والاستجابة في وحدة سلوكية معرفية انفعالية متداخلة، وهو وجود (جهاز عصبي) لدى كائن آدمي تمثل في وجود الإمام محمد الباقر (عليه السلام) وصاحبه الجعفي، فهذا التلميذ النجيب له مثل سائر البشر جهاز عصبي فاعل قادر - بإرادة الله سبحانه - على ربط أي مثير

من داخل كيان الفرد أو من خارجه بالاستجابة الصادرة عنه والمرتبطة به، وتناسبه، فالمنح وهو مركز الإبداع الإلهي في رأس الإنسان يستقبل المثيرات الصادرة ويفهمها، ويحاول تفسيرها كاستجابات سلوكية محددة كأن تكون استجابة جابر الجعفي، وهي فعلاً كذلك (استماعاً للنص، وحفظاً له كرواية وكتابتها وتكرار نشرها بين الناس).

هذا نموذج تطبيقي يتم تشكيله من السياق اللغوي والمعرفي لوصية الإمام الباقر (عليه السلام) للجعفي عليه الرحمة، واستخرج هذا النموذج من هذا السياق عن الربط بين مثيرات الموقف الانفعالي في موقف تعليمي واستجاباته، وتجسدت في:

أ - كلام الإمام الباقر كمثير صوتي لجابر.

ب - واستجابة الأخير بحفظ النص وروايته.

ج - وكان بينهما جهاز عصبي استقبل المثير وحوّله لإشارات سلوكية تعليمية.

المواقف الخمسة في النموذج الثاني.

وسنحاول الآن العودة إلى فهم ألفاظ وجمل مقطع صغير في مدخل هذه الوصية الإرشادية، وتحتوي على خمسة نماذج صغيرة تربط في مفرداتها بين مثيراتها، والاستجابات الانفعالية التي يحاول الإمام الباقر دفع جابر نحو الاستجابات الصحيحة والسمو بها، ويتم تفاعلها عبر نشاط يقوم بها جهاز عصبي زوّد به الكائن الحي لاسيما الإنسان، والحيوانات.

نستعيد النص لفهمه وتفكيكه وتحليله وربط معانيه بخاصّة بين مثيراته واستجاباته، قال الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) في توجيه لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي: «وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن

مدحت فلا تفرح، وإن ذممت فلا تجزع، وفكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله عز وجل عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك».

ويلحظ بعد التأمل الأولي ما يلي:

أ- تقوم هذه الوصايا على وجود مثيرات عصابية أو مَرَضِيَّة وهي (ظلم الناس لجابر، وتكذيبهم إياه، وتخوينه، ومدحه المتبطن، وقد يكون بصورة مبالغ فيها، وتعرضه للذم والتحقير والإضرار والإساءة متعمدة أو من غير قصد).

ب- ويقابل المثيرات السابقة تحذير من فعل الفرد (للاستجابات المحرمة)، وينطوي توجيه الإمام محمد الباقر عليه السلام على نهى أخلاقي وشرعي، وهو في حقيقته دعوة علنية ومباشرة من الإمام إلى القيام بعملية (كف للسلوك) العصابي، والسيئ، وغير التوافقي، وهو ما يساعد على ضبط النفس وتحقيق اتزان انفعالي صحي.

ج- إن هناك ربطاً بين مثيرات هي عصابية ومحرمة، وبين استجابات يريدها الإمام محمد الباقر عليه السلام إيجابية وشرعية وصحيحة من وجهة نظرة المشرع الإسلامي.

د- أن تستبدل (الاستجابات الممنوعة) في وصية الإمام الباقر عليه السلام، وكما أراد عليه الصلاة والسلام، بعملية أسمى وفعالة، وواقعية، وهي عملية (تأمل وتفكر) في سلوك الذات، إنجازاتها وأخطاءها، وكشف ما يتبين للمرء في النهاية (مدى قرب أو بعد) هذه المثيرات العصابية من شخصية جابر عليه رضوان الله سبحانه، أو الشخص المؤمن المخاطب بهذه الوصايا، والتفكير ملياً، وبجدية في نتائج هذه الأقاويل.. صحيحة أم كاذبة.

هـ- تحذير جابر، وكل فرد مؤمن من نتيجتين سيئتين، وهذا أحد خياراته الساقطة، أو توجيهه إلى الصبر على الاستجابات الحلال (أن لا يظلم آدمياً، أو لا يغضب مثلاً، أو لا يخون أحداً، أو لا يطمئن لمدح قد يكون خادعاً للذات، أو لا يجزع من ذم هذا أو ذاك)، فينال ثواب الله ومرضاته، وهو لم يتعب بدنه بشيء كما أوضح الإمام الباقر (ع).

و- من الصعوبة بمكان فصل العلاقة بين الانفعالات - كما في النموذجين التاليين - والدافع، فكلاهما يرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً، وإنهما متداخلان ومتشابكان معاً، فإذا تأملنا في الجمل والعبارات الانفعالية لحظنا ذلك، فالفرح، والمدح والحزن، والغضب والحزن هي انفعالات لا تخلو من قوة محرّكة، أي (دافعية محرّكة لسلوك الكائن الحي آدمياً) أو تحرك سلوك الحيوانات الأخرى، كما أن الدوافع تنطوي عادة على شحنة انفعالية، فحب (البقاء) على سبيل المثال تتداخل فيه انفعالات الرغبة والحب والغضب والخوف عند تعرّض لخطر، وإذا لم تُوجّه نحو تحقيق أهداف عبادية اصطبغت بالسلوك المحرّم، وأصبحت (معصية) كما جاء في وصية الإمام الباقر (ع)، كما أن الظلم والتكذيب والخيانة والمدح والذم نزعات تختفي وراءها دوافع وبواعث نفسية كالرغبة في العدوان أو الانتقام أو إيذاء الغير، وغير ذلك.

١. الموقف الأول (إثارة الظلم والاستجابة الانفعالية):

النتيجة	مكونات الموقف الانفعالي			النص الانفعالي	الموقف الانفعالي
	الكائن الحي	الاستجابة	المثير أو المنبه		
تحقيق اتزان انفعالي، وعملية ضبط لسلوك الذات عند كف سلوكها عن الظلم، وتعرضها للتأزم وعدم الاستقرار إذا ردّت على الظلم بمثله	وهو الجهاز العصبي	عدم ظلم الغير، وعدم معاملته بالمثل	كأن يقوم احد الناس بظلم الآخرين كجابر الجعفي مثلاً أو تعرض أحدنا لظلم شخص ما	إِنْ ظُلِمْتَ فَلَا تَظْلِمْ	الأول

٢. الموقف الثاني (إثارة خيانة الغير ورد الفعل):

النتيجة	مكونات الموقف الانفعالي			النص الانفعالي	الموقف الانفعالي
	الكائن الحي	الاستجابة	المثير أو المنبه		
اتزان انفعالي، وتحقيق ضبط لسلوك الذات في حالة ضبط النفس عن خيانة الحائن، وقد تتعرض نفوسنا للتأزم وعدم الاستقرار إذا ردّت على الخيانة بمثله		عدم خيانة هذا الحائن، وعدم معاملته بخيانة مماثلة	قيام فرد ما بخيانة جابر أو مؤمن آخر	إِنْ خَانُوكَ فَلَا تُخْنِ	الثاني

٣. الموقف الثالث (إثارة التكذيب ورد الفعل المضاد).

النتيجة	مكونات الموقف الانفعالي			النص الانفعالي	الموقف الانفعالي
	الكائن الحي	الاستجابة	المثير أو المنبه		
اتزان انفعالي، وتحقيق ضبط لسلوك الذات في حالة كف النفوس عن الغضب، ومقابل ذلك تعرضها للتأزم وعدم الاستقرار إذا ردّت بحماسة غاضبة		أن يكف الفرد عن استجابة الغضب ضد مكذّبه	يقوم أحد الناس مثلاً بتكذيب جابر الجعفي أو تكذيب غيره	إن كُذِّبَتْ فلا تَغْضَبْ	الثالث

٤. الموقف الرابع (المدح كمثير، واستجابة الفرح).

النتيجة	مكونات الموقف الانفعالي			النص الانفعالي	الموقف الانفعالي
	الكائن الحي	الاستجابة	المثير أو المنبه		
اتزان انفعالي، وتحقيق ضبط لسلوك الذات في حالة مدح الآخرين، ومقابل ذلك قد تتعرض للتأزم وعدم الاستقرار إذا رَدَّ المرء بفرح مبالغ		أن يكف الفرد عن استجابة الفرح خاصة إذا كان المدح مبالغاً فيه	يقوم أحد الناس مثلاً بمدحك، والكلام موجه لجابر الجعفي أو لمؤمن آخر	إنَّ مُدِّحْتِ فلا تَفْرَحِ	الرابع

٥. الموقف الخامس (مثير ذم الآخرين والرد عليهم).

النتيجة	مكونات الموقف الانفعالي			النص الانفعالي	الموقف الانفعالي
	الكائن الحي	الاستجابة	المثير أو المنبه		
اتزان انفعالي، وتحقيق ضبط لسلوك الذات في حالة ذم الآخرين للفرد، ومقابل ذلك تتعرض للتأزم وعدم الاستقرار إذا أغرق الفرد المنتقد بالذم		أن يكف الفرد عن استجابة الجزع	يقوم شخص معين من الناس مثلاً بذم شخص كشخص جابر، أو مؤمن آخر	إنْ ذُمْتَ فلا تجزع	الخامس

رابعاً: أساليب التعبير عن الحالات الانفعالية في النص الإرشادي (وصية الإمام).

بعد أن جمعنا بين يدي القارئ الكريم كماً من مفردات السلوك الانفعالي بأنواع متوقعة من الاستجابات الواقعية في حياة الكائن الآدمي، يمكننا الآن أن نلاحظ هذه المفردات، وقد عبّرت عن حالات انفعالية متفاوتة في مستويات شدتها، وهي في الوقت نفسه متنوعة في أنماط وجدانية تتم بطريق مباشر حيناً، وبطريق غير مباشر حيناً آخر.

وتستوقفنا في المفردات اللفظية السابقة - كمصطلحات انفعالية - إشاراتها

للمنمطين الأساسيين (المباشر وغير المباشر)، وكلاهما يدلان على وجود نشاط انفعالي تعرفه الشخصية الإنسانية بمختلف حالاته السوية والعصابية على حد سواء، ويترتب عنه نتائج سيئة أو جيدة، فيحتاج إلى التوجيه والإرشاد، وتكوين الاستجابات السوية المرغوب بها وفقاً لأهداف هذه الوصية الكريمة ومحدداتها في التمييز بينها وبين الاستجابات الانفعالية غير التوافقية المرفوضة شرعاً وعقلاً، وبمنطلقات علم النفس المرضي المعاصر ومدارسه.

وهذان الأسلوبان هما:

الأسلوب المباشر.

تم بواسطته استخدام مفردات لغوية معبرة مباشرة عن حالات متوقعة تظهر كاستجابات سلوكية انفعالية نتيجة ارتباطها بمثيرات انفعالية مثل استخدام مصطلحات (الغضب) بمثيرات مثل تكذيب جابر على حد تعبير الوصية أو تكذيب واحد منّا، وبروز مصطلحات « الحزن، والخوف، والفرح، والسرور، والجزع، وغير ذلك في السياق اللفظي، والمعرفي لهذه الوصية.

الأسلوب غير المباشر.

وهو أسلوب اللغة الانفعالية بطريق غير مباشر، ويستفاد من كلمات الإمام الباقر عليه السلام أنه يعني الإشارة الرمزية إلى أنماط من السلوك الانفعالي وحالاته التي قد يعيشها الإنسان في حياته، أو باستخدام سائد في العلوم كعلوم الأخلاق والتصوف، والحديث، ومن ذلك كلماته المعبرة عن حالات وجدانية دون استخدام الفاظ مباشرة بنفس حروفها، وهي غير متعارف عليها في كتب علم النفس الحديثة، أو في مصادر وأدبيات اللغة ومعالجها على أنها أنواع للانفعالات.

ولقد شاع في نص الوصية الإرشادية « كلمات وجمل مثل، وهي تعني بطريق غير مباشر حالات انفعالية دون استخدام مصطلحات انفعالية مثل: أَلْفَاظُ وَجَمْلُ (رَاغِباً فِي تَرْغِيهِ، إِزْرَاءَ لِلنَّفْسِ -أَيِ ضَيْقِهَا- وَالْحُطُّ مِنْ كِرَامَتِهَا، قَسَاوَةُ الْقَلْبِ، وَرَقَّةُ الْقَلْبِ، وَإِجْهَامُ الْقَلْبِ، وَفَقْرُ الْقَلْبِ، وَالْإِنْتَعَاشُ، وَشِدَّةُ النَّدَمِ، وَالْمُنَاجَاةُ فِي الظُّلْمِ^(١))، فهذه الألفاظ شائعة الاستعمال في اللغة العربية، وهي متوافرة في المعاجم، وتعني من بعيد أو قريب حالات انفعالية، لكنها تخلو مباشرة من الاستخدام اللفظي وبحروفها المألوفة في لغتنا العربية.

خامساً: شروط توجيه الانفعالات نحو أهداف عبادية:

مما لا شك فيه أن التركيبة اللفظية لنص الوصية، ومادتها الإرشادية كانت واضحة في توجيه نصائحها لجابر كحالة إنسانية، وكممثل لجميع الناس، فخصائصهم واحدة، وكانت هذه النصائح من أجل تنظيم قدراتهم على ضبط انفعالاتهم والسيطرة على نزعاتهم، ووضعها في مسارها العبادي المرغوب فيه، ولا نعتقد أن أحداً من الناس يخطئ في فهم مقاصد الإمام محمد الباقر (ع) من أجل تحقيق أهداف خطابه الإرشادي في تمكين النفس من السيطرة على شهواتها، والتحكم في انفعالاتها بما يحقق كما أسماه الإمام الباقر بـ (سلامة القلب)، وهو ما يعادل في تعبيرات علماء النفس وألفاظهم مفهوم (الصحة النفسية) أو الاتزان النفسي.. أي التوافق ورضا الفرد عن نفسه، وبما يحقق هدفاً أكبر وأسمى هو رضا الله سبحانه وتعالى عن الذات.

(١) إن عملية المناجاة في الظلم كما عبر نص الوصية هو مجموعة مشاعر وجدانية تتم في لحظة ممارسة الدعاء كالتحجب والحزن والخوف والبكاء والرجاء وغير ذلك، ويهيئ النفس الإنسانية لـ «تكوين عاطفة دينية» بصيغة منظمة ومعقدة المشاعر.

وتستبطن وصية الإمام الباقر (ع) في تركيبها اللفظية والمعرفية، ومادتها الإرشادية بعض الشروط المساعدة على تحقيق نجاحات مستمرة ومتواصلة لعملية التوجيه الإرشادي للذات في مواجهة سلوكها الانفعالي، واستخلصنا ذلك بخبرتنا، وبمنظرة اجتهادية قد تحظى بتقدير الغير، أو تكون عند غيرهم موضع نظر، ومن هذه الشروط ما يأتي:

١. شدة التيقظ الذهني.

وفي ذلك إشارة مباشرة من نص الوصية لدور العقل في العملية الإرشادية وتقبلها، وإلى دور انتباه الأفراد واستخدام تفكيرهم الناضج، والبحث المستمر عن الطرائق العقلية التي تساعد على مجاهدة النفس وترشيد سلوكها ونزعاتها، وضبط انحرافاتهما للسيطرة على الهوى وغلبة قواه - كما أوحى النص - وعبرت الوصية بألفاظ مختلفة كـ (حاضر العلم، وشدة التيقظ، ودلالة العقل، واسترشاد العلم) عن هذا التيقظ الذهني، وما يلعبه العقل والعلم وقدراتهما في تحقيق غلبة للفرد على هواه ومجاهدته، وثمة عبارات تشير إلى هذا الشأن نحو هذا المقطع: «يا جابر: استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزرأً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء».

٢. وجود قابلية ايجابية لدى النفس في التفاعل مع النص الإرشادي.

التيقظ، والانتباه، وتوظيف قدرات التفكير الناضج قوى مهمة في تحقيق سيطرة

على انفعالات الذات، والانتصار على شهواتها، وأهوائها، والقرب بذلك من الله ورضاه عز وجل، والتوافق مع النفس ورضا الفرد عنها، ولكن مع ذلك تحتاج إلى توفير قابلية داخلية لديه كي يتفاعل مع المثيرات الداخلية والخارجية كالفاعل مع أي نص إرشادي (كالمواعظ والنصائح الأخلاقية والعبادية)، وتؤكد وصية الإمام الباقر عليه السلام على أهمية توافر هذه القابلية الحيوية التي تستقبل هذه المثيرات وتحركها لتكوين استجابات إيجابية تتفق مع الدعوة الإرشادية لوصية الإمام الباقر عليه السلام لنا، ويمكن تأمل بعض الكلمات التي تصب في مصب الاهتمام بهذه القابلية الإيجابية وتكيفها مع أوامر الوصية ونواهيها، ومن هذه المفردات كلماته عليه السلام في مواضع متفرقة من وصيته لجابر الجعفي كمصطلحات ومفاهيم (مجاهدة النفس، غلبة الهوى، التوبة والمخافة، البصيرة، كثير الطاعة، الصدق في الأعمال، شدة التيقظ، صدق الخوف، الخوف الصادق، عظيم الشكر، راحة النفس، إجمام القلب، رقة القلب، نور القلب، دوام الحزن، شدة الندم، حسن المراجعة، كثرة الاستغفار، كثرة الذكر في الخلوات، المناجاة في الظلم، بعد الهمة، وهكذا).

٣. القيام بمهمة مجاهدة النفس وترويضها:

نص على هذه المجاهدة كلام صريح من الوصية مثل قوله: «إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش ويقبل الله عثرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

(١) الأود: محرّكة (العوج)، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار،

ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

وهي في العادة تجربة انفعالية صعبة تعبر عن حالة صراع داخلي بين الإنسان والشهوات التي تبسط سيطرتها عليه، فالمجاهدة ليست هدفاً في حد ذاتها، بل هي خليط من القوى الإيجابية المؤثرة في داخل كيان الفرد لمواجهة أهواء النفس وشهواتها، وتواجه بالمقاومة المبنية على شدة التيقظ، والرغبة الذاتية في قهر النفس وتقييد شهواتها، واسترشاد العلم، واتخاذ العقل دليل عمل، وبمعرفة النفس، وصبر الفرد على مغالبة هواها، مرة تغلبه وتصرعه، ومرة يخالف هواها في محبة الله ويتمكن منها حتى يقلل عثرته، ويزداد بصيرة، ويتمكن من تحقيق نتائج إيجابية في صراعه الداخلي مع القوى السلبية داخل كيانه الذاتي.

٤. الاستمرار في متابعة عمليات الضبط الانفعالي ومراقبتها الدائمة:

تحتاج النفس كي تضمن سيطرة جيدة على انفعالاتها وبنجاح معقول إلى مساندة من قوى النفس لاسيما العقل والتيقظ الذهني، واسترشاد العلم منذ بداية التجربة الجهادية حتى نهايتها؛ لأن الانفعالات السلبية هي الأخرى لا تتوقف عن العودة إلى تأثيراتها السابقة بسبب ارتباطها المستمر -على الأقل في بادئ الأمر- بالرواسب النفسية، وهي رذائل وسيئات تحتزنها النفس في داخلها من أيام الانحراف الشخصي، فالغضب في صورته غير السوية، وازراء النفس وتحقيرها، وقساوة القلب وتبلد الحس الانفعالي مثلاً لن يجعل عملية السيطرة على الانفعالات عملية طبيعية، وسيحرفها عن مساراتها السوية ما لم يكن عقل الفرد متيقظاً، وما لم تكن نفسه اللوامة مسترشدة بأوامر ونواهي هذا النص الإرشادي وغيره من وصايا الدين، فالحياة الانفعالية لا تسير دائماً على وتيرة واحدة، بل تظل حركتها متأرجحة بين صعود وهبوط، ويمكن قبول ذلك في مرحلة ضبط للنفس سابقة، ولكن مع تمرس الفرد على مجاهدة انفعالاته، وضبط شهواته يكون هذا التأرجح غير مقبول إن كان متواصلاً، ولا بد من الوصول إلى نتائج

إيجابية واضحة تستقر فيها الانفعالات عند مستويات قريبة من الأهداف العبادية لوصية الإمام الباقر (ع)، ونظرته العبادية والإيمانية.

وقد امتلأت هذه الوصية بأمثلة عديدة كما في مطالبته - على نحو واضح - بكف السلوك الانفعالي غير السوي إذا ما ظلم إنسان كظلم الناس صاحب الإمام (جابر ابن يزيد الجعفي) أو حين يتم تكذيبه أو تخوينه، وإذا خانته أحد من الناس، أو تعرض لبعض الذم والقدح في ذاته، وطالبنا الإمام الباقر (ع) - كما طالب جابراً - في مقابل ذلك بضرورة التفكير فيما قيل فيه، واستخلاص العبر والتائج، وتطبيقها على الذات.

سادساً: خصائص السلوك الانفعالي.

بعد تكرار قراءة نص وصية الإمام الباقر (ع)، يمكن معرفة ذلك حتى من الوهلة الأولى، فتأملنا في هذا النص الإرشادي، وحددنا بعض خصائصه السلوكية في المجال الانفعالي، وهذا ما يعيننا هنا، ويمكن تحديد بعضها فيما يأتي:

١. التنوع.

تنوعت عبارات الإمام الباقر (ع) في وصيته وتعددت جملها اللفظية، واختزنت في داخلها تنوعاً في ذكر مجموعة من الانفعالات النفسية التي جرت عليها حياتنا الإنسانية، فثمة أكثر من جملة، ومقطع لفظي دلّ على أنماط من السلوك الانفعالي، ومع أن الإمام محمد الباقر (ع) ليس هدفه البحث عن أنماط الانفعالات كما في الدراسات السيكلولوجية المعاصرة، وهي من جهة ثانية معروفة لدى الناس، إلا أنه ذكر جملة من الانفعالات كانت متفرقة في نصوص وصيته الإرشادية - وهي كما ذكرنا - متأرجحة بين انفعالات إيجابية، ومقابلتها من جهة أخرى بالفاظ تشير لانفعالات سلبية، وقد

مررنا في موضع سابق على نماذج منها فيما تقدم.

كما ارتبط بهذا التنوع في السلوك الانفعالي وأنماطه تنوع آخر يحث الفرد المؤمن على إصدار استجابات سلوكية متنوعة تناسب تعدد أنماط الحياة الانفعالية للكائن الأدمي، وتنوع أساليب معالجتها الروحية والعقلية والأخلاقية وغيرها.

٢. تداخل نشاط الانفعالات.

تتحرك الانفعالات لدى الكائن الحي، بما فيها الإنسان كمجموعة، فيتشابك في كثير من الأحيان نشاطها بين سلبي وإيجابي، وقد تعرف شخصية ما من الناس فيوصف بالجبان الخائف أو بالغضوب أو غيرهما، وذلك يسيطر أحد هذه الانفعالات على الفرد، صاحب هذه الشخصية، وبالعكس قد توصف بأنها «هادئة، صبورة، وباردة الأعصاب، وسالمة قلب صاحبها» إذا ما تمكنت من اكتساب الفضائل الأخلاقية والدينية الصحيحة بنحو يميزها عن غيرها من الناس أصحاب الانفعالات السلبية.

ومع ذلك كله يبقى التشابك والتداخل في نهاية الأمر حقيقة في سلوك الأفراد، فلا الهادئ لا يغضب يوماً، ولا الغضوب لا يهدأ في موقف غلب عليه أو تغلب فيه على دقات الغضب وشحناته الانفعالية، ولهذا فكل شخصية، أيا كانت (مؤمنة أم غير مؤمنة) هي في النهاية ذات قابلية فطرية، ومستعدة للتفاعل مع شبكة متداخلة من الانفعالات في مواقف متعددة من حياتها، بل أحياناً متعارضة في موقف واحد، فلهذا كان التوجيه الباقرى الكريم وأوامره ونواهيهِ من أجل أداء مهمة «تربية الانفعالات وتنظيمها والسمو بها» في مقاطع متعددة من نصوص وصيته.

٣. قابلية النفس الإيجابية في تعديل السلوك الانفعالي نحو الأفضل.

يولد الإنسان بقبليات انفعالية محايدة حتى تظهر أنماط من السلوك الانفعالي ثم تتمايز في مراحل لاحقة من نموه النفسي، فالطفل لا يعرف في بداية عمره سوى التهيج العام، فتتفرع عنه مشاعر تعبر عن التجاوب، والمحبة أو الغضب والخوف والضيق، ويعبر عن ذلك بالتجاوب العاطفي المريح، وقد يكون بالبكاء وغيره، ويعني ذلك انطواء طبيعتنا كبشر على استعداد خير أو استعداد معاكس يقوم على التفاعل مع نزعة شريرة، ومع ذلك تبقى قابلية أنفسنا لإيجابية لتعديل انفعالاتها، وتطوير استجاباتها بنحو دائم لمستوى أفضل.


ونجد في ألفاظ الإمام ووصيته المباركة تركيزاً على:

أ - إيجابية في قابلية أنفسنا لتعديل السلوك الانفعالي.

ب - وإيجابية في وصاياه، وتوجيهه الإرشادي.

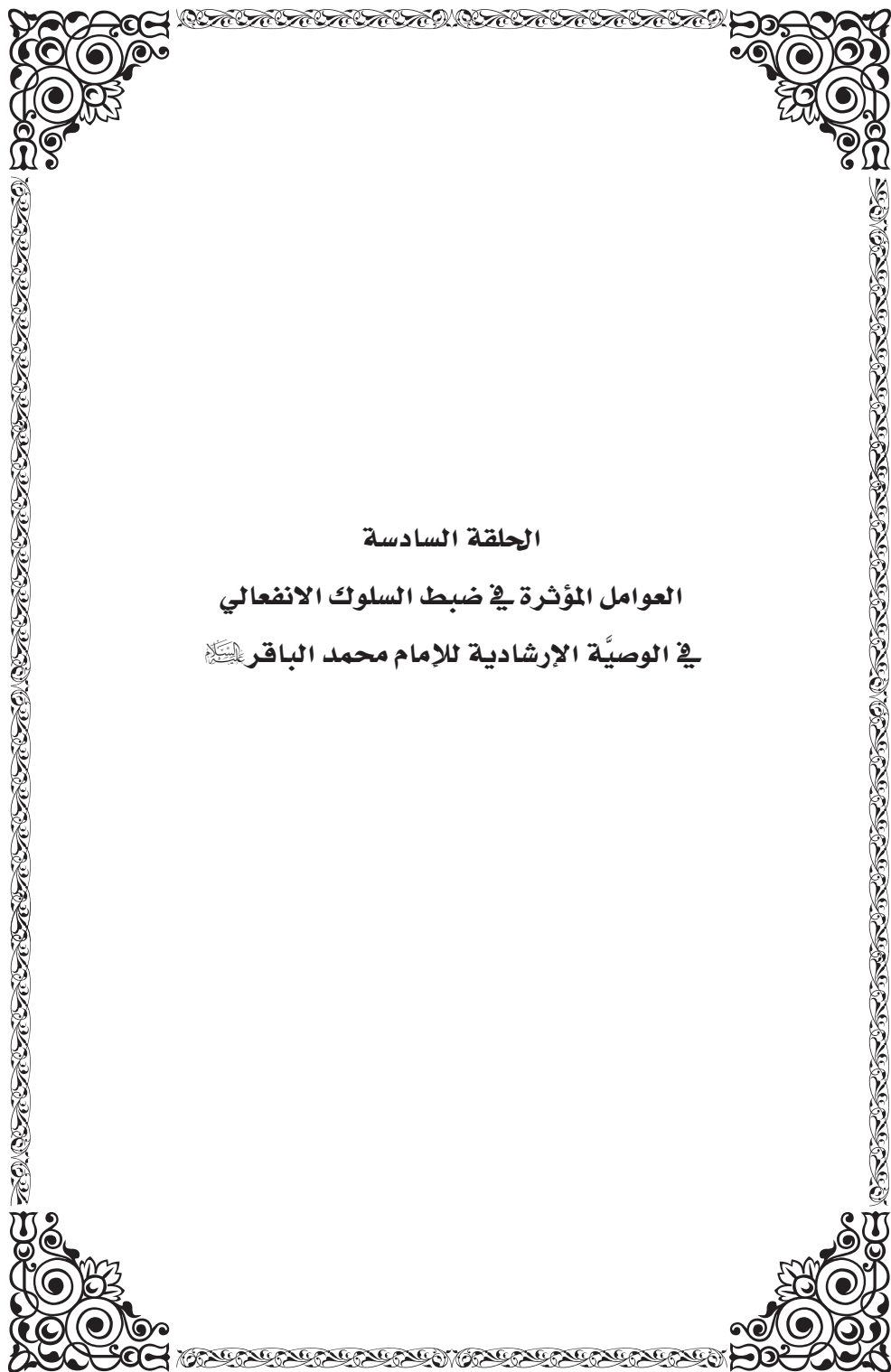
ج - وإيجابية في تحديد الأهداف التربوية بطابع عبادي كقوله: «ويخالف هواها في محبة الله» أو قوله: «ويفرغ إلى التوبة والخافة فيزداد بصيرة ومعرفة».

وواضح من نصه الإرشادي المتقدم ظهور حركة توجيه مزدوجة تبتغي بوضوح تحقيق أهداف الوصية بنظرها العبادية في اتجاهين متكاملين تجاه:

١. النصح والموعظة لكف استجابات السلوك الانفعالي بطابعها العصابي، بل تكوين استجابات سلوكية مضادة، وظهر كمثال لذلك في توجيه جابر الجعفي ونهي الإمام الباقر  له عن الظلم والكذب بمثل ما يفعل بعض الناس، وحثه على التحكم والسيطرة على مشاعر الغضب ودفقاته المجنونة أحياناً، وطالبه بالسمو بما أسماه في وصيته ب (رد الغضب)، وغير ذلك، بل طالبه بالتفكير السليم فيما قيل فيه ومعرفة

نتائج وأخذ العظة التربوية اللازمة حتى لا يواجه نوعين من السقوط (سقوطاً دنيوياً من أعين الناس، وسقوطاً أهم وأصعب وهو السقوط من عين الله) سبحانه وتعالى.

٢. الدعوة الى استثمار واقع النفس بعد التفكير بما قيل فيه، وبناء نسق انفعالي سوي يقوم على قبول المدح والاستماع اليه بلا فرح ولا مبالغة، وتفهم النقد والذم بلا جزع، ومجاهدة النفس في محبة الله ورضاه، والفرع إلى التوبة إليه سبحانه ومخافته بمعرفة وبصيرة، واسترشاد العلم، ودلالة العقل واعتباره دليل عمل في خطة البرنامج العبادي، وبإيثار القناعة على الحرص، واستجلاب حلاوة الزهد، ورد الغضب بهدوء وانضباط داخلي وسكينة، وبكثرة الذكر في الخلوات والاستغفار، والخوف الصادق، وتزيين النفس بالصدق في الأعمال، والتحبب لله سبحانه وتعالى بالمسارعة في أداء الأعمال الصالحة، وغير ذلك من الإرشادات والمواعظ والنصائح التي استهدفت بناء نمط عبادي لشخصية الفرد المؤمن.



الحلقة السادسة

العوامل المؤثرة في ضبط السلوك الانفعالي

في الوصية الإرشادية للإمام محمد الباقر عليه السلام

مقدمة

ظهرت في الكتابات السيكلوجية المعاصرة اهتمامات من الباحثين والمشتغلين بظواهر نفسية مثل النمو النفسي والتعلم والدوافع والاتجاهات، والميول والفروق الفردية والإدراك، والإحساس، والاتزان الانفعالي والنفسي، كما ظهرت اهتمامات ببحث ودراسة العوامل المؤثرة بهذه الظواهر وغيرها بشكل وثيق عن هذه الظواهر انشغال بعض علماء النفس ببحث ودراسة العوامل المؤثرة في هذه الظواهر وغيرها.

ومما لا شك فيه أن ظاهرة الاتزان النفسي، ومنها (الاتزان الانفعالي) لم تشذ عن هذه القاعدة، فالدارسون يمكنهم - وقت حاجتهم - معالجة حالات الاتزان الانفعالي، ودراسة العوامل التي تؤثر في عملية الاتزان الانفعالي إن وجدوا حاجة علمية إلى ذلك، وغالباً ما تكون الحاجة موجودة في صلب اهتماماتهم العلمية، ومن المفيد القول إننا وجدنا حاجة علمية في تحديد العوامل المؤثرة بشقيها الإيجابي والسلبي في ظاهرة (الاتزان الانفعالي)، واستخلاصها من مفردات التركيبة اللفظية ومعانيها للوصية الباقية، وما تضمنته من وصايا وإرشادات تبدو في الظاهر أنها كانت موجهة لجابر الجعفي، بينما هي في حقيقتها وثيقة توجيه إرشادي للناس في المجتمع الاسلامي.

ولقد تكلمنا في فصل سابق عن الانفعالات كسلوك إنساني تعرفه الحياة البشرية، وعن شروط حدوث هذا الانفعال، وأنواعه، والإشارات التطبيقية التي تضمنتها الوصية المذكورة، ولما وجدنا أن دراسة موضوع ظاهرة الاتزان الانفعالي قد اتسع وتمدد فعلاً في سياق حديثنا عنه، عقدنا هذا الفصل مستقلاً لدراسة العوامل المؤثرة

سلباً وإيجاباً في ظاهرة الاتزان الانفعالي، وعالجناه استكمالاً لما رأيناه من وجود نظرة سيكولوجية خاصة بحالات الاتزان الانفعالي، والدعوة المباشرة والصریحة إليها في مفردات وصية الإمام الباقر (ع)، والتي وجهها لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي رضوان الله عليه.

ولهذا تتبعنا - باجتهادنا الشخصي - مجموعة محدودة من هذه العوامل، واستخلصناها من باطن النص ومفرداته، ولكننا نقول في الوقت ذاته: إننا لا نملك كلمة فصل نهائية تحسم الأمر، فالعقل الإنساني - كما يعلم العالمون بذلك - لا يتوقف عن إضافة الإبداع، ولا تنكفي قدراته - مهما كانت الظروف - عن كشف كل ما هو جديد.

وعلى هذا التأسيس يمكننا القول إنَّ ثمة عوامل إيجابية وسلبية متقابلة في نص الوثيقة الإرشادية للإمام محمد بن علي الباقر (ع)، وأوضحت هذه الوصية علاقة العملية الإرشادية التي اهتمت بها وصية الإمام الباقر بأنماط السلوك الانفعالي، وتأثيرها على استجابات الأفراد في مواقف انفعالية متعددة، وهي كما سيلحظ القارئ العزيز تتسم بأدوار إيجابية تترك بصماتها على سيكولوجية الفرد، وتمده برؤية حكيمة تساعد على الضبط السلوكي الانفعالي، أو تتسم بأدوار سلوكية سلبية وسيئة تؤتي بنتائج معاكسة مؤثرة على الاستجابة الانفعالية في سلوك الكائن الأدمي.

ولمسنّا في جمل وعبارات وتعليقات إرشادات وصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع)، وبعضها يوحى لنا بتأثيرات عوامل إيجابية، وبعضها الآخر سالبة، وسنذكر منها ما توصلنا إليه من تحديد لها سواء أكان إيجابياً أم سلبياً، وهي كما يأتي:

١. العوامل الإيجابية :

ومن صور هذه العوامل وأنواعها ما يأتي:

أ - التيقظ الذهني والتفكير الجاد في نتائج السلوك الانفعالي:

بعد أول مقطع في نص وصية الإمام محمد الباقر نُبّهت كلماته (ع) صاحبه جابر بن يزيد الجعفي، ولفتت نظره إلى التأمل الذهني، والتفكير في نتائج ما قيل له من تكذيب وافتراءات توجه ضده من سفهاء الناس أو عقلائهم، وطالبه (ع) بعدم الغضب، ودعاه إلى ضبط نفسه في حالة مدحه بما يستوجب فرحه، وأراد له التفكير في مواجهة الحساسية الانفعالية الناجمة عن ذمه، وحثه على الاتصاف بالهدوء النفسي، والاتزان الانفعالي وثبات النفس وعدم الجزع في الشدائد، ومواقف الألم والحساسيات الشخصية، وحمله بدلاً من ذلك على مواقف إيجابية لتقويم سلوك الذات وهي تواجه بمثيرات انفعالية تربكها وتضعفها.

ودعا الإمام الباقر (ع) صاحبه جابر الجعفي بأن لا يهتم كثيراً لآية استشارة انفعالية سالبة تحث من قدره الشخصي، وتطيح بصبره وقدرته على تحمل الصعاب والشدائد، وما يسميه بعض علماء النفس المعاصرين بـ (وصيد الاحباط) النفسي^(١)، وهذا المصطلح السيكولوجي يعني «قدرة الفرد على تحمل الشدائد، والثبات النفسي في المواقف الصعبة».

وقد أشرنا إلى هذا المصطلح في كتابنا (سيكولوجية الانتظار) بقولنا عنه: «مصطلح نفسي يراد به قدرة الفرد على الصبر، وعلى الثبات العاطفي، وتحمل الشدائد ومقاومة الإحباط والحرمان، والصدمات الانفعالية بطريقة توافقية بالمعيار العبادي

(١) انظر أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، ص ٤٩٨.

والوضعي معاً^(١).

وتمت الإشارة لحالة التيقظ الذهني وتأثيراتها الإرشادية على تشكيل السلوك السوي ومراقبة تعديله في أكثر من موضع من نص هذه الوصية، وكان أحدها بذكر المصطلح نفسه كما هو، ومرة ثانية بذكر أهمية التفكير فيما قيل لجابر أو أي فرد إذا ما كُذِّبَ أو ذمَّه بعض الناس، ويتبين من كليهما أثرهما الإيجابي في مراقبة سلوك الذات وضبطه، وتعديل الاستجابات السلوكية الانفعالية بما يتفق ونظرة المشرع العبادي الإسلامي وأحكامه التكليفية الشرعية.

ويدعو في مواضع أخرى الأفراد المؤمنين إلى الاسترشاد (بالعقل والعلم) معاً في مغالبة هوى النفس وجهادها، فكلّيات الإمام تقول في وصيته المباركة، وهو يخاطب جابر الجعفي، وكل من يؤمن بولايته وإمامته بضرورة استخدام التفكير، وكل مظاهر التيقظ الذهني لتجنب ظهور مشكلات تؤثر سلباً في المجال الانفعالي وغيره:

• «وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مدحت فلا تفرح، وإن ذمت فلا تجزع، وفكر فيما قيل فيك...» ومعرفة نتائج ذلك.

• «وأعلم بأنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك، وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيه، خائفاً من تخوفه فأثبت وأبشر، فإنه لا يضرّك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فماذا الذي يغرك من نفسك، إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم

(١) مدن، يوسف، سيكولوجية الانتظار، ص ٢٠٨.

أودها^(١)، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فيتعش ويقبل الله عثرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

• يا جابر: «تحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم».

• وقال في مقطع آخر: «واعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز، ولا رجاء كرجاء مُعين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغارك الدنيا، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك».

• وقول الإمام كذلك: «لا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب».. أي إنه يشير إلى قوة كيان الفرد في مقاومة غضبه، وفي سيطرته السليمة والصحيحة على دوافع الانفعال غير المتزن عند الغضب لحظات الغضب.

ويستفاد من هذه المقاطع ضرورة استخدام تأملنا الذهني فيما قيل لنا بدلاً من الاستجابة العمياء للسلوك الانفعالي الأحمق، وفهم معانيها، ودلالاتها المطلوبة، فالفرد بين طريقين:

١. إما اختيار الحماقة التي تلحق الضرر بشخصياتنا كبشر في الرد على الاستشارة

(١) الأود: محرّكة (العوج)، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار،

ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

الانفعالية بخاصة في مواقف الإساءة، والغضب الناجم عنها.

٢. النظر لاهانات الآخرين وإساءاتهم بتفكير هادئ، وسليم، لعواقب الاستجابة السيئة للمثيرات الانفعالية، والتصرف إزاءها بهدوء يخلو من الغضب العلني أو يناسب بإيجابية أي حساسية انفعالية سلبية كالتحسس من أي نقد أو ذم، والرد عليها بحساسية حمقاء، وبلا تفكير سوي، وهذا ما أسمته الوصية الباقية في أحد مقاطعها بـ (رد الغضب) وأنه لا قوة في نظر الإمام محمد الباقر عليه السلام كـ (رد الغضب)، والسيطرة على مثيراته بحكمة، وإطفاء جذوة فتنته العبيثة.

وهكذا قد حدد الفرد المؤمن - بهذه المواجهة العقلية - اختيار الطريق السوي بمعرفة ما في النفس، وما قيل بشأنها بما يستدعي الغضب، والرد عليه بهذا الأسلوب فيكون ناتج الأمر أمرين، كلاهما مُرٌّ ومتعب، فكلاهما سقوط في الهاوية التي لا نريدها، وجابر عليه الرحمة أولى بردها عن نفسه؛ لأن كليهما ينطوي على مرارة الخسارة الفادحة، ونقصد خسارة تقديرين مهمين، وهما:

١. التقدير الإلهي: والمقصود به نيل رضا الله نتيجة صبره على مكاره الناس وحماقاتهم، وعبرت عن ذلك جملة في مدخل مقطع في وصية الإمام الباقر عليه السلام تحدد هذه الهاوية السيئة، وهي قوله عليه السلام: «فسقوطك من عين الله جلّ وعزّ عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس».

٢. التقدير الاجتماعي: هي خسارة التقدير الاجتماعي متعبة وصعبة على بعض الناس وإن كانت أقل من الخسارة الأولى بشكل مؤكد، فخسارة تعاطف الناس ثقيلة؛ لأنها تعني خسارة الدفء العاطفي والاجتماعي من أفراد المجتمع، فيكون السقوط في هذه النتيجة هاربة مضاعفة، (هو سقوط وزن أنفسنا وتقديرها من أعين الناس)،

وانحطاط تقديرهم واحترامهم لشخصيتنا بينهم.

ويقابل تلك النهايتين السيئتين نتيجة ثالثة إذا كان الحال في المواقف الانفعالية، وما قيل في الفرد بخلاف ما قيل فيه منهم، وهي نتيجة مخزية في التقديرين السابقين، وجميلة في الحالة الثالثة التي أوضحناها الوصية الباقرية، تقول العبارة في نجاح الفرد على ضبط سلوكه الانفعالي والسيطرة عليه بحكمة العقل ورشد وترو: «وإن كنت على خلاف ما قيل فيك فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك»، وتعني النتيجة في هذه الحالة (ضبط سلوكنا الانفعالي) بمحددات إيمانية يرضى الله عنها، وعناً وننال ثوابه ومراضاته وتقديره سبحانه، بل وتقدير الناس، ومودة المجتمع وعطف أفراده، حتى وإن لم يبذل الفرد جهداً بدنياً للحصول على مثوبته، وذلك بحد ذاته نعمة كريمة وعظيمة من نعم الله سبحانه على المرء المؤمن.

لم تتوقف وصية الإمام (ع) لجابر الجعفي في هذا الصدد بالتركيز عند استجلاب شدة التيقظ الذهني وتفجير قدراته على ضبط السلوك الانفعالي واستشاره في نيل مقاصد التربية الشرعية من رضا الله، ومودة الناس ونيل ثواب لم نتعب فيه، بل ربطت هذه الوثيقة بقيمها التربوية والإرشادية والعبادية ما أسمته بـ (شدة تيقظنا العقلي والذهني) بإسناد إيجابي لها من قوى كامنة في طبيعتنا البشرية، يقول الإمام الباقر (ع) في وصيته الإرشادية، وهو يطالب جابراً باستثمار الطاعة والشكر والعفو الإلهي والرحمة، والعلم والتيقظ الذهني، وصدق الخوف ودلالة العقل ورشده والقناعة وحلاوة الزهد وقصر الأمل ومعرفة النفس، وإجمام القلب وكثرة الذكر في الخلوات، ودوام الحزن، وخالص العمل والدعاء، وكثرة الاستغفار، وحسن مراجعة الذات فيما تفعله، وغير ذلك من قوى الدعم والإسناد التي تمكنه من تعديل السلوك:

«يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من

نفسك كثير الطاعة لله إزاءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضِر الشر بحاضِر العلم، واستعمل حاضِر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضِر الحياة، وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة.

واستجلب حلاوة الزهّادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجماع القلب، وتخلص على إجماع القلب بقلّة الخطأ، وتعرّض لركة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزَيّن لله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتحبّب إليه بتعجيل الانتقال».

ثم تابعت الوصية قولها في الاستفادة من قوى الاسناد من داخل الذات أو من خارجها فقالت: «وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم، وتخلّص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، والتوسل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العزّ بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس ببعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحّة الأبدان، وإيّاك والثقة بغير المأمون، فإنّ للشر ضراوة كضراوة الغذاء».

ويلحظ من النص الإرشادي أنه أشار لقوى إسنادية معززة للسلوك الإيماني عند الفرد المؤمن، وذكرنا بعضها قبل عرض هذا المقطع من الوصية، وهي جميعاً تستهدف -كما نصح الإمام الباقر (ع) صاحبه جابراً- تعزيز السلوك الإيجابي للذات بأساليب عبادية وإيمانية لا في مواجهة السلوك الانفعالي غير التوافقي فحسب، بل لتعزيز الصفات والسمات المختلفة لجوانب الذات وتقوية صلتها بالله سبحانه، وبفلسفها والمجتمع وعالم الأشياء من حولها بما يرضي الله سبحانه.

ب - إيجابية الوصية كنص إرشادي موجه للسلوك العبادي ومعزز له:

قدّم الإمام الباقر (ع) نصّه لخدمة جابر بالتأكيد، ولضمان انضباط الفرد المؤمن على قواعدها وتوصياتها الأخلاقية والعبادية لحماية نفسه من غوائل الزمن وانحرافات الناس في أيامهم، وهي وصية تضمن ترشيد سلوكهم، وبالتالي ليست هذه الوصية الكبيرة خاصة بجابر الجعفي وحده، بل هي خطة عمل وبرنامج عبادي وتربوي يسترشد به الأفراد في المجتمع المسلم، ويستفيدون من بنودها في صياغة نمط إيماني يساعدهم على تكوين شخصية عبادية متزنة التفكير والمسار والسلوك، وطبيعية في التعامل مع مثيرات الحياة برؤى وأفكار مستنيرة.

ومما لحظناه ونحن نقرأ هذه البنود ونكتبها أن هذا النص التربوي الإرشادي القيم هو فرصة متجددة لاستثمار روحانية الإمام الباقر (ع)، وخبرته الأخلاقية والقيمية والمعرفية بفهم طبائعنا كبشر من أجل بناء نمط الشخصية العبادية التي ابتغى الإمام الباقر (ع) اجتهد المؤمنين في الوصول إليها ما أمكنهم في حياتهم التي يعيشونها، وارتبطت هذه الوصية كفرصة تربوية مستمرة ومتجددة بالنسبة لأجيال المؤمنين الحاضرة في زماننا، كما كانت في عصور سابقة وسالفة بطبيعتها الإيجابية، وتمتعها ببرنامج عمل إرشادي وتربوي قوي وتقديمي، كما في وجود قوى الإسناد التي أشرنا

لها، والإفادة منها في تأثيرها العبادي والإيماني.

إن كل ما جاء في نص وصية الإمام ك (وثيقة تربوية وإرشادية) يضمن للمؤمنين كأفراد وجماعات تحقيق فرص متكررة للسيطرة على أنفسهم وإدارة نشاط ذواتهم، ومخالفة هواها في محبة الله ورضاه عز وجل، وإنعاش قوى النفس وتحقيق رغباتها الإيمانية، ومطالبها في التوافق والصحة النفسية والعقلية، والرضا النفسي عن الذات.

وليست عملية ضبط السلوك الانفعالي إلا جزءاً محدوداً من عمليات متكاملة تقوم بتوجيه مجموعة القوى الطبيعية الكامنة في النفس، وبلاستفادة من قوى الإسناد حتى تتمكن أنفسهم من السيطرة التامة على انفعالاتهم، وإخضاع حركتها للمحددات الإيمانية، وصرفها في الاتجاه الذي يساعدهم على تحقيق نمط الشخصية العبادية المتكاملة أو القرب من دوائرها على أقل تقدير باعتبار أن قدرات الناس متفاوتة، وبذلك يمكن اعتبار هذه الوصية وبنودها بأكملها أشبه ببرنامج عمل تربوي وإرشادي دقيق ورشيد يمكن الاستفادة منه - ما أمكنهم - في تحقيق الأهداف العبادية والإيمانية لكل فرد مؤمن، والتعايش مع الإسلام وقواعده وتعاليمه وإرشاداته المعرفية والأخلاقية.

ج - دور الفرد المؤمن في عمليات تعديل السلوك الانفعالي للذات:

إذا كانت الوصية - كما قدما - برنامج عمل موجهاً للذات من خارجها، وقد عرضها الإمام الباقر عليه السلام على صاحبه جابر بن يزيد الجعفي رحمة الله عليه فإن القيام بهذه العملية وانجازها يحتاج إلى فعل أطراف، وهم الأفراد، ويكون المؤمن نفسه أهم هؤلاء الأفراد العاملين على مساعدة نفسه وخدمتها بفكر إرشادي قويم لا في المجال الانفعالي فحسب، بل في مجالات تطوير قدراتها الذاتية.

إن التربية الجهادية تعتمد على المسؤولية الفردية في كل مراحل العمل العبادي

وخطواته، فالفرد المؤمن يتحمل مسؤولية انجاز المهمة الإرشادية وتنفيذ بنودها، ولكن لا يعني بالتأكيد استبعاد أدوار أطراف أخرى لتطبيق بنود هذه الوصية الحيوية؛ حيث إن انجاز هذه المهمة الإرشادية يتطلب مشاركة فاعلة من أطراف آخرين، وقد توافر وجود قائد منظر، ومرشد معرفي وأخلاقي، ونص وثائقي اجتمعت فيه بنود عمل تربوي وإرشادي يمكن استثماره في تربية الذات على المفاهيم والقيم العبادية، ولا تستغني عملية تنفيذ هذه المهمة عن دور فعال للفرد المؤمن نفسه.

ونلاحظ -بكل تأكيد- الإشارة إلى هذه الأطراف في نص الوصية وجميعها تبدو قوى ظاهرية، واضحة، مثل الموجه التربوي أو المرشد وهو إمامنا الباقر (ع)، وتلميذه أو صاحبه جابر بن يزيد الجعفي، وهو من عنته بعض الأحاديث بالمحتاج للتوجيه والنصح والوعظ والإرشاد، وبرنامج عمل متقن ومحكم تمثل في وجود وصية أو وثيقة إرشادية قدمت خطاباً متكاملًا لتربية الشخصية المؤمنة، ثم حددت للفرد المؤمن دوره التربوي الإيجابي الذي يتفاعل مع بنود الوصية، ويطبقها على كيانه، وذاته الشخصية في مجالات نمو متعددة بدافع أو باعث داخلي من ذاته، وقد التقى هذا الكلام في معناه مع قول للإمام الجواد (ع) قد حدد فيه لانجاز المهمات التربوية والإرشادية أدواراً متفاعلة لضمان نجاح العمل والتقدم به، وتوفيقه من رب العباد سبحانه.

قال الإمام محمد بن علي الجواد (ع):

«المؤمن يحتاج إلى توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه»^(١)، والجملة الأخيرة من هذا النص القصير قد تضمنت بوضوح طرفي تفاعل كان أحدهما (الناصح)، والآخر هو مادته الإرشادية أو (نصيحته) التي وعظ بها غيره، فإذا لا بد من قيام الفرد - مؤمناً أو غير مؤمن - بتحمل مسؤولياته الفردية في هذه المهمة،

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص ٣٣٧.

فهي ضرورة تربوية لنجاح العمل وتطبيقاته، وذلك بمقدار طاقته، وبحجم ما يتسع له جهده الذاتي، وتطبيقه إمكانياته الفردية، فما نعلمه أن الإنسان الفرد يهيئ الأسباب، لكنَّ الله تعالى -بمقتضى توافر هذه الشروط والأطراف المتفاعلة- يصنع نتائج العمل بعد توفيقه للعبد.

ومن هنا أسندت وصية الإمام الباقر لجابر فعله المؤثر في النشاط الإرشادي، وكان الكلام موجهاً لجابر بأن يفعل، وقد انتشرت أوامر الفعل لجابر في كثير من جمل الوصية وعباراتها مثل قول الوصية: «يا جابر اغتنم، إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تحن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مُدِّحْتَ فلا تفرح، وإن ذممتَ فلا تحزع، وفكر فيما قيل فيك، واعرض نفسك على ما في كتاب الله، والمؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، واستكثر لنفسك من الله قليل الرزق، وادفع عن نفسك، واستعمل حاضر العلم، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ»، وهكذا جرت حركة السياق اللفظي للوصية، وهو يسند بنود النصيحة (الوصية) إلى جابر بن يزيد الجعفي، أي إلى كل إنسان، لأن المخاطب هو جابر، وكل مؤمن.

وغاية هذا الإسناد في القيام بأفعال محددة، كما يتضح من نصائح إرشاداته الصادقة هو توجيه الأفراد للقيام بتكاليف شرعية لتربية أنفسهم من جهة، وليتعلم المؤمنون أساليب تحقيق التوازن الانفعالي في حياتهم الشخصية، فيكون مثلاً هادئاً في معاملاته مع الآخرين، ومع نفسه، بل ومع ربه، لهذا كَفَّه الإمام عن الغضب متى كُذِّبَ، وأن لا يجزع عندما يُذَمَّ بوجه حق أو بغير وجه حق، ولا يطير فرحاً لمجرد أن قيل فيه ما يمدحه، فيصاب بغرور الذات، والتبذل الانفعالي عن مراقبة سلوك ذاته، ورؤية عيوبه، ولا يفكر فيما قيل فيه إلا بما يريجه لا أن يحمله على مواجهة مشكلاته الشخصية، وهذا كله يصنع في داخل الفرد وحياته العملية إمَّا حالة من الصراعات والتأزم النفسي وعدم

الاتزان الانفعالي، أو يقوده -إذا ما التزم بتوصيات الإمام- إلى اتزان انفعالي ونفسي يحس بوجوده الناس وأهم من ذلك يرضاه الله كهدف عبادي إن قصد رضاه من هذا العمل النفسي والأخلاقي.

وانسحب إسناد الأفعال للعبد على مواقف وجمل وعبارات نصّت عليها وصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع) في خطابه الإرشادي الكريم، ودعا جابر بن يزيد الجعفي، ومجاميع المؤمنين عبر عصور متفاوتة من التاريخ، وفي أي مكان إلى العمل، والتقيد ببنود ما تضمنته هذه الوثيقة وتنفيذه، ولا يجد الفرد المؤمن ما يسوّغ له التخلص من مسؤولياته المسندة إليه في هذه الوصية والعمل بكل بنودها، وبعبارة صريحة تسند الوصية للفرد المؤمن كامل المهمة العبادية في تحمل مسؤولياته لتحقيق الاتزان النفسي والانفعالي.

د - إرادة المنافسة في العمل وكسب درجات أعلى:

تقدمت الإشارة إلى تأكيد الوصية على أهمية المسؤولية الفردية في ضمان نجاح الخطوة الإرشادية التي وضعها الإمام الباقر (ع) لتوجيه جابر وإرشاد المؤمنين أفراداً وجماعات، وحرصه الشديد على سير حركة برنامجها في حياتهم الشخصية بالممكن الأفضل، بيد أن استمرار تواصل القيام بالمسؤولية الفردية يرتكز على حيوية الإرادة لدى الفرد، ويلفت نظرنا الإمام في النصف الأول من وصيته إلى توجيه جابر إلى عرض نفسه، عندما يطبق برنامجاً إرشادياً لبناء ذاته، على كتاب الله بعد أن نصحه بدوام التفكير فيما قيل فيه، ومعرفة نتائج تفكيره لصالحه أو ضده، وما يترتب عن هذا التفكير من بوادر عمل لتعديل السلوك عنده كفرد، وما لا شك أنه كلام للجميع لا لجابر الجعفي وحده.

تذكر الوصية هذا المقطع:

«ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزيده، راغباً في ترغيه، خائفاً من تخوفه فأثبت وأبشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فهذا الذي يغرك من نفسك».

ثم قال الإمام الباقر (عليه السلام) في جزء آخر من هذا المقطع:

«إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعهه الله فينتعش ويقل الله عثرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة والخافة، فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١).

وتتابعت إرشادات الإمام الباقر (عليه السلام) في عرض إثارات لتفعيل إرادة الفرد المؤمن بما فيهم جابر، وبطرائق إيجابية ومعتبرة لدى الإنسان المؤمن، فأكثرت وصية الإمام من استخدام ألفاظ وكلمات غايتها تفعيل إرادة الإنسان وتقويتها، وهي تتحمل مسؤوليتها في المجاهدة النفسية، وشغلها الشاغل ضبط سلوكها، فقرأنا في نص هذه الوصية كلمات استشارة الإرادة مثل: «استكثر لنفسك، ادفع عن نفسك، استعمل، تحرز، استجلب شد التيقظ، وتَّق مجازفة الهوى، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى اجسام القلب»، وكلمات كُثرت مترابطة في نص الوصية تستهدف تنشيط الإرادة البشرية، وتقوية نشاطها في إدارة العمل العبادي بعزائم الفعل كي يتحقق برنامج الخطة الإرشادية، وتتكون - بدرجات متفاوتة - نماذج جيدة للشخصية العبادية المتكاملة.

واستخدم الإمام الباقر (ع) في توصياته الإرشادية عوامل إيجابية لبناء الإرادة البشرية الفاعلة التي تسهم في تربية النفوس، وضبط انفعالات الذات والتحكم في مساراتها لتصب في مصب الخير، وهذا ملحوظ في عبارات الإمام وأقواله في مقاطع الوصية كلاً بلا استثناء، ويمكننا الإشارة لبعض مضامين مقاطع لفظية من نص الوصية ومعانيها الذهنية:

١. مقطع التوظيف المباشر للنص في حث الفرد المؤمن على المجاهدة النفسية في نهاية القسم الأول من الوصية، وهو مثال حي على صراع الإرادات في داخل الشخص نفسه وتفعيلها حتى يتمكن من إنجاز مهمته العبادية الجهادية بنجاح متقن، وآمن، ومن ذلك قوله: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَعْنَى بِمُجَاهِدَةٍ نَفْسِهِ لِيُغْلِبَهَا عَلَى هَوَاهَا»، وما يواجه الذات من صراعات داخلية حتى تتغلب على شهواتها المحرمة، فـ «مرة يقيم أودها ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها، فينعهه الله فينتعش، ويقيله الله عثرته فيتذكر، ويفزع إلى التوبة والخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف»، واستخدم الإمام لتوضيح نهاية هذا الصراع بإيجابية -وهو توفيق من الله للإنسان المؤمن- آية قرآنية تكشف عن نجاح الفرد في صراع إرادته مع شهواته، فقرأ الإمام (ع) لصاحبه جابر الجعفي قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، ودلالة هذا النص لا للتأمل الذهني فحسب، بل لتهيئة الذات لأدوار جديدة تطور من قدراتها، وتقربها من الله سبحانه وقيمه وتعاليمه.

٢. ومقطع آخر اقتطعنا ألفاظه من قول الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليها الصلاة والسلام في تحفيز إرادة العمل وتنشيطها بمحفزات وبواعث داخلية ذاتية ومتواصلة، تقول كلمات هذا المقطع لجابر بن يزيد الجعفي، وللأفراد المؤمنين عبر الزمان: «ولا معرفة كمعرفتك نفسك، ولا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق،

ولا شرف كبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالمنافسة في الدرجات»، وتعني التنافس والمفاخرة والمباراة في انجاز العمل بين الأفراد داخل أنفسهم في المقام الأول بين فترة زمنية وأخرى، ويرتكز هذا المبدأ على مضمونه التربوي المهم، وهو التنافس الفردي، وغايته -كما ذكرنا- مسابقة الفرد لنفسه في أوقات مختلفة من حياته لتطوير نفسه واكتساب ما يقربه ويدنيه من الله، ونيل درجات تقربه للمثوبة الإلهية.

٣. استثمار أساليب في التركيبة اللفظية لنص الوصية لتقوية الإرادة الفاعلة، ونلمح عدداً من هذه الأساليب في باطن هذا النص على امتداده كإثابة المؤمن من غير أن يتعب بدنه إن تحمل مشقة ضبط النفس عن انفعالاتها الحمقاء، والزهد، والترغيب والتخويف، والثبات النفسي، وكذلك استبصار المرء ومعرفته الحق بعد فرعه للتوبة، ومخافة الله سبحانه وتعالى، والعمل على التقيد بالقيم الأخلاقية الواردة في وصية الإمام محمد الباقر (عليه السلام)، وكل التوصيات التي شددت عليها الوصية، وضبط نمو الإرادة وتأثيرها الإيجابي في مسار عبادي، والتقيد بتوجيه المبادئ الإرشادية المتعددة مثل (دفع الضرر، وإماتة ذل الطمع بعز اليأس، واستجلاب العزة ببعد الهمة، والشكر واستكثار قليل الرزق من الله، وإيثار القناعة، ومبدأ الترويح عن النفس أو «ما أسماه نص الوصية بـ (اجمام القلب) وتخفيف معاناته، وتزيين النفس بصدق الأعمال، والتحبب إلى الله عز وجل بالمسارعة إلى أداء الأعمال الصالحة لاسيما الفرائض، وطلب العفة وكثرة الاستغفار، وذكر الله في الخلوات، وحسن المراجعة لسلوك الذات ومشاعرها وفكرها، ومعالجة رذائل النفس بأضدادها من الفضائل والقيم الربانية، وانتهاز فرص الخير دائماً) وهذا ما عنته جملة في نهايتها تقول: «وإيَّاكَ والتَّفرُّط عند إمكان الفرصة، فإنَّه ميدان يجري لأهله بالخسران».

٢. العوامل السلبية المؤثرة على تحقيق الاتزان الانفعالي:

حددنا فيما مضى بعض العوامل الإيجابية التي توصلنا إليها بنظرة اجتهادية منّا، وهي تشمل إضافة عوامل أخرى أو شطب بعضها بحسب قدرة الباحث على كشف مضامين النص، ونقصد وصية الإمام الباقر الإرشادية لجابر، وبقي علينا متابعة بعض العوامل المؤثرة سلباً على تحقيق حالة الاتزان الانفعالي لدى الفرد، فالعوامل السلبية هي ما تستثير السلوك الانفعالي بطريقة غير سوية، وبأساليب غير توافقية كما يحدث في حركة الناس بالحياة الشخصية والعامة، وتقود هذه العوامل الأفراد إلى أخطاء سلوكية في مجالات متعددة من حياتهم.

ويمكننا الآن استخلاص بعض هذه العوامل التي تعمل كقوى مؤثرة سلباً على انفعالات الأفراد، وندفعهم لانحرافات فكرية وسلوكية مضادة، ومتعارضة مع الأهداف العبادية التي توختها الوصية الإرشادية للإمام محمد بن علي الباقر (ع).

ومن هذه العوامل ما يأتي:

١. النزعة الشيطانية:

وهو ما ذكرته الوصية بـ (إبليس) اللعين أو الشيطان، ويراد به القوة الشريرة في داخل كيان الإنسان التي توسوس له، وتستثيره بتحريضات مستمرة للإقبال على أعمال سيئة مضادة لأوامر الله ونواهيه، ولجملة الخطاب الإرشادي في وصية الإمام الباقر (ع)، وما يعرضه على الإنسان بصورة مستمرة من تضليلات منحرفة تصده عن سواء السبيل، لاسيما قربه من الله عز وجل وطاعته وعبادته، وقد ورد ذكره في مقطع لفظي من نص هذه الوصية في قوله (ع)، وهو يوجه نصيحة لجابر من عوائق إبليس، فقال محذراً صاحبه الجعفي: «وتحرّز من إبليس بالخوف الصادق».

ويتجلى التأثير الشيطاني في كينونة الإنسان بأكثر من صورة أشارت لها كلمات وصية الإمام الباقر (ع) لجابر عليه رحمة ربه، ومنها ما يأتي:

أ- حث الشيطان الإنسان على ارتكاب أفعال سيئة، وقبائح متعددة سواء من صغائر الذنوب أم من الكبائر كالظلم والكذب والتخوين، والسرقه ومعاملة الناس بحالات من الغضب الشديد، وببذاءة القول، وفحشاء اللفظ مع الآخرين أو الاعتداء عليهم، وإضرار الناس، والفتن وغيرها، وعلاج هذه الحالة من خلال الحذر والتحرز، والعمل بالخوف الصادق من الله عز وجل، وبخلاف ما يريد الشيطان، وهذا ما قصده الإمام الباقر: «وتحرّز من إبليس بالخوف الصادق».

ب- خداع الإنسان بحالة من التزين المصطنع، وما ارتبط به من أمانى الذات وغرورها، وتسويفها، والرجاء الكاذب، والغفلة، وتشجيعه على الحرام حتى يصل قلبه للقساوة والتبليد الانفعالي الشديد الذي لا يحس فيه بشيء، والتواني فيما لا عذر للإنسان فيه، جاء في مقطع من الوصية الباقية: «وإيّاك والرجاء الكاذب فإنه يوقعك في الخوف الصادق» وجاء في مقطع آخر من الوصية: «وإيّاك والتسويق فإنه بحر يغرق فيه الهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون».

وعلاجه قوله (ع): «واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم» وما ورد من وصايا إرشادية لضبط سلوك العباد.

٢. هوى النفس..

أمّا الخطر الثاني الذي يعوق حركة الذات المؤمنة في الوصول إلى أهدافها، ومنها

تحقيق حالة طبيعية من الاتزان النفسي والانفعالي فهو ما تسميه الوصية بـ (هوى النفس)، وتكرر هذا المصطلح الإسلامي مراراً في نص هذه الوثيقة التربوية والإرشادية باللفظ نفسه أو بألفاظ قريبة منه، وإذا ما تتبعنا وجود هذا المصطلح في باطن التركيبة اللفظية لهذه الوصية الكريمة فسوف نجده مكرراً بمصطلحات هي (هواها، أي النفس، ومجازفة الهوى، أي مخاطره)، وأنه في مقابل ذلك جاء في جملة قصيرة من الوصية: «لا جور كموافقة الهوى».

يراد بالهوى -وجمعه أهواء- ويراد به في معناه العام مستودع غرائزي، وقوة ميل داخلي نحو الشهوات وزوائدها، بل ونحو الاستجابة لمطالب النفس والإسراف فيها دون ضوابط أحيانا، وهو ميل وعشق داخلي نحو شهوة معينة، وتكون في الخير والشر على حد سواء، وإذا ما بالغ المرء في الاستجابة لها هوى وسقط في هوة سحيقة، والمراد به في وصية إمامنا ومادتها الإرشادية أنماط من الاستجابة المنحرفة أو المبالغ بها للشهوات، وربما المحرم منها، فتميت قدرتنا في إشباعها باعتدال وبطرائق سليمة، بل وتلذذ فيها النفس بإشباع الشهوة المحرمة دونها مبالاة بشيء.

ولقد عبّر أحد مصطلحات الإمام الباقر (ع)، وإحدى جمل وصيته بقوله موجهاً كلامه لجابر بن يزيد الجعفي: «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها»، وإذا ما تمكن الحال بالفرد أن يبلغ هذه الحالة من استهانة بفعل الذنب، بل والرضا العصابي، المريض بالحالة التي كان عليها المذنب، وما يصاحبها عادة من تأزم داخلي، ووقوع أشكال من الصراعات الداخلية بين روااسب النفس، وشهواتها المحرمة مع الضمير الأخلاقي، والوجدان البشري، والعقل، وكل قوى النفس الحية، ومن ذلك نمو مشاعر الإحساس بالإثم، والعجز عن تعديل السلوك الأخلاقي، والاستسلام التام للغرائز التي تحركه كما تشاء، فيفقد الإنسان قيمته الحقيقية، ويظل نهبا لصراعات

لا تنتهي في داخله، بحيث تبقى تؤرقه في كل حين لاسيما لحظات العيش في ظروف الرذيلة والشهوة المحرمة.

ومن هنا حاولت مقاطع من الوصية معالجة هذه الحالة المرضية بما يقابلها، وبتغليب رشد العقل وتقوية قدرته ليتم تحقيق الاتزان الانفعالي، والنفسي، فقابل ذلك ألفاظ في نص وثيقة الإمام محمد بن علي الباقر (ع) ما أشارت إلى فضيلة الانتصار على «هوى النفس» مثل قول الإمام الباقر (ع) لصاحبه الجعفي: «وغلبة الهوى»، ويراد به غلبة النفس بشهواتها على عقل الإنسان وتفكيره، ومخالفة الهوى في قول الإمام الباقر (ع): «ولا عقل كمخالفة الهوى»، وقول الإمام (ع) يشير إلى قوة الإنسان في غلبة الهوى بعقله: «ولا قوة كغلبة الهوى»، وكذلك قول الوصية «ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى».

٣. قوى الظلم من حول الإنسان:

قد تكون مصادر الخطر آتية في كثير من الحالات المجهدة للفرد من داخل كيان ذاته البشرية كما في حدوث تأثيرات الهوى (شهواته)، والنزعات الشيطانية ووساوسه المؤذية، ولكن بكل تأكيد لا تقف مصادر الخطر عند هذا الحد من الرغبة في السيطرة على نفسية الإنسان، فهناك مخاطر على نفسية الفرد من تأثيرات قوى محيطة به، وكان من المنطقي أن ينبه الإمام الباقر (ع) صاحبه جابراً وكل المؤمنين إلى هذه المخاطر الواقعية وتأثيراتها، وكثير منها سلبية تحد من نمو الشخصية وتطويرها، وتعوق حركة بنائها، والارتقاء بقدراتها.

نعود إلى نص الوصية الإرشادية نستنطقها في هذا الشأن وتحديد بعض المخاطر التي تمنع النفس البشرية من تحقيق نجاح مضمون ومؤكد في حالات الاتزان النفسي لاسيما

(الانفعالي)، ففي مفردات هذه الوصية ما يمكننا أن نبسط القول بأمثلة عن تأثيرات قوى تأتي للفرد من خارج ذاته، وتؤثر على قراراتها، بل وتحول دون تحقق (اتزانها الانفعالي)، فاستدعى ذلك التنبيه والتحذير من الإمام الباقر (ع) في وصيته المباركة، حيث طالبت هذه الوصية في الأسطر الأولى منها بتجنب المشكلات التي تعوق نموها، وتمنع تحقق اعتدالها وتوازنها الانفعالي، وطالبت في الوقت نفسه باستجابات صحيحة وهادئة في مواجهة استفزازات الآخرين، وتدخلاتهم المصطنعة، وربما الخادعة لغيرهم، بقصد وبغير قصد، كما في مبالغاتهم في مدح بعض الناس.

ونأخذ من نص الوصية هذا المثال البارز، تقول وصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع):

«يا جابر اغتنم من أهل زمانك خمساً، إن حضرت لم تعرف، وإن غبت لم تفتقد، وإن شهدت لم تشاور، وإن قلت لم يقبل قولك، وإن خطبت لم تزوج، وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مدحت فلا تفرح، وإن ذممت فلا تجزع، وفكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله جلّ وعز عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك».

إذا ما أمعنا النظر في كلمات الإمام وتوجيهاته بهذا المقطع وجدنا ما يأتي:

١. تحذير من الإمام لجابر، وكل الأفراد المؤمنين من الاستجابة لمظالم الآخرين لهم باستجابات غير سوية تؤثر على اتزانهم النفسي والانفعالي.

٢. وتنبيه لجابر وللأفراد المؤمنين من استخدام أسلوب المعاملة بالمثل متى تعرضوا لاستفزازات انفعالية غير طبيعية، وحثهم على السمو في الرد، وإثبات أن استجاباتهم

بطرائق سوية عنوان على نضج أنفسهم، وقدرتهم على السيطرة على أنفسهم، والقوى الشيطانية الدافعة تجاه صنع المشاكل التي تؤرق حياتنا.

٣. تدعو الوصية الإرشادية إلى التفكير الملي فيما قيل في جابر أو فينا، وعواقب ما يترتب عادة عن ذلك من مشاكل، واستجابات حمقاء تصاحب هذه المثيرات، التي ذكرها المقطع من الوصية ونقصد تكذيبنا فغضب، ونمدح فنطير فرحاً، ونذم من الناس بحقد أو بصفاء نفوس، فنتحسس عداوتهم، وكراهيتهم، ونجزع مما قالوه فينا، ونضيق بهم وبأقوالهم، وتبدأ المشكلات النفسية والاجتماعية تتحرك في أنفسنا، وفي علاقاتنا بهم وبمحيطننا الاجتماعي ودوائره الضيقة أو الواسعة على حد سواء.

٤. تتبع ومعرفة نتائج العمل كتكذيبنا، وذنمنا، وتخويننا من خلال عمليات تأمل وتفكير، وفرز بين ما هو صحيح، وبين ما هو خاطئ من نتائج، والتأمل فعلياً في نتائج الاستجابات الانفعالية، غير الرشيدة من سقوط الإنسان بين نتيجتين قاسيتين، وهما (إمّا السقوط من عين الله عز وجل إذا كان ردُّنا لا يرضي الله سبحانه، وليس على حق، أو السقوط الآخر، وهو صعب كذلك، أي السقوط من أعين الناس، وربما يكون هذا السقوط مزدوجاً يجمع النوعين، وبذلك يخسر الفرد رضا ربه في آخرته ودنياه، ويخسر في الوقت نفسه رضا المجتمع ومودة أفرادهِ في الدنيا.

٥. وثمة نتيجة أخرى نهت الوصية إليها، وهي حصول الفرد المؤمن الضابط لانفعالاته، المتفكر فيما قيل فيه على رضا ربه تعالى، إن كان أمر المؤمن المتهم بأقوالهم الضالة، على خلاف ما قيل فيه فهو في خير كما توحى نهاية هذا المقطع، فقد أشار هذا المقطع في آخر جملة فيه إلى هذه النتيجة الحسنة، وهي مكافأة المؤمن بجزاء إلهي، وبمثوبة ربّانية عادلة، حيث قال الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام):

«وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك»، أي حصول الفرد على نتيجة إيجابية، وبدنه لم يتعب في القيام بأي نشاط وعمل من أجل تحصيلها.

وهكذا فالنوازع الشيطانية المحددة هنا في الوصية باسم (إبليس)، وهي النفس وشهواتها المنفلتة بلا ضوابط كابحة، وكذلك ممارسات الظلم البشري الاستفزازية لنفسية الإنسان الآخر هي جميعاً مصادر فعلية لنشوء استجابات انفعالية مضادة، فإبليس يحرّض - كعاداته - جموع الناس على ارتكاب المحرمات، والذنوب، والأفعال الخاطئة على أقلها، وذلك لإبعاد الناس عن القرب من ربهم عز وجل.

أمّا الهوى فنزعات داخلية تتمثل في دفع شهوات زائدة مصحوبة في غالب حالاتها بشحنات انفعالية تؤدي إلى ردود فعل انفعالية ضارة وسيئة، بينما لا يترتب عن مظالم الآخرين لنا ولل فرد - تكذيباً وتخويناً ومبالغة في الشاء والمدح، وذماً، وقدحاً في أعراض الآخرين - سوى استجابات عصبائية، وردود فعل خاطئة تؤثر على درجات اتزانهم الانفعالي، وعلى علاقات سلبية نهانا الإمام الباقر (ع) عنها.

٤. الضغوط التي تواجه الأفراد في عمليات تحقيق الاتزان الانفعالي:

تتقابل الحياة لدى الإنسان منذ بدء الخليقة على مواجهة (الفرص والتحديات)، وكلاهما يترك تأثيراته على السيكولوجية العامة والخاصة للأفراد، فالضغوط النفسية تحفز بصمات متفاوتة الشدة في نفسية الأفراد وفي حياتهم الاجتماعية، وتمثل الضغوط وتحديات الحياة أحد عوامل التوتر النفسي، وتضع أمام طريقتهم جملة من الصعوبات،

تؤثر عليهم في تحقيق حالات الاتزان النفسي والانفعالي، ويقتضي قبل الدخول في هذه الإشارات تحديد معنى الضغط النفسي لغة واصطلاحاً، ومن بعض مصادر علم النفس وأدبياته المعاصرة.

المفهوم اللغوي للضغط.

لغة: ضغط ضغطاً، وضغطه: «عَصَرَهُ، وزحمه وضيق عليه الضُّغْطَة (بضم الضاد)، الزحمة والضيق والشدة والمشقة، الضُّغْطَة (بفتح الضاد)، القهر والضيق والاضطرار، ومنه ضغطة القبر، أي تضيقه على الميت»^(١).

واصطلاحاً يُعرَّف: (الضغط) كمصطلح سيكولوجي على: «أنه صراع أو حالة من التوتر النفسي الشديد، وتعرف الضغوط النفسية على أنها عوامل خارجية ضاغطة على الفرد، سواء بكليته أم بجزء منه، وبدرجة تُوجد لديه إحساساً بالتوتر، أو تشويهاً في تكامل شخصيته، وحينما تزداد حدة هذه الضغوط، فإن ذلك قد يفقد الفرد قدرته على التوازن، ويُغيّر نمط سلوكه عمّا هو عليه إلى نمط جديد»^(٢) قد يكون في الغالب سيئاً بدرجة أكثر شدة وصعوبة.

ولهذا يقال في بعض الأمثال الشعبية الدارجة أن (الضغط يُؤلّد الانفجار)، ولعل قائله يقصدون نتائج السيئة، وإن هذا الضغط قد يصنع تغييراً غير موجه، وبردود فعل سلبية، وإن كان في بعض الأحوال يأتي (الضغط) بنتائج إيجابية عندما يصنع في داخل النفس ثورة وتمرداً ضد الظلم وأشكاله وأعوانه، وحينئذ يحقق الفرد في داخله حالة من التوازن بين الفرص والتحديات.

(١) حسن شحاتة، وزينب النجار، معجم المصطلحات التربوية والنفسية، باب حرف الضاد، ص

٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) حسن شحاتة، وزينب النجار، مصدر سابق، باب حرف الضاد، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

كما توجد في حياة الإنسان فرص متجددة في الغالب، وما يرتبط بذلك من توافر بعض الإمكانيات تعينه على مواجهة صعاب الحياة، فهناك كذلك تحديات ومواجهات وشدائد وضغوطات عليه، وعادة إما أن تؤدي هذه الضغوطات إلى نتائج طيبة تمكنه من الصمود أمام الشدائد والثبات أمامها، وتتيح له فرصة طيبة للتمكن في حياته، أو أنها تشكل له كتلة من الهموم، والغم، وأعباء ثقيلة، وحالات من التوتر النفسي المستمرة.

ويحدد حجازي مفهوم الضغوط بشرح مبسط وسهل يقوم على عرض أمثلة إيضاحية، فيقول: «يشيع في العربية استخدام كلمة (ضغط)، وضغوط للدلالة على المصطلح (Stress) المأخوذ من علم الفيزياء في الأساس، حيث يعني ممارسة قوة ضغط أو شد على جسم ما، وقياس تأثير هذه القوة على حالته وما طرأ عليها من تحول، أقرب تصور لذلك هو ممارسة شد على حبل إلى أقصى طاقة احتماله، بحيث ينقطع بعدها، وقياس مدى احتماله، ومنها على الصعيد الجسمي (Stress) الشائع طبياً لفحص مدى قدرة القلب على المقاومة، وبالتالي قياس حالته الصحية.

وتتكرر في العامة مقولة (أعصابي مشدودة) للدلالة على توتر الحالة الجسمية بسبب الأعباء أو التحديات وما تشكله من إجهاد، وهناك في العربية كلمة (شدة)، هي الأقرب للتعبير عن المصطلح الأجنبي، وجمعها شدائد، والتي تعني تحديات وضغوطاً تضع الإنسان في حالة أزمة، وتحمل معنى التعرض للخطر، قد تكون كلمة شدة، وشدائد أكثر تعبيراً عن هذه الحالة من كلمة ضغط وضغوط»^(١).

ثم عرض ثلاث جهات نظر حول الضغوط ودخل في بعض تفاصيلها، وهي:

١. الضغوط كاستجابة للتهديد.

(١) حجازي، مصطفى، الأسرة وصحتها النفسية، ص ١٧٠ - ١٧١

٢. الضغوط كتهديد بحد ذاتها.

٣. الضغوط بمثابة أمور داخلية متعلقة بالفرد ذاته^(١).

ومن ذلك على سبيل المثال (الذنوب والاحباطات المتراكمة، والصراعات النفسية ومشكلات السلوك وحالاته المرضية) وغيرها.

الضغوط والتحديات في نص وصية الإمام الباقر (ع)

وقد ورد في نص وصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع) إشارات واضحة، ومباشرة لمجموعة من الهموم والضغوط والتحديات والشدائد التي كانت تواجه الأفراد المؤمنين في حياتهم اليومية، وما تزال حتى حاضراً تمثل تحديات وضغوطات داخلية في سياق وجهات النظر الثلاث، ويمكننا الآن تحديد بعضها من سياق التركيبة اللفظية للنص ومحتواه المعرفي، وكما فهمناه اجتهاداً، وفقاً لخبرتنا العلمية المتواضعة في هذا المجال.

إنَّ الناس -فرداً وجماعات وفي أعمار مختلفة من حياتهم- يواجهون صعوبات وضغوط وتحديات في تنفيذ آداب العمل الإرشادي وتوصياته، وغرضهم بناء (النموذج العبادي) للشخصية الإيمانية، ونعتقد أن المحتوى المعرفي لنص وصية الإمام الباقر (ع) ذكر بأساليب مباشرة وإيحاءات وإيجاعات بعض هذه التحديات والضغوط وشدائد الحياة في تجربتهم الجهادية للذات، ويمكننا تقسيمها، وإيجاز على النحو التالي:

أ- تحديات وضغوطات متعلقة بالفرد ومن داخله ومنها على سبيل المثال كما جاء في الوصية ما يأتي:

- تحديات التجربة الجهادية للمؤمن مع نفسه، ومنها حالات الصراع مع شهوات النفس، والتوبة وتعثر المحاولات التغييرية، وسقطات السلوك، وعثراته،

(١) حجازي، مصدر سابق، ص ١٧١ - ١٧٦.

والمخاوف المرضية، وقساوة القلب، وفقر القلب من الحس الإنساني.

• تحديات الشر، ونزغات إبليس ووساوسه المَرَضِيَّة، وتقصير ذات الفرد كغفلته عن نفسه، وغفلته عن تأثيرات الدنس، والرّين الخفي، ومخاطر الهوى، والرجاء الكاذب، وغير ذلك.

• تحديات هوى النفس وزوائد شهواتها المحرّمة، وضعف قدرة الفرد المؤمن لتخليص نفسه من شوائب الدنيا.

• تحديات وضغوطات من داخل النفس، ومن رذائلها المَرِيضَة كالحرص، وذل الطمع وأسبابه، وإعجاب المرء بنفسه، والكذب، والغرور، وطول الأمل، وشدة إلحاح عادات السلوك الشرير على النفس، بنحو يماثل شدة إلحاح الحاجة للغذاء لدى الفرد.

• تحديات الذنوب والمعاصي وما ارتبط بها من رواسب النفس، والاستخفاف بالذنوب، والتسويق، واختلاق الأعذار لتبرير استمرار المعاصي، والتواني فيما لا عذر للفرد فيه، ورضاه بالحالة التي يكون عليها الفرد من معاصٍ وذنوب.

ب- تحديات وضغوطات متعلقة بالفرد مصدرها خارج كيانه.

ومنها على سبيل المثال كما جاء في الوصية ما يأتي:

• تحديات الناس للشخص المؤمن بمظالمهم كتخوينه، وظلمه وتكذيبه وذمه والقدح في عرضه وكرامته، وفقدان قدرة الفرد على الاتزان الانفعالي، وفي مقابل ذلك تمكنه من السيطرة على سلوكه الانفعالي.

• ما يترتب عن الفشل في تقدير ما قيل فيه، وما ارتبط بأقوالهم من احباطات

ثقيلة كالسقوط من عين الله، ومن أعين الناس.

- اتهام الآخرين للشخص بأنه رجل سوء.
- فشل نتائج عرض نفسه على كتاب الله، ومباينته له، وما يصحب ذلك من الإحباط والشعور بالخطر.

موقف كف السلوك العدواني وتحويل التحديات لفرص إيجابية:

هل يمكن تحويل هذه التحديات إلى فرص نجاح للشخص المؤمن؟

نعم، وبعد نجاح الفرد المؤمن في تحقيق توازن داخلي بين العدوان عليه، والرد باستجابات إيجابية يكون أمام الإنسان المؤمن فرصة لتعديل حال ذاته، وتحويل بعض التحديات التي تواجهه إلى فرص وامكانيات أفضل، ولنأخذ نموذجاً (موقف كف السلوك العدواني وتحويل التحديات لفرص إيجابية)، والفرص المتوقعة هي كما يأتي:

١. الفرصة أولى: تحقيق رضا الله، ونيل أجره ومثوبته.

٢. والفرصة الثانية: حصوله على تقدير اجتماعي طيب من الناس، وربما يكون من ذوي السلوك العدواني أنفسهم.

٣. وثالثة الفرص هي اكتساب الشخص المؤمن مهارات وجدانية مهمّة ك(مهارات الصبر والثبات العاطفي، وقدرة الفرد على تحمل الشدائد، ومعاملة الغير بأخلاقيات أسمى من أخلاقيات المعتدين عليه، ومعاملتهم بسماة وسلوكيات مما يسميه البعض بسماة الذكاء العاطفي، والشعور بالرضا الذاتي).

تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي في نص الوصية الإرشادية:

حظيت مسألة (تحقيق الاتزان الانفعالي) بقدر كبير من العناية في نص وصية الإمام لجابر ومفرداتها اللغوية، وتبدو أهمية الاتزان الانفعالي في دعوة نص الوصية المباركة وتأكيد قيمها الأخلاقية على ضرورة تجنب كل ما يثير المشكلات أمام الفرد بسبب ما يحدث له من انفعالات متفاوتة الشدة والقوة في حركة حياته، ويستفاد ذلك من عبارات واضحة المعنى في نص الوصية الإرشادية، ويتجلى على سبيل التمثيل لا الحصر في وصايا أخلاقية وسيكولوجية مهمة وردت في نص هذه الوصية.

ف عبارات وردت في مدخل وصيته (عليه السلام) تدعو جابراً إلى تحقيق سيطرة تامة أو جزئية من قبله على انفعالاته كي يتجنب متاعب تؤثر على كيانه الأدمي وتوافقاته النفسية والاجتماعية في حركة الحياة، وهذا ما أُطْلِقَ عليه في أدبيات علم النفس المعاصر بـ«الاتزان الانفعالي» كأحد مظاهر التوافق، والاتزان النفسي والاجتماعي، وهذا - كما سيتبين - من أهم أهداف الإمام الباقر - كمرشد ومرّبٍ - في تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي للشخصية العبادية.

ونعني بـ (الاتزان الانفعالي) قدرة الأفراد على السيطرة الذاتية على أنفسهم في مواقف انفعالية، وتجنب مشكلاتها، ومتاعبها، ويعادل هذا التوصيف في معناه ما يُعرف في الثقافة الأخلاقية الإسلامية ومفاهيمها بـ (الصَّبْر)، وهو كما يدرك القارئ الكريم من كبرى القيم والفضائل والمفاهيم الأخلاقية التي ارتكزت على بنائها التربوي والإرشادي هذه الوصية بمفاهيمها وقيمها، وكان غرض الصبر - كقيمة أخلاقية - والاتزان الانفعالي - كمفهوم سيكولوجي - أن يمنع الفرد المؤمن نفسه من مواجهة مشاكل مجهدة ناجمة عن انفعالاته، ومن تكيف سلبي، وغير توافقي معها.

فالوصية الباقية الكريمة التي ندرس قيمتها في تحقيق الاتزان الانفعالي بإرشاداتها

القيمة والأخلاقية أرادت تحقيق تأصيل ذلك بمنظور عبادي أولاً، و تعديل سلوك الأفراد بما يتفق ومحدداته الإيمانية ثانياً، فالوصية في مقاطع متعددة من خطاب الإمام الباقر عليه السلام أرادت من الفرد ممثلة في شخص جابر أن يهتم بضبط نفسه انفعالياً في مواقف تم تخصيصها بكلام مباشر، وأن يخفف عن نفسه آلام ما ينجم عنها من مشكلات سيكولوجية، وأن يهيئ نفسه كي تدخل في قلبه السكينة والأمن والطمأنينة.

ولهذا دعا الإمام الباقر عليه السلام في وصيته المذكورة جابراً إلى تحمل المكاره وشدائد الحياة وصعوباتها بالقبول والصبر، وبضبط النفس في مواقف انفعالية، ومعالجة مشاكل الحياة بالصبر والحكمة والتروي، ورشد السلوك، كما دعاه عليه السلام إلى عدم الإضرار بنفسه في هذه المواقف، فلا يغضب حينما يتم تكذيبه من الناس أو أحدهم، ولا يتحسس بمبالغتهم في ذمهم شخصه، فيدخل في مشاكل معهم، ولا يغره مدحهم إياه ويأنس به فيداخله الغرور، ويرضى عن نفسه، ولا ينبغي لجابر، وأي إنسان يسمع بهذه الوصية أن يتفاعل مع أي موقف أو أي انفعال غير توافقي، وكان التوجيه في المقطع المذكور صريحاً لجابر بن يزيد الجعفي بأن لا يغضب إذا ما كذبه أحد الناس، وطالبه بالثبات النفسي في مواقف وحالات انفعالية كأن يذمه بعض الناس أو يغتر بمدحهم شخصه فينسى عيوبه، ويخدع من حيث لا يدري، فالملقطع الوارد في مدخل وصية الإمام الباقر استهدف الوصول إلى حالة طبيعية، بل عالية من الاتزان الانفعالي، والثبات النفسي في الشدائد، وفي غيرها.

قال عليه السلام: «وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تحن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مدحت فلا تفرح، وإن ذمت فلا تجزع، وفكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله جلّ وعز عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما

قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك».

ويلحظ من ذلك فشل المرء في تحقيق الرضا الإلهي عن الذات، وعبر عن ذلك بالسقوط من عين الله عز وجل، وفشلها كذلك في بلوغ حالة معقولة من الرضا والتوافق النفسي والاجتماعي مع الناس، وعبرت عن هذه الحالة عبارته «سقوطك من أعين الناس».

إنَّ غرض الإمام الباقر (ع) في وصيته الإرشادية بمدخلها هو توجيه شخصية جابر، وكل فرد وصله هذا البلاغ التربوي والإرشادي بالثبات النفسي والاتزان الانفعالي، وتحمل - بدرجة معقولة - مكاره الناس ومتاعبهم بالقبول والحكمة ورشد القرار، ومنع نفاذ آثار مشاكل الحياة إلى داخله بالتبرم والضجر والضيق، فتستثير نفسه - فيما بعد - آلاماً نفسية أخرى كالوقوع مثلاً في حالات من الصراع النفسي، والعجز عن مواجهة الرواسب النفسية القابعة في داخل النفس، والضعف عن التخلص من تأثيرات الماضي، وما يترتب عنه من إحباط نفسي، ثم الوقوع في براثن المرض النفسي.

وقدمت هذه الوصية، كما في سياقها اللفظي والمعرفي، بعض المفاهيم والقيم الأخلاقية التي توزعت في نصها الإرشادي، وابتغت مساعدة الأفراد على تحقيق الاتزان الانفعالي، فصدحت هذه الوصية بعبارات اللفظية الدقيقة والرفيعة أدبياً بقيم الزهد في الحياة، والقناعة برزق الله حتى لو بدا في أعين الناس قليلاً، والصبر، وشكر نعم الله عز وجل، والتحرز من الرجاء الكاذب حتى لا يقع في الخوف الصادق خداعاً، وفي المقابل دعت إلى مواجهة عملية لقيم سلبية كالتسويق والغفلة، وغير ذلك باسترجاع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وكثرة الذكر في الخلوات الخاصة، وكل ذلك لتخليص النفس من شحناتها الانفعالية الضارة، ولدفع الذات عن الوقوع المرضي غير السوي فيما أسمته وثيقة الإمام الباقر (ع) الإرشادية بـ «ذل الطمع»، ومعالجته كما

أوصى ﷺ بـ «عز اليأس»، وبمفاهيم قيمة وأخلاقية أخرى استهدفت تحقيق الاتزان الانفعالي للفرد المؤمن، كاستجلاب زيادة نعم الله بعظيم الشكر، واستقلال رزق الله بكثير من الطاعة لله سبحانه، وإزراء النفس بتعريضها للعفو والرحمة، واستجلاب شدة التيقظ بصدق الخوف.

وفي متن الوصية المباركة وتركيباتها اللفظية والمعرفية دعوة صريحة من الإمام الباقر ﷺ لجابر الجعفي لـ (مجاهدة الهوى) ومغالبة شهواتها ورواسب ماضيها حتى يقيم جابر، وكل فرد مؤمن.. رجلاً وامرأة (أودها أو اعوجاجها)، وذلك بمخالفتها، ومقاومة نزعات الهوى في محبة الله سبحانه، فتصرعه نفسه مرة، ويصرعها مرة أخرى حتى يتمكن (المؤمن) في نهاية تجربته الجهادية من قهر النفس والسيطرة على شهواتها فينتعش، ويقلل الله عثرته، ويزداد بصيرة ومعرفة وثباتاً على الحق، وهذا المعنى هو الجانب التطبيقي لوصية الإمام الارشادية وتناجها السوية في هذا المجال، وما يصحب ذلك من تلذذ الانتصار، وبلوغ (الاتزان النفسي والانفعالي).

قال الإمام الباقر ﷺ في هذا الصدد:

«إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعهه الله فينتعش ويقلل الله عثرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢)».

(١) الأود: محرّكة (العوج)، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار،

ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

ثم يتدرج الفرد المؤمن بعد بلوغ المرحلة الأولى من الاتزان الانفعالي والتوافق النفسي في تحقيق درجات من السمو الروحي، ومن حالات الرضا الداخلي بسلسلة من الفضائل وآداب السلوك، والقيم الأخلاقية التي أرشدت إليها الوصية الباقية في برنامجها العبادي الرشيد في الجزأين الثاني والثالث من هذه الوصية الشريفة من قول الإمام الباقر، حيث قال (ع) لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي في مقطع من وصيته المذكورة:

«يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة.

واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجماع القلب، وتخلص على إجماع القلب بقلّة الخطأ، وتعرّض لركة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزيّن الله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتحبّب إليه بتعجيل الانتقال، وإيّاك والتسويق فإنّه بحر يغرق فيه الهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم.

وتخلّص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، والتوسل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العز بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس ببعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحّة الأبدان، وإيّاك والثقة بغير المأمون، فإنّ للشر ضراوة كضراوة الغذاء.

وأعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز، ولا رجاء كرجاء مُعين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغارك الدنيا، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ولا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا شرف كبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالمنافسة في الدرجات، ولا عدل كالإنصاف، ولا تعدي كالجور، ولا جور كموافقة الهوى، ولا طاعة كأداء الفرائض، ولا خوف كالحزن، ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين كفقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد الخوف، ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد مجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذل كذل الطمع، وإيّاك والتفريط عن إمكان الفرصة، فإنّه ميدان يجري لأهله الخسران».

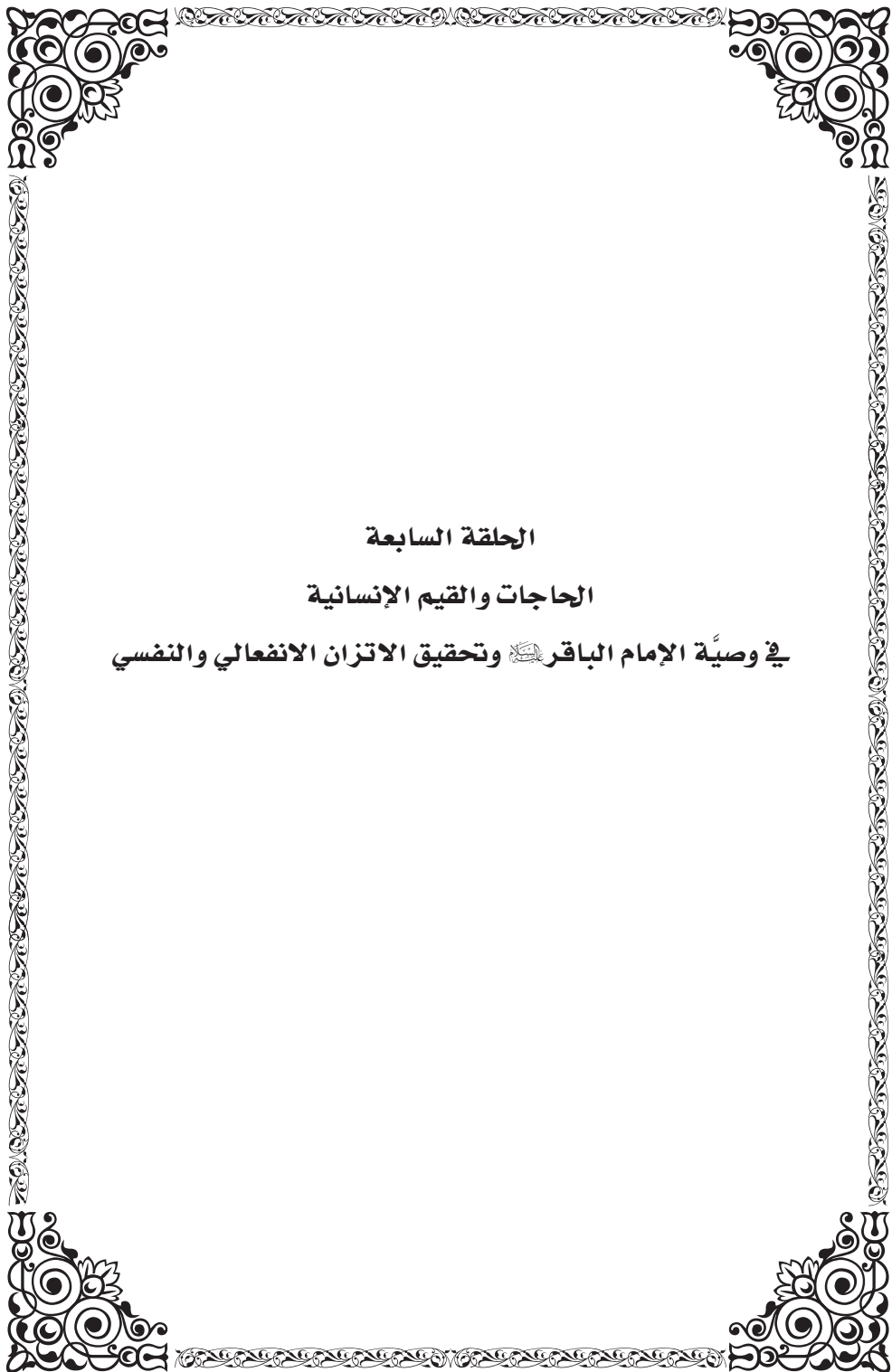
فكل مقطع من وصيته ﷺ، وكل جملة منها يتطلب من المؤمن تأملاً ذهنياً دقيقاً لادراك القصد في معانيها المعرفية والأخلاقية والروحية، ثم يدرك بعد ذلك العلاقة بين مضامينها الإرشادية والحالة النفسية التي تحقق للشخصية المؤمنة حالة مقبولة من (الاتزان الانفعالي والنفسي)، وما يتصل بها من حصول الفرد المؤمن على قدر معقول من «الصحة النفسية» بمقدار ما تبذله الذات المؤمنة من جهود إيمانية تلتزم فيه بوصايا أبي جعفر الإمام

محمد بن علي الباقر (ع) في بناء الشخصية العبادية، وصياغة مركاتها الإيمانية.

وهكذا يكون (الاتزان الانفعالي) في المحصلة النهائية العامة نتاجاً وثمره تفاعل (الفرد المؤمن) مع سلسلة المفاهيم المعرفية والأخلاقية التي تضمنتها وصية الإمام الباقر (ع) - كوثيقة إرشادية ربّانية ومحكمة - وكان غرضها تحقيق (الأمن النفسي للذات والشخصية الإيمانية) لا في عالمها الدنيوي فحسب، بل في عالمها الآخروي الأكثر أهمية واعتباراً ووزناً، وهو ما أسماه الإمام الباقر عليه وعلى آبائه وأبنائه السلام بـ «خالص الأعمال يوم الجزاء»، وذلك في مقطع من قوله الدقيق: «واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء»، يوم الفزع الأكبر الذي لا ينفع فيه شيء آخر غير العمل الخالص لله سبحانه ورضاه تعالى.

وما عرضناه من علاقة بين مفاهيم هذه الوصية الكريمة، وتحقيق حالات طيبة من الاتزان الانفعالي، والنفسي مجرد نماذج محدودة، قد اخترناها للتوضيح ولفت الانتباه إلى ثروتها النفسية والأخلاقية في عمليات البناء التربوي للشخصية المؤمنة، فالوصية الباقرية بأكملها تستبطن محطّات وجوانب رائعة ومثيرة من هذه العلاقة، وتحتاج إلى بعض الشروحات المطوّلة، ولكن اقتضت جوانب أخرى من دراستنا عن إمامنا الباقر (ع) الاكتفاء بنماذج من بنود هذه الوصية في بيان العلاقة بين إرشاداتها القيمية والأخلاقية والمعرفية، وبين تحقيق وضع من الاتزان النفسي والانفعالي.

ونأمل أن نجد فسحة لمتابعة تحليل مفردات هذه الوصية الكريمة واستجلاء معانيها السيكلوجية والأخلاقية، والتعرف - بنظرة اجتهادية - على هذه المعاني المختزنة في التركيبة اللفظية لهذه الوصية الأخلاقية الكريمة.



الحلقة السابعة

الحاجات والقيم الإنسانية

في وصية الإمام الباقر عليه السلام وتحقيق الاتزان الانفعالي والنفسي

مقدمة

العلاقة وثيقة بين (الحاجات الإنسانيّة)، القيم الإنسانيّة، وهي في مجملها العام قيم إيجابية تضم قيماً أخلاقية ودينية وإرشادية، ويقابلها في المحتوى اللفظي والمعرفي بالنص مفردات تشير لقيم أخرى سلبية، فالكائن الآدمي يسعى بفطرته، وبتركيبته الداخلية إلى إشباع مختلف الحاجات التي يستشعر الرغبة في إشباعها، ولدفع الخطر ودرء الألم عن نفسه، وما يتهدد به من نقص في الإشباع يقوم الإنسان بالبحث عن صيغ من الإشباع، وبما يتلاءم مع ظروف التفتيش عنه وتوفيره، إلّا أنّ مسارات عملية الإشباع وطبيعتها لا تبقى معزولة عن تأثير عوامل ضبطها لضمان الوصول لإشباع سوي ومشروع، وذي منافع على الكائن الآدمي، وبفوائد على المجتمع الذي يعيش الفرد حياته فيه، وتأثيرها على أجواء العلاقات مع أفرادها.

وبالتأكيد تتعدد عوامل وقوى ضبط عملية الإشباع لحاجات الإنسان (الكائن الآدمي)، ويمكن للمرء بتربية ذاتية أو الاستعانة بمرشد ومرّب آخر، أن يسخر قوى الضبط (الذاتية أو الموضوعية) في تحقيق صيغ وصور من الإشباع المعقول للحاجات، وما يرتبط من الوصول إلى ما تسميه الوصية بـ (سلامة القلب)، وحالات الاتزان النفسي، والشعور بالسعادة، والارتياح النفسي، والرضا عن الذات، ورضا الله عن ذاته.

ومما لا شك فيه أن بعض قوى ضبط (الإشباع) وعوامل توجيهه قد صرّح بها نص الوصية الإرشادية وبوضوح تام، بينما استبطنت عبارات هذا النص وجمله بعضها الآخر، وتتآزر هذه القوى الصريحة والضمنية في تحقيق مستويات معقولة، ومقبولة من الإشباع

للحاجات النفسية، وما قد ينشأ عنه من الاتزان النفسي، ومن بروز مظاهر ومؤشرات الصحة النفسية أو ما تطلق عليه الوصية مصطلح (سلامة القلب) وانعكاسات ذلك إيجابياً على الشخصية العبادية وأدوارها في الدنيا، وضمان أمنها بعالمها الآخر، وهكذا وضعنا عنوان هذا الفصل لإبراز حالة العلاقات بين (الحاجات النفسية) كمتغير تابع، وتأثير القيم بمضامينها الدينية والأخلاقية والإرشادية كمتغير مستقل.

وتتضمن دراسة العلاقة بين الحاجات والقيم مرورنا العام، وبصورة مبسطة، ومجملّة على الحاجات الإنسانية التي ورد لها ذكر مباشر باسمها المعروف، أو بمصطلح مألوف (كالزواج)، وهو تعبير إنساني معبر عن حاجة بيولوجية - اجتماعية، وتظهر فيها تعبيرات عن صور من الإشباع لحاجات نفسية واجتماعية أخرى، ولا يتوقع بالطبع صياغة نظرة تفصيلية وموسعة، وتفتقر لمعالجة تكاملية ومتراطة، لهذا سنكتفي بما تيسر لنا فهمه من مفردات لفظية بنص الوصية تشير إلى هذه الحاجة أو إلى حاجة أخرى من الحاجات الشائعة في الدراسات السيكلوجية المعاصرة.

ثم بحث قسم آخر من هذا الفصل القيم الإنسانية وتأثيراتها الإرشادية بحسب فهمنا للمحتوى اللفظي والمعرفي في وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي، وباجتماع الكتابة عنهما في هذا الفصل يتبين لنا صورة عامة عن العلاقة بين الحاجات والقيم الإرشادية كما فهمناها في هذه الوصية الكريمة، ويتكون من قسمين:

القسم الأول: دراسة مجملّة (للحاجات الإنسانية).

والقسم الثاني: (دراسة القيم وتأثيراتها التربوية - الإرشادية).

أولاً: الحاجات الإنسانية :

وتشتمل على موضوعات فرعية متداخلة ومتصلة مع بعضها، كمفهوم الحاجة، وأهدافها في نص وصية الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام)، وأنواعها، وخصائصها، ودورها في تحقيق الاتزان الانفعالي والنفسي للشخصية المؤمنة العبادية.

١. مفهوم الحاجة:

يتداول علماء النفس هذا المصطلح في كتبهم، ومصادرههم وأدبياتهم، ويعني «شعور الكائن من حيوان أو إنسان بنقص مُعَيَّن لديه، فيشعر بالحاجة إلى إشباعه وتحقيق التوازن الجسدي أو النفسي، واستعادة المفقود أو تعويضه، ويرد في بعض أقوالهم أن الحاجة بمختلف أشكالها هي «إحساس الكائن، بخاصة الأدمي بفقدان التوازن الداخلي لديه نتيجة شعوره بفقدان شيء مُعَيَّن مثل إحساسه بالجوع، العطش، النوم، الراحة الجسدية، أو الحب، والرغبة في التقدير، الانجاز، الاجتماع الإنساني، الأفعال الروحانية، فيؤدي ذلك الشعور إلى إثارة دافعية الكائن، وتحفيزه إلى سلوك مُعَيَّن يؤدي إلى الإشباع» وهكذا فالحاجة كمصطلح سيكولوجي مرتبط بالدوافع والانفعالات والحياة الشعورية، ومتى استطاعت الحاجة إثارة الدافع، تبعه صدور استجابة سلوكية كالبحث عن الطعام، الماء، يكون قد تحقق الإشباع فالرضا والارتياح للكائن الحي أو الأدمي.

٢. مفهوم عملية إشباع الحاجات:

عرّفنا مفهوم الإشباع في دراسة تربوية كتبناها سابقاً بأنه:

عملية «إعطاء الفرد كمية مناسبة من المعزز لسد النقص لديه، فإذا أحس بنقص في الماء أو الطعام أو الحب فإن الفرد لا يحصل على إشباع مناسب إلا بإعطائه كمية معقولة من المعزز، أي كمية مما يحتاجه أو قدر حاجته من الطعام أو الشراب أو الحنان المفقود

-أي تعويض المفقود- وبالتالي تتحقق له -للفرد أو الكائن الآدمي- حالة من الرضا والارتياح والشعور باللذة^(١).

٣. أهداف عملية إشباع الحاجات.

الحاجات الإنسانية، هي موصولة بالدوافع والانفعالات وجوانب الحياة الشعورية متنوعة، ومتعددة في أهدافها، ويمكن تحديدها في أهداف خاصة بحياة الفرد نفسه، ويقتصر بعضها على حدود عالمه الدنيوي، وما يتصل بالنوع الإنساني وحفظ الذات البشرية، ويتعدها بعضها الآخر ليكون مختصاً بالأمور العبادية تتصل بأمن الذات على مصيرها في عالم الآخرة ونوجزها بما يأتي:

أ - بقاء النوع البشري كما في حاجة بني آدم وغيره للجنس والأومة.

ب - بقاء وحفظ الذات كسائر الحاجات النفسية والاجتماعية.


ج - بناء نمط عبادي للشخصية.

د - تحقيق تكيف نفسي واجتماعي يرضي الفرد عن ذاته.

هـ - طلب تحقيق رغبة الفرد في رضا الله سبحانه عن ذاته.

وفي تعقيبه روحية بعد أداء صلاة الظهر، ودعاء قصير قد احتوى على سلسلة مطالب للعبء الضعيف من خالقه الكامل المعطي، جاء في مقطع متأخر من هذا الدعاء: «ولا حاجة لك فيها رضا، ولي فيها صلاح، إلا قضيتها يا أرحم الراحمين، آمين رب العالمين».

٤. الحاجات الإنسانية في نص الوصية الباقرية.

وهي - كما تأملنا - في نص وصية الإمام الباقر  تنقسم لتقسيمات عديدة بحسب

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ١١٩.

معايير التقسيم، لكننا عملنا بالتقسيم المألوف والغالب في الدراسات السيكلوجية، وهي (الحاجات الفسيولوجية، والحاجات النفسية والاجتماعية).

أولاً: الحاجات الفسيولوجية الملحة:

ولهذا النوع من الحاجات في أدبيات علماء النفس ومصادرهم وكتبهم ودراساتهم مسميات شائعة مثل وصفهم له بـ (الحاجات الفطرية، الحاجات الأولية، الحاجات الفسيولوجية، الحاجات البدنية، وأخيراً عرفت لديهم في بعض المصادر بالحاجات الحرمانية)، وتأتي في المرتبة الأولى من حيث أهميتها في إشباع الحاجات بالنسبة للكائن الحي، والآدمي على حد سواء، وتمتاز بشدة الضغط، والإلحاح القوي اليومي على الفرد الآدمي، والكائن الحي، وقد انعقد إجماع عدد كبير من علماء النفس المحدثين والمعاصرين على الإقرار بهذه الأهمية البيولوجية والفلسفية في حياة الكائن الحي.

ولم نجد في نص الوصية الكريمة كلاماً مفصلاً، وموسَّعاً، بل اكتفت بعض جملها وعباراتها بالإشارة المجملة لعدد محدود من الحاجات الفسيولوجية الأساسية الظاهرة في حياتنا الآدمية، وسنمر عليها بترتيبها الجاري في نص الوصية، ولا يدل ذلك على ترتيب أهميتها البيولوجية، وإننا قرأنا النص فجاءت الإشارات لها متتابعة كما يأتي:

- الحاجة إلى الجنس.
- الحاجة إلى الأمومة والبنوة، وما يتصل بها من حاجات نفسية.
- الحاجة إلى الغذاء.
- الحاجة إلى راحة الجسد (جسم الآدمي).
- الحاجة إلى صحة الأبدان.

أ - حاجة الكائن الآدمي للجنس.

عندما ذكر الإمام الباقر عليه السلام في قوله لجابر الجعفي جملة: «إِنْ حَظَبْتَ لَمْ تُزَوِّجْ» فهمنا أنها تعني في طياتها أموراً تتصل بالحياة الزوجية للناس بوجه عام، وفي صدارة هذه الأمور (زواج المؤمن من امرأة أو اقترانها برجل) في علاقات شرعية تكون أسرة وعائلة، وتتضمن هذه العملية سعيًا منهما - من الجنسين - لإشباع حاجتهما، ومن اشباعات متصلة بالعلاقات الزوجية كإشباع حاجة الرجل إلى «البُنُوَّة»، وإشباع حاجة المرأة إلى الأمومة، ثم ما يترتب عنهما من رغبة في إشباع حاجات نفسية واجتماعية بُنِيَتْ على الحياة الزوجية وعلاقاتها.

وبالإشارة إلى الزواج يعني قد تمت الإشارة إلى عدد من الحاجات المرتبطة بيولوجياً ونفسياً، وبخاصة الحاجتين البيولوجيتين الأساسيتين وهما:

١. إشباع حاجة الكائن الآدمي للجنس، واتصال الرجل والمرأة بعلاقات جنسية مشروعة بمعايير المشرع الإسلامي، وضوابط المجتمع وأنظمته القانونية والاجتماعية، وتحقيق هذا الإشباع يتم تحقيق التوازن النفسي في حياة الزوجين، وشعورهما بالرضا والارتياح النفسي.

٢. وإشباع في الوقت نفسه حاجة حيوية مزدوجة هما (البُنُوَّة والأمومة) للزوجين، فالإشباع هنا هو الآخر مزدوج، فالرجل يشعر فيه بإشباع رغبته القويّة في البُنُوَّة، وطلب الولد من الجنسين (ذكور وإناث)، وأنه يحفظ بهذا التناسل نسبه ووجوده وامتداده الاجتماعي والعرقى، أمّا الأكثر وضوحاً وبروزاً فيتمثل في (سلوك الأمومة) التي تجد فيه المرأة حاجتها المنطقية من الإشباع الفطري، والفاعل بقوة في داخل تركيبها الآدمية البيولوجية، فيترتب عليه فيض متدفق في عواطفها، وهي تمارس

دورها الوظيفي في الأمومة، وهكذا.. فالإشارة الأولى إلى الزواج، وما ارتبط بذلك من إشباع بعض الدوافع الفطرية الأصيلة في آدميتنا كحاجة الإنسان إلى دوافع الجنس والأمومة، وممارسة وظائف فسلجية وبيولوجية حيوية كالإرضاع وغيرها مما يتصل بالبدن ووظائف البدن وأعضاء الجسم هو مَبْنِي على حاجة فطرية وأولية ذات طابع اجتماعي، وخصائص سيكولوجية.

ب- الحاجات البدنية.

وتتمثل في إشارة الوصية المباركة لعدد من الحاجات التي تتصل ببدن الفرد والآدمي، ففي منتصف الجزء الثالث من نصها قال الإمام الباقر (عليه السلام): «واطلب راحة البدن باجمام القلب، وتخلص إلى اجمام القلب بقلّة الخطأ».

وتفيد العبارة السابقة بأن (راحة البدن) هدف دينوي قريب، ويتحقق بترك الجسم في راحة الحصول على لذة (الراحة)، ويتطلب فهم هذه الجملة إثارة سؤالين قصيرين متداخلين:

« كيف تتحقق راحة البدن؟ ».

وما علاقة حالة (إجمام القلب) بتحقيق راحة البدن؟

ونعتقد بأن هذه الراحة المأمولة في نص الوصية للبدن لا تتحقق، وهذا البدن تحت قبضة أمراض عضال تؤثر على سلامته، وتترك بصماتها في نفسه، وهذا الجسم لا يشعر بسلامة وظائفه الفسلجية وعمله بانسجام وسعادة وارتياح نفسي، ونرى كذلك أن توفير راحة للبدن مربوط بتحقيق حالات من الإشباع السوي لبعض الحاجات البدنية المتفاعلة مع حاجات نفسية في تكوين الإنسان، ونذكر - على سبيل المثال - بعضاً منها:

١. الحاجة إلى الدعة وراحة الجسم بالنوم:

فهذه الحاجة للنوم فعل طبيعي وضروري لراحة البدن والنفس واستقرارهما، فعن طريق النوم يتم إشباع حاجات بدنية ضرورية كسلامة البدن، ويأخذ قسطاً مناسباً من الراحة مفيدة في توفير راحة للبدن والنفس معاً، فينعكس ذلك على ارتياح الجسم وشعوره بالراحة والرضا النفسي، ولكن نص الوصية لم يأت بذكر لفظة (النوم)، بيد أن راحة البدن لا تتم إلاً بأنماط من الاشباع كراحة جسد الإنسان بالنوم أو بالاسترخاء، وبالتالي فراحة (البدن) تضمنت هذه الاشباع، ولا يمكن فهم تحقق راحة النفس والبدن بدونها.

٢. الحاجة إلى سلامة الجسم الإنساني وصحة الأبدان:

ثمة ألفاظ توحى لنا بطلب (السلامة) لمكونات أساسية من كيان الذات الإنسانية، كطلب (السلامة) بوجه عام، ثم ذكرت الوصية مصطلحات كـ (سلامة القلب)، و(سلامة العقل) و (صحة الأبدان) و (راحة البدن)، وقد نختلف في تفسير هذه المصطلحات التي تطلق على مسمى واحد، ولكن قد نخدم ما قصدناه من اهتمام الوصية بسلامة عضو من الأعضاء المهمة للإنسان، فمثلاً قد يكون القصد من مصطلح (سلامة القلب) الوارد في بداية الجزء الرابع (خلو فؤاد الإنسان من المشكلات النفسية)، وغيرها، وربما قصدت الوصية قلب الإنسان العضو الرئيسي في صدر الإنسان، وهو -كما يعلم القارئ الكريم- (مضخة الدم)، وإذا دفعنا الكلام على سلامة القلب الذي يوزع الدم في جسم الإنسان فهذا يعني إشارة من نص الوصية إلى سلامة عضو في الجسد، وليس إلى (القلب).. كنافذة الوعي والمعرفة والعواطف، الذي يتلقى الإشراق. أما ما ذكرته الوصية من مصطلح (سلامة العقل) فربما عنت وظائف العقل من

قدرات كالتفكير والعمليات الذهنية، وهذا محتمل جداً، بيد أن هذه السلامة مربوطة بسلامة (المخ) الذي تدار فيه عمليات العقل من تفكير وتميز وتذكر واستنتاج وملاحظة، وفي كليهما قصدت الوصية عضواً أساسياً في جسم الإنسان.

وتتوسع الوصية في مقاربتها لبعض الحاجات البدنية بالإشارة إلى كل البدن البشري بما فيه من أعضاء، وتذكره بلفظة (صحة الأبدان) في نهاية الجزء الثالث من نصها، حيث قال الإمام الباقر (عليه السلام): «وبادر بانتهاز البغية - أي اغتنام المطالب - عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحة الأبدان».

ولا تحتاج كلمتا «صحة الأبدان» لتفسير معمق، فهي واضحة لغير المختصين، وإن كان فهمها بصورة عميقة أمراً مهماً عند ذوي الاختصاص كالأطباء، والحكماء، وتغطي (صحة الأبدان) بالتأكيد سلامة القلب، وسلامة العقل، وسلامة كل عضو في أجسامنا، وهي التي تساعد على راحة النفس واجمام القلب، وإن ولادة الفرد سليماً، وربما يكون مستحيلاً في بعض حالات الولادة، ولكن يمكن أن يترتب على ظهور بعض أمراضه شفاؤها، وعودة وظائف الجسم إلى عملها بلا متاعب، وتعني خلو البدن من أمراض صعبة ومستديمة تصيبه، وتنحل قواه، وقد يكون هذا مستحيلاً، ولكن يؤمل على الأقل أن لا يعرقل بعض هذه الأمراض عمل أعضائه بعد الإصابة.

إنَّ لـ (صحة الأبدان)، وهي من مسببات تحقق اجمام القلب، منح الأفراد قدرة إيجابية على العمل وأداء مسؤولياته بنشاط، وتتيح لهم في فترة وقائية، وفي فترات توبتهم على استئناف حياتهم، فصحة أبدانهم تمكنهم من الصمود، والثقة، والعمل على مقاومة بعض شهواتهم الضاغطة، وتحول دون الانجذاب نحو سالف ذنوبهم للخلاص من أضرار معاصيهم وانحرافاتهم، ويترك هذا أثره الإيجابي على شخصياتهم، وهذا بخلاف (مرضى الأبدان) فإنهم معرضون للفشل والعجز أكثر من الأصحاء عن أداء

بعض مسؤولياتهم الشخصية والدينية في تعديل سلوكياتهم ما لم تكن إرادتهم حديدية.

٣. الحاجة إلى إشباع حاجات نفسية.

وهي حاجات ملازمة لراحة الجسم، وانعكاس آثارها على المرء، ومن خلال ما أسمته الوصية بـ (اجسام القلب)، ويعني راحة الفؤاد والقلب، فيصيب البدن والجسم شيء من الراحة والسعادة وحالة الرضا والأمن.

إنَّ حصول الفرد (مؤمنًا وغير مؤمن في آن واحد) على قدر طبيعي ومناسب من الإحساس بالأمن والراحة، والتوافق يأتي من توافر حالات من (الإشباع) لمجموعة من الحاجات البدنية والنفسية، وهي بدورها تترك تحسناً على صحة الفرد البدنية والجسمية والعقلية، وتحظى شخصية الفرد بـ (راحة نفس، وراحة بدن، واجسام قلب) معاً.

ج - الحاجة إلى الغذاء.

ذكرت لفظة (الغذاء) في آخر مفردة أو كلمة من الجزء الثالث عندما جاء في وصية الإمام محمد بن علي بن الحسين الباقر عليهم الصلاة والسلام: «إِيَّاكَ والثقة بغير المأمون، فَإِنَّ لِلشَّرِّ ضِرَاوَةً كضِرَاوَةِ الْغِذَاءِ».

والغذاء المعني هنا في نص الوصية ليس بالتأكيد وجبة محددة من طعام وشراب في وقت معيّن كوقت الظهيرة مثلاً، فيتناول الفرد بعد جوع وعطش وعناء غذاءه، وإنَّما يعني بوجه عام مجمل الأطعمة والأشربة، ما يتناوله الآدمي على نحو يومي، ويتغذى عليه الجسم الإنساني على امتداد عمره، وفي أوقات متفرقة من حياته، ووفق نظام تعارف عليه الناس في هذا المجتمع أو ذاك من أوقات تناول الوجبات من طعام (صباحاً وظهراً وليلاً).

هذا ما ذهب إليه بعض معاجم اللغة العربية وقواميسها.

فالغذاء وجمعه (أغذية) وهو ما «يتغذى به من الطعام والشراب»^(١)، وهو ما «يكون عليه نماء الجسم وقوامه من الطعام والشراب، ويشتمل على العناصر الضرورية لبُنية جسم الإنسان»^(٢)، ويدخل فيه الألبان والسوائل، وأنواع الأطعمة المشروعة، والصحية.

لم تذكر الوصية شيئاً في وصف الغذاء سوى تشبيه (ضراوة الشر) في حياة الإنسان بشدة ضراوة الغذاء لديه أو لدى كائن حي إذا اعتاده، وقد ذكر هذا التشبيه لاقترانها بصفة ما هي (الضراوة)، ولها دلالتها السيكلوجية كما سيأتي بيانه، فالإمام الباقر (عليه السلام) يوصي جابراً بالانتباه لضراوة الشر وشدته إن تحوّل إلى عادة سلوكية لدى الإنسان، وينبهه بأن قوة ضراوته مماثلة لضراوة (الغذاء)، وإلحاحه على نفوسنا كعادات سلوكية وبيولوجية يومية.

ويستبطن التشبيه بين (ضراوة الشر) و (ضراوة الغذاء) أي تشابه قوة إلحاحهما على الإنسان عندما يتحولان إلى عادات سلوكية ضاغطة على النفس، أمرين اثنين هما:

١. إن الشر كما تقدم يتحول إلى أمر يعتاده الإنسان، وتألفه النفس متى اكتسب بعض خصائصه، وصفاته، فيكون الشر في حياة الأفراد عادات سلوكية مستحكمة تمسك بتلابيب الأفراد وتبسط هيمنتهم على نفسياتهم، وتقودهم بهذه القبضة الى مهالك.

٢. أن الشر كالغذاء تماماً بخاصية واحدة يشابهه فيها، فكلاهما يكتسب قوة الإلحاح

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، ص ١٩٧.

(٢) مسعود، جبران، رائد الطلاب، باب حرف الغين، ص ٦٦٧.

الشديد والضغط على الفرد حتى يستجيب للشر، كما يستجيب لإلحاح الغذاء المستمر، وبعد الاستجابة لكليهما يحدث بالغذاء توازن حشوي فتهداً النفس، ويرتاح الجسم، ويحدث للنفس ميل داخلي لفعل الشر، ولا ترتاح نفسية الإنسان إلا بالاستجابة المعتادة لنوازعه الشريرة، وهي كما ذكرنا (شديدة الإلحاح) لا تترك صاحبها حتى يستجيب إليها، والإذعان لضغوطاتها.

ومجمل القول أن الوصية لم تدخل في تفاصيل عن الغذاء كحاجة أساسية في حياة الكائن الحي، وإنما ذكرته حينما شبهت قوة التعود على فعل الشر لدى الإنسان بقوة الإلحاح، واستحكامها، بحال حاجتنا للغذاء، وهو حاجة أساسية شديدة الإلحاح، ولها ضغط على أنفسنا وأجسامنا حتى تتمكن من إشباعها بدون قيود، أو بدون مراعاة ضوابط الإشباع من الحلال والحرام.

بعد هذا التفسير المبسط نعتقد أن نص الوصية الباقية أشار إلى عدد من الحاجات الفسيولوجية والبيولوجية المرتبطة بالبدن البشري، متداخلة مع بعض الحاجات النفسية - الاجتماعية في تحقيق حالات من الإشباع المؤثر على شخصية الكائن الآدمي بالسلب والإيجاب معاً، ويمكن استعادة ذكر أسئلتها، وهي:

١. الحاجة إلى الجنس، فهي مدخل الحياة الزوجية وبداية تكوين العائلة.
٢. والحاجة إلى إشباع دافع (الأمومة) لدى المرأة، ودافعية الرجل نحو (البنوة).
٣. الحاجة إلى النوم وراحة البدن كإحدى أهم الحاجات البدنية.
٤. والحاجة إلى صحة الأبدان وسلامتها.
٥. الحاجة إلى إشباع رغباتنا من الطعام والشراب.

٦. وبعض الحاجات النفسية - الاجتماعية المتولدة عن إشباع الحاجات الفسيولوجية والبيولوجية.

ثانياً: الحاجات النفسية - الاجتماعية:

وهي حاجات يختلط فيها الجانب النفسي بالاجتماعي، وبحاجات يدرجها علماء النفس المعاصرون ضمن جوانب من شخصية الكائن الآدمي، ونعتبرها حاجات متشابكة في المحتوى اللفظي والمعرفي للنص، وتؤسس جميعها لخريطة ذهنية نرسمها لتجمع هذه الحاجات في نسق نقترحه لتصنيفها.

وباستقراء المفردات اللغوية لنص الوصية، نكون قد وضعنا أيدينا على عدد لا بأس به ومعقول من هذه الحاجات، وتبدو في صدارة النص، ومن قائمة الحاجات التي أشار إليها: (الحاجة إلى الاجتماع الإنساني مع افراد جنسه والميل اليهم، حاجة الأفراد للمشورة، حاجتهم إلى كف سلوكهم العدواني بطريقة مماثلة لغيرهم، الحاجة إلى الاتزان الانفعالي والنفسي، الحاجة للتفكير، والتأمل فيما قيل في الأفراد، الحاجة للإثابة والعقوبة، الحاجة إلى الارتباط بقائد أو ولي ديني أو زعيم سياسي، الحاجة إلى العلم والمعرفة، الحاجة إلى التوبة، والعفو الإلهي، والبصيرة والمعرفة، الحاجة إلى الرحمة والهداية الدينية، الحاجة إلى الرزق، والشكر، والحاجة إلى طاعة الله، والحاجة إلى الرضا عن الذات (النفس)، الحاجة إلى خالص العمل العبادي.

ومنها كذلك الحاجة إلى شدة التيقظ الذهني، الحاجة إلى التحرر من الغفلة، الحاجة إلى صدق الخوف، الحاجة إلى غلبة الهوى، الحاجة إلى قيم إرشادية كالقناعة والزهد والصدق وغيرها، الحاجة إلى معرفة النفس، الحاجة إلى راحتها، واجمام القلب، الحاجة

إلى العبادة بأساليب الذكر في الخلوات، وكثرة الاستغفار، تزيين النفس بالصدق في الأعمال وخالص الأدعية والمناجاة في الظلم، الحاجة إلى الدافعية الوجدانية كاجمام القلب -ترقيقه- دوام الحزن، شدة الندم، التوسل، الحاجة إلى حسن المراجعة، الحاجة إلى التوفيق الإلهي، الحاجة إلى المنافسة في الدرجات الدينية العليا، الحاجة إلى التحرر من الذنوب، الحاجة إلى السيطرة على انفعالات النفي مثل رد الغضب، عز اليأس، وبعد الهمة، والثبات الانفعالي في مواقف المدح والثناء والذم والجزع، وغير ذلك.

خصائص الحاجات السابقة.

نذكر منها:

- كمون القابلية الداخلية للحاجات.
- تشابك الجانب النفسي - الاجتماعي.
- قابلية الحاجات للتصنيف بين كبرى (رئيسية) وحاجات (جزئية أو فرعية).
- هدفيتها، وطابعها العبادي.

الخاصية الأولى: الكمون الداخلي لعنصري الخير والشر:

يولد كل كائن آدمي بقابلية واستعداد داخلي لفعل الخير والشر معاً، وبقابليته الداخلية للحاجة والنزوع الذاتي إليها، وبلاستعانة بغيره نفسياً واجتماعياً، فالله سبحانه وتعالى زوّد كل واحد منّا باستعداد داخلي للبحث عمّا يحتاج إليه من حاجاته الرئيسية أو الفرعية سواء كانت إيجابية أم سلبية، فمثلاً يولد الآدمي باستعداد داخلي

لطاعة ربه، وعبادته وباستعداد للقيام بأفعاله وباستعداد لحياة اجتماعية وثبات عاطفي للفعل بحرية، والاجتماع الإنساني، أو للثبات العاطفي أو باستعدادات مضادة لهذه الحاجات كالانحراف عن عبادة الله، وميله للعزلة الاجتماعية، ورغبة في الانتقام من الآخرين، وهكذا يوجز سلوك الكائن الآدمي في فعله الخير والشر بحاجته لهذا للنجد الآخر المقابل.

الخاصية الثانية: الطابع العبادي الهادف:

ثمة أهداف دنيوية، وقصيرة كسعي النفس لإشباع عاجل، وقصير الذي يوفر للفرد فرصة تحقيق إشباع دنيوي كالتناسل، والبقاء وحفظ الذات أو يساعده على التكيف النفسي والاجتماعي كما في موقف (كف السلوك العدواني) وعدم الاستجابة أو رد الفعل بمثله، وهو موقف معبر عن حالة طبيعية من الاتزان الانفعالي أو العاطفي، وتصرف حسن يسمو باخلاق الفرد، ويوسمها بالنزعة العبادية في سلوك المسلم، بيد أن كل الحاجات حتى الدنيوية هي حاجات تحقق للفرد بعض الإشباع السوي في طاعة الله وعبادته وطلب رضاه، وتلبية اشباعات ذاتية وموضوعية.

الخاصية الثالثة: (تداخل الحاجات وتشابكها مع نفسها بطابع نفسي واجتماعي):

بالرغم من قابلية حاجتنا البشرية للتصنيف العام بين نفسية واجتماعية وغيرها، فإنَّ التشابك بينها أمر واقعي، فالحاجة على سبيل المثال للتشاور وتبادل الآراء هي حاجة يتداخل فيها الطابع الوجداني كبروز أنواع من الانفعالات والدوافع، والأفكار، وأشكال من التفاعلات الاجتماعية، وغير ذلك، وينطبق الحال على حاجتنا للتوبة، إذ يتشابك في داخل الفرد وهو يفرغ إلى التوبة إلى الله نهر من الانفعالات والمشاعر، والرؤى، والأفكار، وعوامل نفسية واجتماعية وروحية وأخلاقية، ومعيشية، وغير

ذلك.

الخاصية الرابعة: تصنيف الحاجات على كبرى وفرعية:

وهو تصنيف يسير بها من الدائرة الأوسع نحو دوائر أضيق، ونقصد من ذلك أن الحاجات التي ذكرناها يمكن تقسيمها إلى حالات كبرى ورئيسية، ثم تجزئتها إلى حاجات فرعية أصغر تدرج في ضمنها، وتظل تنتمي إليها، ونجد مثال ذلك حاجة كبرى كالحاجة إلى عبادة الله وطاعته، نجد أنه تدرج تحتها حاجات أضيق، وفي دوائرها مثل التوبة، العفو، أداء الفرائض، الخوف الصادق من الله، عظيم الشكر لله، خالص الأدعية والمناجاة في الظلم، وغيرها من الحاجات الروحية الأصغر.

ويمكننا الآن، وبتصور اجتهادي شخصي، ومقترح أن نضع قائمة تصنيف للحاجات الكبرى في نص الوصية، وإدراج حاجات صغرى تدرج تحت سقفها، ومتصلة بالحاجات الرئيسية، أو تدخل في نطاقها.

١. الحاجات الروحية:

هي حاجات عبادية، وتتم بالطاعات وأداء الأعمال الصالحة وعبادة الله عز وجل، ومنها الحاجة إلى استئصال كثرة الطاعة، والصدق في الأعمال الصالحة، التوبة، كثرة الذكر في الخلوات، وكثرة الاستغفار، وطلب العفو الإلهي، والتعرض المستمر لرحمة الله، واستبقاء خالص الأعمال ليوم الجزاء، وخالص الأدعية والمناجاة في الظلم، والتوسل، وتقدير عظيم الشكر لله عز وجل، والحاجة إلى أداء الفرائض اليومية، وغيرها كالزكوات والأخماس وغيرها، والتزود بوجه عام من الدنيا بقصر الأمل، وتجنب التسويف، والتزين الخفي بحاضر الحياة وحطامها الظاهري.

٢. الحاجات الاجتماعية:

وتشمل الحاجة إلى الاجتماع الإنساني، والود الاجتماعي، والألفة مع الغير في داخل الحياة الأسرية، وفي خارجها، والتفاعل الاجتماعي مع الناس في دوائر اجتماعية متعددة سواء كانت في البيت، أم في مؤسسة العمل، أم في المسجد، أم في أماكن عامة أخرى.

٣. الحاجات الوجدانية:

وهي ما يتصل بالانفعالات والدوافع والشعور والأحاسيس، وغيرها، ومنها كما وجدنا إشارات إليه في نص الوصية (الحاجة إلى وصيد الإحباط النفسي، ومقاومة عدوان الآخر واستفزازاته المرضية باستجابات السمو الأخلاقي الرباني، وبكف السلوك المحرم كالانتقام، والتلذذ في أذى الناس، والثبات العاطفي كما في المدح والذم والجزع، ورد الغضب والسيطرة على النفس أثناءه، والحاجة إلى شدة الندم ودوام الحزن واجهام القلب، وراحة النفس، ورفع ذل الطمع من النفس بعز اليأس، وقصر الأمل بدلاً من طول الأمل، والزهد، واستصغار الدنيا، وعدم الاستهانة بالذنب، ولذة تحقيق غلبة الهوى، والخوف الصادق من الله عز وجل، والسيطرة على عجب النفس، واستجلاب عز البأس، وطلب التوفيق الإلهي، وغنى النفس).

٤. الحاجات العقلية:

ويندرج تحت مظلتها حاجات أصغر، وفرعية أو تنتمي إليها مثل (دلالة العقل)، أي اتخاذ العقل دليلاً في توجيه نشاط المؤمن وضبط انفعالاته، واسترشاد العلم، والمعرفة، وشدة التيقظ، والبصيرة، وصحة التفويض، ومعرفة النفس، وتقليل الأخطاء، وحسن المراجعة، والتفكير فيما قيل في الفرد من أفكار له أو عليه.

٥. الحاجات إلى القيم الإنسانية:

وهي متداخلة ومتشابكة، وعلى أشكال نذكر منها:

أ - قيم أخلاقية: وتشمل القناعة، والزهد، والصدق في الأعمال، وقصر الأمل، والخوف الصادق من الله، والتوسل إليه، وعظيم شكره سبحانه، وعز اليأس، ودفع ذل الطمع بعز اليأس، وغنى النفس، وعدل الإنصاف، والخوف من زوال النعم، وبعد الهمة، واستكثار قليل الرزق.

ب - قيم إدراكية وعقلية، وتندرج تحتها كل القيم الإدراكية الفرعية التي مررنا بذكرها في بند الحاجات العقلية السابقة.

ج - قيم الثبات العاطفي مثل رد الغضب، والسيطرة على النفس في المدح والجزع والذم، والندم، وضبط الصراع مع شهوات النفس، والتحبب إلى الله بالأعمال الصالحة، وغير ذلك.

د - قيم معيشية ومنها استكثار قليل الرزق، غنى النفس، الخوف من زوال نعم الله، استجلاب زيادة النعم بعظيم الشكر، اتقاء الحرص بالقناعة، إماتة الطمع بعز اليأس.

٦. الحاجات الأمنية:

قدمت وصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع) بعض الأمثلة في نصها تشير إلى مواقف أمنية واضحة في سلوك الذات المؤمنة وتفكيرها، ونختار منها ما يوضح نماذج تعبيرية عن عنايتها بمواقف تعبر عما يحتاجه الأفراد من إشباع رغبتهم في طلب الأمن، وما يبعث فيهم الطمأنينة والسكينة، ويدفع عنهم شر الدنيا والآخرة، كما أن الإمام الباقر (ع) طلب من الجعفي التفكير فيما قيل فيه لغرض استخدام هذا الموقف السلوكي من أجل فحص واقع حاله، ومعرفة نتيجة عمله، فإن كانت نهايته سقوطاً من عين الله

وأعين الناس، فهذا خطر كبير يهدد أمن الذات في الدنيا والآخرة، وإن كان كلام الناس (بخلاف ما قيل فيه) فالنتيجة مطمئنة، بحيث ينال الفرد المؤمن ثواب الله سبحانه، وهي نتيجة مرتبطة برضاه تعالى، ويعرف الفرد في الوقت نفسه مصيره، وأنه قد حقق لديه ثواب الله طمأنينة، وشعوراً بالأمن.

وتعبر الوصية في بعض كلماتها عن مظهر آخر لدى الإنسان برغبته في تحقيق الأمن الدنيوي والأخروي، وحاجته لإشباع هذه الحاجة، والاطمئنان على نفسه بطريق طبيعي وسوي، فإذا تحسس أن نفسه صرته في جهاد هواه فرع بالتوبة إلى الله، ومخافة من جزائه يوم القيامة، فهذا الفرع مصدره قلق الذات وتحسسها الخطر الذي يهدد مستقبلها في غير عالم الدنيا، ففرع للتوبة من الله بحثاً عن ملاذ آمن يوم لا ينفع مال ولا بنون، وازدادت نفسه بصيرة ومعرفة وقرباً منه عز وجل، واستعاد توازنه النفسي المفقود.

ويتحرك نص الوصية في ألفاظ وجمل ومصطلحات لتنبيه الإنسان وإثارة وعيه وشعوره كي يحقق هذا الإشباع بالغلبة على الهوى، وتسخير قدراته الذاتية في التعبير عن خوفه من تأثيرات أمراضه السلوكية، وما يتمخض عن تجاربه الجهادية بنحو يحقق له في نهاية المطاف شعوراً بالأمن، ودفع الرجاء الكاذب بخوف صادق يقرر مصيره بالخير.

ونلاحظ أن الحاجات الأمنية توزعت بين نوعين من طلب الحماية:

١. حماية وقائية كما في تنبيه الذات من خطر السقوط من عين الله وأعين الناس، وإثارة القناعة اتقاء الحرص، وغلبة الهوى باسترشاد العلم ودلالة العقل، وتحريك القيم الأخلاقية والإدراكية لمواجهة كل ما يهدد أمن الذات المؤمنة.

٢. وحماية أمنية علاجية كما في مواقف التوبة، وتحرير النفس من غفلتها بشدة التيقظ، واسترجاع سالف الذنوب بشدة الذنوب، وحسن المراجعة وكثرة الاستغفار

وكثرة الذكر في الخلوات، وطلب رحمة الله وعفوه.

أساليب ضبط الإشباع:

ونقصد ضبط عملية إشباع الحاجات بطابعها السوي، أو بطابعها العصبي الشهوي والمحرم، فإنهما لا يتركان بلا تدخل من الفرد المؤمن كي يحقق الغرض، فمفردات نص وصية الإمام الباقر عليه السلام للجعفي، وللمؤمنين تنطوي على بعض الأساليب القيمة والإدراكية والروحية التي تمكن الفرد من تحقيق سيطرة ممكنة على دوافعه، ورغباته في الإشباع سواء كان نمطه حراماً أم حلالاً، وسوياً، ونذكر من هذه الأساليب ما يأتي:

أ- إشباع مفتوح:

ويكون مطلوباً في مجال الخير الحصول ما أمكن على جرعات أكبر من الإشباع الزائد، والمتسامي الذي لا سقف له ما أمكننا كما رغباتنا في طاعاتنا لله عز وجل، وكل أنشطة العبادات وطلب الهداية الروحية والدينية والتزود بقيم المشرع الإسلامي، وقد ملأت الوصية سطورها بالدعوة إلى إشباع مفتوح لطاعة الله سبحانه، فأغلب سطورها تنطوي على ألفاظ اتجاه هذا الإشباع، ومن ذلك قول الإمام الباقر عليه السلام لجابر: «يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقل من نفسك كثير الطاعة إزراءً على النفس، وتعرضاً للعفو...».

ب - كف الاستجابة المحرمة:

مثل كف السلوك عن (الإشباع المحرم) كما في منع الإمام الباقر جابراً في رد الفعل أو الاستجابة ضد الآخرين برغبة في (الانتقام) أو الرد بالمثل، بما ينطوي عليه من إساءة وإهانة للآخر، وتسفيهه بنحو يلغي السمو الأخلاقي عند المؤمن.

ج - الإشباع بقدر الحاجة:

وعبرت عنه الوصية في بعض ألفاظها بمصطلحات أخلاقية ضابطة للسلوك، وبنحو يمارس فيه الفرد إشباعه لحاجته، ولكن بقدر ما يحتاج منها كيانه، جسده، نفسه، ومن هذه الألفاظ (القناعة، إثارة القناعة، الزهد، استكثار قليل الرزق، عظيم الشكر)، فإشباع الحاجات، ولو بعضها - بهذه الصيغة - يخفف من شدة الإحباطات النفسية، ويزيد من قدرات الأفراد على الاكتفاء بإشباع معقول حتى لو كان في نظر الغير قليلاً.

د- تأجيل الإشباع:

ويكون في بعض الاشباعات الوارد ذكرها في الوصية كتأجيل إشباع الفرد من حاجته للجنس بتأجيل فترة زواجه، وتأجيل شهوات ترتبط به لفترة مؤقتة تتغير فيها الأمور.

هـ - تعديل في الإشباع:

وهو إشباع معدّل لحالة مرضية أو تقدير خاطئ أو انحراف نفسي أو أخلاقي، ويراد بهذا التعديل إعادة الذات لنظرتها في حالة معينة كتعديل نظرتها في الإعجاب المرضي بأنفسنا، وذواتنا، وهو مماثل للغرور، إلى نظرة احترام إيجابية للقدرات، وشكر الله عليها.

و- التنازل عن بعض الإشباع للآخرين:

مثل إثارة القناعة لدفع الضرر عن الناس، واحترامهم كرد غضبهم بهدوء، فالقناعة قيمة أخلاقية تجعل المؤمن يقبل بالقليل عن رضا، ويتنازل عما في يديه لهم، ولا ينازعهم إتقاء الحرص ودفعاً لمخاطره على نفسه.

ز - التغيير الجذري:

لا يناسب التأجيل، بل يحتاج إلى تغيير عاجل، ومتابعته بتعديل -دائماً- لحال الذات وموقفها، فلا بد في بعض الأحوال من التغيير الجذري والصارم، ويتوقف الإشباع المحرم ويكتفي بما هو مشروع، ومسموح به في فقه المشرع التربوي الإسلامي وأحكامه الشرعية، ومن ذلك وقف كل الاشباعات المحرمة التي تأتي من استهانة الفرد بالذنب، وبالحالة المخزية التي كان عليها، ورضانا بحالة جديدة تقبر هذه الاستهانة للأبد، وتهيئه إلى عودة عبادية لله سبحانه وتعالى وطاعته.

القوى الضابطة للإشباع في مفردات الوصية:

بعد قراءتنا المتكررة لمفردات النص الإرشادي لهذه الوصية الكريمة بدا لنا تأثير مجموعة من القوى المتعددة التي تستقر في داخل النفس أو تتصل بها، وتملك قدرة على تحقيق الإشباع السوي لحاجات الفرد المؤمن عدا عنصر واحد هو هوى النفس، وقد يفسد هذا العنصر تأثير القوى الخمس بأجمعها إن كانت له في نهاية الأمر (غلبة فاعلة) عليها، ودائماً ما كانت الوصية تستثير هذه القوى لمواجهة وقهره، وعرضت موقف المؤمن من الانتصار على هوى نفسه في تجربة التائب المخلص.

ويمكن بإيجاز تحديد هذه القوى بما يأتي:

١. العقل وقدراته العامة والخاصة، ودعوة النص لاتخاذ دليلاً في العمل التكليفي، وكمميز للسلوك الصحيح، والسلوك الخاطئ، وكمرشد في ضبط سلوك الذات.
٢. العلم، وهو ما يتمخض عنه عن تسخير العقل وتوظيفه، وبروزه في أشكال من الخبرات الموجهة للسلوك، وبناء شخصية الإنسان.

٣. القلب أو الفؤاد، وهو كما قيل في بعض الدراسات السيكلولوجية الإسلامية المعاصرة (نافذة أخرى للوعي والمعرفة).

٤. الضمير، وهو الوجدان الداخلي الذي ينهى عن أفعال السوء، ويحكم الإنسان بعد ارتكابه المعاصي، ويوبخه، ويدفعه لتعديل السلوك من جديد بمؤازرة وتوجيه قواه الأخلاقية.

٥. الفطرة، وهي طبيعتنا البشرية، وما أودع فيها الله من ميول وقدرات ونزعات، وفضائل وقيم تجذب الإنسان نحو الأعمال الصالحة.

٦. الإرادة، ويصفها بعض العلماء بأنها مركز القرار، وصاحبة الفعل المؤثر في هزيمة الهوى أو الانضباط بقيم الحق والخير.

٧. الهوى، وذكره نص الوصية كثيراً كمجموع ومستودع للغرائز والشهوات المنفلتة، وهي قوة تتطلب إشباعاً مصحوباً بارتياح ولذات أو بآلام وضيق واشمئزاز.

٨. الدين وأحكامه وضوابطه الشرعية، فهو عقل من الخارج، بينما العقل شرع من الداخل كما قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ثانياً: القيم الإنسانية:

تمثل القيم الإنسانية في الأديان السماوية المنزلة، والأرضية على حد سواء، وتمثل في دراسات علم النفس القديم والمعاصر كياناً فطرياً، وهي تمثل الجهاز المعنوي الداخلي والفطري لشبكة الأخلاق وتنظيمها الذي تتشكل منها السمات الأخلاقية لشخصية الإنسان، وتنظم حياة الأفراد بتوجيه بعض المبادئ والقيم والمثل العليا التي يحكم الإنسان سلوكه الفردي والاجتماعي معاً، وهي على قواعد الأخلاق والدين قيم

مركوزة في كيانه الآدمي تؤكد على قوة وإيجابية الطبيعة البشرية بالرغم من حياديتها، وفعالية منهج الله سبحانه وتعالى، وحيوية نظام القيم والأخلاق المستمدين من التشريع التربوي الإسلامي.

ويتطلب هذا الجهاز الداخلي -الجهاز القيمي- لأداء دوره الطبيعي والحيوي في إشباع مختلف حاجات الإنسان من الفضائل الأخلاقية وغيرها، وأهمية تقويتها بعمليات تدريب موجه وهادف، وعن طريق ممارسة عبادية مستمرة ومقصودة يريد الإمام الباقر عليه السلام تحقيقها في حياة جابر الجعفي وغيره من جموع المؤمنين، فذكرت وصيته بعض القيم الإيجابية في حياتنا الإنسانية وطالبت بتفعيلها، كما طالبت بإبعاد القيم السلبية عن التأثير فيها.

إن القيم -والمراد هنا الموجب منها- ليست غايات في حد ذاتها، فهي مجرد وسائل وآليات لتشكيل الفعل العبادي السوي، أو تعديله إرضاءً لله تعالى؛ لأن ما تمتاز به القيم من قوة للإلزام الداخلي للأفراد يجعلها من أقوى وسائل بناء النفوس على أسس إيمانية قادرة على ضبط وتوجيه السلوك من الداخلي، وبتلقائية هادفة، والقيم بهذا المعيار ضرورة تربوية تؤكد عليها التربية العبادية لتكوين روح الخضوع للنظام الأخلاقي الذي يريده الإمام المهدي عليه السلام شائعاً، وهو خضوع يتم تلقائياً وطواعية، وإقراراً ذاتياً بفلسفة النظام وقيمه، مما يؤدي إلى ضبط السلوك سراً وعلناً على حد سواء، وبطوعية لا قسر فيها، ولا خوف من قهر السلطة أو نفاق المجتمع، وإنما يكون حباً بالقيم وإيماناً بها كوسائل طاهرة نعبر بها عن حقيقة إنسانيتنا، ونعبر بها عن شعورنا بالمسؤولية، وابتهاجنا بالعمل^(١).

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ١٧٠.

ومما نلاحظه أن موضوع (القيم) كمثال عليا في حياة الإنسان هو شأن ثقافي ووجداني وإدراكي واجتماعي يأخذ مكانته الكبرى، والثلاثة بدوره الحضاري في ثقافتنا اليومية، وكان من المنطقي أن يجد المرء في النصوص الدينية الإسلامية (أدعية وغيرها) اهتماماً بالموضوع ذاته مع تعدد هذه القيم (بمحدودية أو بتوسع) في مستويات الاهتمام والعناية حتى لو كان التنوع والاهتمام في نص دعاء الافتتاح.. محدودين.

ولكننا مع اهتمام الدعاء بعدد من القيم الكبرى بنحو علني، وبأخرى بطريق غير مباشر إلا أن الحديث في نص الدعاء عن (القيم) كمادة علمية وإرشادية لم يأخذ نصيبه الوافر في المحتوى اللفظي والمعرفي لدعاء الافتتاح، ولعل السبب يعود إلى أن الدعاء نص قصير وغير مطوّل كدعاء كميل والصبح وعرفة والندبة وغيرها، وأن تركيز مادة هذا الدعاء -ونقص الافتتاح- ليس محصوراً بالقيم وحدها، ومن هنا جاءت الإشارة إلى القيم الكبرى مجملة، ولحظنا كذلك إشارات أخرى متفرقة عن قيم فرعية وجزئية، سلبية وإيجابية، وهي كما يلحظ الباحث والقارئ الأريب معاً موزعة - على تنوعها المحدود - في نص هذا الدعاء، وفي تركيبته اللفظية من بدئه لمنتهاه.

مفهوم القيم.. لغة واصطلاحاً.

حدد علماء اللغة مفهوم القيمة، ككثير من الكلمات والمفردات العربية، وأوضحوا معانيها اللغوية، وسنمر على هذا التحديد بإيجاز كما في بعض المصادر اللغوية، وتعني لفظة (قيمة) في بعض مصادر لغتنا العربية ومعاجمها وقواميسها: «قيمة الشيء، وهي قدره»، وقيمة المتاع ثمنه، والقيمة كما يقال أيضاً مرادفة للثمن، إلا أن الثمن قد يكون مساوياً للقيمة أو زائداً عليها أو ناقصاً عنها، والفرق بينهما أن ما يقدر عوضاً للشيء في عقد البيع يسمى ثمناً له كالدرهم والدنانير وغيرها، في حين أن القيمة تطلق على كل

ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته لاعتبارات اقتصادية أو سيكولوجية أو اجتماعية أو أخلاقية أو جمالية».

والقيمة كما في أحد المعاجم المتأخرة تعني:

«قيمة الشيء قَدَرُهُ، وقيمة المتاع: ثمنه، ومن الإنسان طوله»^(١).

وقوله: «قِيم الشيء تقيماً.. أي قَدَر قيمته»^(٢).

كما نقل (مسعود جبران) وهو لغوي معاصر في معجمه معنى قريباً مما تقدّم، وذلك قوله عن لفظة (القيمة) ما لفظه: «القيمة، الثمن الذي يعادل المتاع، درجة الأهمية النسبية له، ومجموعها قِيم»^(٣)، ويقصد جمع مفردة (قيمة) بكلمة (قِيم).

وقد جاء في كلام الإمام عليه السلام: «قيمة المرء ما يحسنه»^(٤).

والقيم - كما نفهمها - مرجعية معرفية وأخلاقية يوزن بها الفعل الإنساني ويميز بين السوي منه عن الفعل غير السوي، وبواسطتها يدخل هذا الفعل في دائرة العمل الصالح أو العمل السيئ بمعايير عبادية وموضوعية معتبرة كإتيان العمل بنية القربى لله سبحانه وامثالاً لأمره أو بمدى تحقق منافعه في حياة الإنسان ونسبة الإتيان في أدائه، فلا يوصف فعل معيّن كعمل عبادي إلاّ بتحقيقه للعمل الصالح وانجازه بنية القربى لله^(٥)، وينطبق هذا المعنى على القيم بأشكالها المتعددة.

(١) المعجم الوسيط، باب حرف القاف، ص ٧٦٨.

(٢) المعجم الوسيط، باب حرف القاف، ص ٧٧١.

(٣) مسعود، جبران، رائد الطلاب، باب حرف القاف، ص ٧٤٨.

(٤) المعجم الوسيط، باب حرف القاف، ص ٧٧١.

(٥) مدن، يوسف، مدخل إلى النظرية التربوية في الخطاب الحسيني، ص ٢٦٢.

وقد حظيت القيم باهتمام خطاب الإمام المهدي (عليه السلام) في أكثر من دعاء، وبقدر الحاجة المطلوبة كما رأينا في جوانب عديدة أشار إليها (عليه السلام) في نصوصه المختلفة لقيم إنسانية عليا وإلى أنواع فرعية^(١) مرتبطة بها وداخلة في سياقاتها الروحية والأخلاقية.

الأهداف التربوية للقيم:

القيم - كما نعتقد - هي من رصيدنا الفطري الذي نولد به، ويعمل في حياتنا من اللحظة التي يصدر عن الفرد سواء بترسيخ سلوك بطريقة وقائية أم بنقد فعل خاطئ، فالقيم كالضمير الداخلي تأمر وتنهى وتحاسب الفعل الإنساني، وبذلك فالقيم بمثابة آلية فطرية معتبرة وقوة وجدانية وأخلاقية ومعرفية تكسب قيمتها الوظيفية من تفاعلات الإنسان مع المكون الفطري لهذه القيم.

وتؤدي القيم (مهما كان عددها) في آن واحد مجموعة أهداف تتسم بطابع تربوي فعّال، ومن الأهداف التي تستخدم القيم كقوة وجدانية، وثقافية وأخلاقية في انجاز الأدوار التربوية بعالم الإنسان ما يأتي:

١. مساندة القيم للأديان والأخلاق والثقافة العامة في تشكيل النمط الأساسي للشخصية الإنسانية، ومساهمتها في صقل بعض جوانبها بطريقة وقائية.
٢. تسهم منظومة القيم بمختلف أشكالها بطريقة مضادة في إيقاف التدعيم لأي فعل خاطئ أو سلوك عصابي، وكف حركته التي تعوق النمو الطبيعي اللازم للشخصية الإنسانية من المنتظرين ومن غيرهم.

٣. اشتراك القيم بقوة فعاليتها في إعادة تعلم الفرد لأنماط من السلوك السوي،

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي (الفصل السابع) ص ٢٤٥ - ٢٨٣.

والمساهمة في تجديد صياغة النمط المفقود للشخصية الإنسانية.

٤. تستخدم القيم البناءة في إسناد مهام المربي المسلم في تربية جماعة (المتظرين) وتنمية اتجاهاتهم الفكرية ومشاعرهم الوجدانية، والإعداد السلوكي لأجيالهم.


٥. يمكن للقيم الإنسانية - ونعني هنا شبكة القيم الإيجابية والسوية منها بوجه عام - الاشتراك الجاد في إيجاد وعي خاص للمؤمنين، وتزويدهم بثقافة الإسلام وتعاليمه ومرجعياته المعرفية والأخلاقية في مجالاته المتعددة.

الحاجة إلى كشف منظومة القيم بالوصية:

ثمة دوافع تقودنا إلى القيام بعملية كشف القيم بشقيها الإيجابي والسلبي، ومن ذلك ما يأتي:

١. إن نص الوصية وطبيعتها الإرشادية اختزن مجموعة من القيم المعززة للسلوك الإيماني وخصائص السلوك العبادي، والقيم المضادة المؤثرة في نمو الشخصية سواء أكانت بطابع إيماني أو بسماة غير إيمانية.

٢. يستفاد من القيم التي تعرفنا عليها أن لها القدرة على إحداث تغيير إيجابي، ومساعدة الفرد المؤمن نفسه على تحقيق مقاصده وغاياته، وتعرفنا على قيم سلبية يمكن أن تؤدي إلى إضعاف الحركة الجهادية نحو التغيير الأفضل، ويمكن - في الوقت نفسه - للقيم العصائية أن تلعب دوراً مدمراً، وسلبياً في إعاقه فاعلية القيم الإيجابية.

٣. نحتاج كمؤمنين - أفراداً وجماعات - لخبرة الإمام الباقر  في الميدان الروحي والأخلاقي والنفسي، واستثمار نص وصيته في تحقيق الوظيفة الإرشادية وتعديل سلوك الشخصية بما يرضي الله سبحانه وتعالى، ويساعد على مستويات مقبولة من الوصول إلى

حالة رضا، وتوافق مقبول باستخدام القيم، والأساليب، والأفكار السليمة.

٤. تمتلك الوصية في مفرداتها ثروة أخلاقية وروحية وسيكولوجية تتيح للباحثين، لاسيما المتخصصين في الدراسات النفسية أن يقوم بدراسة بعض الظواهر النفسية، وتحليلها، واستنتاج نتائجها وعبرها، وعظاتها، فالوصية كنص فرصة لتوظيف الخبرة السيكولوجية عند بعض الدارسين والباحثين في فهم الخصائص النفسية والسلوكية للشخصية، والعوامل (الموضوعية والذاتية) المؤثرة فيها.

أهداف القيم في الوصية.

تحقق القيم الإيجابية أنماطاً من الاستجابات السوية التي تمكن الفرد المؤمن من استثمار فاعلية هذه القيم الإيجابية في تربية الشخصية العبادية، وتزوده بمفاهيم وأفكار وقوى أخلاقية دافعة، ومعززة للسلوك السوي الذي تتطلع إلى تحقيقه مبادئ السماء، وتحقق في الوقت ذاته فوائد، ومنافع ذات صلة بما يرضي الله سبحانه وتعالى، وتربية الفرد المؤمن على قيم السماء وتعاليمها وإرشاداتها كما أرادت وصية أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام).

ومن أهداف القيم في وصيته ما يأتي:

١. تحقيق الفرد المؤمن في كل أزمنة التاريخ، وبقاع الأرض رضا الله عز وجل.
٢. تفعيل مضامين القيم بمختلف أشكالها المذكورة في نص الوصية أخلاقية وثقافية وراعية لتكوين نمط الشخصية العبادية وتحقيق مستويات الرضا لديها عن الله سبحانه، وعن الذات المؤمنة في أفعالها، وأدوارها العبادية.
٣. استثمار المفاهيم والمعاني الفكرية والمعرفية بالقيم، وتوظيف شحناتها الوجدانية

العاطفية لإحداث تغيير إيجابي في تفكير الذات وسلوكها بمحددات إيمانية.

٤. استخدام القوى الخيرة، والإيجابية في نص الوصية الإرشادية، وفي الذات المؤمنة لمواجهة القيم السلبية وآثارها المدمرة.

٥. اكتشاف أساليب تعديل السلوك الخاطئ في بعض القيم الإيجابية والمرغوب بها لتغيير واقع الفرد المؤمن الى الأفضل، وتفعيل الروح العبادية الطيبة بما يحقق هذا التعديل الإيجابي وفق محددات النظرية الإيمانية.

٦. سعي النص الإرشادي إلى إضعاف التأثيرات السلبية للقيم المضادة، وتحرير النفس من أضرارها الضارة.

تأثير القيم الإنسانية في الاتزان النفسي والانفعالي للفرد:

يتأثر سلوك الإنسان - بحسب مشاهداتنا اليومية - بقيم متنوعة سواء كانت روحية، أم ثقافية، أم اقتصادية، أم أخلاقية أم غيرها، وتتجلى تأثيراتها بنتائج إيجابية أو سلبية على الشخصية، ولأهمية ارتباط هذه النتائج السلوكية بالقيم المؤثرة في تفكير الفرد، وباتزانه الانفعالي والنفسي والأخلاقي، فقد تركزت عليه جهود المربي المرشد في عمليات التوجيه الإنساني ومجالاته لتكون خواتيم هذا الوجه إيجابية، وتصب في حوض الخير الذي يبتغيه عادة الموجد المرشد، والإنسان نفسه، وهو المستفيد من مجالات التوجيه وخدماته، ونعني به المتلقي لتعليمات المربي وإرشاداته.

ولم تخرج وصية الإمام الباقر (عليه السلام) في هذا الجهد الإرشادي والتنظيمي عن هذه المهمة العبادية الكبرى، والقيام بأدائها كوظيفة تربوية مهمة تستثمر القيم الإيجابية في تكوين نمط عبادي للشخصية الإيمانية، وتمنع في الوقت ذاته تأثيرات مضادة للقيم

السلبية التي تعرقل تنمية النمط العبادي لشخصية الفرد المؤمن وتأسيس بنائه على المقومات الإيمانية.

فالوصية الباقرية الميمونة شددت في بعض جملها وعباراتها على أهمية إدراك العلاقة التبادلية بين تأثيرات القيم، وعملية نمو السلوك الإنساني وتطويره في اتجاهاته المحددة، وفي مساراته المتاحة، وما يصحب ذلك من اتزان انفعالي ونفسي، أو ما يترتب عنه من خلل واضطرابات، وسوء توافق مؤثرة سلباً على هذا الاتزان للفرد.

إنَّ التركيبة اللفظية لهذه الوصية استبطنت عدداً محدوداً من القيم الإنسانية بشقيها الإيجابية الذي شددت فيها وصية الإمام الباقر على الاستفادة من هذه القيم في تنمية السلوك، وشقها الآخر، وهي القيم السلبية التي دعت وصية الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) إلى تخلص إرادة الذات للإنسان المؤمن وتحريرها من قبضتها، والفكاك من تأثيراتها المضادة على التفكير والمشاعر الوجدانية والسلوك، ويمكن في موضعنا هذا من البحث، الإشارة إلى بعض القيم التي ورد ذكرها (بالاسم، وبالمصطلح الأخلاقي)، أو بالفاظ غير مباشرة في نص وصية الإمام الباقر، وكان (عليه السلام) يستهدف كمبرب، ومرشد موجه لفت نظر الفرد، والمتلقي المؤمن بأهمية القيم في تكوين شخصيته، وتنمية سلوكه، وإكساب تفكيره بالقيم العبادية السليمة.

وإذا ما أطلنا نظرنا، وب تأمل وإمعان تفكير عثرنا على نماذج من القيم الإيجابية، وأخرى من القيم السلبية، والتي تصبغ سلوك الإنسان بالعصاب، وكان جميعها مبثوثاً في سياقات لفظية (جمل وعبارات، وفقرات) مكونة للمحتوى اللغوي والمعرفي للوصية الباقرية المحكمة، وبعضها يتداخل مع انفعالات، ودوافع، وألفاظ أخلاقية، وروحية أو دينية، فالمعرفة بوجه عام نسق متداخل من المفاهيم والمعارف، وتختلط مع أساليب إرشادية، وتستبطن مجموعة من الحقائق التي تتساند وتتآزر في أداء وظيفتها ببناء

شخصية الإنسان بوجه عام، والفرد المؤمن بوجه خاص كما تقتضي الطبيعة الإرشادية لوصية أبي جعفر سيدنا ومولانا الإمام محمد بن علي الباقر (ع).

تطل بعض المفردات برأسها، وهي تنبئنا بأنها قيم بحسب خبرتنا اللغوية، وثقافتنا الأخلاقية والسيكولوجية والدينية، وهي محدودة كما ذكرنا، وليس من بينها - كما هو ملحوظ - إشارة مباشرة للقيم الإنسانية الكبرى (الحق، والخير، والجمال)، وهي القيم بفروعها التي اهتم بها العلماء والفلاسفة والروحانيون وعلماء الأخلاق والتصوف، وإن انطوت بعض الجمل، والعبارات اللغوية على إشارات مبطنة، ومستفادة بالتأكيد من لغة الوصية، ولكن قد يقع الاختلاف، وتفاوت الاجتهاد فيها بين الباحثين، أو بينهم وجمهور القراء، ولم يذكر منها مباشرة ولمرة واحدة سوى مصطلح قيمة «الحق».

ومن هذه القيم المذكورة مباشرة (الحق، الزهد، الشكر، الطاعة وبخاصة استقلال كثير الطاعة، العفو، والشر، العلم، العمل، الغفلة، التيقظ، العقل، استكثار قليل الرزق، والقناعة، الحرص، قصر الأمل، الطمع، اليأس، العجب، المعرفة، الصدق، الذكر كثرة الاستغفار، التسويف، التواني، شدة الندم، الرحمة، العز، الدعاء، المناجاة، التوسل بمختلف حالاته، الإرادة، بعد الهمة، اليقين، العافية، الشرف، العدل، الإنصاف، الجور، الجهاد، مجاهدة الهوى، رد الغضب، المعصية، حب البقاء).

ويمكن - الآن تصنيفها وتوزيعها - بوجه عام ك (قيم إيجابية ومعتبرة ومختلطة)، وتقابلها من جهة أخرى (قيم عصابية سلبية) بمحددات الوصية ورؤيتها الشرعية في الجدول التالي:

القيم الذاتية (السلبية)	القيم الموضوعية (الإيجابية)
(الشر، الغفلة، الحرص، طول الأمل، الطمع، اليأس، الرجاء الكاذب، العجب، التسويف، التواني، الجور، الكذب والتكذيب، الخيانة، الظلم، ذم الآخرين والعدوان اللفظي عليهم، الجزع، الرغبة، موافقة الهوى، إزراء النفس وتحقيرها، قساوة القلب، رد الفعل بالغضب، المعصية، الثقة بغير المأمون، فقر القلب، حب البقاء، التفریط).	(الحق، الزهد، عظيم الشكر، الطاعة وبخاصة استقلال كثير الطاعة، العفو، العلم، العمل، التيقظ، العقل، التشاور، استكثار قليل الرزق، القناعة، التذكر، قصر الأمل، المعرفة، الصدق، صدق الخوف، الذكر وكثرة الاستغفار، شدة الندم، الرحمة، العز، بقاء العز، التوبة، الدعاء، والمناجاة، التوسل بمختلف حالاته، الإرادة وعز اليأس، إماتة الطمع، ذل الطمع، وبعد الهمة، اليقين، العافية، التوفيق، الشرف، العدل، الإنصاف، الجهاد، مجاهدة الهوى، مخالفة الهوى، رد الغضب، المنافسة في الدرجات، أداء الفرائض، استصغار الدنيا، غنى النفس، المبادرة بانتهاز البغية).



وهذه القيم - حتى بمحدودية عددها، وتداخلها في مسمى اللفظ، واختلاطها بالانفعالات والدوافع وبعض المصطلحات الأخلاقية والدينية وغيرها - تحتاج في نظرنا لدراسة مستفيضة، ولو في نطاق بحث مصغرٍ مُركّز، وتحديد أثرها في عمليات الاتزان النفسي والانفعالي للفرد المؤمن أو في مقابل ذلك إحداث مظاهر سوء تكيف وتوافق نفسي، ومع ذلك فقد رنا الذي لا مناص منه في هذا الموقع من بحثنا عن وصية الإمام الباقر بإرشاداتها المختلفة بخاصة الأخلاقية والتربوية والدينية أن نجتهد في الكتابة المختصرة عن القيم ووظائفها، وما يترتب عنها من انعكاسات إيجابية وسلبية على مستوى الشخصية المؤمنة في زماننا، ولهذا صاغ الإمام الباقر عبارات توجيهاته ليحمي الفرد المؤمن من غوائل الزمان ومخاطر الدنيا بشهواتها القاتلة.

وتقتضي عملية مرورنا العابر بالقيم الإنسانية وتأثيراتها وانعكاساتها على الحياة الفردية والاجتماعية أن نضع بعض العبارات كنموذج للتحليل الأخلاقي - السيكولوجي، ومعرفة آثار هذه (القيم إيجابية أو سلبية) في كيان الشخصية المؤمنة بوجه خاص، وأي إنسان بوجه عام، وهي فقط - لمجرد التمثيل المعرفي - لهذا الموضوع الحساس، والحيوي، وقد عقدنا له هذا الفصل المستقل، والمفرد من هذا الكتاب لأهمية القيم وتأثيرها في تشكيل السلوك الإنساني وتعديله، ودوره في تنظيم الحياة الفردية للإنسان المؤمن.

أسس وأساليب تعديل الاستجابات السلوكية الانفعالية:

تعتبر في حقيقتها أسساً ملحوظة لتعديل سلوك الذات في مجالاته المتعددة، ولكننا نكتفي هنا بما يناسب عمليات ضبط السلوك الانفعالي لإدراكنا أن أمر الانفعالات صعبة الضبط والتعديل، والإدارة، بل أن كل تجريح أو إنقاص يحط بكرامة الإنسان تستثيره إنسانية الإنسان، ومتى نجح المربي في استخدام نص هذه الوصية ومضامينها في ترشيد سلوكنا الانفعالي ندرك أننا أضعفنا تأثير امتداداتها إلى جوانب أخرى من شخصية الإنسان نفسه، ومتى تم ضبط الحالات الانفعالية انعكس ذلك بآثاره الإيجابية على الجوانب المختلفة للشخصية.

ويمكننا بنظرة اجتهادية كذلك تحديد بعض الأساليب السوية لتعديل استجابات السلوك الانفعالي ليكون صحيحاً بدرجة معينة، وضبطها وتنظيمها بما يتفق مع المحددات الشرعية الإيمانية المشار إليها في نص هذه الوصية الإرشادية، ومنها ما يأتي:

١. استخدام مبادئ التربية الجهادية للذات، ومقاومة هوى النفس في مواقف

انفعالية مختلفة.

٢. عدم معاملة الآخر باستجابات مماثلة.
٣. ضبط النفس على التوازن بين مدح الذات وذمها.
٤. استخدام التفكير والتأمل الذهني الذاتي.
٥. الاعتبار والعظة من تحذيرات الوصية من السقوط من عين الله وأعين الناس معاً.
٦. استخدام القيم الأخلاقية كأدوات ربانية في تحقيق غلبة الفرد على هوى نفسه ومطالبها المنحرفة.
٧. الترويح عن الذات وتحقيق مستوى معقول من إجمام القلب.
٨. بذل كل ما أمكننا لتقليل الأخطاء.
٩. تزيين النفي بصدق الأعمال.
١٠. كثرة الاستغفار، وكثرة الذكر في الخلوات لتلين القلوب وترقيقها.
١١. المسارعة إلى تعجيل الانتقال إلى الله بالأعمال الصالحة.
١٢. استخدام الندم بصورة سوية، والاستعانة بحسن المراجعة لسلوك الذات.
١٣. إيقاظ الضمير بشدة التيقظ الذهني والوجداني.
١٤. استخدام تجربات روحية حية والمداومة عليها كالأدعية، ومناجاة الله في الظلم شكرًا له.
١٥. دفع الأضرار عن الذات بطلب الفضائل وترسيخها.
١٦. استخدام طريقة المعالجة بالأضداد.

الحلقة الثامنة

مبادئ الإرشاد النفسي والأخلاقي في وصية الإمام الباقر عليه السلام
ودورها في تنظيم السلوك العبادي

مقدمة

نسعى في هذا المبحث من كتابنا الذي بين يديك عزيزي الكريم - وبمنظرة هي بطبيعة الحال اجتهادية لا تلزم أحداً - تحديد مجموعة من المبادئ السيكلولوجية التنظيمية، والموجهة لسلوكنا وأفعالنا البشرية، والحديث عنها كمبادئ إرشادية واضحة في نص وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي رحمه الله تعالى، ومفردات تركيبته اللفظية، وبعض فقراته، وعباراته، ومحتواه المعرفي والقيمي والسيكلولوجي، وغرضنا من ذلك الاطلاع على منظومة هذه المبادئ وتحديد كجزء حيوي وهام من البحث لكشف المزيد من الثروة المعرفية والسيكلولوجية من محتوى هذه الوصية الكريمة، وتحديد أثرها وفعاليتها وقيمتها التربوية في السمو والارتقاء الطبيعي بالإنسان المؤمن وتكوين شخصيته العبادية.

ونحن هنا نفعل ذلك بدوافع البحث، ومحاولة الاجتهاد الفكري، ولا نزعم بالتأكيد أننا نأتي في هذا الموضوع بشيء جديد، ولا نبالغ في مقاصد الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وقد رنا - كبشر - أن نبدأ المحاولة الأولى التي تصيب أو تخيب، وكي توضع هذه التجربة للقراءة والفهم والتمحيص والنقد بغرض تطويرها، وتوظيفها في عمليات التربية الروحية والمعرفية في زمن صعب يواجه جموع المؤمنين بالإسلام وتعاليمه وقيمه، والتأمل في المادة الإرشادية والمعرفية والروحية لهذه الوصية بمحتواها القيم وفهم موضوعه، وتحليل مادته، والاستفادة من معانيه في عمليات التوجيه والإرشاد للشخصية العبادية، واستثمارها كذلك في عملية (انضباطها) وسلامة تكوينها الإيماني والعقائدي والمعرفي والسيكلولوجي في هذا الزمن الصعب.

١. مبدأ التوبة وإعادة تعلم السلوك العبادي وممارسته.

ذُكرت التوبة بلفظها، وحروفها الأصلية مرّة واحدة في سياق المقطع اللفظي الثاني الذي حدد فيه الإمام الباقر عليه السلام للفرد المؤمن وظيفته العبادية بعد سقوطه في انحرافات السلوك، والابتعاد عن منهج الله تعالى أو وقوعه في ذنوب ومعاصٍ، والتوبة في مفهومها الإسلامي عملية علاجية لانحرافات الفرد المسلم، ومحاولة عملية لتغيير واقع وحال الفرد من معاصيها وذنوبها بحسنات وفضائل، وعادات السلوك العبادي المستحسن بما يتفق والتكليف الشرعي للفرد.

فقد جاء في هذا المقطع قول الإمام محمد بن علي الباقر عليها أفضل الصلاة والسلام، وبلغة مباشرة عن هذه العملية الجهادية المهمة: «إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش ويقبل الله عشرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١)».

إن نص الوصية يقرر أن التوبة، وهي مقترنة -كما هو ملحوظ- بانفعال الخوف من الله، ومحبه عز وجل، وبدافعية المعرفة وطلب التغيير، والخشية من السقوط الاجتماعي وضغوطاته، عامل محرّك لتحرير النفس من ضغوطات الشهوة المحرمة، وما يصاحبها عادة من سلوك غير سوي، ورغبتها من جهة ثانية في إضفاء خصائص سلوكية جديدة تنقي الذات، وتقدمها للناس في صورة أفضل.

ويفهم من لفظة التوبة كما ورد ذلك في بعض كلمات نص الوصية أنها ثورة وجدانية

وعقلية وسلوكية على الغفلة، وسالف الذنوب، وهي استجابة منطقية لتحرير النفس من أصفاد الذنوب وسجن الشهوات ورواسبها، ورغبة لتحرير الذات من غوائل الانحراف والفساد الأخلاقي، وإنقاذها من بحر الهلكى كما وصفها الإمام الباقر (عليه السلام) في وصيته، ومن غرقها في الخضوع شبه التام لضغوطات الشهوة الفاسدة المحرمة، ويفترض في هذا الحال الذي تعيشه الذات أن نهاية التوبة هي حالة فزع حقيقي، ومخافة فعلية من الله سبحانه، ومحاولة للوصول إلى استبصار وزيادة في مستويات الخوف من الله لإنقاذ النفس، وتعميق أقوى لورع الفرد واثقاء محارم الله سبحانه.

ويعود نص الوصية الإرشادية إلى تأكيد إشارته بطريقة مباشرة، وغير مباشرة (للتوبة) كضرورة تربوية في الجزء الأخير من المقطع الثاني من نص وصية الإمام الباقر (عليه السلام)، ويقدمها كمجاهدة نفسية، وضرورة من ضرورات الحياة الفردية، ويبين أهميتها في تعديل السلوك الفردي للذات من حال أسوأ إلى حال أفضل يكون أكثر قرباً من السلوك العبادي وعاداته، ولكن بمفردات جمل تحذيرية من الذنوب والمعاصي، وتحذير من التسويف بشأنها، والتواني فيما لا عذر فيه، والغفلة عنها، والرضا بحالة الذنوب والمعاصي، واستسلام المرء للموبقات وضغوطات، وحث الوصية الباقرية على بدء عملية التغيير النفسي والسلوكي، ومقاومة إشباع الشهوات المحرمة، والاستمرار في هذا النهج.

ولنقرأ الجمل التالية، وهي من مفردات الوصية الميمونة كإشارة للمعاصي وذنوب الفرد:

- «وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ».
- «إيّاك والرجاء الكاذب فإنه يوقعك في الخوف الصادق»؛ لأنَّ الفرد يكتفي

بهذا الرجاء، ولا يزين نفسه بصدق الأعمال.

- «إيّاك والتسويق، فإنه بحر يغرق فيه الهلكى، وإيّاك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم».

- «وادفع ذل الطمع بعز اليأس».

- «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنوب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها».

إنَّ التوبة مبدأ وجداني - معرفي موجه للسلوك وعمل الفرد في تجربته الجهادية الجديدة، ويُمكن الفرد المؤمن من التحرك الميداني بثقة مع نفسه باتجاهين يصطرعان في داخله، أحدهما يقاوم فيه التائب العوامل المعوقة لتوبته كالتسويق والرجاء الكاذب والغفلة والتواني أو الركون إلى الأعذار، والخضوع لسالف الذنوب وضغوطاتها عليه، والاتجاه الآخر يدفعه نحو عملية تغيير نفسي وسلوكي، وتعديل إيجابي للسلوك، وإضافة الصفات العبادية والفضائل التي تزين نفسية الفرد بصادق الأعمال، فيتنظم سلوك الفرد المؤمن بعد غلبة الهوى باسترشاد العقل والعلم معاً، ويتحقق التعديل العبادي المراد، وترضي النفس ربّها الله سبحانه عنها، ويشعر فيها الفرد بالرضا عن نفسه وأدائها.

ويلحظ أن بعض نصوص الوصية ومقاطعها اللفظية ربطت بين بعض عوامل إعاقَة التغيير لدى الذات، وبين نتائج الإعاقَة على الذات كارتباط تكوّن (قساوة القلب بالغفلة والاستمرار عليها)، و(هلاك الذات الغارقة في ذنوبها بعملية التسويق، والتواني بأعذار لا تسمن ولا تغني عن جوع عن فعل التوبة والقيام بها)، أمّا بعض جمل الوصية وعباراتها فتشدد على ضرورات تحرير النفس من قيودها وأصفاد الشهوة،

وأغلال وعوائق الذنوب وضغوطاتها بطرائق عبادية مثل قول الإمام محمد الباقر (عليه السلام) في جملة من وصاياه:

- «وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ».

- «واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء، والمناجاة في الظلم»، ويقصد دعاء الله وصلاة الليل، والاستغفار في أوقات هجعت فيه أعين الناس، وبقيت أنت وحيداً في مناجاته سبحانه وتعالى عسى أن يمسح عنك هموم ذنوبك وتبعاتها.

- «وادفع ذلّ الطمع بعزّ اليأس»، وبخاصة مطاعم الشهوة ومطالبها التي تذلل الإنسان وتهينه كأن يتودد للمنحرفين بالحصول على فرصة سرقة أموال الناس، أو الدخول معهم في رشاوي فساد مع علمه بنواياهم في السيطرة عليه، أو مجامعة امرأة بالحرام، وهو يعلم أنّها تتخذ من هذا العمل القبيح مستمسكاً لإذلاله، وفضحه، فالاستجابة لشهوة بطريق محرّم وغير سوي هي في حقيقتها عملية طمع داخلي مقيت يصاحبه إحساس إذلال مريض.. علني أو خفي.

٢. مبدأ البحث عن اللذة وتجنب الألم.

زودنا الله سبحانه، وفي تركيبتنا الآدمية بـ (قابلية مزدوجة لفعل الخير أو الشر)، ولكن منّا علينا بنعمة أخرى تجعل الآدمي بقابلية فطرية يميل إلى طلب اللذة، وفي مقابل ذلك لديه رغبة، فطرية أيضاً بـ (تجنب كل ألم) يتحسسه، فهذا الإحساس بمظهره فطري لا يختلف فيه عباد الله جميعهم، فكل فرد منّا مساوٍ للآخر في البحث عن اللذة وتجنب الألم أو العقوبة أو ما يتهدد حياته، فالناس يطلبون في النهاية (لذة) تريخهم، ويتجنبون الألم ويهربون منه، وإن كان الكثير منهم يطلب (اللذة) فلا يصل لها، ويحاول

(تجنب الألم) لكنه يقع فيه، ويتألم بلا خيار ذاتي أو مطلب منه.

وما نراه أن مفردات النص الإرشادي لهذه الوصية لم تغفل في بعض إشارات هذا المبدأ الفطري في تكويننا الداخلي، إذ تنطوي بعض جمل وعبارات هذه الوصية علناً، أو بشكل مبطن، وفي سياقها اللفظي الداخلي على ميل لطلب الفرد من اللذة، ويتجنب الألم، بل أن نصائح الإمام الباقر (ع) وإرشاداته تحقق هذا المبدأ فعلياً وتشير إليه حتى وإن لم يدرك بعض قراء هذه الوصية ذلك في إطار فهمهم لهذا المبدأ (طلب اللذة والبحث عنها، وتجنب الألم والهروب منه).

فأهداف هذه الوصية الباقية الكريمة تنطوي على مشاهد بحث عن لذة، ومشاهد ميل لتجنب الألم، ففيها رغبة في محبة الله وطاعته، ومعرفته، وهذا تعبير حي ينطوي على طلب لذة تريح النفس عن همومها، وتميل النفس، وبرغبتها الفطرية الذاتية إلى البحث عن مخرج لتجنب الوقوع في الألم الذي يوجعها، فتجهد النفس ذاتها في مجاهدة الشهوات ومقاومتها من أجل تحقيق إشباع لمحبة الله، وتحقيق انتصار موضوعي تتذوقه النفس، وتتجنب في الوقت ذاته آلام المشكلات النفسية وغيرها الناجمة عنها، وعن ضغوطات الآثام والذنوب، وتسعى إلى تجنب العقوبات الإلهية، وتهديداته لنا بنار جهنم وشدة حرارتها على أجسامنا الضعيفة، هذا بوجه عام طلبها الأكبر (بحث عن لذة مقنعة ومريحة) تكمن في محبة الله وطاعته وعشقه، وفي الوقت نفسه يمكن بهذا الطريق تجنب الألم، والعقوبة، وبعد ذلك تتوزع في المساحة الكلية لنص الوصية مشاهد ومظاهر طلب اللذة وتجنب الأذى والألم.

لقد عبّر الكائن الأدمي عن ميله للتفاعل مع هذا المبدأ بمظاهر كبرى وفرعية، فالفرد على سبيل المثال يود تحقيق توافق نفسي، والوصول إلى إشباع إحساسه بالسعادة، وبحاجته من الأمن والارتياح النفسي، ورغبته في الرضا الداخلي عن نفسه، وعن ربه،



ومجتمعه، ومحيطه، ولهذا فإن مفردات الوصية وجملها وعباراتها تحقق للفرد المؤمن بعض آماله كطلبه في إشباع (لذاته) التي يبحث عنها بقدر معين يناسب قدراته الذاتية، وتمنحه بعض القدرة على فعل الطاعات، وتجنبه المعاصي، وتجعله يميل بفطرته من كل مشاعر الاستياء الناجمة عن الآثام التي اقترفها، ويسعى بتركيبته الداخلية للتحرر من ضغوطات الذنوب وإزاحتها من داخله النفسي ما أمكن، وتخفيف مستويات الشدة المرتبطة بحالات الصراع الداخلي وبحالات ومظاهر التوتر النفسي والتأزم الداخلي.

وإذا ما قدر للفرد المؤمن بتأثير مضامين هذه الوصية وتوجيهاتها المؤثرة عبادياً أن يبدأ من داخله ثورة سلوكية على ذنوبه، ويظهر غلبة على هواه ومعاصيه، ويخضع نفسه تدريجياً لأحكام التكليف الشرعي وضوابطه، ويتلافى كل الآثار التي ألحقت الضرر بشخصه، يكون الفرد المؤمن قد طلب (لذة القرب من الله)، ولذة توافقه الشخصي مع نفسه، وطلب سعادته، وتجنب من ناحية ثانية الآلام والعقوبات الناجمة عن معاصي استطاع السير على نفسه بنحو مريح نسبياً، وتطويع عالمه الداخلي لتقبل الفضائل، والتجاوب الإيجابي مع الاستعدادات الخيرة.

ونتساءل.. أين يجد الفرد المؤمن بعض (لذته)، ويتجنب آلامه في النص الكريم؟

ذكرنا - هنا وهناك - إشارات كبرى لذلك، ونقف عند إشارات من هذه الوصية فحسب، ونترك للقارئ فرصة تأمل غيرها، والاستماع لتحليلات الباحثين ورجالات الفكر بشأنها، فالوصية مليئة بنماذج وأمثلة تطبيقية لمبدأ (البحث عن اللذة، وتجنب الوقوع في الأذى والألم).

١. النموذج الأول.

من ذلك ما ذكرناه من استخدام متكرر للموقف الذي يدعو فيه الإمام الباقر  لكف النفس عن السلوك الخاطئ، وإظهار استجابات معاملة بالمثل، ففي الاستجابة لكلام الإمام وتوجيهه لذة داخلية لا يتحسسها من يرتبط بعمق ولاء مع الإمام وقيمته، وكان بمثل هذا الموقف الإيجابي من الناحية العبادية قد تجنب فعلياً (ألم عقوبة مخالفة إمام مفترض الطاعة، ويجب الامتثال لأوامره ونواهيه)، ومقابل ذلك تجنب آلام مشكلات ناجمة عن آثام وذنوب مماثلة لسلوك الناس من ظلم أو تخوين أو تكذيب، وغير ذلك، وبروز حالات من عدم التوافق، ومشاعر القلق، والشعور بالتهديد، وهذا كله من مظاهر إيقاع النفس في الأذى بخلاف ما دعا إليه الإمام الباقر .

٢. والنموذج الثاني.

وفي دعوة الإمام للمؤمن بمجاهدة نفسه وكفها عن المحارم والآثام، والإشباع بطرائق محرمة، وتحقيق شيء معتبر من البصيرة وخافة الله والمعرفة هو في حد ذاته (بحث عن لذة، بل ووصول إليها)، ومقابل ذلك نجد في حالة الانصياع التام أو الجزئي لهذه الشهوات (معصية، وآثاماً جديدة تكون عادة مصحوبة بشحنات انفعالية، وآلام نفسية، وعبرت الوصية عن ذلك على موقف (فشل) في تحقيق الغلبة على هوى النفس، وموقف صراع نفسي داخلي بين رغبتها في الانتصار على هوى النفس، وإحساسها بالعجز المؤقت، وهذا ما ينشأ عنه شعور (بالفشل)، وبعض التوتر والقلق، حتى ينعشه الله سبحانه بنصر مؤزر يحسم المواجهة مع النفس، ويطيح بآمال إبليس ووساوسه ونوازعه الشيطانية، والمهم في مثالنا هذا (تلذذ في لحظة الانتصار على الشهوات، وسعي الذات لتجنب الألم، وفشلنا في الخلاص المؤقت من آلام الشهوة، وإخفاقنا في تحقيق انتصار عليها).

٣. النموذج الثالث.

وفيه توصية الإمام الباقر (عليه السلام) الرشيدة بضرورة (التيقظ الذهني) وإدراك نتائج الأمور وعواقبها بتأمل وعقلانية نموذج ثالث يشعر فيه الكائن الآدمي بـ (اللذة الحلال) المقبولة من نظرة عبادية، ومقابل ذلك (تجنب الألم) وما يصاحبه من أذى، ويتلمس ذلك بإبقاء النفس تحت مظلة الغفلة، وتبعية الهوى، وتقاضفه بمستقبل الكائن الآدمي، ويعبر هذا الموقف من هذا النموذج عن (معصية) بمعيار عبادي محض، (وَألم) من منظور نفسي.

٤. النموذج الرابع.

ويمكن بنحو مجمل الإشارة إلى بعض اللذات في نص الوصية مثل (طاعة الله، كف النفس عن اتیان سلوك محرم، عدم معاملة الآخرين بالمثل، الحصول على ثواب مجزٍ من الله من غير تعب في بدن العبد، السيطرة على النفس بمخالفة هواها، غلبة الهوى، شكر الله، التيقظ الذهني، طلب العفو، التعرض لرحمة الله، الاسترشاد بالعلم، إجراءات ضبط السلوك لوقاية النفس من مخاطر الهوى، استبقاء خالص الأعمال ليوم الجزاء، إثارة القناعة، اتقاء الحرص، حلاوة الزهد بقصر الأمل، السيطرة على اليأس، تغيير واقع إعجاب الآدمي بنفسه بمعرفة النفس، راحة النفس، إجمام القلب، قلة الأخطاء، ترقيق القلب، ملء داخله بالحب والعواطف الجياشة، والصدق في أداء الأعمال، شدة الندم مداومة الحزن لتصفية سالف الذنوب، كثرة الاستغفار والذكر في الخلوات، حسن المراجعة، إبقاء عز النفس، تنمية بعد الهمة، المبادرة الإيجابية، المنافسة على أداء الأعمال العبادية) فجميع هذه الأعمال العبادية تصاحبها إحساسات باللذة الحلال المقبولة، والتوافقية.

ونجد في مقابل الأمثلة السابقة يمكن تجنب المعاصي ومآزقها، وتجنب حالات أخرى مصاحبة لها، فيتمكن الفرد من (تجنب الألم) كتجنب الفرد للغفلة، وتجنب التسويف، والابتعاد عن التواني فيما لا عذر للإنسان فيه، والتقاعس عن كبج الذنوب، وإضعافها، ففي تجنب هذه المعاصي يمكن تخفيف آلام النفس، وربما تجنب عقوباتها، وغالباً ما تكون ذات طبيعة نفسية لاحتمال استمرار مشاعر القلق، وأحاسيس الإثم، وبقاء تأثيرات حالات الاستياء الناجمة عن وجود آثام في حياة الفرد، وضغوط مرتبطة بحالات من الصراع الداخلي وآثارها في نفسية الفرد، ويمكن للقارئ العزيز بعد عرض نماذج تطبيقية لهذا المبدأ أن يبذل جهداً أكبر للتفتيش عن بعض المظاهر المعبرة عن طلب اللذة وتجنب الألم في سلوك الكائن الآدمي، وبخاصة الفرد المؤمن، ولن تضيق به عبارات هذه الوصية ولغتها.

٥. مبدأ الإثابة والعقوبة.

عادة يعقب أداء سلوك طيب، وتم بنجاح تقويته بمكافأة أو إثابة مجزية تشعر الكائن الآدمي بالرضا والارتياح والثقة بعبء المربي والمرشد وعدالته، والمنطقي كذلك أنه إذا صدر سلوك مضاد ومخالف للأنظمة والقوانين والأعراف والقيم الدينية كالمعاصي على سبيل المثال، فثمة عقوبة تنتظر الفرد بصيغة قانونية بدنيته أو دينية في عالم الآخرة، وقد يتعرض لعقوبة سيكولوجية ناجمة عن الشعور بالإثم، وما صاحبها من مشاعر استياء نجمت عن وقوع المعصية أو مخالفة القوانين والسلوك الديني أو الاجتماعي، وبقاء النفس مسرحاً للتناقضات وصراعات الداخل مع قيم الفرد واتجاهاته الإيجابية.

وتعرضنا فيما تقدم لميل الفرد فطرياً نحو طلب اللذة، وهي في سياقها الطبيعي بمثابة مثوبة ومكافأة منطقية يبتغي الفرد الحصول عليها، ويعادل هذا الميل ميلاً آخر في داخله لـ (يتجنب الألم) بالابتعاد عن مصادره كارتكاب المعاصي، أو المخالفات، وهي

مرتبطة بالعقوبات المؤلمة، لذلك يجب نفسه الابتعاد عن كل ما يسبب له ألماً، وبذلك فالإثابة والعقوبة مرتبطة بمبدأ البحث عن اللذة وتجنب المعصية، وتحقيق العدالة في ضبط السلوك وترشيده.

وتبسط الوصية أمثلة متفرقة في نصها، وألواناً من الإثابة والعقوبة، إمّا فعلية أو التهديد باستعمالها، وكعادتنا في تحليل مظاهر كل مبدأ نحتاج لمثل هذه الأمثلة الدالة على التوجيه الإرشادي في نص هذه الوصية، وليبيان بعض غوامضها وتفسيرها، وإثبات قدرة النص التربوي الإسلامي على فهم النفس البشرية والتعامل مع خصائصها بإيجابية قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وأنّ العمل بالوصية بأكملها وتنظيم قيمها الإيجابية على إدارة الذات بما يرضي الله يؤدي إلى الإثابة المجزية يتساوى ومقدار جهد كل فرد على حدة، وبعكس ذلك يترتب على عدم الانضباط بمفاهيم الوصية ومحتواها المعرفي عقوبات دنيوية أو أخروية، وهذا لا يخفى على الفرد المؤمن، فالمرء مرهون بعمله، وبمقدار المشقة فيه.

ومرّ بنا في مقطع من النص بذكر مباشر للفظ (الثواب) حينما حذر الإمام الباقر بلغة مباشرة، جابر الجعفي عليه رحمة الله، وكل مؤمن من السقوط الدنيوي والأخروي، حيث قال (عليه السلام) فيما قيل في الفرد من أقوال ظالمة، وأهمية التفكير فيه لمعرفة نتائج العمل: «ثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك»، ولقد ارتبطت الإثابة في نص الوصية بمظاهر أخرى غير مباشرة، وكلها ذات طابع عبادي، وبالتالي فالمكافأة والإثابة إما مصدرها إلهي في الآخرة أو مكافأة للنفس قريبة تحصل في الدنيا من الله تعالى أو من تقدير المجتمع، فيشعر الفرد المؤمن بشيء من السعادة والرضا والارتياح النفسي، فاستجابة المؤمن لوصية الإمام في عدم رد العدوان بمثله هو في حد ذاته فرصة للإثابة الإلهية، وهو كذلك فرصة لحصول الفرد على راحة النفس لعدم مخالفة أوامر الإمام الباقر، وهي

بالتأكيد طاعة كاملة لله سبحانه، وشعور بالراحة والرضا لتجنب الفرد آلام الصراعات النفسية ومشكلات القلق وحالات الاستياء المتولدة عن معاصي وقبائح السلوك، وغير ذلك.

ويتكرر الحال في نجاح عملية المجاهدة النفسية لدى المؤمن، واستبصار النفس بالمعرفة السليمة التي تحول دون وقوعه في الذنوب ومشكلاتها، وكذلك في كل القواعد السلوكية الصحيحة التي حددتها الوصية، وحثت على العمل بها، فهي جميعاً مرتبطة بنتائج إيجابية، وبأنماط من الإثابة إما في دنيا الفرد أو في آخرته، من الله سبحانه أو في صورة تقدير اجتماعي من الناس، وبالمقابل ترتبط العقوبات بأشكالها المختلفة بمعاصي، وذنوب وبمخالفات دينية متعددة أشارت الوصية الباقية لبعضها، وأول هذه العقوبات ما ذكرته الوصية من سقوط اجتماعي (من أعين الناس)، وسقوط أقسى، وأكثر صعوبة أن لا يجد الآدمي رضاً من الله سبحانه وتعالى، فيسقط وزن عمله، ويذهب سدى لا قيمة له، سواء صحَّ ما قيل فيه من أفكار ومعتقدات أو كان على شكل وساوس وتخربات واستفزات عدوانية.

إن الوصية ربطت بين تحذيراتها في نقد مواقف الفرد من التقاعس عن مواجهة السلبات والردائل، وما ارتبط بها من عقوبات كالانغماس في الطمع لحد الذل، وخداع النفس بالرجاء الكاذب، والتسويق عن تغيير النفس، وتغيير ردائلها وقهر معاصيها، والغفلة، وقسوة القلب، والتواني، والتساهل مع سالف الذنوب، واستهانة الفرد بذنوبه حتى يقبل بالحالة التي يكون عليها ولا يغيرها، ولا يحسن من سلوكه، والرغبة في حب البقاء، وتفويت فرص التغيير واستغلالها في الخير، فالنتيجة المأمولة هي الخسران، فجميع هذه الحالات المرضية (ميدان يجري لأهله بالخسران) كما بينت الوصية الباقية في آخر جملة من نصها الراشد.

٥. مبدأ الفضل على الآخر.

لا تتساوى الحياة في أشكال الاستجابات الصادرة عن أهلها من مختلف أصنافهم، وغالبها إمّا بالمثل أو أسوأ منها، ولكن الاستجابات المثلّية نادرة كعملة الذهب في غابر الأيام، ولا تصدر إلّا عن النادرين في تاريخ البشرية في خلقهم وإنسانيتهم، وقَدّموا نماذج لا تنتهي من سمو أخلاقهم، ومن نصائحهم لأصحابهم، وكلها تسمو عن تصرفات الناس، وتجعل لهم دائماً فضلاً على الغير، ومن شواهد التاريخ أن يجد بعض الأمويين وزعماء قريش أنفسهم مهزومين في قبضة النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، ويتسامى عليهم ويطلق سراحهم من أسرهم، ويعرفون بعد ذلك في التاريخ بـ (الطلقاء)، ويسيطر معاوية وجنده على الماء في حربهم بصفين مع الإمام علي (عليه السلام) ويمنعونه عن جنده، ولمّا بسط علي (عليه السلام) وجيشه سيطرتهم على ماء الفرات سقوا جند معاوية^(١) وقد أوشكوا على الهلاك لنقص مائهم، ولم يعاملوهم بالمثل كما فعل معاوية وجنده، ولالإمام الحسين (عليه السلام) أكثر من موقف في الفضل على غيره بخاصة أعداؤه، ونذكر أنه سقى بيده جمل علي ابن طعان المحاربي، وروى (عليه السلام) جند وخيل جماعة الحر بن يزيد الرياحي التميمي عند التقائهم بهم.

وتتابع سمو الخلق الرفيع في أدبيات وممارسات أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، قال أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) في توجيه لنا وللمؤمنين، وبنص خارج عن الوصية الارشادية: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَعَامَلَ أَحَدًا إِلَّا وَلَكَ الْفَضْلُ عَلَيْهِ فَافْعَلْ»^(٢)، وجاء عنه (عليه السلام) قوله الكريم: «الغلبة بالخير فضيلة، وبالشر قبيحة»^(٣).

(١) اليعقوبي، أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٣٠.

(٢) الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، ص ٢١٣، والعلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٨.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٧٢.

ويستفاد من الحديثين السابقين أنهما يقرران مبدأ (الفضل على الآخر) بالاستطاعة الذاتية، في التعامل مع الناس، وهو خيار ممكن، بل أنه قدر لا مناص عنه في بعض الأحيان بالرغم من أن أساليب التعامل تتنوع عادة في حياة الناس مع بعضهم، ولكن ثمة فرصة دائماً للمتسامين منهم كي يستفيدوا من معاملاتهم، وباستثمار معنى الحديثين السابقين ومضمونهما في حركة تعاملهم مع الغير، فقد تعاملوا مع الناس من خلال توجيهات الحديث بأنه يكون للفرد منهم دائماً (الفضل على غيره) من الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فقد أوصى الإمام الباقر عليه السلام بالاستفادة من فرصة أن يكون للمرء الفضل على غيره، وهو سلوك جعله كلام الإمام محمد الباقر عليه السلام (فضيلة)، (وغلبة بالخير)، أي باستخدام أدوات الخير ونواياه الحميدة كما نص عليه الحديث الثاني.

وقدّم نص وصية الإمام الباقر في مقطعه الأول مظهراً لهذا التفضل الذي اعتاده أهل البيت عليهم السلام على غيرهم، ورغبتهم أن يكون سلوكاً بين الناس، وغرضهم إشاعة الفضل ومظاهر الخير بينهم، وبسمو نفس وبخلق رفيع، فمن المفترض بك مجازاة من يظلمك أو يُخَوِّنُك أو يُكَذِّبُك بالصمت أو بالخير كما أن بعض الناس يجازونه بالمثل غير أن أهل البيت عليهم السلام اختاروا لهم ولأصحابهم أن يكون لهم الفضل في المعاملة حتى لو ظلموا، وأسيء لهم، فكان طلبه عليه السلام من جابر أن لا يظلم من ظلمه أو لا يخون من خانه أو يغضب على من كذبه مثلاً صادقاً لمضمون حديثه: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَعَامَلَ أَحَدًا إِلَّا وَلَكَ الْفَضْلُ عَلَيْهِ فَافْعَلْ»، وقد أوصى عليه السلام بتوجيهه هذا أن يكون لصاحبه جابر الجعفي فضل المعاملة الحسنی على غيره، بترك ظلم غيره أو تخوينه أو الغضب منه ومعاملته بطيش وقسوة، وكما تقدم فهذه الدعوة تشجيع على سلوك تطبيقي، وهي على حقيقتها ليست موقفاً ذهنياً معزولاً عن مضمون قوله الآخر: «الغلبة بالخير فضيلة» بخاصة إن كُنَّا نملك أدوات القوة والقهر وإيقاع الأذى، وخلاف ذلك كما حدد الإمام

الباقر (عليه السلام) بما معناه (إن غلب بالشر فيكون عملنا قبيحاً وشريراً) وغير مستحسن يذكره الناس فيعاب بينهم على مدى الدهر.

وكما تقدم، فالمثال الأخلاقي الرائع في هذا الموقف ليس مجرد توجيه، بل هو تشجيع للناس على السمو بأخلاقهم، والانتصار على عادات الشر بعادات الخير، وأن غلب به، ونجعله في موازين الناس فضيلة لا تمحى من ذاكرتهم.

٦. مبدأ الستر وطلب الأمن:

من مبادئ تنظيم السلوك أن يطلب الإنسان الأمن لكيانه الذاتي، وأن يبحث عن ملجأ أو ما يشعره بالطمأنينة، يستر عليه عيوبه، وقبائحه، وسقطاته العلنية والمخفية لاسيما الأخلاقية، فالمنطقي أن تشغل قضية الأمن تفكير الفرد في دنياه، وفي آخرته، ويكثر الاهتمام بها عسى أن يجد ما يريحه، ويبعث في نفسه الاطمئنان والسكينة، فالأمن مسألة فطرية مركوزة في التكوين النفسي للكائن الأدمي، ولن يستطيع القيام بأدواره ووظائفه، وهو يشعر بالخطر، ويتهدده القلق.

لم ترد مفردة الأمن في نص الوصية الباقريّة الكريمة، لكن وردت جمل وعبارات استبطنتها هذه الوصية تشير لهذه الحاجة الأمنية، بل وتضفي عليها ضرورة في تنظيم السلوك العبادي بنحو جعلها كمبدأ سلوكي مهم، وهناك مواقف لفظة في باطن وصية الإمام الباقر (عليه السلام) تعبر عن رغبة الأفراد في البحث عن أمنهم، وكل ما يدفع عن أنفسهم الخطر ومثيرات الخوف ومصادر في البيئة المحيطة بهم من مشكلات واضطرابات، وصراعات داخل كيانهم النفسي الذاتي، وقد نبّه نص وصية الإمام الباقر (عليه السلام) إلى بعض مواطن طلب (الستر عن الذات) وهو مظهر أساسي لتحقيق أمنها، وستر عيوبها، ومقابل ذلك يحقق هذا إشباعاً لحاجة الأفراد في الأمن النفسي.

ويمكننا -بمتابعة النصوص القصيرة الفرعية الموزعة في باطن نص الوصية ومساحتها الكلية- أن نجد بعض مشاهد الرغبة في الاطمئنان التي يريد الإنسان وصول نفسه إليها، ولنقرأ بعض العبارات أو نتوقف عند بعض مفردات الوصية الشريفة، ونستنطق مدلولاتها الداخلية.

في المقطع الأول من الوصية يأمر الإمام الباقر (ع) - على سبيل المثال - صاحبه جابر بن يزيد الجعفي عليه الرحمة والرضوان بأن لا يرد على ظالميه أو مخونه أو مكذبيه أو القادحين بظلم، ولا تخوين، ولا جزع، بل يحذره من السقوط من عين الله، وأعين الناس، ويستبطن هذا الموقف خطراً على أمن الذات بسقوطها الدنيوي (من أعين الناس)، وبسقوطها الأخروي (من عين الله)، ولكنه يطلب أمرين:

أ - كف سلوكه عن الاستجابات المحرمة لياخذ الإنسان ما يستحقه من ثواب الله، ويطمئن على نفسه من عداوة الآخرين وانتقامهم، واستمرار غطرتهم، بل في مقابل ذلك يسعى إلى إظهار سمو خلقه بطريقة الأضداد بتغيير الرذيلة بفضيلة من جنسها، وجميع مظاهر هذا الموقف كما نراها هي «تعبيرات عن حالة رغبة في الأمن وستر الذات عن عيوبها، وقبائحها».

ب - والأمر الآخر هو التفكير فيما قيل فيه، فقد يكون قبلاً يستحق تعديله، فيطمئن على مصيره في الدنيا بعدم سقوطه من أعين الناس، ويبعث في الوقت نفسه شيئاً من الطمأنينة والسكينة بعالم الآخرة، فلا يسقطه الله تعالى من الوزن والاعتبار، وأهم من ذلك أنه إذا عرف أن ما قيل فيه ليس فيه كان ثوابه قدراً إلهياً من غير تعب في بدنه، وهذا في حد ذاته تحقيق لرغبته في الأمن النفسي، بل هذا غاية ما يريد من أمن على المصير.

وتتوزع في بعض جمل النص كلمات معبرة عن الخوف، وطلب الأمن مثل جمل: «ادفع عن نفسك حاضِر الشر بحاضِر العلم، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، وتَوَقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء»، فمواطن القلق والخوف وغيرها تتحدد في وجود ما أسمته الوصية بـ (حاضِر الشر) وعظيم الغفلة، أمّا مواطن طلب الأمن فهي (ادفع عن نفسك حاضِر الشر، وحاضِر العلم، وشدة التيقظ، وصدق الخوف بالأعمال الصالحة، ووقاية النفس من مخاطر الهوى، والاستعداد ليوم الجزاء بخالص الأجزاء، وغير ذلك).

هذا مجرد مثال للتأمل استبطنته الوصية، وتتقابل فيه كلمات، وجمل تعبر عن حالتي (الخوف على الذات، والرغبة في داخل النفس بطلب الستر، وتحقيق طلب أمنها)، كما يستبطن نص الواقف مواقف عديدة تطلب فيها الذات المؤمنة تحقيق حالة من الأمن لمستقبلها، والتحذير من المخاوف المضادة بخاصة في عالمها بالآخرة، ولا تحتاج الوصية إلّا إلى قدر من التأمل الذهني للحصول على رؤية موسعة في هذه المسألة تسمح بتكوين وجهة نظر معرفية موحدة ومتناسكة.


وتتجه جمل وعبارات من التركيبية اللفظية للنص، وهي من أشارت لمبدأ طلب الستر وأمن الذات، على تحقيق هذا المبدأ بطريقتين أساسيتين، كلاهما يتصل بالآخر ويحرك مساره في اتجاه الثاني ليلتقيا عند مصب تحقيق الإشباع (الكامل أو الجزئي) لرغبة الفرد المؤمن وحاجته في الأمن النفسي، وستر عيوب ذاته وفضائحتها عن أنظار الناس وذهمهم.

والطريقان هما:

أولاً: الطريق الوقائي:

وأول طريق يعتمد عليه المربي هو التربية الوقائية على قيم الإسلام وتعاليمه من أجل الاهتمام بالإنسان المؤمن، وتشكيل شخصيته العبادية، واجتمع في مشاهد من الوصية الإرشادية إشارات لمواقف وقائية ذات أولوية في العمل التربوي لشخصية المؤمن، ولحظنا هذا الجانب أو الطريق بيناً في مشاهد مذكورة، وهي كذلك مجرد أمثلة، وقد يتوسع غيرنا في تفصيلها، ومنها:

أ- في بعض العبارات كما في المثال السابق، وما ذكرناه من كف السلوك المحرّم، وتجنب السقوط بحالتيه في الدنيا والآخرة، فجميع عباراتها حول وقاية الذات من مخاطر السقوط، والبحث عن مواطن أمانة، ومريحة نفسياً لشخصية المؤمن.

ب- ويستوقفنا في الجانب الوقائي مشهد آخر من (حاجة الأفراد لطلب الستر للذات وتحقيق أمنها) ما طلبه الإمام محمد الباقر  من جابر في المقطع الثاني كي يعرض نفسه على كتاب الله للتأكد والثبات عليه، وتبشر الذات بأمن (حالة الثبات) بناءً على قربها من كتاب الله عز وجل (القرآن الكريم)، وما تلاه مباشرة من مجاهدة الفرد المؤمن لنفسه، بحثاً عن استبصار ومعرفة وأمن دنيوي وأخروي.

ج- وبعد ذلك نجد تتابعاً في مواعظ الوصية لنصح جابر، وكل المؤمنين تطالب تحت دفة البحث عن الأمن الأخروي بأن يستكثر الفرد لنفسه من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، وأن يستقل من نفسه كثير الطاعة إزراءً على نفسه، وتعرضاً للعفو، وأن يدفع عن نفسه حاضر الشر، وشدة التيقظ للتغلب على غفلته، والتحرز من إبليس وتحريضاته المستمرة على السوء واستمرار الغفلة، أداء الفرائض، ومخالفة

الهوى، واستبق خالص العمل ليوم الجزاء، وما تضمنته الوصية من وصاياها الوقائية المتفرقة في نصها الإرشادي، ثم تتشابك الخطوات والأنشطة الوقائية في وصية الإمام الباقر (عليه السلام)، فيضمن الفرد لنفسه شيئاً (كثيراً أو قليلاً) من الأمن النفسي للذات، ويستر عنها العيوب والقبائح، وتشعر النفس بالراحة كما جاء في الوصية بتحقيق ما أسمته بـ (الخوف الصادق).

د- ما قدمناه كان معززات في التربية الوقائية، ولكن هذه التربية تستخدم معززات سلبية وقائية، ولحظنا توجه النص إلى إثارة شعور الفرد المؤمن بالتحرز من إبليس بالخوف الصادق، ثم استخدام التحذير المباشر من عوامل سلبية مؤثرة على أداء الذات ويهدد رغبتها في تحقيق الأمن بمخاطر مثل: (الرجاء الكاذب، والتسويق، والغفلة، وقساوة القلب، والتواني فيما لا عذر فيه، والثقة بغير المأمون، وتفويت الفرص والتفريط فيها، فهي كما قالت الوصية الكريمة في آخر جملها «ميدان يجري لأهله بالخسران».

ثانياً: الطريق العلاجي:

قد لا تنجح الذات في وقاية نفسها كما هو حال كثير من الناس، وتقع في سلسلة عيوب وسلبيات ورذائل وقبائح، فتكون لدى الفرد، كل على حدة، حاجة ذاتية إلى تعديل سلوكه، وتغيير أفكاره ومفاهيمه، وعلاج آفاته الذاتية بالفضائل، والقيم الصحيحة، والتجارب الجهادية الناجحة، وإرشادات خبراء التربية العبادية، وفي صدارتهم أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، والاستعانة بمصادرهم المعرفية في تربية الإنسان وهدايته.

واختزنت الوصية الكريمة مشاهد تدرج في نطاق التغيير والتعديل، وطريق الناس لمعالجة أنفسهم، وتجلّى بعض أمثلة هذه المشاهد في مواقف جهادية كمطالبة الفرد المؤمن

لمجاهدة نفسه، وتمكنه من تخليص نفسه من صراعاتها الداخلية بالفرع إلى التوبة ومخافة الله، وزيادة وعي المؤمن بصيرة، ومعرفة، ونجاحه في الاستبصار، وقهر كل ما في نفسه من شهوات الانحراف، وتمثلت مشاهد فرعية في مواطن من هذه الوصية، حيث مرّت الوصية في بعض جملها على أهمية الطريق العلاجي في تحسين السلوك الفردي للمؤمن، وتعديل نظره إلى نفسه.

ونضع كالعادة مواضع استشهاد بعض الجمل التي تدل على دفع المؤمنين لاستخدام طريق معالجة بعض أمراض السلوكية، ولنقرأ، في شكل أوامر بعض هذه الجمل التي تحدد بعض أمراض السلوك، وطرائق علاجها مثل:

- «سد سبيل العجب بمعرفة النفس».

- «واسترجع سالف الذنوب» تلك هي المشكلة التي تستجمع رواسب الذات، وتعوق حرية التعديل والعلاج، ولكن كيف تكون معالجتها، يتابع نص الوصية إرشاد جابر، وكل مؤمن لمعالجة هذه المشكلة بقوله: «بشدة الندم وكثرة الاستغفار، وتعرض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم».

- ويذكر الإمام الباقر تنبيهاً يغرق فيه كثير من الناس وهو استهانتهم بالذنوب، فتحدد عبارته مشكلة استهانة بعض الناس بذنوبهم بما قال ﷺ: «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنوب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها»، ثم يتبعها بتوجيه لتحفيز الهمة والإرادة فيقول الإمام ﷺ: «ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى»، و«أنه لا شرف كبعد الهمة».

والملاحظ أن هذه الجمل والعبارات اتصفت بما يلي :

أ - انها تضمنت تحديداً لنوع المشكلات التي تواجه الأفراد في حياتهم، ولطبيعة العلاج الذي تحتاجه النفس من أجل تعديل السلوك وتحسينه لتجنب مشكلات (إعجاب الفرد بنفسه، وسيطرة سالف ذنوبه عليها، واستهانت بالذنوب التي تعصف بذاته، ورضاه بالحالة التي يكون عليها)، وهذا التحديد أول خطوات البرنامج العلاجي.

ب - ويلحظ في المفردات اللفظية لهذه الجمل اقتران (المشكلات) بمعالجاتها وطرق التغلب عليها مثل معالجة العجب بمعرفة النفس، وسيطرة رواسب النفس من ذنوب بسلسلة من الخطوات العلاجية كتفجير حالة الندم الشديد، واستكثار الاستغفار، وذكر الله في الخلوات، وطلب الرحمة والعفو الإلهي، وحسن مراجعة الذات والتفتيش عن أخطائها ورصدها، والسعي إلى تعديلها، والاستعانة بخالص الأدعية ومناجاة الله في ظلم الليالي بالصلوات، وقراءة القرآن، كذلك اقتران مشكلة (ذل الطمع) بمعالجته بعز اليأس، وبُعْد الهمة والإرادة، وقصر الأمل، وارتباط الاستهانة بالذنب ورضا المرء بها، وبأدوات وطرائق علاجها المتمثل بمجاهدة الهوى، والزهد وقصر الأمل، واستخدام نمط المقابلة بين أضداد السلوك، وأساليب أخرى.

ج - استبطنت هذه الوصايا الباقرية تشدداً في استمرار عملية (العلاج النفسي) وتعديل السلوك نحو أهدافه العبادية لمرحلة ما بعد وقوع التغيير الممكن، وتحقيق بعض التحسن الجزئي في السلوك، وعبرة «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها» تستثير وجدانياً وعقلياً همة الفرد المذنب، وتحذره من الاستهانة بذنبه في لحظة وجودها أو بعد مجاهدة نفسه، وإحداث تغيير معقول، ولا يتم السيطرة على هذه المشكلة إلا بوعي المواجهة، وتتابع الاهتمام بها، والتصدي لكل مظاهر عودة الذنب، واعتبارها مصيبة كبرى ومعصية من الكبائر.

د - ويلحظ في ذلك وضوح أهداف العملية العلاجية وهو طاعة الله وتحقيق حالات من الرضا النفسي الذي يحقق أمن الذات كما بسطنا القول في مواقع من مبحثنا.

هـ - تعادلت سياسة التوجيه في الوصية سواء في الجانب الوقائي أو العلاجي بين الدعوة إلى المبادرة الذاتية في انتهاز الفرص لبناء الجانب الوقائي للذات مثل قول الإمام الباقر عليه السلام لجابر: «وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس ببعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرص، ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحة الأبدان»، وكذلك توجيه الوصية للتحذير من إهدار فرصة التغيير، قالت الوصية: «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذل كذل الطمع، وإيّاك والتفريط عند إمكان الفرصة فإنه ميدان يجري لأهله بالخسران»، كلا المقطعين يتضمنان دعوة للمبادرة الذاتية إحداهما في تقوية الجانب الوقائي، والآخر في المسارعة لاستثمار الجانب العلاجي.

٩. مبدأ الندم على الذنوب والموبقات والمعاصي:

يقدم الفرد على ذنوبه في بعض الأحيان متبدلاً في وجدانه، ويظل أحياناً، وتحت تأثير غفلته لأمد طويل في هذه الحالة، وتتحول لمشكلة وجدانية ومرضية في حياة المذنب، وتنقلب أوضاعه إلى حالات عميقة من التدهور والانحطاط، والانحراف الشديد الذي يدمر كيان الفرد بعد أن تحولت حالته لمصيبة، وهذا تعبير ربّما يكون أصعب من وصفه بمشكلة، لأنه وصل من التبدل ما جعله لا يحس بالحاجة لتغيير حاله، بل ورضي بالحالة التي هو عليها من انحرافات وفساد وارتكاب ذنوب، وهذا ما عناه الإمام الباقر عليه السلام في توجيهه للإنسان وهو يسكت عن خضوعه للذنوب وسيطرتها، فقال: «ولا مُصِيبَةٌ كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها».

ولكن لحسن الحظ أنّ حياتنا البشريّة - بتفاصيل مجملّة أو موسعة - لا تسير على نفس الرتابة والجمود الذهني والانفعالي، فقد تداخل الإنسان بوعي، أو بدونه هزة نفسية كبيرة وتوقظ ضميره، وتحدث ندماً داخلياً على ما فعله، وما أضاعه من سنوات عمره في أفعال الحرام.

وثمة نوعان من الندم، وحالات الشعور بالاستياء الناجمة عن فعل الذنب، وما اقترفته يده - لفترة مضت - من ذنوب وسيئات ومعاصي، فتبدأ نفس النادم بتحسس هذه الصحوة الوجدانية الداخلية، وتتحرك في داخل الكيان النفسي للإنسان مشاعر الندم، وتقابلها في الآن نفسه حركة من سالف الذنوب، وهي ما نسميها بـ (الرواسب النفسية)، وهي ناتجة عن ظروف تجارب انحراف سابقة مكّنت الفرد من التفاعل مع بيئة الانحراف وارتكاب الذنوب، تظل آثارها فاعلة بعد صحوة الضمير، وتفجر مشاعر الندم بشدة أو بمستوى أقل، وتنصح الوصية الباقية العبد المؤمن بالاستعانة (بشدة الندم وكثرة الاستغفار وطلب عفو الله ورحمته، وذكره في الخلوات) للاستقواء على هذه الحالة.

وسوف تحسم إرادة المؤمن صراعها مع الرواسب النفسية بداخل الإنسان، وسالف الذنوب باستخدام هذه القوى، وتوفيق من الله عزّ وجل، تقول هذه الوصية في صيغة تكليف، وأمر شرعي: «واسترجع سالف الذنوب بشدّة الندم وكثرة الاستغفار، وتعرض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة»، وتضمنت عملية المراجعة برنامجاً بوسائل وأدوات علاجية متداخلة، وإذا ما قرأنا أكثر من مقطع في وصية الإمام الباقر (عليه السلام) بخاتمة في نهاية الجزء الثالث، وضعنا أيدينا على خطوات من البرنامج العلاجي، حيث يقول هذا المقطع: «يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك

حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم».

وقال في مقطع متصل بالمقطع السابق:

«واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجماع القلب، وتخلص على إجماع القلب بقلّة الخطأ، وتعرّض لركة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزَيّن لله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتجنّب إليه بتعجيل الانتقال، وإيّاك والتسويق فإنه بحر يغرق فيه اهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم، وتخلّص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، وتوسل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العز بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس ببعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة».

أ - ندم سلمي، وعصابي:

وهذا النوع من الندم جزء من الحياة الإنسانية في ظروف غير سوية، وطبيعته

شهوية، بواعثه الداخلية ذاتية لا تعبر عن حرص موضوعي على مصلحة الفرد؛ لأنَّ نزعتَه الشهوية أسف على فوات ملذات عابرة لا تجلب للفرد المسلم صحة نفسية، ولا توافقاً في كيانه، ولا تحقق له تصحيحاً لعقيدة أو تعديل سلوك، ولا تغييراً في مشاعر وجدانية ضارة.

ومثل هذا النوع يصبغ داخله الوجداني والذهني بصبغة غير سوية، ويجتر فيها الفرد آلامه على فوات شهوات ضائعة، أو خسارة إشباع نزوة ماجنة، أو تفريط في إمكان الحصول على فرصة دنيوية عابرة قد حُرِّمَ من اقتناصها أو حِيلَ بينه وبين اغتنامها، ولا يترتب عن هذا النوع من الندم إلا قلق شهوي ذاتي، وموبوء بملذات الحرام، واللامبالاة الذهنيَّة، وتبльд الوجدان، والأسف على فوات فرص إشباع متعة غير مشروعة، ومحرمة وليست بريئة.

ولا نظن أن نص الوصية قد قصد في مفرداته هذا النوع من الندم العصابي، والمريض، وهو ندم يصاحبه إحساس مرّضي بالذل والهوان، والاستهانة بـ (الذنب) التي ذكرتها جملة متأخرة في نص الوصية الباقية لإرشاد الناس وتوجيههم، كما لم يقصد متبلاً انفعاليا بالحالة التي يكون عليها الفرد وهو في خضوع تام للشهوات المحرّمة، وإسراف فيها، واستهانة بالذنب.

ب - الندم الموضوعي الصحي:

والندم الآخر إيجابي، وصحي وسوي؛ لأنه يعبر بصدق وألم حقيقي عن حسرات ضائعة من عمر الفرد بعد ضياع فرص لأداء الأفضل من فرائض وعبادات، وفرص الخير؛ ولأنَّه يفجر في داخل الفرد قوة دافعة لتجاوز سلبات الماضي، ورغبات قوية لتحرير النفس من أضرار الشر، ومن أصفاد الشهوات المحرّمة، ورواسبها القابعة في

نفسيته من ماضيه.

ومما لا شك فيه أن تجربة (الانحراف) لا تسقط نهائياً بمجرد وجود رغبة داخلية بالثورة عليه، وبذل الجهد لتدمير آثاره، فما تسميه الوصية بـ (سالف الذنوب) يترك في نفسية الفرد رواسبها المدمرة لأي حركة إيجابية أو تعوقها على أقل تقدير، ويعني استمرار وجود تأثيرات داخلية متصلة بهذه الرواسب النفسية، وبقاء نشاطها داخل الفرد وهو يخوض تجربة تغيير جديدة مضادة لواقع الحال في ماضيه، فتعمل هذه الرواسب وما يصاحبها على جذب الفرد نحو حياته بماضيه متى وجدت فسحة أو فرصة لسحبه نحو ذاك الواقع والعودة إليه بأي مقدار قد يتزايد شيئاً فشيئاً.

بيد أن وصية الإمام الباقر عليه السلام، كسائر وصايا أئمة أهل البيت فهم يعززون فيها جهدهم الإرشادي في خدمة الفرد المؤمن وتقوية استجاباته للخير، وهي بالتأكيد قوى مضادة لتأثيرات الماضي الغارق في شهوات (الانحراف) ورواسبه النفسية، ويقدمون خطوات علاجية إماً بالتحذير حيناً، أو بإجراءات علاجية ومعالجات عملية حيناً آخر، فذكر مقطع سابق في الوصية حالة من الندم الصحي، وحذرت من التسويف والرجاء الكاذب بتحقيق الخوف الصادق، ومن الغفلة، وقساوة القلب، والتواني عن عمل السلوك العبادي الصحيح بأعذار تحتلق باستمرار، وفي ذلك يجد بعض النادمين ملاذهم، ولكن لا يصحح واقع الحال، ووضعت لمشاعر الندم معالجات، ويمكننا قراءة هذا المقطع من نص الوصية ومعرفة خطوات العلاج لتعديل السلوك الخاطيء، وغير العبادي، وتحرير النفس من قبضة رواسب النفس وهيمنة سالف الذنوب على حد تعبير الإمام الباقر عليه السلام في هذه المقاطع من نص وصيته:

«وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزّين لله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتحبّب إليه بتعجيل الانتقال،

وإيّاك والتسويّف فإنّه بحر يغرق فيه الهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون»، وقالت بعض الجمل في المقطع ذاته: «واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعِن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم»، ثم نصّح الإمام الباقر (عليه السلام) بخطوات معززة بقوله: «وتعرّض لرقّة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن».

فالندم بمعناه السّوي بمثابة صحوة في ضمير الفرد، وحالة تيقظ ذهني لعقله، وذلك بعد تحذيره من السقوط في غفلة ثقيلة، وفي حالة تبدل لمشاعره الوجدانيّة، وصرف طاقة ذهنه، وتفكيره فيما يضره، ولا يساعد على تطوير واقعه الشخصي، وليس هناك من مخرج سوى إحداث (هزة وجدانيّة) شديدة الوقع تحتاج داخله، وتقطع صلة الفرد بإحساسه أو تضعفها على الأقل، وتكون هذه الهزة بمستوى حالة (ندم شديدة) اقترحها الإمام الباقر (عليه السلام) في وصيته، وما يعقبها من توفير حرارة شعورية، ووضع قواعد بناء تجربة تغيير عبادية حياة فرد يريد أن يبدأ من جديد لبناء شخصيته على أنقاض ماضيه، وبحلاوة ذكر الله، وسمو تعاليم شرعه عزّ وجل، ومما لا شك فيه أنّ القارئ الحصيف يدرك معنى هذه الهزة، وما يصاحبها من رغبة في التغيير، ويفهم بعض ما اقترحتّه الوصيّة المباركة لجعل حالة الندم فاعلة وإيجابية، وبرضا الله سبحانه.

وإذا كانت تجربة المؤمن في مجاهدة نفسه تنجح بمغالبة هواها وشهواتها، وبصراعه الواعي والمقاوم المستمر مع نفسه في محبة الله عزّ وجل، وبحالة الفزع إلى التوبة ومخافته، فيزداد بصيرة ومعرفة، ومحبة له سبحانه، فإنّ تصفية ما أسمته الوصيّة بـ (سالف الذنوب) وإضعاف تأثير رواسبها المعوقة، بل والمدمرة تحتاج إلى استخدام معززات لدعم التغيير في اتجاه ربّاني، كأن يستقل العبد المؤمن من نفسه كثير الطاعة لله، وإزراء

النفس على ما تفعله من محرمات تغضب الله ولا تريح النفس، وكذلك تعرض العبد المؤمن للعفو والرحمة الإلهية، وشدة تيقظه الذهني، وصدق خوفه، واسترشاده بالعلم ودلالة العقل، وكثرة الاستغفار، وذكر الله في الخلوات، وبتجارب تدريبية إيجابية لترقيق القلب وتلين عواطفه الإنسانية بشدة الندم، واستمرار دوام الحزن على ما فات من عمر في ضياع فرص القرب من الله وقيم دينه، وتزيين النفس بصدق الأعمال، وحسن المراجعة، والاستعانة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم، وبِعظيم الشكر على نعم الله وآلائه، وتوسله بعظيم الشكر بخوف زوال النعم، وغير ذلك مما اقترحته وصية الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام.

١٠. مبدأ معرفة النفس.

يعد هذا المبدأ شرطاً أساسياً لنجاح عملية البناء العبادي للشخصية الإنسانية، وضرورة تربوية تقدمية ومستمرة لضمان تحقق هذا المبدأ المعرفي، ووضوح آثاره في الواقع العملي إن كان على مستوى البناء الوقائي للذات، أو إعادة تعلم السلوك بطرائق علاجية، فالفرد المؤمن هذا مبدئه في التربية الوقائية والعلاجية والإنمائية معاً.

ولن تنجح تجربة تعديل السلوك وتحسينه ما لم يتخذ لهذا المبدأ اعتباره الواقعي، وبذلك يجب منذ البداية حينها نبدأ في عملية تربية أنفسنا بالطريقة الوقائية أو حين نقع في العيوب والذنوب والسيئات وسقطات السلوك أن نعرف الفضائل لمواجهة الرذائل، وأن نعرف قدراتنا لمواجهة ضعفنا، وإدراك ما أتقناه من فكر وتعاليم وسلوك جيدة، وما لم نتمكن من إتقانه بعد، فيعمل بعد ذلك على ترسيخ التعلم المتقن وتقوية وجود الحسنات في شخصية المرء، ويقابل المهمة الأولى أداء مهمة ثانية تستكمل العملية التربوية بنحو أفضل وتقوم هذه المهمة على تصحيح الأخطاء والتناقضات، ويتطلب ذلك معرفة الذات، ومنهج العمل، وكيفية الملاءمة بينهما في برنامج تطبيقي فعّال، ويتم

متابعته، وبدون غفلة، وإدراك أهمية ذلك كله في تنظيم سلوك الأفراد، سواء بربط المثيرات والاستجابات المتناسبة مع بعضها، أم باستثمار معرفة أثر العمل، وما تعلمناه في تقوية الترابط بين المهمتين.

وتعرض نص الوصية الباقية إلى هذا المبدأ بأكثر من إشارة في تركيبها اللفظية، وكانت بعض الاشارات مباشرة مثل قول الإمام الباقر (عليه السلام) في نصين قصيرين، وكلاهما بدلالة إيجابية يصب في تقوية فعالية هذا المبدأ في الحياة الوقائية للإنسان أو حياته العلاجية، ورد في أحد النصين: «ولا معرفة كمعرفتك بنفسك»، وهو يخاطب جابراً وكل مؤمن معني بتربية شخصيته، ومجاهدة نفسه، في مواقف التربية الوقائية والإنائية والعلاجية، ويستفاد من هذه الجملة العلنية والمباشرة، تأكيد الإمام بأن معرفتنا لنفوسنا هي أسمى أشكال المعرفة لدى الكائن الآدمي.

ويمكن الاستفادة من المحتوى المعرفي للوصية الباقية بتأكيد الإمام (عليه السلام) على العلاقة بين العلم والمعرفة وبين سلامة القلب في حياة الكائن الآدمي، ومصطلح «سلامة القلب» هو في حقيقته -وكما نرى- تعبير يعادل مصطلح (الصحة النفسية) المتداول في أدبيات علم النفس المعاصر، يقول النص في الجمل الثلاث التالية: «وأعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى».

ويستفاد من مضمون هذه الجمل الثلاث بأن قدرة الأفراد على تحقيق راحة في نفوسهم، وبلوغ مستويات معقولة من الصحة النفسية أو ما أطلقت عليه مصطلح (سلامة القلب) مربوط بتزويد النفس بصفات عبادية مثل (أداء الفرائض) التي تحقق بها وبكامل توجيهات الإمام الباقر (عليه السلام) شيئاً من الاتزان النفسي والعقلي للفرد، وكذلك يتم تحقق (سلامة القلب) بتحرير النفس من العوائق والعوامل المؤثرة على صحتها كالذنوب والمعاصي وأمراض السلوك، وهموم الحياة وضغوطاتها كالطمع وما يصاحبه من شعور

بـ (الذل) للعبد، وغفلة، وتبلد انفعالي، ومن خضوع للشر بضراوته المميتة على النفس، وجزع ناجم عن قلق (الذم من الآخرين)، وإحساس بعض الأفراد بالفشل في مقاومة نزعات النفس وتأثير صراعاتها الداخلية، وهكذا تولد الصحة النفسية، ويحقق الفرد سلامة (قلبه) بمعرفة عن الجانبيين (تربية وقائية لتجنب الذات من الوقوع في المعاصي والمهالك، وتربية علاجية تنتشلها من سطوة ذنوبها وسيئاتها).

ولكنَّ معرفة النفس كانت كما نعتقد مقصودة، لضرورتها التربويّة، وواضحة في عبارات، وجمل ومقاطع لفظية غير مباشرة، ولكنّها تعني تأكيداً بصورة غير مباشرة في بعض المواقف التي مررنا بها على عناية هذه الوصيّة بمشاهد ذات أهميّة من (معرفة النفس) وغرضها إرشاد الفرد المؤمن، ومساعدته على بناء ذاته، وتعديل سلوكها غير السوي، وإذا ما أعدنا النظر مرة أخرى في بعض المواقف المستمدة من نص الوصية نجد أمامنا مشاهد ميدانية وعملية لاستثمار ما نعرفه عن أنفسنا بالتفكير وغيره، وأخذ العبرة والعظة التربوية اللازمة.

ففي المقطع الأول من نص الوصيّة حثّ باقر العلم صاحبه (جابر الجعفي) فدعاه إلى إشغال نفسه بالتفكير في أقوال الناس لا في عداواتهم، قال الإمام الباقر عليه السلام لجابر: «وفكر فيما قيل فيك»، وهو عملية تأمل ذهني تدرس أقوال الآخرين ودعائهم، بل وأكاذيبهم الاستفزازية والعدوانية، وتستنتج منها، وبواسطتها (ما صحَّ منها، وما لم يصح)، ومعرفة الأثر التربوي لهذه المعرفة في إدراك نتيجة ثقيلة قد تكون سلبية بسقوط الفرد (من أعين الله) تبارك وتعالى، أو سقوط الذات (من أعين النَّاس) وتقديرهم الاجتماعي، وهذا يقتضي الخوف على الذات، والمبادرة العاجلة بتعديل السلوك، وطلب منه معرفة أنه إذا لم تصح أقوال النَّاس فيه فهذا يعني نتيجة آمنة، بـ (حصول المؤمن على ثواب) يكتسبه الفرد من غير أن يتعب بدنه، وليس هذا المشهد إلا نموذجاً على توظيف

مبدأ (معرفة النفس) في الحصول على معرفة أسمى هي (معرفة الله سبحانه، وقرب العبد المؤمن منه).

ونعود مرة أخرى لموقف (المجاهدة النفسية) وصراع المؤمن مع نفسه وشهواتها حتى ينتعش، ويقلل الله عثرته بالتذكر، واستبصار عقله ونفسه، وزيادتها معرفة، فهذه الإشارة هي مصداق لتأكيد نص الوصية التربوية الارشادية، وهي متوقفة فعلياً على معرفة الفرد بنفسه، وبقدراته وحسناته، وطرق معالجتها كما في قول الإمام الباقر (عليه السلام)، وهو يشير لمشكلة (إعجاب بعض الناس بأنفسهم)، وعلاجها (بطريقة وقائية) بمعرفة للسيطرة على هذه المشكلة ومضاعفاتها في سلوك الفرد، حيث ذكرت وصيته: «وَسُدَّ سَبِيلَ الْعَجَبِ بِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ»، وتعني هنا أن يبادر الفرد بمعرفة نفسه ليعرف بعض عيوبها وأمراضها كالعجب قبل نشوئه فيها، ويتصدى لهذا المرض بأدوات إيمانية كـ (أداء العبادات والفرائض)، والتواضع وسائر القيم الأخلاقية، وتلين القلب وترقيقه، وشحن النفس بمشاعر الاحترام للآخرين، وليس نص هذه الوصية إلا لتحقيق هذين الجانبين في بنیان الشخصية العبادية في زمن جابر الجعفي، وما بعد زمانه إلى يومنا الحاضر.

وتوحي لنا الوصية الإرشادية في عدد من كلماتها ومفرداتها ومصطلحاتها بأهمية معرفة النفس واستثمارها في التربية وإصلاح النفوس، ومن ذلك مصطلحات (حاضر العلم، شدة التيقظ، دلالة العقل، استرشاد العلم، معرفة النفس، صحة التفويض، قلة الخطأ، حسن المراجعة، نور اليقين، واستصغار الدنيا، ولا معصية كعدم العقل)، وكان غرض هذا الاستخدام هو تحقيق انتصار و (غلبة الذات على الهوى ونزواته ونوازعه) ومقابل ذلك تحقيق (سلامة القلب أو الصحة النفسية)، ويرتبط جميعها بمعرفة سليمة للنفس وخفاياها ومختلف قوى البناء فيها، وثغراتها، وعوامل الهدم فيها، وتأزر هذه

القوى يساعد على توفير قدر معقول من الصحة النفسية أو (سلامة القلب)، وهي أعلى أشكال السلامة على حد تعبير وصية الإمام (ع)، إذ قال: «ولا سلامة كسلامة القلب» كما في بداية الجزء الرابع من وصيته.

إنَّ بعض ما ذكرناه باجتهادنا في فهم المحتوى المعرفي للوصية مجرد نماذج منتقاة حسب نظرنا المتواضعة في تفسير النص الإرشادي لوصية الإمام الباقر، ولكنه فهم يبتغي بناء ثقافة سيكولوجية يصب خيرها في الارتقاء بالإنسان وتطوير قدراته، وقواه الداخلية، ومن هذه القدرات قدرة الأفراد المؤمنين على كف السلوك المحرم في مواجهة من يسيء لهم، وقدراتهم على رد الغضب، والسيطرة عليه، وإمكانية التغيير نحو الأفضل، حتى يتم تحقيق حالة الاتزان النفسي والانفعالي، وسلامة القلب في نهاية الأمر بما يشعر فيه الأفراد المؤمنون بالسعادة والارتياح والرضا النفسي عن الله عز وجل أولاً، وبقدر آخر من الرضا عن أنفسهم وذواتهم ثانياً.

١١. مبدأ الترويح عن النفس وراحة القلب:

ولا يحتاج هذا المبدأ إلى شرح مطوّل، فكل نفس، وبخاصة حين تمتلئ سامة، وتعباً وكآبة وهموماً تميل إلى الترويح عن نفسها بأدوات وأساليب معتبرة في ثقافة الشخص، ومتناسبة مع منظومة القيم التي عاش في كنفها، وأشبع هويته منها، فحياة الإنسان كانت في بعض الأزمنة بسيطة، لكن نفسية الإنسان تنجح للترويح، وكلما تراكمت تعقيدات الحياة عبر تراكم مشكلاتها، وثقلت صعوباتها، شعرت النفس بحاجة أكبر لعملية الترويح، وتفرغ المهموم من داخل النفوس، وطرده الضغوطات أو التقليل منها على أقل تقدير بأساليب عديدة، ولكنه يراد لعملية الترويح في نص وصية الإمام الباقر (ع) أن تتسم بطابع عبادي حلال، ومشروع، وغير عصابي، وأن تنهي النفس - سواء بخطوة استباقية أو بتجربة تعديل سلوكي لاحقة - إلى مسعاها في تحقيق حالة الرضا الداخلي،

وبعض مشاعر الارتياح النفسي، وتسكين معاناتها براحة ومتع غير محرمة؛ لأن النفس مثلها - كالجسد والعقل - تحتاج إلى الراحة، ورفع همومها، وضغوطات الحياة من داخلها، وإزاحة التوترات عن كاهل الأفراد ليستأنف نشاطه بعمل جيد، وبأدوات وطاقات، ونفسية جديدة قادرة على تحقيق أهداف المشرع التربوي الإسلامي، وتحقيق مطالب هذه الوصية الكريمة.

ويمكننا الوقوف عند بعض المحطات التي تستهدف إحداث تغيير في النفس بالترويح، وبأنشطة قريبة منها، ونستخدم - بالضرورة - بعض نصوص الوصية، وجملها، وعباراتها في وصف (الترويح) كمبدأ في تنظيم سلوكنا، وفي تحسين أداء الأفراد، وتقوية طاقاتهم، ونشاطاتهم سواء ما كان في نطاق الجانب العبادي، أو في جوانب حيوية من كيان الشخصية الإنسانية برفع الرتبة وحالة السامة، واستفراغ طاقات جديدة.

جاء في مقطع مكون من ثلاث جمل مترابطة، وتتآزر جميعها في ربط العلاقة بين راحة النفس وراحة البدن بإجمام القلب.. أي راحته، ومن ثم كان مضمونها بوجه عام تحقيق منافع إيجابية على الصحة النفسية والعقلية والبدنية للفرد من حيث رفع الكآبة والسامة، والملل عن النفس، وتنشيط قواها وطاقاتها، ولنتأمل بعض ما اختزنه الجمل الثلاث من معانٍ سيكولوجية، وحث على توفير الراحة للنفس والقلب والبدن معاً في كلام متصل مع بعضه، تقول جمل الوصية الثلاث، والواقعة في منتصف الجزء الثاني من وصية الإمام الباقر (عليه السلام): «وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجمام القلب، وتخلص إلى إجمام القلب بقلّة الخطأ».

ونحتاج في هذا الصدد إلى تفسير قصير، ومبسط لمعنى مصطلحي (صحة التفويض، وإجمام القلب) اللذين وردا في الجملتين الأولى والثانية، وتكرار (إجمام

القلب) في الثالثة، ومعرفة علاقتها بما يحقق راحة النفس، والترويح عنها.

وتقتضي عملية فهم المعنى في الفقرة السابقة المكونة من جمل ثلاث، تفسيراً مُبَسَّطاً لمفهوم المصطلحين الأساسيين فيها، وهما مصطلحا (صحة التفويض) و (إجّام القلب)، فالتفويض يراد به أنّ الشخص يُوكَّل المهمة، أو إدارة شؤون خاصة به إلى جهة معتبرة، وموثوقة، ويكاد يشعر المرء بهذا التفويض بقدره هذه الجهة أو تلك على إدارة العمل، وحسن التقدير، والتصرف السليم، وتؤكد معاجم اللغة ومصادرها على هذا المعنى العام.

وتتقدم كما نلاحظ مفردة (التفويض) مفردة سابقة هي لفظة (صحة) ليكون معاً في مصطلح جامع باسم (صحة التفويض)، ومفاد هذا المصطلح أنّه لا يكفي التفويض وحده، فالاكتفاء بعملية تفويض أمورنا إلى أحد هو في نظرنا عمل قاصر لا يبلغ بالعمل المفوّض به إلى منتهاه، ولهذا لا بُدّ أن تكون عملية التفويض عملاً كاملاً، ومرهوناً بالسلامة وصحة موقفنا بتسليم المهمة أو شؤوننا في اختيار مَنْ فوّضنا إليه الأمر أو انجاز وأداء المهمة الإرشادية، فإذا تكاملت عملية (التفويض) بسلامة وصحة اختيار المفوّض إليه، تكون قد تحققت (الراحة النفسية) بمعناها الكامل أو بمستوى مقبول بالحد الأدنى.

وباستنطاق مفردات وردت في نص وصية الإمام الباقر عليه السلام وهو يوجه إرشاداته لصاحبه جابر نجد أنّ باقر العلم عليه السلام شدّد على صحة تفويض أمورنا لمن نختاره في عملية تفويضنا له بثقة وأمانة واطمئنان، ونلاحظ بين طيّات هذه الوصية إيكال عملية التفويض إلى قوى حاكمة، ورشيده، ومؤثرة بإيجابية، كالعقل، والعلم، والدين والقرآن، والضمير أو الوجدان الأخلاقي، وغير ذلك.

وتبرز في نصوص الوصية الإرشادية استخدام ألفاظ ومصطلحات (كاسترشاد العلم، ودلالة العقل) كدليل إثبات على أهمية حُسن اختيارنا للمفوض إليه، وبإتقان، وحسن التصرف، ووعي، وهذا ما فهمناه بارتباط (راحة النفس) بـ (صحة التفويض)، فهذا المصطلح يعني نجاحنا في تفويض أمورنا وإسنادها للقوى الحاكمة لنا برشد كإسناد شؤوننا (للدين والقرآن والعقل والضمير الأخلاقي) كي تتحقق في الواقع (راحة النَّفس) بصحة هذا التفويض القائم على إسناد أمورنا لمثل هذه القوى الموثوق بسلامتها، وصحة موقفها.

أمّا إجمام القلب فيعني مفهومها في الإجمال (راحته)، أو ترك القلب ليرتاح، ويراد بالاجمام هنا (الراحة) كما في الأمثلة التي ساقها اللغويون لتفسير معنى (أَجَمَ)، فمنْ أَجَمَ قلبه -نفسه- يكون قد تركه، وأراحه، ولهذا قيل كأمثلة في بعض معاجم اللغة وقواميسها: (أجم الفارس فرسه، تركه ليستريح، وأجم لسانه، أي سكت عن الكلام واستراح، وأجم الرجل، سكت على غيظ، وأجم القلب، تركه في راحة).

ولا نجد غرابة أن مطالبة الإمام الباقر (عليه السلام) لجابر الجعفي بمنع صدور استجابات محرّمة ترد على الآخرين بمثل ما عاملوه هي أحد أبواب تحقيق راحة للنفس، وصدها بطريقة وقائية عن اجترار هموم ناشئة عن مشكلات ترتبط بطبيعة الرد بالمائلة، فإذا ردّ المرء على أقاويل الناس باستجابات عصبية ترتب عنها بالتأكيد بروز مشكلات في حياة الفرد بنحو تحرمه من الراحة النفسية، وتزيده معاناة وقهراً وهو ماً بدلاً من إزالتها أو تخفيف ضغوطاتها على نفسه، فالأمر بـ (كف النفس عن الرد بسلوك مماثل) هو أمر منطقي، بالإضافة إلى كونه حركة تعبير عن سمو أخلاقي، فامتناع الفرد عن الرد عليهم بعدوانية يعني أنه اختار (راحة نفسه) من كل الضغوطات التي تصاحب العدوان، والعدوان بمثله، وإبعاد نفسه عن العلاقات السيئة بينه وبين الآخرين؛ لأن لحظة الرد

تنتهي بوقت وزمن، لكن تبعاتها تظل بأثر رجعي لأمد طويل لسوء الحظ في حياة بعض الناس الحمقى.

وعبرت جملة عن هذا المبدأ بصورة لفظية غير مباشرة، فالجملة في الجزء الثاني نصحت جابراً وكل مؤمن بأن يتوقى مجازفة هواه، وأن يسترشد في خطواته الوقائية بالاهتداء بالعقل، واتخاذ كدليل عمل، والاسترشاد بالعلم، قالت الوصية: «وَتَوَقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل» أو باسترشاد العلم (لتحقيق نصر وغلبة الهوى والسيطرة على نزوات شهواته) وينطوي هذا الموقف على طلب إيجابي لحماية النفس، وتوفير راحة داخلية لها، فلفظة (تَوَقَّ) تعني التحرز والاحتياط، والبدء بأعمال صحيحة لمنع مخاطر الهوى من السيطرة على النفس، وتجنب المجازفة بمواجهة مخاطر تسبب للإنسان قلقاً، وتوتراً، واضطراباً ناجماً عن خضوع الفرد لأهواء النفس وشهواتها.

وحينئذ لن يتمكن الفرد المؤمن من تخلص نفسه من ضغوطات هذه المشاكل؛ لأنه فوّض نفسه لشهوات ليست راشدة، ولكنه لو فوّض أمره (لعقل رشيد) أو (لأحكام دين صحيحة) فإن الناتج المنطقي حصوله على ما يخلصه من هذه الضغوطات المجهدة، وتمكن من الحصول على قسط مقبول على الأقل من (راحة النفس).

وهكذا ف (راحة النفس) التي استهدفت تحقيقها وصية الإمام الباقر عليه السلام ليست بإزالة مسببات القلق، والتوتر، والتأزم الداخلي، والصراعات بين الفرد وقيمته، وشهوات نفسه، وإنما بتسليم أمره لحاكم مُفَوَّض، ورشيد في أحكامه ونظراته الصائبة في إدارة الصراع ك (العقل، والدين والوجدان الأخلاقي)، وهي جميعاً تتعاون في تحقيق راحة النفس، وسلامة القلب بمستويات وفق ظروف متغيرة من فرد إلى فرد آخر.

١٣. مبدأ التوازن النفسي وأثره في تنظيم سلوكنا:

قلنا في دراسة تربوية سيكولوجية سابقة أنه: «لو تصورنا حياتنا دائرة ارتسمت في داخلها مجموعة خطوط مستقيمة تلتقي في نقطة تعرف بالمركز، وتتباعد في أطرافها بدرجات متساوية، وتكون هذه الخطوط متجاذبة نحو (المركز) بقوة واحدة، فإن الشخصية الإنسانية تمثل في نسيجها العام مجموعة قوى وعناصر تبدو في ظاهرها متناقضة، متعددة المسارات، لكن انتظامها على قوة ضبط متعادلة، لا تسمح بغلبة جانب على آخر يجعلها متوازنة.

فالتوازن معناه التقاء هذه القوى عند نقطة وسط تعادل بين الدفع والجذب، بين الماديات والمعنويات، بين الفردية والجماعية، بين قوى الجسم والعقل والروح، بين كافة العناصر المتعددة المكونة للذات البشرية، فالتوازن وضع هذه القوى في نقطة مركز توزع قدراتها الدافعة والجاذبة على جميع الجوانب في الكيان البشري بقوة تناسب طبيعة كل عنصر مكون للذات البشرية، فتتعادل في النشاط والفعالية والديناميكية، وتعمل الجوانب المختلفة للشخصية المسلمة الملتزمة بمنهج الله في انسجام، وتنظيم حركتها في اتجاه واحد، أنه -أي التوازن- يعني الجمع بين محاسن الأطراف لمتقابلتين دون عيوبها في نقطة التقاء^(١).

وبتأمل بعض عبارات الوصية نلاحظ أمثلة للتوازن، ندرك معه قدرته على تنظيم السلوك وحركته في اتجاه واحد لا تضارب فيه ولا تناقضات، ونضع أعيننا على جملتين مكونتين من ثماني كلمات متقابلة اخترنت دعوة من الإمام محمد الباقر (عليه السلام) للتوازن في السلوك المتقابل، قال الإمام الباقر لجابر: «يا جابر اغتنم من أهل زمانك خمساً:

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ١٩٣.

- «إِنْ حَضَرْتَ لَمْ تَعْرِفْ، وَإِنْ غُبْتَ لَمْ تَفْتَقِدْ».

- «وَإِنْ مَدَحْتَ فَلَا تَفْرَحْ، وَإِنْ ذَمَمْتَ فَلَا تَجْزَعْ».

المشهد الأول.

«إِنْ حَضَرْتَ لَمْ تَعْرِفْ، وَإِنْ غُبْتَ لَمْ تَفْتَقِدْ».

تنطوي الجملة الأولى من العبارة أعلاه على ميل فطري في تركيبنا الآدمية للاجتماع الإنساني بالآخر، فالإنسان كما يقال (مدني بطبعه)، و(كائن اجتماعي بفطرته)، ويعبر عن هذه الحالة الاجتماعية بمواقف وصور عديدة كحضور مجالس الناس، ومناسباتهم، وصلواتهم الجماعية، وغير ذلك، بيد أنَّ نفسه تخفي في داخلها قدرة فطرية على أن لا يعرف في الوقت ذاته بين الجمع بدوافع مثيرة تضفي عليه حب البروز، ويحرره من الميل غير السوي إلى (حب البروز)، وبمقتضى هذه القدرة في تكوينه الفطري لا تستثيره رغبة مريضة في البروز بين الناس، ولا تطوقه دافعية شهوية للظهور بدوافع مريضة، فتفسد عمله وتحبط أجره، ونظن أنَّ الإمام الباقر (عليه السلام) ربَّما قصد تحقيق توازن بين حضور الفرد بين الناس في مجالسهم بدون رغبات غير توافقية في البروز وحب الظهور، أي إنه يطلب برغبة خفية ثمن حضوره بالاهتمام به وتقديره اجتماعيا، ويكون عمله في الخير أقرب إلى مرض (الرياء) حينما يربط حضوره الاجتماعي بحب غير سوي في الظهور الاجتماعي.

وإذا ما تمكن الفرد من فرض هذه المعادلة بين حضور اجتماعي معتبر، وبين قدرته على كبح شهوته في البروز المرضي، وحب الظهور يكون قد حلَّ حالة من الصراع الداخلي بين حاجتين يريد بالأولى إشباع رغبته في مؤانسة الآخرين، وبين رغبته الثانية إظهار ميوله في البروز وحب الظهور بنزعة شهوية وذاتية، ومتى نجح الفرد (المؤمن) في ضبط الشعور الداخلي لاجتماعاته بالناس وحضور مجالسهم، وسيطر على داخله

بنزعة موضوعية تهتم بانجاز الأهداف العبادية، وتقديم العون للناس بلا رغبة في السيادة والبروز وحب الظهور يكون قد أنجز عملاً عبادياً متحرراً من شوائب الدنيا، وطهر نواياه الداخلية من مرض الرياء. هذا عن الجملة الأولى من عباراته أما الجملة المقابلة فهي امتداد لهذا الميل الفطري للاجتماع بالغير، فهي تتحدث عن حضوره الحي وإن غاب جسده المادي: «وإن عُبْتُ لم تفتقد»، فالغياب الجسدي ممكن لظروف يعيشها الإنسان، ولكن هذا الغياب البدني يُعوّضه المؤمن بالحضور المعنوي الذي تركه في نفوس الناس، فهم يذكرونه دائماً في غيابه؛ لأنه كان يخدمهم أو يظهر عواطفه في مودتهم، واستفراغ مشاعره الوجدانية لصالحهم، وهم يتحسسون ذلك، فمتى غاب ببدنه حضر بينهم بقلبه وسلوكه وعلاقاته الطيبة.

ومما لا شك فيه أن تحرر الفرد من شهواته في البروز والرياء وافتعال الزعامة يجب الناس به، فلا يفتقد بينهم حين يغيب كما دلت على ذلك وصية الإمام الباقر (عليه السلام) بقوله: «وإن عُبْتُ لم تفتقد»، ويرسخ هذا التحرر حالة توازن في نفسية الفرد بين حضوره بإيجابية تخلو من نوازع المرض، وبين غياب يفرض حضوره بنزعة إيجابية لا يشعر القوم فيها بغيابه؛ لأنه نزع من أنفسهم كراهيته لتساميه عن حب البروز، ومشاعر الظهور والفوقية.

المشهد الثاني.

نلاحظ بالدعوة المشهودة حالة من (التوازن الداخلي) في نفسية الإنسان وسلوكه قد استبطنتها الجملتان السابقتان، فكلتاهما تحتزان حالة توازن بين رغبتين في داخل الفرد، تبدوان لنا كقوتين متعارضتين فقط، وهذا صحيح، لكن داخل النفس قوى تعادل بين الدفع والجذب تقودهما في نقطة التقاء بمنهج المعالجة بالأضداد، فيتحقق

قدر من التوازن الداخلي، وهذا يفتقده الأفراد في بعض الأحيان، ويترتب عليه سوء تكيف وعدم تكامل في دور الشخصية.

إنَّ الفرد يميل بتركيبته النفسية للمدح من الآخر، ويتحسس (لذة) في داخله، ويعقب هذا المدح انفعال يكون مصحوباً بلذة (إحساس بالارتياح النفسي)، ويتمثل في انفعال مريح، وحالة فرح واضحة وعلمية، ومقابل ذلك لا يميل الفرد -وبطبعه كذلك - إلى ذم الناس له وتحقيرهم إياه، ويستنكف من هذا الفعل، ويعتبره إهانة وتحقيراً، وقد يصاحبه ضيق أو شعور بالقهر أو بالاشمئزاز، والاستياء الناجم عن هذه الحالة الانفعالية، ويفقد الفرد حينئذ حالة التوازن في كليهما، وقد وجه الإمام الباقر لجابر نحو عملية تحقيق تعادل بين رغبته في المدح، وعدم فرحه به، وبين رغبته في تجنب الذم، وعدم تحسسه بالقدح، تحسناً غير متوازن، ويصل إلى نقطة الهدوء، وهي مركز الالتقاء بين قوى تبدو متعارضة، ولكن بمواقف السمو الخلقي لدى الفرد تصل للتوازن، وتصاحبه لذة مريحة تفعل سحرها في داخله.

١٤. مبدأ طلب العفو الإلهي:

كانت بعض جمل الوصية تُعدَّد أنماطاً من السلوك المحرم (المعاصي والذنوب) كالظلم والخيانة والكذب والتكذيب، والذم والقدح في الآخرين، والغفلة، والتسويق، والتواني، والطمع، والجزع، وطيش الغضب، وخفي التزين (أي الدنس)، والحرص، والعجب بالنفس والاعتداء على الناس، والاستهانة بالذنب، وتفويت الفرص والتفريط فيها، وجميع هذه الحالات المرضية، والمعاصي ناشئة عن موافقة الإنسان لهوى نفسه، ودوافع الشر فيها.

ويتطلب هذا - كما في مضامين نص وصية الإمام محمد الباقر  - فزعاً متجدداً

من النفس بالتوبة ومخافة الله سبحانه وعدم الاستمرار في الأفعال المحرمة، وفي خضوع الفرد لتأثيراتها، وينطوي على رغبة (علنية أو خفية) في طلب عفو الله ورحمته وظلال لطفه، لكنَّ التعرض للعفو لا بد أن يكون مصحوباً بأعمال مشروعة لتصحيح سلوك الذات بتوبتها، وكثرة الطاعات، ودفع نوازع الشر، وتخلصاً من الغفلة بشيء من تيقظ الذهن، وصدق الخوف، ووقاية النفس من مخاطر الهوى، وأداء الفرائض، والمصارعة في الأعمال الصالحة، وشدة الندم على ممارسة أفعال المعصية في أيام سالفه، وبوسائل وأدوات أخرى كالشكر وكثرة الاستغفار، وذكر الله في الخلوات، وحسن المراجعة، وخالص الأدعية يمكن أن تفتح النفس باب (عفو الله) عن صاحبها، وتعرضها للرحمة وعفو الله عز وجل.

إن التعرض لعفو الله ليس أُمْنِيَّة في القلب، بل هو حركة وجدانية، وعقلية تطرق فيها نفسية الفرد كل الأبواب للوصول إلى العفو الإلهي، فهذه الخطوة هي فعلاً اعتراف صريح من الإنسان بالخطأ والخطيئة، وطلب في الوقت نفسه (للسلامة) في يوم لا ينفع فيه إلا من أتى الله بقلب سليم، وهكذا فطلب العفو جهد لإعادة تنظيم السلوك بخاصة بعد إمكانية سقوط الذات في الأخطاء وفي بعض الرذائل، ومتى شعر الفرد بأنه نجح في تجاوز سقوطه حلَّ السلام والأمن النفسي في داخله، وخفَّ التأزم شيئاً فشيئاً حتى يستعيد الفرد اتزان الانفعالي وتكيفه النفسي.

١٥. مبدأ تكوين الاتجاه الإيجابي:

هذا المبدأ إن وظيفته إيجابية أضحت بالنسبة للأفراد طاقة عمل متجددة في حياتهم، وإن أسأنا استخدامه تحوّل إلى معوّق للحركة والنشاط ك (خوف عاجز).

الحلقة التاسعة
المشكلات السلوكية
والحالات المرضية في وصية الإمام الباقر عليه السلام

مقدمة

عرف الإنسان مشكلاته وأمراضه المتنوعة نفسية كانت أم جسدية وغيرها منذ بدء الخلقة، ومنذ بدء تفاعله على وجه الأرض، وارتبط بهذا التاريخ كذلك نشوء مبكر لمحاولات علاجية للسلوك بطرائق متاحة عسى أن تجد حلولاً لهذه المشكلات والأمراض.

وظل مسار الحالات المرضية يأخذ بمرور الزمن اتجاهاً تصاعدياً كمّاً وكيفاً، فقد تزايد عدد المصابين بالأمراض والاضطرابات النفسية، وتنوعت على امتداد هذا التاريخ حالاتها الخفيفة والمعقدة حتى بلغت في هذا العصر وضعاً جعل منها مشكلة إنسانية كبرى تشغل بال العلماء والمفكرين والفلاسفة، وأصبحت موضوعاً لعدد من العلوم والتخصصات والفلسفات، بل إن بعض هذه الفلسفات كالفلسفة الوجودية طالبت بتحويل الفلاسفة اهتماماتهم من دراسة الوجود الطبيعي إلى دراسة الوجود الإنساني، وركزت على قضايا إنسانية أساسية ومهمة مثل قضية الحرية والمشكلات التي تهدد وجوده كالفقير والمجاعة والأوبئة والعنف وغيرها^(١).

ومما لا شك فيه أن الإنسان بذل جهده منذ بدء تاريخ المرض النفسي في البحث عن تفسيرات وطرائق علاجية، لكن هذه التفسيرات كانت - كما تبدو - أضعف وأقل سرعة من حركة نمو وانتشار الأمراض ذاتها، وقد أدى ذلك إلى تأخر واضح في حركة العلاج النفسي، رغم القفزات النوعية التي تحدثها عادة الأديان والدعوات

(١) مدن، يوسف، العلاج النفسي وتعديل السلوك بطريقة الأضداد، ص ٢٥ - ٢٦.

السمائية والحركات الاجتماعية الإنسانية بين حين وآخر^(١).

وطالما أن الأمراض النفسية ومشكلات السلوك وحالاته المختلفة قديمة في تاريخ الإنسان، فشيوخها بين الناس متجذر كذلك منذ أمد بعيد، بل هي - كما يقول بعض الاختصاصيين - حالات مرضية شائعة أكثر مما يظن، وهي في زماننا أشد ضرراً من ضررها في الأزمنة سابقة السابقة لاشتداد زحمة الحياة وصعوباتها، ولضراوة حالات الصراع بمختلف أشكاله بين الناس والمرتبطة بها، وكذلك لازدياد مطالب الإنسان، وتعدد اهتمامات المجتمع.

وشاركت المصادر الإسلامية الأولية كالقرآن وكتب السنة النبوية وأحاديث المعصومين من العترة الطاهرة، والمصادر الثانوية ككتابات المسلمين وتراثهم الفكري في جعل الاهتمام بالتوجيهات الإرشادية، والمعالجات الروحية والأخلاقية والمعرفية يتزايد منذ لحظة ظهور ديننا الإسلام، وقد اتسمت جهود هؤلاء العلماء بالدقة والتركيز؛ وذلك لاتخاذها من الآيات القرآنية وتفسيرها ونصوص السنة وأحاديث الأئمة الأطهار ووصاياهم وحكمهم وخطبهم مصادر أساسية تستشهد بها تارة وتقتبس منها تارة أخرى، وظهرت هذه المحاولات مبكراً في تاريخ المسلمين، وتضمنت موضوعات متداخلة ذات صلة بواقع الإنسان ومشكلاته وأمراضه، والحالات التي تحتاج إلى مراقبة إرشادية وقاية وعلاجاً.

وهذه الوصية الخالدة التي نقوم بدراسة أحد أهم موضوعاتها هي فعلياً إحدى أدوات المشرع التربوي الإسلامي في الاهتمام بالإنسان، وقضايا تربيته وتنمية قدراته، والعناية بمشكلاته الفكرية والوجدانية والسلوكية، ومعالجتها ما أمكن بفكر إرشادي إنمائي تضمن معاً الجانبين (الوقائي والعلاجي) وقد طفنا بعدد منها، ونتوقف هنا وفي

هذا الفصل عن بعض المشكلات السلوكية والحالات المرضية التي رصدناها في طبي مفرداتها وتركيباتها اللفظية ومحتواها المعرفي، وهي - كما كنّا نقول - رؤية اجتهادية، ولا ينبغي أن تخرج عن ذلك حتى لا نلزم أحداً بأمر قصدها الإمام الباقر (ع) في وصيته الارشادية أو لم يقصدها، فإنّ أصبنا بعض القول، فالحمد له عز وجل حمداً كثيراً، وإن أخطأنا فمردود علينا وحمدنا.

من هو المريض النفسي؟

نحاول - بادئ ذي بدء - وضع توصيف أولي، ومجمل للمرض النفسي، واشتباكه أحياناً بمصطلحي (المشكلات السلوكية، والحالات المرضية)، وهما - كما نعتقد - أنسب في موضوع دراستنا من مصطلح (المرض النفسي) لا لعدم علميته، بل لأننا نرى في المصطلحين الأولين أقل حساسية انفعالية؛ ولأننا أقرب في نظرنا للأخلاق، لمصطلحات وتعبيرات علم النفس المرضي أو الاكلينيكي والعيادي، ومع ذلك نحن مضطرون لوضع مفهوم عام لمعنى المرض النفسي.

المرض النفسي، وجمعه عند اللغويين والمتخصصين (أمراض نفسية)، وكما ذكرنا أن نشأته قديمة في تاريخ الإنسان، ويسمى لدى المشتغلين في علم النفس بـ (المرض العصبي) أحياناً، أو بلفظة (العصاب)، في بعض التعابير السيكلولوجية، أمّا الأمراض النفسية بجمعها فتعرف كذلك في أدبيات هذا العلم بـ (الأمراض العصبية)، وجرت استخدامات الباحثين بخاصة في علم العيادي أو الاكلينيكي، وهو يهتم بالأمراض على تطابق معنى التسميتين (الأمراض النفسية والأمراض العصبية)، فإذا قيل أحدهما عني به الآخر، وسمّيت بالأمراض النفسية لأنها ترجع عادة إلى أسباب نفسية بحتة لا أساس عضوي لها، ونقصد أن لا علاقة للمرض النفسي بأسباب عضوية أو جسمية

محضة، بل سببها عامل نفسي كالخوف والجزع والقلق والطمع، وإعجاب الفرد بنفسه، وسرعة غضبه وطيشه، وإفراطه في الانفعال الغاضب واستجاباته.

ويستطيع العصابي أو المريض النفسي إدراك حالته النفسية التي يعيش ظروفها، ويشعر بنواحي الشذوذ والقصور في نفسه، ومدى حاجته إلى الخلاص من الأعراض المصاحبة للمرض كالخوف والقلق والجزع والتوهم، والمبالغة في الشك، والإفراط فيه بنحو يكاد يكون قريباً من الوسواس، ولكنه -أي المريض- قد يعجز عن القيام بمطالب حياته الفردية اليومية بدرجة معينة.

والمرض النفسي بإيجاز هو (خلل في أداء النفس لوظائفها الطبيعية والمعتادة اليومية)، وقيل في بعض التعريفات (اضطراب وظيفي في الشخصية)، وأسبابه نفسية بحتة، ولا يؤدي بالضرورة إلى اضطرابات حادة، وقوية في التفكير والإدراك، بنحو يجعل صاحبه عاجزاً عن التمييز بين الواقع والخيال كما هو حال المريض الذهني، وإذا ما ازدادت درجة المرض واشتدت، واقتربت من أعلى مستويات الشدة، يمكن أن تتحول الحالة المرضية الخفيفة لـ (مرض عقلي) يترك بصمات جديدة أكثر تعقيداً على المصاب، وهذا ليس موضوع بحثنا.

هذا بوجه عام - وبنظرنا المتواضعة - مفهومنا المجمل للمرض النفسي، وقد يتشابه مع بعض المشكلات السلوكية ويتداخل مع بعض الحالات المرضية كاستهانة الشخص بذنبه، أو عيشه في ظروف (كُدَل طمعه أو إعجابه بنفسه أو تحت تأثير قساوة قلبه وتبلده فتصدر عنه استجابات عدوانية أي العدوان على الآخر) أو استجابة مازوخية (وهي الرغبة في تعذيب الذات كتحقير نفسه وازرائها، والرغبة في إذلالها بخنوع وطواعية)، ولكننا أثرنا استخدام مصطلح (مشكلة سلوكية) على بعض ما سنمر عليه في البحث من استخدام مصطلحي (مشكلات سلوكية) أو مصطلح (الحالة

المرضية) على مظاهر سلوكية مريضة أخرى، فاستعمال مصطلح المرض النفسي ينطوي على حساسية انفعالية لدى بعض الناس تتفاوت بينهم في الحفّة والشدة، لذلك رأينا من المستحسن استعمال مصطلحي (مشكلات سلوكية) و(حالات مَرَضِيَّة) كعنوان رئيسي لهذا المبحث، مع احتمال التلغظ في بعض الأحيان بمصطلح (مرض نفسي).

كيف تنشأ المشكلة السلوكية كحالة مَرَضِيَّة؟

يولد الإنسان بقبالية للتفاعل مع المؤثرات السيئة والخيرة على حد سواء، وهذا مدخل للسوء، واللا سواء في شخصية الإنسان، وتأتي الخبرات المؤلمة والاحباطات الشديدة المتراكمة وضغوطات الحياة، والصدمات الانفعالية أو سوء توافق الفرد نفسياً، واجتماعياً مع غيره من الناس داخل بيئته الاجتماعية لتكون أسباباً لظهور المشكلات السلوكية؛ لأنّ ذلك يؤدي هذا الحال إلى إعاقة توافقه النفسي، وإعاقة ممارسة حياته السوية كتعرضه لألوان من الصراعات والإحباط المستمر والحرمان، وصدمات انفعالية.

ويتولد عن تأثيرات الخبرات المؤلمة، والصدمات الانفعالية وسوء التوافقات النفسية والاجتماعية نشوء بعض المشكلات السلوكية أو بروز حالات مرضية في سلوك الأفراد كما ظهر ذلك في طائفة من المشكلات المستخلصة من نص الوصية مثل استهانة الفرد بذنبه، وضعفه أمام روااسب نفسه، وسالف ذنوبه، وتسويفه في التخلص من معاصيه في الماضي، والتواني فيما لا عذر له فيه، واختلاق الأعذار لإبطاء التغيير، والاستسلام بدرجة ما للهوى وشهواته، والطمع إلى درجة (إذلال نفسه) تحت مطارق مطامعه وشهواته.

رصد المشكلات السلوكية والسمات المرضية:

لقد اقتادنا بعض التأمل الذهني في المادة اللفظية الارشادية لنص الوصية إلى التعرف على عدد محدود من المشكلات والحالات المرضية لدى الكائن الآدمي، ويعود سبب معرفتنا بهذا العدد من المشكلات والحالات المرضية إلى أن الوصية لم تُقدّم من قبل الإمام الباقر عليه السلام لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي كدراسة المشكلات السلوكية من اجل التكامل، وإنما تطلبت الوصية المرور بعدد من الحالات المرضية ورصد بعض المشكلات التي يعاني منها الإنسان المسلم، وحددنا عددها بـ (عشرين حالة مرضية) متفاوتة في قوتها وشدتها.

ومع محدودية عملية رصدنا وتشخيصنا لأهم مشكلات السلوك وأمراضه الظاهرة في مواضع متفرقة من النص إلا أن هذه المشكلات والحالات المرضية تنوعت إلى حد ما، وتفاوتت درجات كل منها من حيث شدتها، ودرجة خفتها، فقساوة القلب على سبيل المثال حالة مرضية أقل من الشدة، والتعقيد والصعوبات إذا ما صدرت عن صاحبه أعمال ضد القانون، ويعاقب عليها الدين والقانون معاً، بينما يحتمل أن يكون الرجاء الكاذب وخداع الذات كمشكلة سلوكية نبّهت إليها الوصية الباقرية مرضاً أقل حدة وأخف شدة من قساوة القلب وجوده عاطفياً، أو أقل حدة من الاستهانة بالذنوب ومضاعفاته في الحركة اليومية للفرد، أو معصية (حب البقاء) لاقتراف الجرائم والاستمتاع بالملذات دونها هدف عبادي، فالمشكلة الأخيرة بحب التعبير والوصف الباقرى أشد المعاصي شدة لقول نص الوصية: «ولا معصية كحب البقاء»، ويعني حب الإنسان للبقاء في هذه الدنيا الدنيّة مع البعد عن الله ومنهجه وتشريعه.

وهذا التمييز في درجة الشدة والخفة في المثال السابق هو مجرد وجهة نظر ذاتية قد تكون موفقة في بعض جوانبها، ومخطئة في جوانب أخرى.

قائمة للمشكلات والحالات المرضية:

لقد تعرفنا على مشكلات السلوك وحالاته المرضية المختلفة، ويمكننا الآن وضع قائمة مصغرة من المشكلات السلوكية، والحالات المرضية التي تعتبر بمثابة مشكلات سلوكية في حياة الكائن الآدمي بخاصة الفرد المؤمن.

١. استهانة الفرد المؤمن بذنبه، ورضاه بالحالة التي يكون عليها.
٢. مشكلة (ذل الطمع) والحرص.
٣. إضرار النفس - بمعنى تحقيرها - بنزعة حقيقية لا مفتعلة.
٤. غرور النفس.
٥. الغفلة عن مراقبة أفعال النفس.
٦. الرجاء الكاذب (وخداع النفس وتضليلها) بالأموال الخادعة الظاهرية.
٧. التسويف، والتواني، واختلاق الأعذار لإبطاء التوبة أو تصحيح السلوك الخاطئ.
٨. عودة (سالف الذنوب) واستئناف روااسب النفس عودتها من جديد كضغوط.
٩. قساوة القلب، وفقر القلب.
١٠. موافقة الهوى والانصياع التام أو الجزئي لشهوات النفس.
١١. عدم التعقل وطيشه وحماقته وسوء التصرف.
١٢. معصية حب البقاء.
١٣. استكثار قليل الطاعة.

١٤. مشكلة الدنس أو كما تسمّى بـ (خفي الرّين).
١٥. مشكلة السلوك الشرير والاعتياد عليه بإلحاح شديد.
١٦. مشكلة الإفراط في الغضب.
١٧. الثقة بغير المأمون.
١٨. مشكلة تفويت فرص الخير وعدم الاستفادة من المبادرة للخير.
١٩. مشكلة قلة الخوف من الله لقوله (ع): «ولا قلة يقين كفقد الخوف».
٢٠. مشكلة أنماط السلوك العدواني مثل (ظلم الناس، تخوينهم، تكذيبهم، ذمهم والقدح فيهم وما يصاحب ذلك من حساسيات انفعالية، وكذلك العدوان اللفظي).

تصنيف المشكلات السلوكية والحالات المرضية:

قمنا بعد رصد هذه المشكلات كحالات مرضية بتوزيعها وتصنيفها ضمن مجالات خمسة، مع اعترافنا بحالة التداخل والتشابك بينها، وكان غرضنا من تصنيف أنماط من السلوك المرضي لدى الإنسان في نص وصيّة الإمام الباقر (ع) أمرين هما:

أ - حصر بعض المشكلات السلوكية التي وجدنا ما يلفت النظر إليها ويفتح أذهان بعض الباحثين للتأمل فيها.

ب - فرز وتسهيل دراسة هذه المشكلات السلوكية في نص الوصية الكريمة.

ويمكن توزيع هذه المشكلات على افراد، وتصنيفها لواحد من المجالات التي تتكون منها الشخصية البشرية كتصنيف مشكلة معينة مثل (حب البقاء) كمعصية روحية، ولكنني وجدت كذلك تجميعها ما نراه متشابهاً من هذه المشكلات السلوكية

والمرضية في مجموعات صغيرة، وقد رتب توزيعها لمجموعات كما في الجدول التالي:

الرقم	نوع المشكلة	مجال تصنيفها
١	الاستهانة بالذنب، الرضا به، سالف الذنوب، موافقة الهوى، معصية حب البقاء، استكثار قليل الطاعة، الدنس (خفي الرين)، مشكلة قلة الخوف من الله سبحانه وتعالى.	مشكلات روحية، ونفسية
٢	ذل الطمع، الغرور، إزراء النفس، عجب النفس، أنماط السلوك العدواني باستجابات متعددة أخرى.	مشكلات نفسية، وخلقية
٣	الغفلة، الرجاء الكاذب (خداع النفس)، طيش العقل وحماقته.	مشكلات عقلية، ونفسية عقلية
٤	مشكلة قساوة القلب، فقر القلب، مشكلة الغضب، مشكلة الثقة بغير المأمون.	مشكلات وجدانية، ونفسية واجتماعية.
٥	مشكلة إلحاح الشر على النفس (وهي مشكلة الاستجابة لفعل الشر بالتعود عليه).	مشكلة نفسية وخلقية
٦	مشكلة تفويت فرص الخير، وعدم اغتنام المبادرات الخيرة.	مشكلات نفسية وخلقية.

دراسة مشكلة (الاستهانة بالذنب).. انموذج افتراضي:

بعد حصرنا لهذه المشكلة كواحدة من أهم الحالات المرضية التي نبهت الوصية إليها في باطنها اللفظي والمعرفي، وقمنا (اجتهاداً لا غير) بتحديد نوع المجال الذي تُدرجُ تحت مظلته، يمكننا الآن عرضها كـ (انموذج) تطبيقي، للقارئ الكريم، وتوجيه بعض

الباحثين الصغار، والمبتدئين لدراسة المشكلات المرضية، وإخضاعها لخطوات البحث المنهجي، وضبط الحركة بها وفق قواعد علمية كما في تدرج النص القرآني بمشكلة الاعتقاد الخاطئ بـ (الإله والخالق الحقيقي) في الآيات القرآنية من سورة الأنعام رقم (٧٤ - ٨٠)، وعرضناه كنموذج قرآني في تربية العقل الإنساني على قواعد التفكير العلمي السليم^(١) ومنهجيته السليمة.

إنَّ المثال القرآني السابق جمع مراحل التفكير وخطواته الأربع في نص موحد من آيات كريمة متتابعة، وهي (مرحلة الإحساس بالمشكلة وتحديدتها، ومرحلة صياغة الفرضيات، ومرحلة اختبار هذه الفرضيات والتحقق من سلامتها، ومرحلة معرفة الحقيقة، وتنفيذ الإجراءات العملية لمواجهة المشكلات وحلها)^(٢)، وأعاننا القرآن على ذلك، بينما نجد في معالجتنا لمشكلة الاستهانة بذنوبنا وغيرها صعوبة في صياغة خطوات معالجتها بالقواعد العلمية القرآنية ذاتها، ومع ذلك فعقولنا قادرة على الاستفادة من المثال القرآني بكيفية التصرف مع هذه القضية وغيرها بالمنهجية ذاتها.

ولقد جمعنا في هذا المثال خطوات هذا المنهج ومراحله التي يمكن الاستفادة منها في معالجة (مشاكلنا السلوكية والحالات المرضية) في نص وصية الإمام الباقر وفي نصوص مختلفة له وللأئمة الطاهرين، وتنظيم خطوات المعالجة على أساسها، فالقرآن أعاننا على التأمل في النموذج والعمل به، وبقي في ميدان (واقعنا النفسي والاجتماعي) فرصة التأمل الذهني، وأن نتفكر ونؤسس لمنهج عمل يقودنا لنتائج مماثلة، وإذا ما أخضعنا هذه الحالة المرضية كمسكلة سلوكية وجدنا أنه بإمكاننا السير بها وفق خطوات منهجية تؤدي إلى نتائج إيجابية بعد معرفة الحقيقة، والحصول على خطوات علاجية ثم العمل

(١) مدن، يوسف، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية، ص ٤٧٢ - ٤٧٤.

(٢) مدن، يوسف، مصدر سابق، ص ٤٧٢ - ٤٧٤.

بها على أنفسنا، وهذه الخطوات هي كما يأتي:

الخطوة الأولى: تحديد نوع المشكلة وهي (الاستهانة بالذنب) لدى الكائن الآدمي:

وهي ما تعرف في البحث العلمي بمرحلة الإحساس بالمشكلة، وتكون إمّا بتنبيه من الآخرين أو أنه يدرك حالته في الاستخفاف بمعاصيه وذنوبه واستمراره فيها بدون تغيير فعلي، ويتم في الخطوة (تحديد السلوك المستهدف المراد تعديله أو إزالته) كسلوكنا المستخف بالذنوب والمعاصي، ومن الضروري أن يقوم الفرد المؤمن بالتعرف على مشكلته، وقد يعتمد الفرد المؤمن على نفسه في هذا التحديد أو يستعين بمُرشد أو مربٍّ أو عالم أخلاقي أو أصدقاء راشدين.

الخطوة الثانية: جمع معلومات عن المشكلة:

وعادة ما يبدأ فيها الفرد المؤمن المستهدف بتغيير هذه المشكلة (الاستهانة بالذنوب) في جمع معلوماته عنها بالملاحظة والمراقبة اليومية للذات ولسلوكها أو بأدوات أخرى، وأحياناً تكون هذه المعلومات متوافرة، ويعلم بها في كيانه من قبل.

الخطوة الثالثة: صياغة فرضيات المشكلة:

وتعني تحديد الأسباب المفترضة لنشأتها وظهورها في حياة الفرد من أجل تفسيرها، وبالتأكيد لا نلزم أحداً باعتماد صياغة محددة للفرضيات، فهي صياغة مفتوحة للأشخاص المعنيين ومرشديهم، ونقترح أن تكون الفرضيات على النحو التالي:

أ - افتراض أن هناك علاقة مترابطة بين حالة (الاستهانة بالذنوب) وضعف شخصيته، وتدني مستوى وعيه الديني.

ب - قد تعود أسباب استمرار هذه المشكلة (الاستهانة بالذنوب) الى تأثير المحيط

التربوي وسوء التوجيه الأسري والاجتماعي والشخصي.

ج - إن المحيط التربوي للفرد قد ساعد على تنشيط قابلية الفرد على الانحراف.

د - ثمة علاقة بين استخفاف الأفراد بذنوبهم وضغوطات العمل، وإغراءاته المادية والدينية.

هـ - إنه قد تبقى حالة (الاستخفاف بالذنوب) قائمة في سلوك الشخص بسبب تأثيرات رواسته النفسية السابقة التي أسمتها الوصية بـ (سالف الذنوب).

تلك فرضيات، قد تصاغ من قبل علماء مقتدرين أو مرشدين بنحو أكثر دقة، ولكن المهم لصاحب المشكلة أن يتعلم معالجة مشكلته بطرائق وقواعد من التفكير العلمي الهادف الذي ينتهي به إلى نتائج مفيدة، وتشعره بالارتياح النفسي، وحل مشكلته.

الخطوة الرابعة: معرفة تحديد الإجراءات العلاجية وحل المشكلة (تعديل السلوك):

بعد التحقق من صحة الفرضيات المسؤولة عن استمرار مشكلته، وحذف الفرضيات التي لا علاقة لها بالمشكلة فينتقل المرء إلى هذه المرحلة المهمة بمعرفة الحقيقة، والبحث عن حل المشكلة وتغيير البيئة النفسية والفكرية التي يعيش فيها الفرد، ويكون ذلك بتحديد دقيق لإجراءات المعالجة (بتعلم ذاتي أو استعانة بمربي)، وتصميم خطة العمل بمساعدة مرشد نفسي، عالم أخلاقي، ويبدأ تنفيذ هذه الخطة في العلاج السلوكي، ويراقب نشاطه، وما صدر عنه من تغيير، ويعزز بإجراءات تربوية مضادة لما كان يعزز مشكلته في الاستخفاف بذنوبه.

ويمكن أن تكون الخطة العلاجية منظمة تحفظ في ملف، أو صحيفة، أو كتاب أو سجل تراكمي كما أمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وتضم في طياتها: (أهدافاً، ومصادر مادية وبشرية، وتحديد وقت زمني، وأنشطة وإجراءات عبادية، وفحصاً

لنتائج العمل .. ما أنجز وما لم ينجز).

وقد اقترحت وصية الإمام الباقر (عليه السلام) إجراءات عملية يمكن الاستفادة منها مثل بدء التوبة، وشدة التيقظ، والصدق في الخوف من الله، والاسترشاد بالعقل والعلم، والقيم الأخلاقية، ومقاومة التسويف والتواني، وتجنب اختلاق أعذار ضعف واهية، وكثرة الاستغفار، وكثرة الذكر في خلوات الفرد المؤمن بنفسه، واستخدام الندم الواعي، وحسن مراجعة أفعال الذات، وطلب الرحمة والعفو الإلهي، وممارسة خالص الأدعية والمناجاة في الظلم، وقهر ذل النفس الناجم عن إشباع محرم للشهوات، وعزل الفرد المؤمن نفسه عن بيئات الانحراف التي تشجعه على الاستمرار في انحرافه، وتعلم أساليب التحرر من سطوة الذنوب وتحكمها كالصلاة والصوم، والانتقال إلى التكيف الجديد مع بيئات عبادية كحضور مجالس الذكر، وجلسات العلماء ومرافقة أصدقاء مستقيمين، وتنفيذ مخلص لمطالب الوصية، ثم متابعة فترة ما بعد الإصلاح بشكل جاد لا كسل فيه.

تلك مجرد تجربة لمواجهة المشكلات، وللفرد أن يستعين بمن يثق فيه ويمكنه من الثورة على مشكلاته، وتغيير سلبيات ذاته ورذائلها بفضائل الخير وقيمه وعاداته الحسنة التي يقرها الدين، والعقل الإنساني ويرشده إليها أهل العلم والخبرة والصلاح، ويمكن أن يصمم خططاً لمواجهة تناسب وضعه وتستلهم نصائح الإمام الباقر (عليه السلام) وأقوال النبي ﷺ، وأحاديث المعصومين من آل، وعترته الكريمة المطهرة.

خطوات رصد المشكلات وعلاجها :

بعد كلامنا عن المشكلات السلوكية وحالاتها المرضية ورصدها وتصنيفها، وكيف يمكن استخدام المنهج العلمي في دراستها، نضع أهم الأفكار الرئيسية المستخلصة من نص الوصية، فقد لاحظنا - كما تقدم قولنا - في باطن هذه الوصية المباركة، تحديد بعض مشكلات السلوك، والحالات المرضية في حياة الفرد المؤمن، وفي سلوكه وفكره ومشاعره.

وأهم الملاحظات المجملية، والمستخلصة هي ما يأتي:

١. إن النص يذكر نوع المشكلة، ويحددها بالملاحظة والرصد، وذلك لمساعدة المؤمن على المعالجة وتقديم حلول لإصلاحها.

٢. وأحياناً نجد في ألفاظ الوصية توصيفاً توضيحياً مركزاً.

٣. وبعض الأحيان يمكن رصد بعض الأسباب التي ترتبط بها بعض المشكلات، وعوامل مؤثرة في نموها وتراكمها، وتحتاج إلى بعض البيان والتفسير.

٤. ونجد في النص كذلك تحريضاً إيجابياً - هنا وهناك - للفرد المؤمن لإثارة وتحريك دوافع الفرد وبواعثه الداخلية لمواجهة، أو باتجاه الاستفادة من القوى الخيرة في طبيعتنا وفي دين الله الإسلام، والعقل وقدراته كالعلم والتفكير لتنمية وتعزيز عادات السلوك الحسن الموافق للنظرة العبادية الإسلامية.

٥. حاولت الوصية بطرق مباشرة، وبأساليب متباعدة حيناً آخر تقديم حلول علاجية مهتدية بالنظرة الارشادية التي أثارها وصية الإمام الباقر عليه السلام، ومنها على سبيل المثال طرق معالجة السلوك بأضداده (علاج الرذائل بالفضائل)، وكثرة الاستغفار وذكر الله في الخلوات، وتوظيف القيم الخلقية وغير ذلك.

٦. إن جميع صيغ العلاج الإرشادي التي قدمتها الوصية مستمدة من الرؤية العبادية للمشرع التربوي الإسلامي، ومأخوذة من مصادره الأساسية بخاصة القرآن الكريم، والعترة، وخبرة الإمام محمد بن علي الباقر (ع)، وهو ممثل أمين للقرآن الكريم، ولأئمة العترة النبوية الطاهرة معاً، وكذلك اجتهادات العلماء وخبراتهم العلمية والعملية.

العوامل المؤثرة في المشكلات السلوكية وحالاتها المرضية (سلباً وإيجاباً) :

لم يولد الكائن الآدمي، مؤمناً وغير مؤمن، بمشكلات قائمة فعلياً في حياته، بل تفاعلت قابليته للشر مع مجموعة عوامل فبدأت تظهر سلوكيات تفاقمت حتى تراكمت فتكونت بعض المشكلات السلوكية، وأخذ بعضها طابعاً مَرَضِيّاً، وكان ظهور هذه المشكلات بتأثير عوامل سلبية عرفتها حياة الأفراد، وكذلك اختزن كل فرد منّا في داخله (قابلية للخير)، وبحكمة إلهية، وجعلها جزءاً من فطرتنا وتكويننا البيولوجي والفلسفي والنفسي.

وظهرت محاولات معبرة عن هذا الإلهام والاستعداد الفطري الكامن في تركيبنا الداخلية لتنمية هذا الاستعداد، ومن ذلك اجتهادات علماء الأخلاق وعلماء السلوك، ومن قبلهما الدين وتشريعاته وأحكامه الضابطة، فكما كانت هناك عوامل سلبية تسببت في ظهور تدريجي للمشكلات السلوكية في حياة الأفراد، كذلك انطبعت في كياننا الفطري عوامل خير مهمتها مساعدة الأفراد على علاج مشاكلهم وصياغة خطوات عملية للتخلص من آثارها السالبة.

ولهذا فإنّ ما نقصده بالعوامل المسببة هو كل ما ساعد على بروز بعض المشكلات السلوكية بطابع مرضي، وساعد بتأثير سلبي على نموها في حياة الأفراد، وقابل ذلك من

جهة ثانية وجود عوامل إيجابية في نص الوصية قد ساعدت على اقتراح حلول علاجية للمشكلات وللتغلب عليها، وقد تضمنت الوصية تقابلاً في تأثير العوامل السلبية على ظهور مشكلات وحالات مَرَضِيَّة، والعوامل الإيجابية المضادة، وهي عوامل مساعدة للذات على وضع حلول علاجية لمشكلاتها، والسيطرة على حالاتها المرضية أو التقليل من آثارها على أقل تقدير.

وبذلك تم تقسيم العوامل المؤثرة في المشكلات السلوكية وحالاتها المرضية (سلباً وإيجاباً) إلى نوعين أساسيين، وكل واحد منهما تتفرع عنه عوامل فرعية، وهي:

- العوامل المسببة لنشأة المشكلات وحالاتها المرضية.
- والعوامل الإيجابية المساعدة على علاج المشكلات السلوكية.

أولاً: عوامل تكوين مشكلات السلوك وأمراضه:

اعتاد علماء السلوك تفسير نشوء وتكوين السلوك الإنساني في طابعه السلبي والايجابي بتأثير عاملين أساسيين هما (الوراثة والبيئة) فكلاهما يأخذ نسبة من التأثير في نمو هذه الظاهرة الإنسانية، وهما العاملان اللذان تتداخل تفاعلاتهما، ويتسببان بقسمة مشتركة أحياناً، وبنسب غير متعادلة أحياناً أخرى في بروز حالات من السلوك السوي، والعصبي أو المَرَضِي، فكل سلوك إنساني هو نتاج تفاعل مشترك ومتداخل للعاملين المذكورين، ولا يخرج عن تأثيرهما كل أنماط السلوك المذكورة في نص وصية الإمام الباقر (عليه السلام)، وكل حديث عن السلوك البشري.

وسيكون حديثنا بإيجاز شديد حول تأثير عاملي الوراثة والبيئة في تفسير وظهور النشاط الإنساني بمختلف أشكاله إن كان سبباً في بروز مشكلات السلوك المَرَضِي

أو كان في كيفية علاجها، مع التأكيد مرّة أخرى على أن اهتمامات نص الوصية ليس معنيّاً بالحديث المباشر عن تأثير عاملي الوراثة والبيئة في نمو السلوك بظواهره السلبية والإيجابية، بيد أننا نلمح إشاراتهما، أو نفهم أنّ ما ذكرته الوصية من أنماط سلوكية لا يخرج عن نطاق تأثيرهما المشترك والمتداخل.

أولاً: عامل الوراثة.

ونتساءل، ونحن في هذا الموضوع من البحث، هل هناك في نص الوصية إشارات وراثية؟

والإجابة - بادئ ذي بدء - وبوجه عام أن الإشارات المعنيّة عن العنصر الوراثي لم يأت لها ذكر مباشر، ولم نجد لها ألفاظاً واضحة، تدل عليها، وهي بذلك لا تحتاج إلى ضبط وتفسير واستخلاص نتائج، ولقد نظرنا إلى متن هذه الوصية ومفرداتها اللفظية، وبمنظرة غير مباشرة، وبقصورنا المعرفي فوجدنا أنه لم ترد علينا في نص الوصية إشارة علنية لهذا العامل في شأن الأمراض والمشكلات السلوكية، ولحظنا أنّ مفردات الوصية كما هو واضح تميل إلى تغليب الأثر البيئي، فكل الحالات المرضية ومشكلات السلوك لدى الفرد المؤمن مربوطة بعوامل بيئية ونفسية وضعف في الوعي المعرفي بخاصة في الجانب الروحي والديني والاجتماعي والأخلاقي.

وبالرغم من ذلك فوصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع) لم تخل - ولو بطريقة غير مباشرة - من الإشارة العابرة إلى وجود قوى فطرية تكون مؤثرة عادة في تكوين السلوك الإنساني ونموه أو في مجال إعاقته، وهي مع ذلك تعتبر من القوى المؤثرة، وبنسبة وراثية كبيرة، وإن لم تذكر الوصية ذلك بلفظ مباشر، وبألفاظ متداولة في ثقافتنا التربوية المعاصرة، وقد دخلنا إلى هذه الإشارات الدالة على أثر الجانب الوراثي من

خلال ما ذكرناه سابقاً من وجود مكونات فطرية أساسية في التركيبة الإلهية للكائن الآدمي، وتتضح في أدوار هذه القوى ذات الأصل الفطري الوراثي، وهي مكونات يلعب فيها العامل الوراثي بنسبة واضحة، ومؤثرة في السلوك وظواهره الصحية أو أمراضه.

ومن أهم مظاهر هذه القوى الفطرية لدى الإنسان:

١. العقل الإنساني وأصله الوراثي - الفطري:

من القوى ذات الأصل الوراثي الفطري العقل المذكور مراراً في نص الوصية الباقية، وقد ذكرت بلفظه الصريح أربع مرات على الأقل بلفظة (العقل)، وهو وجود فطري بأصل وراثي، وارتبطت الإشارة للعقل في الوصية بمواجهة قوة (هوى النفس)، وباستخدام مصطلحات مهمة مثل (دلالة العقل) في إحدى جمل الوصية، وباستخدام اللفظ مجرداً من (ال) التعريف بحسب مواضع الاستخدام في الجمل مثل قول الإمام محمد بن علي الباقر (ع): «ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين» وفي جملة أخرى قوله: «ولا عقل كمخالفة الهوى»، وذلك في إشارة لتعطيل العقل ووظيفته في الرصد والتشخيص والتدريب العقلي على تنمية القدرات كالتذكر والحفظ، والتصور والتحليل وغيرها وسائر العمليات الذهنية في الجملتين الأوليين، وفي إشارة ثانية للدور الإيجابي للعقل وقدراته المتعددة في مواجهة (هوى النفس وشهواتها) كما في الجملة الثانية: «ولا عقل كمخالفة الهوى».

ولحظنا كذلك أكثر من إشارة للعقل من خلال ذكر وظيفته العامة، وبعض قدراته وطرائقه مثل قول الإمام الباقر (ع) لجابر الجعفي: «وفكر فيما قيل فيك» كإشارة إلى وظيفة العقل والتفكير ذاتها التي يقوم بها، وكذلك إشارته لدوره في الوعي والتمييز

بين الحق والباطل كقوله: «وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ»، واستخدام مفردات لفظية ك (استرشاد العلم، ومعرفة النفس، ومعرفتها كمعرفتك نفسك، وحسن المراجعة)، فجميع هذه المصطلحات تعبر عن مظاهر وقدرات عقلية تنمو وتكثر، وتتحول إلى تجارب وخبرات يتم الاستفادة منها في حركة الفرد وتفاعله الاجتماعي والشخصي، وفي مواقف متعددة من حياته اليومية.

ان العقل - وكما قلنا من قبل - في النصوص الدالة عليه ينقسم الى نوعين، وراثي، وفطري، ونسبة او درجة معينة :

أ- الذكاء الفطري، وهو قدرة عقلية عامة، ويولد الفرد مزوداً به، ويسميه أمير المؤمنين الإمام علي بن ابي طالب (ع) بـ (عقل بالطبع) أو (عقل مطبوع)، أو (عقل ولادة)، وهذا النوع من العقل أو الذكاء العقلي قد يُمكن الفرد من تطوير قدراته حينما يؤدي وظائفه الذهنية بطريقة صحيحة، ويساعد على تكوين نماذج ناضجة، وسوية من الشخصية الإيمانية والعبادية، ولكن إن لم يُؤدِّ وظائفه كما يرام له فقد يتسبب التدهور العقلي (كوجود نسبة تخلف عقلي وراثية مثلاً أو عدم تعلم وتدريب وتنمية للقدرات العقلية أصلاً) في بروز مشكلات سلوكية وحالات مَرَضِيَّة في حياة الأفراد، تؤثر على وظائفهم النفسية.

ب- ونوع آخر من العقل الفطري يتكئ كذلك على نسبة وراثية وجهود تربوية واجتماعية وعمليات تدريب، ويسميه الإمام علي (ع) بـ (عَقْل إفادة)، و(عقل التجربة)، و(العقل المسموع)، وينمو بالتدريب العقلي التربوي المنظم، ويبرز قدرات الفرد في مجالات متعددة، وبالرغم من دائرته الاجتماعية والتربوية فلا يمكن عزله عن أصله الوراثي - الفطري، بالإضافة إلى طابعه التربوي الموجه والهادف، وهو إمّا أن يأخذ بدور مساعد في تنمية شخصيات الأفراد أو إعاقته بمشكلات نفسية وأخطاء

سلوكية، ولم تذكر وصية الإمام الباقر (عليه السلام) إشارات توضح العلاقة بين بروز هذه المشكلات المذكورة في نصها، وتأثير عامل عقلي وراثي، وباختصار تبدأ المشكلات السلوكية، وبطابع مَرَضِي يُهدد مصير الشخصية ومستقبلها إذا ما تخلى العقل لسبب معين عن أداء بعض أدواره، وتكون الأمور بخلاف ذلك أو بوضع أفضل عندما يقوم العقل بوظائفه وتنمية القدرات العقلية للأفراد، بنحو يساعد على حل مشكلات السلوك.

٢. وجود (القابلية الوراثية) في تركيبة الكائن الادمي.

ما اصطلح عليه في بعض الدراسات بـ (القابلية الوراثية للخير والشر)، أو (القابلية بالقوة والاستعداد)، ولا يعني تزويد الإنسان بهذه القابلية والاستعدادات الداخلية أن الإنسان يولد بسلوك شرير فعلي، أو يولد بأفعال الخير، فهو - بكليهما - مزود بهما في تركيبته قبل أن يرعاه المجتمع أو تتعهدة التربية بمختلف أشكالها، واختيار تنمية هذا أو ذاك من صنع عمله، فالقابلية هي مجرد استعدادات داخلية تهيئ الفرد فيما بعد ولادته لـ (فعل الشر) أو لـ (فعل الخير) بحسب نوع التوجيه الذي يساعد على تحقيق هذا النوع من السلوك الإنساني أو تحقيق النوع الآخر المقابل له، وهذا ما يسميه النص القرآني من سورة الشمس بـ (إلهامية الخير والشر) في تركيبتنا الادمية كما حددته الآية القرآنية الكريمة في قولها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، ثم يسند النص القرآني مسؤولية إنماء الخير للإنسان وإرادته، أو إظهار السلوك الشرير لإرادة الإنسان نفسه فقالت آيتان قرآنيتان: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا».

ويلحظ في ذلك أمور ثلاثة:

١. الإلهام الإلهي بـ (الخير والشر) هو فطري، ووراثي، وجعلهما الله سبحانه

كاستعدادين مركزين في كيانه الفطري، وفي داخل تكويننا الآدمي للعمل على استقبال المثيرات الخارجية والتفاعل معها، وهذا يعني أنَّ وجود الأصل لكليهما (وراثي، وفطري)، وهما معروفان في منطق وقول الفلاسفة، وبعض علماء الأخلاق بـ(القوة) الممكنة لا من الناحية الوراثية قائمان (بالفعل).

٢. إنَّ (التزكية والتدسية) هما فعّالان تسند المسؤولية عنهما للإنسان، ويربطان في أمر وجودهما اللاحق لفعل حقيقي في (إرادة الإنسان) وليست نشأتها بوجود القابلية أو الإلهامية بطبيعة حيادية مزدوجة من خير وشر، فالإنسان - بأية عقيدة دينية أو فلسفة اجتماعية وسياسية - هو المنشئ الحقيقي لهما في سلوكه الشخصي اليومي، وهو الذي بإرادته اختار أن (يزكي نفسه) لتفّلع، وهو الذي، بإرادته (يدسها فتخيب)، ويعني ذلك أنه بعد التزكية والتدسية يكون الإنسان مسؤولاً عن هويّة أفعاله، وتكون نتائجها محسوبة له أو عليه بمنطق الجزاء الديني.

٣. تكون مسؤوليات الأفراد في صنع أفعالهم خيراً وشرّاً واضحة تربط المقدمات بالنتائج، فإن كانت مسؤولية الاختيار خاطئة، وأدت إلى مشكلات (كأداء) أو بدرجات متفاوتة من الخفة والشدة والقوة، فهُمْ أو المربون القائمون على تربيتهم المسؤولون عن نشأتها مسؤولية كاملة، وقد يكون الأمر بخلاف ذلك إن اقتاد هذا الاختيار إلى قرار سليم بـ (فعل الخير) لنتائج طيبة وإيجابية، فتحققت لهم السعادة والراحة والطمأنينة.

أمثلة تطبيقية من نص الوصية عن هذه القاعدة (الفطرية التربوية):

ومما أكّدت عليه الوصية ربطها بين قابلية الانحراف والشر، وهي - كما قلنا - استعداد داخلي بالقوة لا بالفعل، ونمو مشكلاته المرضية، وقد فعلت مع عنصر (الخير) نفسه كاستعداد فطري حينها ربطت بين عاداته الكريمة، وفضائله بأسباب التربية

السليمة كالقيم، ومثال ذلك التوجيه الباقرى بأنه يمكن (اتقاء الحرص)، وهو الطمع وشره الإنسان في التشهي، وطلب الشهوات بـ (القناعة)، وقطع أسباب الطمع ببرّد اليأس، وراحة النفس بصحة التفويض وكثرة الاستغفار، وترقيق القلب بكثرة (ذكر الله سبحانه في الخلوات)، وفي العلاقات الاجتماعية العلنية.

وفي قابل ذلك ثمة ربط بين قابلية أنفسنا للشر والفساد والانحراف، وبين ظهور أنماط من الأفكار الشيطانية، وأشكال من الاستجابات الشريرة في حياة الأفراد لدى الكائن الآدمي، ونذكر من هذا الربط المؤكد ما ورد في نص الوصية الباقرية الكريمة بربط مجمل حينما جاء في نهاية المقطع الثاني أو (الفقرة الثانية) منها قوله ﷺ: «إِيَّاكَ والثقة بغير المأمون، فَإِنَّ لِلشَّرِّ ضَرَاوَةَ كضَرَاوَةِ الغَدَاءِ»، ونلاحظ من هذه الجملة ما يأتي:

١. إن الشر جزء من تكويننا الإنساني باعتباره مجرد استعداد كامن ينمو في محيطنا الاجتماعي والتربوي، ويتجلى بالأفعال الشريرة، ويبقى كامناً إذا ما رجّحنا الانحياز للخير.

٢. إن للأصل أصلاً وراثياً كالأصل الوراثي للغذاء، فالإحساس بالجوع، وهو في أصله فطري وراثي يعد حالة فسلجية لها علاقة بنقص الإشباع من الطعام والشراب، لكن نوعية الإشباع واختيار أنواع الأطعمة والأشربة من أفعالنا لإشباع هاتين الحاجتين.

٣. تشير كلمة (ضراوة) ونسبها للشر لتمثل قوتها مع قوة ضراوة الغذاء، والمراد من ذلك أن للشر قوة تعود واعتياداً يماثل قوة التعود على طلب إشباع الغذاء، فالشر يلح على النفس بعد الاعتیاد على فعله باستجابات شديدة الإلحاح، كالإلحاح الشديد الناتج عن تعودنا على إشباع حاجتنا من الغذاء.

٤. كان الغرض من التنبيه بضراوة الشر والغذاء وتمائلها في قوة التعود عليهما، وفي

إلحاحها على النفس هو تحذير المؤمن من (الثقة بغير المأمون) به.

واستمرت الوصية في تقديم نصائحها للربط بين بعض الأخطاء السلوكية وبعض المشكلات، ومن ذلك ما جاء في الوصية في بعض جملها وعباراتها: «وتحرّز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب فإنّه يوقعك في الخوف الصادق»، وتظن أنك في المسار العبادي الصحيح، بينما هذا الرجاء الكاذب يؤدي إلى خداع النفس وتضليلها دون أن تحس، وتوهمها بالاستقامة والصواب وأنت تحسبه هو (الخوف الصادق) من الله عز وجل، لهذا طالبت الوصية جابراً الجعفي، وكل فرد مؤمن بأن يتزين لله عز وجل بـ «الصدق في الأعمال»، وأن يستبق لنفسه «خالص الأعمال ليوم الجزاء».

وقوله كذلك: «وإيّاك والتسويق فإنّه بحر يغرق فيه الهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدّة الندم وكثرة الاستغفار» وغير ذلك من الأساليب العبادية، وكذلك نجد هذا الربط بين قابلية الشر وظهور بعض أنماط السلوك الشرير والمنحرف كقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه وعلى آبائه أزكى السلام والصلوات في نهاية الفقرة الأخيرة من نص وصيته: «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنوب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها»، فتعني أن (قابلية الانحراف) لدى الإنسان المستخف بذنوبه وتهاونه بمعاصيه ما تزال مُفَعِّلَةً، ونشطة بطريقة سلبية، وأن الشهوة فاعلة بأنواعها المشروعة، وبأصنافها المحرّمة؛ لأنّ النفس الأمّارة بالسوء، وهو جزء من الرصيد الداخلي الذي يستقطب الشر ويدفعه للظهور، ما تزال تحكم السلوك لدى الإنسان وتوجهه بنزعاتها وأفكارها الشيطانية والمريضة.

ثانياً: العامل البيئي:

ويبدو في مظهرين هما (الخبرات المؤلمة، والإهمال والتقصير الذاتي للفرد).

١. الخبرات المؤلمة:

ويتمثل هذا العامل بوضوح - كأثر للعامل البيئي - وحصره في نص الوصية بعدد من الخبرات المؤلمة والصدمات الانفعالية وإشارتها للعلاقة بينها وبين مشكلات سلوكية، وتأثيراتها على الشخصية، وقد تكون هذه المشكلات ناتجة عن هذه الخبرات المؤلمة وضغوطاتها، وما قد يترتب عن ذلك من حدوث صدمات انفعالية تسبب لبعض الأفراد اضطرابات نفسية وعائلية واجتماعية للفرد، أو وقوع خلل وظيفي في أداء النفس لديهم.

إن الشخص قد تمر عليه مواقف مؤلمة تترك بصماتها في تكوينه النفسي، وتكون مفتاحاً لحدوث اضطراب وظيفي في أداء الفرد وخلل جلي في نشاطه النفسي لا العقلي، ومن أمثلة ذلك مروره بتجارب الصراع النفسي كما في التوبة وعملية مجاهدة النفس، وكذلك الحرمان من إشباع حاجات معينة، ووقوعه تحت براثن الإحباط من تحقيق أهدافه في الحياة، ثم فشله في الحصول على مطالبه الآنية العاجلة أو الآجلة، ثم وقوعه في حالة مرضية، فتؤدي هذه المواقف كالتجارب المؤلمة إلى ظهور بعض المشكلات السلوكية المرضية، ويدرك الأفراد وجود مثل هذه المواقف الإحباطية المؤثرة سلباً على الصحة النفسية للفرد المؤمن.

وإذا ما توقفنا عند بعض المواقف، والمفردات اللفظية في نص الوصية يتبين لنا أنها تجارب تتصف بالألم والصدمات الانفعالية الفاشلة أحياناً، ومن الخبرات الاستفرازية المؤلمة التي قد تسبب في مرور الفرد بخبرات صادمة في بعض المثيرات النفسية

الاجتماعية كالاستفزازات العدوانية في التعامل اليومي بين الأفراد مثل (ظلم البعض للآخرين، وتخوين الناس، وتكذيبهم، والمبالغة في ذمهم والقدح في أعراضهم).

وقد نبّه الإمام الباقر - كما علمت - مراراً صاحبه جابراً، وكل فرد مؤمن إلى طريقة التعامل السوي والأمثل، والأسلوب الأنسب في الرد على مثيري هذه الاستفزازات تجنباً لظهور أية حساسية انفعالية، ودفعاً للشر عن النفس بحاضر العلم، وتدريباً للفرد على عملية أخلاقية كالتحلم، وضبط السلوك الانفعالي، وتجسيذاً للسمو الأخلاقي في أخلاقيات الفرد المؤمن، وهذا كله يمنع من بروز اضطرابات أو خلل في أداء النفس وبعض وظائفها كظهور إحساس بالذنب، ومشاعر النقص وحطة الذات، والرغبة في العدوان، وهكذا.

وعرضت الوصية في بعض جملها أمثلة على احتمال مواجهة الفرد المؤمن للخبرات المؤلمة، وحدوث صدمات انفعالية حادة، فقد حذرت الوصية من تجاهل ما يقوله البعض في غيره، ودعا الإمام الباقر (ع) صاحبه جابراً، وكل من يواجه مثيرات لفظية عدوانية إلى أن يتأملها، ويفكر فيما قيل فيه ومعرفة مدى سلامة هذه الأقاويل وخطئها، كي يتجنب وقوعه في خبرة مؤلمة حادة أو صدمة نفسية شديدة القوة، وتتمثل في سقوط الفرد من أعين الناس، وربّما في صدمة أشد وهي سقوطه من عين الله سبحانه وتعالى، وما لا شك فيه أن تحقق هذا الأمر يسبب بالتأكيد تجربة إحباطية ثقيلة، ويعبر عن وجود خلل وظيفي كبير في شخصية الفرد.

وعبرت الوصية عن هذه الصدمة الشديدة بجملة تثير الانتباه بقوة وشدة، فقال الإمام الباقر (ع) في توجيه صاحبه جابر: «فسقوطك من عين الله جلّ وعز عند غضبك من الحق، أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس»، ولكن من جهة ثانية قابلت الوصية بين هاتين الخبرتين المؤلتين على الفرد المؤمن، وبين نتيجة

سيكولوجية (مخالفة ومضادة) لهذا الحال بقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام لجابر بن يزيد الجعفي رحمه الله تعالى: «وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك».

وتمضي وصية الإمام الباقر عليه السلام في ذكر بعض إشارات لبعض المواقف والخبرات المؤلمة والصادمة في نصها، وقد توزعت في متنها، وبين فقراتها الرئيسية، وتركيبها اللفظية مثلما جاء في كلمات الوصية بأن المؤمن معني بمجاهدة نفسه، وتعرضها لتجارب صراع داخلي بين العقل والهوى (شهوات النفس)، فمرة يغلبها، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها، وتنطوي هذه التجربة بكل تأكيد على جملة من الإحساسات المتناقضة، ومنها شعور الفرد بالفشل، وتصميمه على مواجهة شهوات النفس، وفشل آخر حتى ينجح الفرد المؤمن في تحقيق هدفه كما أفادت الوصية، ولكن قد تأتي النتائج معاكسة، فيستمر الفشل في واقع التجارب الفردية وهو يخوض معاركه مع شهوات النفس، وتكون خبرات إحباطية مؤلمة وصادمة، ومنها يتسلل إلى داخل نفس الفرد مشاعر مَرَضِيَّة تفتك بنفسيته أو تسبب خبرات مؤلمة ومعوقة لنشاطه النفسي.

وتنشر الوصية الباركة تنبيهاتها لوجود معوقات نفسية فعلية قد تنمو تدريجياً في إحداث اضطرابات نفسية واعتلال في أداء النفس واستمرار تأثيرها، فيحذر نص الوصية من ظواهر التسويف، والتواني واختلاق الأعذار فيما لا عذر للإنسان فيه، وسوء الحذر من النزعات الشيطانية، ومن الرجاء الذي يصنع بعض التوهّمات النفسية الكاذبة، وتأثيرات الغفلة، وذل طمع النفس، وسالف الذنوب، والعودة إلى موافقة الهوى وأتباع نزعاته، والاستهانة بالذنوب ورضا الفرد بهذا الحال، وتلك أعظم المصائب فهذه جميعاً خبرات سيئة محبطة لا يستبعد أن تؤثر على نفسيّات الأفراد وتعوق وظائفهم، وتسبب في ظهور مشكلات سلوكية بطابع مَرَضِي.

٢. الإهمال والتقصير الذاتي للفرد في مواجهة انحرافات السلوك:

هذا العامل يجسد الآثار الناجمة عن المشكلات الناجمة عن إهمال الأفراد في أداء مسؤولياتهم، وقصورهم الذاتي في العمل على تطوير قدراتهم وتنمية صفاتهم الشخصية، وأعطت الوصية تفسيراً في أكثر من موقف يعبر عن الإهمال والتقصير الذاتي جهلاً أو بتعمد أو استنكاف الفرد بصلف فيه عن معرفة الصواب، واستكباره مثلاً على استلهاهم أي توجيه إيجابي للسلوك في مساراته الصحيحة.

ولنأخذ من باطن نص الوصية جملتين تعبران عن الدور السلبي لهذا العامل في ظهور مشكلات سلوكية، وظهور حالات مرضية، قال الإمام الباقر (ع) في إحدى جملته: «وتحرّز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ»، وتبدو هذه الجملة كخطوة وقائية لحماية الذات من تأثيرات الغفلة في إخلاص العمل لله سبحانه، حيث تطالب هذه الجملة بأن يكون الفرد (يقظاً) وبدرجة انتباه عالية كي لا يقع فيما أسماه النص بـ (عظيم الغفلة)، وتشير هذه الجملة إلى التنبيه إلى خطورة الدور السلبي لغفلة الإنسان عن القيام بمسؤولياته في ضمان ضبط (الإخلاص في العمل) لله من أثر غفلة القلب، وتعطيل وعي الإنسان المؤمن بنظافة وتوافر شرط (الإخلاص في العمل لله) من أثر الغفلة، وتنقيته من الشوائب الدنيوية المنحطة والدنيئة حتى لا تُفسد (نوايا القلب وتوجهاته العبادية) لله تعالى بسبب الغفلة المعتادة في حياة الناس.

وما لاحظناه أن النص في لغته المجملة وضع معادلة يجب الانتباه إليها وهي أن (الغفلة والتيقظ) بدرجة شديدة، فأحدهما (عظيم الغفلة)، والآخر ينبغي أن يكون (شديد التيقظ)، وتفترض الوصية معادلة متكافئة فيها على الأقل أن يكون التيقظ الذهني بدرجة عالية في مواجهة غفلة قوية وشديدة، وكأن الإمام الباقر (ع) يذهب إلى القول بأن قوة شديدة من الغفلة تحتاج إلى شدة تيقظ ذهني، وتتطلب وعياً كبيراً ويقظة

عقلية كبيرة تعطل شدة الغفلة أو تضعف تأثيراتها على تخليص العمل من شوائب الدنيا وأضرارها السيئة، ويعبر هذا التكافؤ على الأقل عن أمل الإمام الباقر (ع) بالتعادل في حده الأدنى بين قوتي (الغفلة والتيقظ)، إن لم تكن الغلبة للثانية عن ضرورة بقاء الوعي العبادي والذهني مستمراً وحاضراً ونشطاً في حماية الأعمال العبادية من أدران الدنيا.

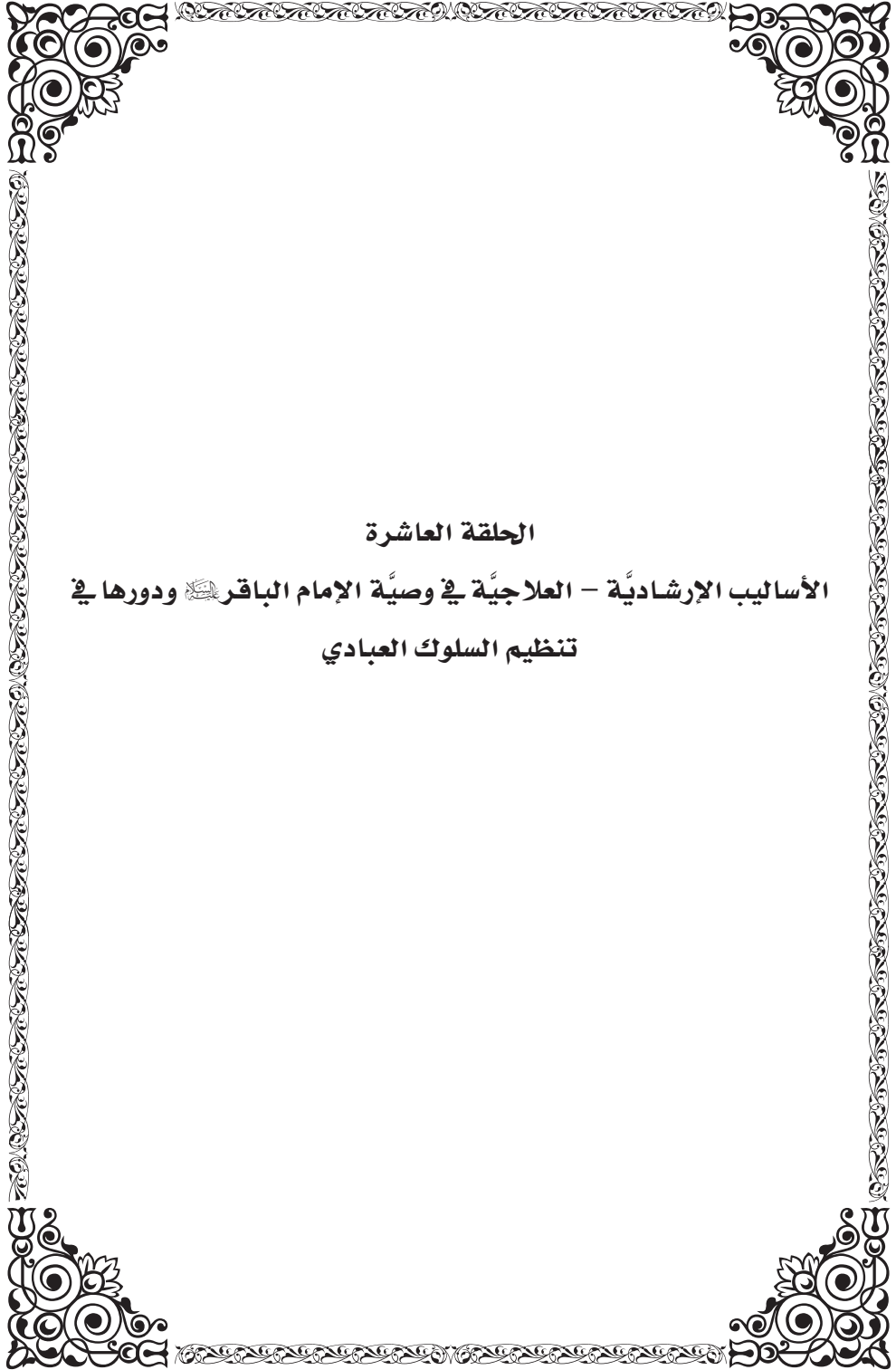
وتنتقد وصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع) في مثال آخر تقاعس الإنسان وتحاذله وتقصيره في القيام بمسؤولياته وأداء وظيفته العبادية، وتسبب هذا الإهمال في إضعاف إرادة الفرد المؤمن نفسه كما تؤكد ذلك هذه الوصية التي بينت في جملتين متصلتين، وهي تستثير إرادته ودوافعه الداخلية: «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها».

ولا نود الإطالة في شرح دلالة هذا القول لوضوحه أولاً، وإسناده لمسؤولية الفرد في استمرار هذه المعصية باستهانتة بذنوبه واستخفافه بمعاصيه، وقبوله المذلل لحالته السيئة ثانياً، وأيضاً كسله عن تغيير واقع الانحراف السلوكي والفكري في شخصيته من الأسوأ إلى ما هو أفضل ثالثاً، رغبة منه في تجاهل مخاطر هذه الاستهانة بذنوبه وعدم مبالاته بتتائجها السيئة.

ثانياً: عوامل مساهمة في علاج أمراض السلوك ومشكلاته:

تنوعت في نص وصية الإمام الباقر (ع) العوامل المساعدة على علاج مشكلات السلوك وحالاته المرضية كما أراد المشرع التربوي الإسلامي في التربية الذاتية للأفراد، وأوضحنا ذلك في أكثر من فصل كالحاجات والقيم الإرشادية، ومبادئ التوجيه الإرشادي، والأساليب العلاجية للذات في وصية الإمام محمد بن علي الباقر (ع).

ومن هذه الأساليب كف الاستجابة العدوانية عن الآخرين، ومجاهدة النفس، والقيم الارشادية مثل الشكر، وكثرة الطاعة والذكر والاستغفار، وشدة التيقظ وصدق الخوف، والاسترشاد بالعلم، واجسام القلب، وتزيين النفس بالصدق في الأعمال، والتوبة وشدة الندم وحسن مراجعة الذات في فكرها وسلوكها ومشاعرها، وأداء الفرائض اليومية، وغير اليومية، وعدد آخر من الأساليب والطرائق الوقائية والعلاجية التي اقترحتها الوصية من أجل تنمية شخصية الإنسان المؤمن وصقل صفاتها الأساسية في جوانبها المختلفة.



الحلقة العاشرة

الأساليب الإرشادية - العلاجية في وصية الإمام الباقر عليه السلام ودورها في
تنظيم السلوك العبادي

مقدمة

بعد رحلة طويلة، وممتعة من البحث عن مضامين هذه الوصية الخالدة، تحدثنا فيها -كوثيقة تربوية إرشادية مهمة في فكر الإمام الباقر (عليه السلام) - عن بعض الأبحاث التي نراها متصلة بموضوع موحد النزعة المعرفية، وهو (النزعة الارشادية وبناء نسق الشخصية العبادية)، وقمنا -لإنجاز هذه الدراسة- بكتابة تصورية عن عدد من الموضوعات السيكلوجية، والأخلاقية والمعرفية التي تلتقي في وحدة معرفية لموضوع واحد هو ما تصورناه من وجود علاقة بين مجموعة القواعد الإرشادية وبناء نسق للشخصية العبادية بمحددات المشرع التربوي الإسلامي، حيث تناولنا في محطات سابقة أحاديث مترابطة عن النزعة الإرشادية وجوانبها في وصية الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام)، كالحديث عن مفهوم السلوك ومكوناته وشروط حديثه.

وأشرنا إلى بعض مشكلات السلوك الإنساني وأمراضه وعن مجموعة الانفعالات النفسية في النص، والعوامل المؤثرة في الاتزان الانفعالي والنفسي، وتطرقنا في فصل مستقل الى الحاجات والقيم الإرشادية، وعلاقتها بالاتزان النفسي، ثم بحثنا كذلك المبادئ الإرشادية الضابطة للسلوك والموجه لمساراته في حياة الكائن الآدمي المؤمن، ونحاول في هذا الفصل بحث عدد من أساليب العلاج الإرشادي التي نعتقد أننا أدركناها في نص الوصية بتأملنا الذهني القاصر.

ومما لا شك فيه أن البحث عن مشكلات السلوك وأمراضه حتى لو كان متفرقاً في مواضع من هذه الدراسة فإن المنطق يستوجب استكمال الحديث عنه بالحديث عن أهم

الأساليب الإرشادية - العلاجية، فمهمة (المُرشد) تقديم خدمته للمسترشد ومساعدته بتقديم المشورة، والمساعدة النفسية بما يعينه على تجاوز بعض مشكلاته الذاتية.

ونعتقد أن هذه الأساليب مأخوذة من النظرة الإرشادية التي احتوتها وصية الإمام الباقر (ع)، وهي مستمدة من وجهة نظر المشرع التربوي الإسلامي، ومهمتها بناء نسق لشخصية عبادية مسلمة، أو على الأقل بذل ما أمكننا من جهود لإعادة الذات المسلمة إلى وضعها السابق بالخروج من حياة الانحراف والفساد وتقليل آثاره النفسية والسلوكية والاجتماعية، وأهم من ذلك تأمين مستقبله المصيري بعالم الآخرة، وتوظيف الأساليب الإرشادية في الوصول لهذه النتيجة الآمنة بإذنه تعالى.

ويمكن تقسيم أساليب العلاج الإرشادي لاستكمال نسق النظرية الإرشادية في وصية الإمام الباقر (ع) إلى نموذجين أساسيين، وسيتفرع عنهما أساليب فرعية قد تم إدراجها ضمن النموذجين، وسيتم توزيع بعضها في أحد النموذجين، وسيدرج بعضها الآخر في دائرة النموذج الآخر، وهذان النموذجان هما:

- النموذج الأول: ويركز على أساليب ذات طبيعة عقلية وإدراكية ومعرفية.
- والنموذج الثاني: وتبدو فيه - كما نعتقد - أساليب يغلب عليها الطابع الروحي - الأخلاقي.

أولاً: الأساليب العلاجية ذات الطبيعة العقلية والإدراكية والمعرفية.

وتفرع عنه كما تصورناه بعض الأساليب التي لفتت الوصية أنظارنا إليها، وكتبنا بنظرة اجتهادية عنها، ومنها ما يأتي:

١. عرض موقف الذات على القرآن:

القرآن لدى جميع فرق المسلمين المصدر الأول للتشريع عندهم، وهو بالنسبة إليهم كلمة الحسم، والفصل الحكيمة إذا ما اختلفوا حول قضية ما من قضايا حياتهم التي لا ينقطع فيها اختلافهم، ولا جدلهم، فإذا ما وقعوا في جدل أو اختلاف رأي حول قضية معينة لا ذوا بالقرآن يبتغون حكمه الفاصل تأييداً أو معارضة، وامتلثوا لأوامره ونواهيه، فالقرآن حكم الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

ومن المنطقي أن يحيل أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (ع) صاحبه الكريم جابر ابن يزيد الجعفي - كأبي مسلم مكلف - إلى التركيز على أهمية القرآن كحكم فصل بين كل ما هو حق، وما هو باطل، وأن يدعو إلى عرض نفسه على كتاب الله ليعرف حال ذاته، ويدرك مدى القرب والبعد منه، قال الإمام الباقر (ع) في وصيته لجابر الجعفي، وهو يشير إلى دور القرآن كحكم فصل يريح كل مسلم ويطمئنه على نفسه في الدنيا والآخرة:

«وأعلم بأنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك، وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه فأثبت وأبشر، فإنه لا يضرّك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فماذا الذي يغرك من نفسك».

ويلحظ في هذا المقطع من نص وصية الإمام محمد الباقر (ع) مسألة تنبيهه الحاسم لجابر الجعفي بقضية هي مألوفة في الواقع الإنساني وفي حياتهم العادية، فمنهم من يصف جابراً كـ (رجل سوء) ويحزنه ذلك في قاعدة الاستجابات السلوكية المألوفة، ومنهم من يصفه عليه الرحمة بـ (رجل صالح) فيسره ذلك ويأنس بهذا الوصف ويرتاح

له ويغمره بالسعادة الكاذبة، لكنَّ منطق النص - كما نفهمه من كلام الإمام الباقر (ع) - يركز على معيار مهم ينبغي الالتفات إليه وهو مدى تطابق أنفسنا مع حكم القرآن أو بُعْدُها عنه، ولهذا لفت (ع) نظر صاحبه جابر إلى عدم الاكتراث لهذه الاوصاف التي يوصف بها، ويدعوه - بكل صراحة - بأن لا يحزن لو صنفهم إِيَّاه برجل سوء، ولا يفرح بوصفهم إِيَّاه برجل صالح، ففي هذا غرور يلحق الأذى بالنفس، ويفوت الفرصة على المؤمن من معرفة ذاته، والاطمئنان على مصيره بناءً على مدى (قربه أو بُعْدُه) من أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه.

الاعتماد على وصف الناس للذات بالسوء والصلاح هو معيار ذاتي، وقد يكون شهوياً منحرفاً، وبعيداً عن السلامة، لذلك طالبت وصية الإمام الباقر (ع) بأن يعرض جابر، وكل مؤمن نفسه على ما في كتاب الله، كمعيار فصل بين ما هو صحيح، وما هو خاطئ، فهذا الكتاب الإلهي ناطق بأوامر الله ونواهيه، وهو المعيار الموضوعي الذي يحتاجه المؤمنون في الحكم على أفعالهم ومدى صحتها أو انحرافها عن الحق.

فالوصية ذكرت - بالنسبة للفرد المسلم - حاجة مرجعية (معرفياً وعقائدياً وروحياً) وذكرت هذه الوصية أهمية القرآن في فرز الحقائق عن حالات الفساد والانحراف والباطل، فوصف الناس جابر بن يزيد الجعفي أو غيره من الناس برجل سوء أو صلاح لا يخلو من الحكم العاطفي المنحاز، ولا يبرأ من التحيز الذاتي، والأهواء الشخصية، لذلك قرر الإمام الباقر (ع) اعتماد القرآن مرجعاً موضوعياً، وحكماً دقيقاً، ومسنداً مهماً في الفصل السليم بين ما توافق عليه الناس أو اختلفوا من حق أو باطل.

وبالتأمل في محتوى ما ذكرته الوصية من ضرورة اعتماد القرآن كمرجع علمي، وحكم موضوعي دقيق وفاصل نجد ما يأتي:

أ- النقد الباقرى لوصف الناس لأحدهم كجابر أو غيره بالسوء أو الصلاح، وبلا معيار سليم، واعتمادهم على معيار ذاتي، وخاضع للعواطف، ولا علاقة له بالقرآن.

ب- إن هذا الوصف لجابر، وغيره من المؤمنين بـ (السوء أو الصلاح) ينشأ عنه بالضرورة حالة وجدانية، إمّا (حزن) لوصفهم إياه بالرجل السوء، أو بـ (السرور والفرح)، وهي حالة إيجابية مضادة لوصفهم له بالرجل الصالح، وغروره بذلك والاطمئنان لهذا الوصف دونها التأكد من مصداقية هذا الوصف وسلامته، وقربه من المنطق القرآني.

ج- تأكيد الإمام الباقر (عليه السلام) في مقابل نقد المعيار الشهوي والذاتي السابق على معيار آخر يتسم بالموضوعية والصحة والسلامة، والنتيجة المنطقية المؤكدة القادرة على فحص الذات بموضوعية وفرز ما هو صحيح فيها وما هو خاطئ، لهذا قال (عليه السلام) في تحديد المعيار الصحيح والبديل: «ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغييه، خائفاً من تخويفه فأثبت وأبشر، فإنه لا يضرّك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فماذا الذي يغرك من نفسك».

د- إنَّ عرض النفس على كتاب الله (القرآن) يكشف عن حالة ذهنية ووجدانية من التفاعل معه، وكشف قرب الذات وبعدها من خلال:

١. الحكم بـ (معيار موضوعي) هو أن يسلك الفرد المؤمن في حياته سبيل الله، وسبيل قرآنه المجيد، ومعرفة تطابق رغبة الفرد فيما يريده القرآن (ويعني تطابق رغبة الفرد في تنفيذ أوامره)، ومقابل ذلك تطابق النفس في زهد كل ما زهد منه القرآن (أي رغبة الذات في تجنب كل ما يريد منا القرآن تجنبه والزهد فيه) لضرره على أنفسنا، لذلك جاء في الوصية: «فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغييه، خائفاً من

تخوفه»، وقابل هذه الحالة قول آخر هو: «وإن كنت مبائناً للقرآن، فماذا الذي يغرك من نفسك»، أي قابل هذا المعيار الموضوعي بين طاعتنا لله من خلال الالتزام بمبادئ القرآن وتصورات العقائدية والوجدانية والخلقية، وبين معصيتنا له، فتعرف الذات بشيء من الثقة أنها تسلك سبيل القرآن أو أنها باينته وافترقت عنه، وهذا وحده يحمل الذات على الاستزادة من العمل بل استقلال كثير الطاعة) كما جاء في نصيحة الإمام الباقر لجابر أو التفكير الجاد في تغيير سلوك الذات للاقتراب من القرآن ومنهج الله سبحانه، أو في مقابل ذلك زيادة تعاستها بمزيد من الابتعاد عنه إذا ما ازورت النفس وسلكت مزيداً من المباينة بينها وبين القرآن.

٢. ربط المعيار الموضوعي ككلم مرجعي رصين بين حالتي (طاعة القرآن، ومباينته أو معصيته) ونتيجتهما، «فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخوفه فأثبت عليه» يا جابر، ويا أي مؤمن، وفوق ذلك هناك نتيجة طيبة بالآخرة، لهذا قالت الوصية لجابر «وأبشر»، أي توقع وأبشر ثواب الله وجنته، ذلك هو الجزء الإيجابي والمعزز بالخير لسالك القرآن ومطبقي تعاليمه، والنتيجة المضادة لهذه الحالة الإيجابية السليمة هي مباينة الفرد للقرآن وعدم سلوكه لتعاليمه، وغروره باطمئنان لأحكام الناس وتحيزهم دون حكم صحيح، وتكون النتيجة غروراً وشعوراً غير صادق، وقریباً من رجاء كاذب، بل هو فعلاً كذلك، ولهذا الكشف لواقع الذات ومعرفة قربها أو بعدها من القرآن نتائج تربوية يدركها كل مؤمن من اطمئنان بالدنيا، وشعور بالأمن على مصيره في الآخرة.

٢. علاج أخطاء الذات بالتفكير الهادف والتفكير الوجه:

هو تحويل قدرات العقل وتفعيلها بأنشطة وآمال تأملية وذهنية، وبواسطة عملية

التفكر في المثيرات داخل الذات وخارجها، في أخطائها وفي أفعالها السوية يتم فحص المعرفة لدى الفرد، والتميز بين أنماط السلوك المقبولة شرعاً، وغير المقبولة، وهو فرصة لتقويم سلوك الذات وأفكارها ومشاعرها في حركتها اليومية، ومما لحظناه أن الوصية الباقرية كوسيلة وضرورة تربوية قدمت نصائحها في أكثر من موقف يدعو للتأمل.

كان أول موقف دعت فيه الوصية للتفكر نصيحة الإمام (ع) لصاحبه جابر بأن لا يستجيب بانفعالات غير سوية، وبغير ائزان، وطلب منه أن يكف عن ظلم الآخرين إن ظلموه، ولا يخونهم إن خانوه، ويمنع نفسه من الغضب متى كذبه، ويكون سلوكه الشخصي هادئاً منضبطاً، وفي حالة وجدانية متزنة إذا ما استفزوه بدم ونقد وحساسية، ولا يجد نفسه فرحاً أكثر من اللازم إذا ما مدحوه، والمهم في هذا الموقف أن يستبدل انفعالاته غير الصحيحة المعتادة في سلوك كثير من الأفراد أن يفكر فيما قيل فيه من قبل الناس، ودعاه (ع) لتوظيف قدراته العقلية، وما ينشأ عن تفكره في تحقيق أهدافه كمكلف شرعاً، ويكون على قدر المسؤولية بتقديم نموذج للشخص المؤمن الناجح في أداء وظيفته العبادية، والقادر على تحقيق الائزان الانفعالي والنفسي مع الآخرين، وبسمو في أخلاقياته العبادية، كالحلم، وإظهار القدرة على ضبط النفس انفعالياً في مثل هذه المواقف، والتصرف كشخص يسعى إلى تعديل سلوك الناس، وتقوية سلوكه الذاتي المرغوب إن احتاج للتثبيت والترسيخ، ومضادة السلوك السيئ بسلوك عبادي نبيل، وتحويل الرذائل إلى فضائل، وتلك فرصة تمنحها الوصية للمؤمنين.

ويمكن للباحث، والقارئ الذكي أن يتفحص مظاهر الدعوة إلى التفكر في أوضاع الذات والانتباه إليها في أكثر من موضع بالنص الكريم، فهناك دعوته الصريحة إلى جابر الجعفي بالتفكر فيما قيل فيه كما تقدم، وتأمل افتراءاتهم باستجابات عبادية سليمة تم إتيانها بتفكر وتأمل ذهني كما جاء في أول النص، وهناك موقف آخر يطلب فيه من

الذات أن تعرض نفسها على كتاب الله لكسب معرفة عن حال الذات وأوضاعها، والعلم بما هي عليه من حق أو باطل، وكذلك تنبيه النص للفرد المؤمن بضرورة الالتزام بشدة التيقظ والانتباه الدقيق، ومراقبة واقع الذات بدلاً من الاستمرار في إبقاء الذات على غفلتها وسذاجتها، ولمدة تطول أو تقصر بحسب اختلاف الأفراد، وهذا - بكل تأكيد - مشهد ذهني تراجع فيه الذات واقعها وتعده وتحسنه.

وثمة إشارة كذلك إلى استخدام أدوات تطوير للذات وتقويم سلوكها وفكرها مثل دعوة النص إلى استخدام حسن المراجعة، والاستعانة بها في مواجهة ضغوطات ما أسماه النص بـ (سالف الذنوب)، وشددت الوصية على استخدام الأساليب التي تسمح بتجاوز آثار هذه الذنوب في النفس، باستخدام طرائق تعبير وجدانية مثل شدة الندم، والأدعية وغيرها لتحليل السلوك، وبها يتم التعرف على بعض أمراض السلوك لدى الذات.

وأيضاً مظهر عقلي معبر عن حالة تفكير، حيث تنطوي حركة التوبة وإفرازاتها التنويرية، وما يترتب عنه من فزعة وجدانية داخلية، وحركة نحو مزيد من الاستبصار الذهني للذات نتيجة معرفة ذهنية لواقع الذات في سابقها، وفي لاحقها، ونجاح الفرد المؤمن في مواجهة مشكلاته خلال فترة التوبة، وتغيير سلوكها، وهذا يحتاج إلى جهد عقلي، إضافة إلى جهد روحي ونفسي.

وثمة مواقف للتفكير والتأمل متفرقة في مواضع من النص، وتستبطنها الوصية، فكل أعمال الذات موصولة إمّا بخيط الشهوات المرصية، وزوائدها المنفلتة، وهي نوازع ذاتية غير منضبطة، أو أنها موصولة بالعقل وقدراته من الفكر والعلم والأنشطة الذهنية الأخرى، وبذلك فخير الذات واقع بين البقاء تحت سيطرة الشهوات أو استثمار نتائج التفكير في تحقيق إيجابيات للذات كتسمية قدراتها، وتعديل أفكار الفرد ومشاعره،

وسلوكه، ونلاحظ كذلك دعوة غير مباشرة في نص الوصية للفرد المؤمن بفحص معارفه، ونقد سلوكه، ويتبين لنا ذلك بأكثر من موقف، وجميعها شواهد على عملية التفكير تأكيداً على أهميتها في حياة الأشخاص.

فالتفكير والتفكير وسيلة الإنسان لتفعيل قدرات عقله، وتسخير علمه وخبراته العلمية، في فحص ذاته، وإنضاجها، وتطوير قدراتها، والوصول بها إلى أعلى حد ممكن من زيادة كفاءتها، وهي تواجه حركة الحياة من إحباطات وتحديات، واجتهادات لطلب المزيد من النمو والتقدم، ومن الصعوبة بمكان أن ينجح الكائن الآدمي في إحداث أي نسبة تعديل في سلوك الذات بدون استثمار نعم الله عز وجل، وفي صدارتها قدراته العقلية التي زوّده الله بها، فعمليات التفكير والتفكير تربط بنحو كامل بين قدرات العقل الفطري، أي ربط بين قدرة الذكاء الفطري وما اتصل به، وبين خبراته العلمية التي تولدت عن نسبة الذكاء الحقيقية عند الإنسان المكلف.

٣. تغيير أخطاء الذات بطريقة النقد الذاتي:

بطبيعتنا البشرية، وما تطوره من عيوب، ونقائص، واستعداد داخلي لفعل الأخطاء تميل الذات البشرية - تحت تأثير هذا الاستعداد الكامن - إلى عمل النقائص، وعمل السلبيات، وإتيان القبائح، بل وفضائح السلوك بما فيها من ذنوب ومعاصٍ وذنابل، ومرت الوصية على نماذج من هذه الأفعال، والمعاصي، والذنوب، والاستهانة بها، وقبول الإنسان بحالته المُرّضية المُرّية، ومما لا شك فيه أن هذا الواقع الفاسد يستوجب التغيير، وإعادة النظر فيما تفعله الذات من عيوب قاتلة، بتوبة، واستغفار، وكثرة الذكر وشدة الندم، وأداء الفرائض، وغير ذلك، وتقوم مراجعة الذات بأساليب متعددة ومنها (نقد الذات، وسلوكها، ومعارفها)، ومع مساحته المحدودة في النص إلا أنه يمكن كشف بعض مواضع استخدام هذا الأسلوب، وهو في المقام ذات طبيعة معرفية نقدية

وإدراكية.

وقد لاحظنا في نص الوصية أكثر من مثال عن مواطن النقد لسلوك الذات، ونكتشف الذات عن هذه الطريقة المعرفية مواضع الخلل، وكيفية علاجها أو تصحيحها، وتقليلها على الأقل، وهو مفتاح تحقق حالة طبيعية ومقنعة من (إجمام القلب) كما في هذه الوصية، وأماننا - كما نستقرئ - مثالان واضحان يدفعان عقل الباحث، والقارئ الأريب إلى القراءة الناقدة لفكر الذات وسلوكها، فكلاهما يختزنان نقداً للذات، وتوجيهاً لها نحو الثورة على الذات، وهما ما يأتي:

المثال الأول: (نقد الأفراد المستهينين بالذنب):

قبل أن تنهي الوصية حديثها الإرشادي لجابر بن يزيد الجعفي، وجهت كلماتها إلى الفرد المؤمن، وانتقدته على استهائته بالذنب، وقبوله حالته التي كان عليها وهو يستمر في ارتكاب ذنوبه بلا توقف، واعتبرت الوصية استهانة الفرد بذنبه، ورضاه بواقع (الحال) للذنب مصيبة لا مثيل لها، ولهذا جاء في مقطع من نص الوصية، وهو يخاطب جابر الجعفي أنه: «لا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها»، ثم جاء في جملة لاحقة لها: «ولا معصية كحب البقاء» بعيداً عن قرب الذات من الله سبحانه وتعالى، وطاعته وعبادته.

وكان غرض نص الوصية كما يبدو لنا من نقد الذات في استخفافها بالمعاصي، واستهانتها بالذنوب، وقبولها المخزي بحالة الذنب واستمرار بصماتها على الفرد هو إحداث صدمة في ذهنية المرء ليستيقظ من غفلته، ويتمرد على واقع خضوعه المذلّ لسطوة الذنوب وضغوط الشهوات، وإحداث هزة في ذهنية الفرد ووجدانه بأن يتمرد على حالته المخزية التي ارتضى فيها (الاستخفاف بذنوبه) واستهائته بمعاصيه.

والمثال الثاني:

إزراء النفس وتحقير ترفعها واستعلائها.

جاء في الوصية في توجيه تربوي مفيد من الإمام الباقر يا جابر: «استقل من نفسك كثير الطاعة لله.. إزراءً على النفس»، والمفهوم العام والمجمل لهذه الكلمات أنك يا جابر، وأنتك يا أي مؤمن مخلص (لا تستكثر من نفسك الطاعة لله أبداً)، بل استقل كثير الطاعة، واعتبرها عملاً تعبدياً قليلاً، ولا يضاهي -مهما عظمت عبادتك- عظمة الله وما أسبغه عليك من آلاء نعمه.

ويستفاد من لفظة (الإزراء) احتمالان، وكلاهما ذو طبيعة عقلية ومعرفية وإدراكية، ويعبران عن عملية نقد فكري بغرض إحداث تغيير سلوكي، وتعديل إيجابي في كيان الشخصية، والاحتمالان مجرد تفسير اجتهادي، ولا نراه قد بلغ درجة الجزم واليقين، وهما:

أ - الإزراء للنفس.

ويعني أن الفرد عاب على نفسه أو عاتبها على فعل خاطئ، أو تهاونها في أعمال الطاعة، وهذا الإزراء هو في حقيقته وعي بخطأ، وسعي عقلي لتصحيح هذا الخطأ أو ذاك الفعل المشين، فعندما يرى العقل تراجع الذات عن أعمال الطاعات استجابة لضغط شهوات المرء كاستكثارها عمل القليل من الطاعات، أو في مقابل ذلك لا (تستكثر النفس قليل الطاعة).

ومع ذلك تتعرض بهذا الاستكثار إلى طلب (عفو الله) وهي مقصرة بالنظر إلى أعمالها من قليل الطاعات على أنها كثيرة، وقد جاء في جملة من نص الوصية وهي تحت على استقلال (كثير الطاعة) لله: يا جابر «واستقل من نفسك كثير الطاعة إزراءً

على النفس، وتعرضاً للعفو»، وهدف هذا التقليل هو دفع الذات للإكثار من أعمال الطاعات لله سبحانه وزيادة نشاطها العبادي المخلص تقرباً إليه عز وجل، وينطوي هذا الموقف على نقد عملي للذات ودوافعها.

ب - والاحتمال الآخر للإزراء:

يحتمل - كما ورد في بعض المصادر - أنَّ الإزراء يعني افتعال تحقيرها بغرض نقدها عن كل تهاون في الطاعات لله وعبادته، فتعنف بالنقد وشدة العتاب، والتركيز على تحقير غفلتها، وغرورها بالعجب بنفسها، وتسويقها واختلاق الأعذار، واستكثارها طاعة الله بأعمال قليلة، وتقبل (ذل المعصية)، والسيئات التي تثير في نفسية الفرد الاشتمزاز والتفزز.

ومن المؤكد أن الإزراء هو أقرب لافتعال التحقير، وليس ممارسة تحقيرها على وجه حقيقي؛ لأن الله سبحانه كرم بني آدم، وحرّم أية ممارسة تحط من كرامة الإنسان، ولا يجوز حتى لصاحب هذه النفس أن يحط من كرامته بأي مسوّغ، ولكن بعض الراغبين من المتهجدين في الإكثار من طاعة الله يقومون بتحذير (أنفسهم) من التخاذل عن طاعة الله، فيلجؤون إلى معايير أنفسهم بتقليل الطاعة دفعاً منهم لها على زيادة نشاطها العبادي، فيكون الإزراء على نحو مفتعل ليدفع الذات الى عمل الطاعات لا بغرض تحقيرها على وجه حقيقي كما يفعل بعض الرهبان من غير المسلمين.

٤. مبدأ التحذير من مشكلات تعديل السلوك بنظرة عبادية:

إذا كانت الأوامر الشرعية - بالمنظور التربوي - هي معززات إيجابية، وهي ذات طبيعة عقلية وإدراكية، فإن التحذيرات هي شكل للمعززات السلبية، وتدخل

التحذيرات مع النواهي ضمن تقوية المعززات بوجه عام لدفع النفس عن الاستجابة لسلوك خاطئ، وغير توافقي، وذلك ليساند المعزز الإيجابي في مواجهة المثيرات السلبية، وقد استخدم الإمام الباقر (ع) في وصيته لجابر الجعفي لغة التحذير بلفظ واضح أكثر من مرة في نص هذه الوصية، ونعيد للقارئ الكريم بعض الكلمات لوضع اليد على أسلوب (التحذير والمنع) وهما:

١. أسلوب مباشر في تحذير الفرد من السلوك الخاطئ كقول الإمام الباقر (ع) لجابر: **إِيَّاكَ** والاكثار من التحذير، ونصت الوصية على هذا الاستخدام في جهل متعددة شكلت تحذيرات لحث الفرد على المساعدة في العمل، ومن ذلك قول الإمام محمد الباقر عليه أفضل الصلاة والسلام: **«إِيَّاكَ والرجاء الكاذب، إِيَّاكَ والتسويق، إِيَّاكَ والغفلة، إِيَّاكَ والتواني فيما لا عذر لك فيه، إِيَّاكَ والثقة بغير المأمون فإنَّ للشر ضراوة كضراوة الغداء، إِيَّاكَ والتفريط عند إمكان الفرصة»**، فهذه الجمل ومفرداتها بمثابة قوة مسبقة لإثارة الشعور، وتنبيه الأذهان، وهي نشاط دافعي، وتحفيزي تدفع الفرد نحو المسارعة في العمل.

٢. أسلوب آخر تم فيه استخدام (لا) الناهية، وتكرر هذا الأسلوب أكثر من مرة، وتدرج صيغة كف النفس عن السلوك المماثل في رد العدوان بمثله ضمن هذا الأسلوب، وهذه الطريقة في النهي وإن يظهر منها تحذير مباشر وعلمي كالسابق، إلا أن طبيعة النهي تنطوي على تحذير فعلي بمخاطر غير مكشوفة، ولكنها تترك آثارها المختلفة على الشخصية المسلمة، ودليلنا في ذلك أنه بعد مطالبة الإمام الباقر (ع) بكف الاستجابات المحرمة، والسمو عنها تبعثها دعوة صريحة بالتفكير فيما قيل في الفرد، وارتباط هذه الأقوال بتحذير من الإمام لجابر، وكل مؤمن من السقوط مرتين (من عين الله سبحانه مرة، ومن أعين الناس مرة ثانية).

لذلك فالتحذير بصيغتيه بلفظي (**إِيَّاكَ**، ولا الناهية) يدفع عقولنا، وإرادتنا،

ونشاطنا الذاتي إلى العمل على الخلاص من عيوبنا، والحذر مما يعوق رغباتنا في الوصول إلى أهدافنا العبادية، وتهيئة أنفسنا للتربية على عادات السلوك الإيجابي والعبادي المرغوب، وهو جهد يتطلب منّا عملية تنظيم السلوك بمكوناته الأساسية لتصب جميعها كوحدة سلوكية في نهر واحد يتلقى فيها المؤمن تربية جيدة لشخصيته، ويكتسب فيها قيماً وعادات وأفكاراً ومشاعر تجتمع فيما نسميه بـ (الشخصية العبادية)، وهكذا فالتحذير بصيغة (إيّاك) أو بـ (لا الناهية) بمثابة قوة دافعة تحرك الأفراد بمساندة معززات إيجابية، وتلتحم معها، فيؤدي هذا التآزر إلى تكوين الصيغة العبادية والإيمانية للشخصية الإنسانية، ولو في حدها الأدنى.

٥. التوجيه ونصح الذات:

ويراد بهذا المبدأ عملية توجيه عقلي وديني للفرد ونفسه كما في نص هذه الوصية لجابر بأكملها، ومن بعده جموع الأفراد المؤمنين، ويصاحبها جهد منظم بإسداء النصائح والمواعظ للذات من الآخر كحال الإمام الباقر عليه السلام مع صاحبه جابر ونحن بغرض تسديد السلوك وتصحيحه، وحمايتها إمّا بطريقة وقائية أو علاجية مما يتهدها من المخاطر التي تواجهها حاضراً أو المحتملة لاحقاً، فالتوجيه والنصح عملية استشارة للمخاطر، واستعانة بخبرة عالم بالنفس وخفاياها، واسترشاد بطريقة تفكيره بحثاً عن مخارج لحل المشكلات عند الأفراد، أو اتقاء وقوعهم في مشاكل شخصية واجتماعية وغيرها، أو استفادة من تجربة هذا المربي المرشد في الوصول إلى مستويات متقدمة من عمليات الضبط السلوكي، وتحقيق الاتزان الانفعالي والنفسي الذي يرتبط بهذه التجربة التوجيهية، ويترك وراءه أثراً إيجابية، وبصمات خيرة على نفسية الإنسان، وعلى علاقاته بنفسه والآخرين، وأهم من ذلك كله تحقيق مستوى عالٍ من رضا الله عن الفرد في

علاقات عبادية سامية.

فنص هذه الوصية المباركة -وكما أشرنا- نصيحة كبرى وقيمة يستفاد من جملها وعباراتها ومقاطعها اللفظية والمعرفية في تكوين مفاهيم سليمة، وممارسة سلوكيات يرتضيها رب العباد، وتؤدي في نهاية الأمر إلى بناء شخصية مؤمنة، وتحقيق حالات من الرضا النفسي عن الله، وعن رضا الفرد عن نفسه وسعادة ذاته، والشعور بالارتياح عن توافقها السوي، وأن أي تأمل في كل مفرداتها أو بعضها سواء في العبارات الوقائية أو العلاجية أو الإنشائية يعزز هذا الاعتقاد، وأنها مجموعة وصايا ونصائح وتوجيهات لسعادة المرء قد أسداها الإمام الباقر (ع) لنا جميعاً، وليست لصاحبه جابر فقط، من أجل صناعة الإنسان السعيد العابد لله، الإيجابي بين الناس.

بيد أننا كالعادة في إعداد موضوع هذه الدراسة من نص الوصية نتلمس بعض الأمثلة والمصاديق المؤيدة لما نعتقد، ففي المقاطع الأربعة التي تكونت منها الوصية الإرشادية تجلّى مبدأ التوجيه والنصح المخلص الأمين من الإمام محمد بن علي الباقر بن رسول الله صلى الله عليه، وكان من الصعب إعادة كل مقاطع هذه الوصية وكتابتها كامثلة، وهي موضوعة بنصها الكامل في مدخل الدراسة، واستوجب فقط تأييد هذا المبدأ بشواهد من باطن النص للتمثيل فقط، وقد مررنا بشواهد على ذلك في مواضع متفرقة من هذه الدراسة.

لقد ذكرنا أكثر من مرة توجيه الإمام جابراً لكف سلوكه عن الاستجابة بالمثل في الرد على مظالم الآخرين وخياناتهم واستفزازهم له في تكذيبهم إياه، وأن يكون له فضل عليهم، وعدم مجاراتهم في سقوطهم الأخلاقي، وحثه في مقابل ذلك على التفكير فيما قيل فيه واتخاذ العبرة والعظة من ذلك، ثم عرض نص الوصية في أماكن متفرقة منها سلسلة من النصائح والمواعظ، ونماذج متنوعة من التوجيهات والإرشادات على مستويات

عديدة، وبمفردات وجمل متداخلة استبطنتها الوصية على امتداد نصها، وأجزائها الأربعة المتصلة مع بعضها، وتضمنت عملية توجيه ونصح الآخر تنبيه ذهن الفرد عن الإتيان بأعمال سيئة، وتحذيره من الانغماس في ممارسة ظواهر سلوكية، وضرورة اتقاء عواقبها، ونتائجها الخطرة على نمو الذات في اتجاه عبادي.

وكانت لغة النصائح والتوجيهات توازن بين التعزيز الإيجابي والسلبي في شكل أوامر ونواهٍ وتحذيرات كقوله في الجزء الثالث من نص الوصية:

«يا جابر: استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزاءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة، واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس...».

ثم في عمليات تعزيز سلبي بدا في أوامر حيناً، ونواهٍ وتحذيرات حيناً آخر كالمنع عن عمل أفعال، وتحذيرات من ظواهر معوقة لنمو النفس عبادياً، ومن ذلك (لا تظلم، لا تحن، لا تجزع، وإيّاك والتسويق، إيّاك والغفلة، إيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، إيّاك والثقة بغير المأمون، إيّاك والتفريط في الفرص وتفويتها، ثم تحذير الإمام الباقر عليه السلام لجابر، ولل فرد المؤمن من أن للشر ضراوة كضراوة الغذاء، ويعني ذلك أن للشر عادات ملحة وشديدة الإلحاح كالإلحاح عاداتنا في طلب الغذاء، والإقبال على المأكولات والشرب.

ويستفاد من توازنات التوجيه بشقيها الإيجابي والسلبي بلغتنا نحن المهتمين بعلم النفس وإرشاداته حرص الإمام الباقر كمرّب ومرشد وموجه على تحقيق خطوات تجميع بين إجراءات معززة بطريقة إيجابية، وبين إجراءات معززة ومماثلة لسلوك الذات بنحو سلبي تكف فيها الذات سلوكها عن القيام باستجابات لا تسمو بها كما في المقطع الأول من الوصية، وبلغة مباشرة نجد في إجراءات النصّح والتوجيه والإرشاد توجيهاً نحو (إشباع مبدأ اللذة) وتحقيقه، ويقابل ذلك أيضاً حركة صوب تحقيق حالة (تجنب الألم)، وكأنّ اللجنة تقول في آن (اعملوا لتذهبوا إلى الجنة) بإجراءات عملية وعبادية محددة وردت في نص الوصية، وتقول في الوقت نفسه (امتنعوا عن عمل المحرم كي لا تذهبوا إلى النار)، وهذه النصائح والمواعظ، ينتظم سلوك الأفراد في اتجاه سوي، فيساعد ذلك على تنمية شخصيتهم العبادية، ويميزها بسمات وصفات وخصائص إيمانية وعبادية تتفق مع وجهة المشرع التربوي الإسلامي، وهذا ما ابتغاه الإمام الباقر (ع) من هذا التوجيه.

٦. مبدأ المعالجة السلوكية بالأضداد:

نعيش حياتنا الشخصية بطبيعة مزدوجة، وبقوى حيادية، فالناس على مختلف أجناسهم ولدوا بقابلية وراثية تنطوي على استعداد لفعل الخير، واستعداد مقابل لفعل الشر، وتضمنت وصية الإمام الباقر (ع) حالات من تقابل السلوك في حياة البشر بلا استثناء، مؤمنين ومن مذاهب شتى، ففي كل فرد توجد لديه قابلية للخير وفي نفس الوقت توجد لديه قابلية للشر، وقد استهدف الإمام الباقر (ع) من وصيته بث قيم الخير لمواجهة رذائل الشر واستجاباته العصابية الساقطة، وكان توجيهه لجابر بن يزيد الجعفي بأن يكف عن معاملة المسيئين بمثل ما فعلوا ليس لينصر قيم الخير فحسب، بل ويقابل

الشر بردود أفعال طيبة، تنطوي على سمو أخلاقي، عسى أن تحدث تغييراً وجدانياً داخلياً يحس فيه المسيء بخطئه، ويسارع في تعديل مفاهيمه وأفكاره وسلوكه.

لم تتوقف وصية الإمام الباقر عليه السلام عند سمو النفس في مقابل انحطاط السلوك لدى الآخرين بل يعرض نفسه على كتاب الله عز وجل، ويتأكد من نفسه إن كان سالكاً سبيله، زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه، فعليه أن يُثَبَّتَ وَيُشَرَّ بنتائج الخير، ولن يضره ما قيل فيه، وإن كان مبائناً للقرآن، فماذا الذي يغرك من نفسك، ويعني ما الذي يغريه في نفسه حتى تتجاوز معايير الحق، وبمقابلة الموقفين يدرك موقعه قريباً من الحق أو داخلاً في دائرة الباطل، وبهذا التقابل يسمو موقفه في الحق، ويحبط عمل المبطلين.

وثمة مواقف متقابلة تعرف بتقابل السلوك، وتذكر علاجياً بطريقة الأضداد^(١)، وتلمس كيفية معالجة الرذائل بالفضائل من جنسها، ونرى في بعض الجمل السلوكية تقابلاً بين ضد إيجابي وضد سلبي، وتغييراً للأضداد السالبة بأضداد إيجابية، ولنقرأ مثلاً عبارات وردت في نص الوصية الإرشادية للإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام:

- «اقطع أسباب الطمع ببرّد اليأس».

- «واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار، وتعرض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة».

- «واطلب بقاء العز بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز

(١) لمعرفة تفصيلية لطريقة (العلاج بأضداد السلوك) يمكن للقارئ الكريم الاطلاع على كتابنا (العلاج النفسي وتعديل السلوك بطريقة الأضداد) بفصوله التسعة، وقد أعدناه منذ سنوات كدراسة تربوية تحليلية في ضوء ما أسميناه بـ«بيكولوجية الأخلاق»، ونسقى القيم العبادية وبخاصة فصوله السبعة الأولى.

اليأس ببعدها الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل».

- وفي مقطع كف السلوك عن مظالم الغير نجد مثلاً للممارسة السلوك وتعديله بهذه الطريقة، فهذا الجزء من نص الوصية يعالج ظلم الغير لنا بالعدالة، وتخوينهم لنا بالأمانة إليهم، وتكذيبهم بالإحسان لهم، وهكذا.

٧. مبدأ معرفة نتائج العمل وأثره:

هو مبدأ العظة والاعتبار، إذ يحتاج كل امرئ منّا، وهو يقوم بعمله، معرفة نتيجة ما يقوم به، ويدرك نتيجة جهده، فإذا كان يقوم بالتعلم على سبيل المثال، فيمكنه معرفة نتيجة ما تعلمه، ما أتقنه، ما يحتاج إلى مزيد من الدرس والتعلم، والإتقان، وما لم يتقنه فيكون ذلك دافعاً ذاتياً لمزيد من النشاط، والاسترشاد بالعلم، ومعرفة ما كان يجمله، وما يزال، ويبحث عن طرق التغلب على فشله، ومقدار نجاحه، فهذا المبدأ - مبدأ معرفة المرء لنتائج عمله - مبدأ حيوي في العمل الإرشادي، بل طبيعة هذا المبدأ إرشادية، وبه يعرف المرء عن عمله، تعلمه، نشاطه ما يمكن أن يتحرك به نحو الأفضل، ومعالجة الناقص في نشاطه، وعن طريقه يتم تطوير قدراته والارتقاء بها.

ومما يلفت نظرنا فعلاً في نص وصية الإمام الباقر (ع) تأكيداً في أكثر من موقف على إشارتها لهذا المبدأ، وتشدد بعض عباراتها على ضرورة معرفة الأفراد نتائج أعمالهم، ما تعلموه، وما أتقنوه، وما لم يتعلم أو يتقن، تمهيداً لاتخاذ اللازم بغرض تطوير قدرات الذات، وإحداث التغيير الإيجابي نحو الأفضل، وبأي مقدار نسبي.

لنعد أول الأمر إلى مثالنا الذي كررناه مراراً، وأكدنا فيه بحسب نص الوصية أن الإمام طلب من جابر كف مقابلة سلوك الآخرين العدواني تجاهه بسلوك عدواني مثله،

ويلحقه الإمام الباقر بتوجيه مباشر، ويأمره بأن يفكر بما قيل فيه، ويتعرف على نتائج ما فكر فيه، أي عرف نتائج عمله من عمليات التفكير والتأمل الذهني، ويقارن الأمور في موقفه التأملي بين صحة ما قيل، وزيف ما قيل عنه، وهذا مشهد على معرفة الأفراد، ومنهم جابر الجعفي، بضرورة نتائج العمل الذهني، والتأمل في مسألتي (السقوط من عين، وأعين الناس أو تحصيل الثواب).

ويستبطن هذا الموقف ضرورة تربوية معززة بمبدأ إرشادي هو أنه بعد عملية التأمل والتفكير قد عرف المرء ما قيل فيه من صحة أو خطأ، وتبين له في الوقت نفسه إن كان وضعه الشخصي على (خلاف ما قيل فيه) أو (صحة أقوالهم في ذاته).

وفي موقف (المجاهدة النفسية) التي أمر بها الفرد المؤمن في مواجهة شهواته، يجد نفسه في تطبيق فعلي لهذا المبدأ، فالمقطع اللفظي يحدد صراعاً فعلياً بين الفرد ونفسه، ويتحدد أكثر من نتيجة للفعل بشكل متتابع، ولو على أكثر من مرحلة:

أ- فمرة يقيم أودها واعوجاجها، ويخالف هواها في محبة الله (وهذا مشهد لمعرفة المرء نتيجة عمله، والمقصود به صراعه مع شهواته).

ب- ومرة كما يقول هذا المقطع: «تصرعه نفسه، فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش، ويقل الله عثرته فيتذكر، ويفزع إلى التوبة والخافة، فيزداد بصيرة ومعرفة».

وبالتأكيد يتحدد موقف الفرد وكيفية فعله، وهو على علم ومعرفة بنتيجة ما يفعل، فيتوقف في مساءلة نفسه عن مواطن الفشل، ويتدارك فوارط عمله وتقصيره هنا وهناك، وينطلق واثقاً بعد أن نجح في الانتصار على شهوات نفسه، ويتقوى بإرادته الذاتية على السيطرة عليها، ويصل إلى مبتغاه من إتقان العمل، ومن المؤكد أن الفرد في أي تجربة جهادية، وفي مواقف أخرى من حياته يحتاج لمعرفة ما أتقنه، وما أخفق فيه،

فيرفع من مستوى كفاءته، ونضجه وتطويع قدراته.

ثانياً: أساليب العلاج الإرشادي ذات الطابع الروحي - الأخلاقي:

واستخرجنا بنظرة اجتهادية مجموعة من الأساليب البارزة في نص الوصية الباقية
الكريمة، ومنها الأساليب التالية:

١. العلاج الإرشادي بكثرة الذكر في الخلوات:

تعرضت وصية أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) في الفقرة الثالثة من نص وصيته لاستخدام ما أسمته بـ (كثرة الذكر في الخلوات) في مجال التربية الوجدانية التي تركز على رقة القلب وإثراء نشاط الإنسان بالعواطف الحية الإيجابية كالحب والحنان والعطف، وقد تضمن المحتوى اللفظي والمعرفي للوصية أساليب متعددة لـ (ذكر الله) تعالى في نص الوصية سواء كان في خلوة أم في العلن.. مثل إشاراتها لاستكثار قليل الرزق، وشكر الله، واستقلال كثير الطاعة، وشدة اليقظة الذهنية، واستحضار الخوف الصادق من الله، مقاومة الهوى، الاسترشاد بالعقل والعلم، العمل بالقيم كالزهد والقناعة وقصر الأمل، والصدق، والعدالة، وعز اليأس، وشدة الندم، كثرة الاستغفار، طلب عفو الله والتعرض لرحمته تعالى، وممارسة الأدعية والمناجاة في الظلم، والتوسل إلى الله، وأداء الفرائض، ورد الغضب، ودفع الانتقام من الناس، ومجاهدة النفس بالتوبة وبغيرها من الأعمال العبادية.

وفي الجملة المذكورة مقابلة بين مشهدين أحدهما علني يربط بين ليونة القلب ورقته وترقيق عواطفه وسموه الوجداني، وبين كثرة الذكر لله في الخلوات، والمشهد الآخر خفي، ومضاد للحالة الأولى، ويربط هذا المشهد بين قساوة القلب غياب ذكر الله في

الخلوات وغيرها، ولا خيار لدى الفرد بين هذين النمطين المتقابلين سوى المفاضلة بينهما، واختيار الأفضل منهما للفرد المؤمن، فإمّا أن يختار (رقة القلب) ويتم تنميته بكثرة الذكر في الخلوات، وهو الخيار الأنسب له، أو يتخلى عن ممارسة ذكر الله فيخسر هذه الرقة، وتظهر عليه آثار (القسوة في قلبه) وانعكاساتها عليه في حركة الحياة وعلاقاته بالناس، بل مع نفسه أحياناً.

وقد اقترح الإمام الباقر استخدام هذه الطريقة في التربية العاطفية ضمن سلسلة من نصائحه، فذكر هذه النصيحة بصيغة الأمر الإيجابي، أي بتعزيز موجب للسلوك الإيماني، وقال: «وتعرض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات».

كما ننصّر - وهذا اجتهاد في فهم الجملة السابقة - بأنها تتكون من أجزاء متصلة مع بعضها تؤدي في نهاية الأمر الى تكوين سلوك إيجابي يلتقي مع النظرة العبادية للمشروع التربوي الإسلامي، ونذكر هذه الأجزاء المتحركة في هذا الاتجاه كما يأتي:

أ- صيغة توجيه:

وتتأرجح عادة صيغ النصائح والمواعظ لدى الإمام الباقر إمّا (بالأمر أو النهي)، لكنها في هذه الجملة تبدو بصيغة «أمر» ظاهرة في الفعل (وتعرض)، فهذه الكلمة، وهي فعل أمر يعمل على إثارة دوافع السلوك وتنشيطها لدى الكائن الآدمي، وتكون بمثابة قوة دفع وتحريك داخلية، وتعمل كـ (مثير أو منبه حسي) في البحث عن إشباع، فيتبع ذلك بالضرورة ظهور استجابة سلوكية إيجابية تحقق هذا الإشباع، وتساعد الفرد المؤمن على بناء شخصيته العبادية، وتكون هذه الاستجابات واضحة في (كثرة الذكر) لله سبحانه وتعالى التي تتسبب بتكرار عملية ذكر في تكوين حالة متقدمة من (رقة القلب).

ب- طريقة عمل:

وتحتزن هذه الجملة ما ذكرناه - طريقة عمل - وهي ممارسة منهجية تربوية في تفعيل جانب مهم من الجانب العبادي للذات المؤمنة، وتحدد صيغتها بـ (كثرة الذكر لله عز وجل) في الخلوات دون تحديد بالليل أو بالنهار، ولكن غالباً تتم الخلوة في فسحة الزمان المتصلة إما ليلاً أو نهاراً، وبخاصة الليل لانشغال الناس بأعمالهم في النهار، كما أن غالب أوقات الفراغ عندهم هي بالليل، وتتاح لهم الخلوات بأنفسهم، ولا يقصد بالخلوة مجرد تفرغ الفرد المؤمن في وقت محدد، وإطلاق ألفاظ يسميها البعض (لقلقة لسان)، بل تركز صيغ الخلوات على ممارسة هادفة ومنظمة، ومخطط لها بمجموعة برامج روحية، وبأشكال من الممارسات والفعاليات الإيمانية التي تحقق الهدف العبادي بترسيخ العلاقة مع الله كالصلوات، والنوافل، وقراءة الكتاب (القرآن)، والأدعية المختلفة، والكتب التربوية الإيمانية الهادفة، وإعداد برامج عمل منتظمة، وعصرية كذلك لضبط حركة (الذات) على سلوك إيماني يرضي الله عز وجل، ويشعر فيه المؤمن بمتعة التغيير الإلهي في داخل كيانه، ويتذوق حلاوة الأنس في خلوته مع الله.

وتعمل جملة «وتعرض لرقعة القلب بكثرة الذكر» على تحريك الداخل الإنساني باستثارة دافعية الفرد في اتجاه إيجابي يصقل الجانب الوجداني للقلب الإنساني بترقيق مشاعره، وصبغها بالإيجابية، ودفعاً في اتجاه معاكس لما أسمته الوصية بـ (قسوة القلب)، (وفقر القلب)، يعني خلوه من الرحمة والحب والعطف على الآخرين، واستبداله بحالة من (ترقيق القلب) كخيار إنساني يلتقي مع أداء الوظيفة العبادية لصاحب القلب، ومع الأهداف العبادية للفرد المؤمن، فيتم تفعيل مشاعر الود والمحبة والتفاعل الحي معهم.

ج- الهدف المراد تحقيقه:

وهو - بالمعنى المتداول في أدبيات علم النفس ومصادر علم النفس - سلوك يراد تحقيقه كما ذكرنا، ويراد نيله بأفعال وممارسات سلوكية، فالهدف هو السلوك المرجو الوصول إليه سواء كان هذا الهدف (سامياً أم منحطاً)، ولكنه في سياق هذه الجملة كان بصورة مثلى، صورة سمو إنساني، ويبدو هذا الهدف في ظاهره حركة منطلقة من داخل الكائن الآدمي، وأمثلاً نشطاً لتحقيق هدف دنيوي خاص بدنيته وكيانه الذاتي وهو كما جاء في الوصية (رقة القلب)، وتجنبيه القساوة، والتبذل الوجداني، وهدف آخر يتحقق فيه رضا الله لارتباطه بعمليات ذكر الله ومداومته على عبادته سرّاً وعلناً.

فالجملة السابقة القائلة: «وتعرض لركة القلب بكثرة الذكر في الخلوات» حسمت أي جدل حول نمط الهدف، إذ حددت نوعية الهدف وهو «ترقيق مشاعر القلب» وتحريك المشاعر، وإضفاء طابع الحب والحنان والعطف والركة عليه، وطالبت بأن يكون قادراً على التفاعل العاطفي النقي مع الآخرين ومع قضاياهم، فهذا الهدف هو بكل وضوح (هدف وجداني)، ولكنه بحسب مطالب الوصية خيار عقلافي، وعبادي يترتب عليه جزاء في الدنيا والآخرة.

د- النتيجة الإيجابية:

وتتمثل في حصول الفرد على لذة الذكر ومتعتها بالليل والنهار، وتحقيق الأجر الإلهي، وتغير علاقات الفرد بالآخرين بنحو إيجابي، وتقدير الناس للمختلي بنفسه للعبادة، والذاكر لله، والمفرغ حبه وعطفه وحنانه على الناس بأعمال يلمسون آثارها حية بين ظهرانهم، وتؤيد هذا التحول الإيجابي والمنطقي جملة أخرى لاحقة للجملة السابقة، وهي قول الإمام الباقر (عليه السلام): «واستجلب نور القلب بدوام الحزن»، إذ تحظى النفس بعد النجاح في هذه التجربة الروحية والوجدانية المتسامية بحالة من (الغنى النفسي) الذي وعدت به الوصية في قولها بالفقرة الرابعة والأخيرة: «ولا غنى كغنى

النفس»، وتوفيقها بـ(ترقيق القلب بالحب والعطف والسمو، وتقدير الناس لصاحب هذا القلب، وأجر الله له)، وهو في اعتقادنا (أثمن مظاهر الغنى للنفس) التي أشارت إليها الوصية المباركة.

وما هي النتائج الملموسة بعد نجاح التدريب العبادي للإنسان المؤمن بذكر الله في الخلوات؟

إذا ما نجحت طريقة الذكر في الخلوات، وهي ستكون ناجعة - إنْ خَلَصَتْ نوايا العبد المؤمن - بتحقيق الهدف المحدد المذكور في سياق الوصية، وهو هدف وجداني كما تقدم القول، وتجسد في حقائق سلوكية عبرت عن نفسها في تحقيق أهداف عبادية انعكست خيراً على تكوين نسق إيماني للشخصية، وجميعها تعتبر نتائج ساطعة لممارسة عملية الذكر بالخلوات وغيرها على مستوى العلاقة مع الله، ومع الآخر، وعلى مستوى علاقة الذات بنفسها.

وأول نتائج عملية (كثرة الذكر في الخلوات) لله سبحانه:

١. ينتهي هذا العمل العبادي القويم بعمارة القلب الإنساني للفرد المؤمن، وتكون حياته عامرة بذكر الله وبحب الناس، ورقة مشاعره الوجدانية.

٢. تربي الشخصية في خلواتها، كما في علنها، على الورع عن محارم الله في السر، وأن هذه النتيجة تقتاد الشخصية المؤمنة بالضرورة على مطابقة ظاهرها باطنها، فيتساوى ورع المرء في السر والعلن، وتغلب بذلك على الفجوة الفاصلة بين ظاهره وباطنه، وخرج من دائرة: «من كان ظاهره أرجح من باطنه خفَّ ميزانه»^(١) على حد تعبير الإمام الباقر (ع) أو على الأقل ابتعد عن هذه الدائرة وخفف من آلام مخاطرها.

(١) الحرائي، الحسن بن علي بن شعبة، تحف العقول، ص ٢١٤، وبحار الأنوار، للمجلسي، ج ٧٥،

ص ١٧٣، وأيضاً، ص ١٨٨.

٣. يتغلب الفرد المؤمن (إن كان مبتلى بجمود عواطفه) على هذه المعضلة بالتححرر الكامل أو الجزئي من جمود وجدانه، وبالتغلب على تبدله الانفعالي والعاطفي، وتحويل (قساوة قلبه إلى رقة إيجابية في مشاعره) يحب فيها الناس، ويحبونه ويعطف عليهم ويبادلونه رقة المشاعر وإفراغها في مسارات تعزيز الروابط بينه وبينهم، ولهذا كله انعكاسات طيبة على مستوى الرضا الإلهي، ورضا الفرد عن نفسه.

٤. يكون غلبته على قساوة قلبه بغلبة الخير في نفسه، وتحويل عاداته السلبية لعادات عبادية سوية ومرغوبة، بحيث تكون «الغلبة بالخير فضيلة»^(١) كما قال الإمام الباقر (ع) في حديث له، وتسمو إنسانيته، وتخلص مودته للمؤمنين.

٥. يكتشف الفرد المؤمن من خلال عمليات ذكر الله وترقيق مشاعره الوجدانية قدراته الذاتية المغيية في مواجهة رواسب النفس، وما أسمته الوصية بـ (سالف الذنوب) سواء باستخدام أساليب (شدة الندم أم كثرة الاستغفار، أم تعرضه لرحمة الله وعفوه، كما تضعف حالة الصراع الضاغطة بين الشهوة والعقل بسيطرة الأخير، وتقليل أخطاء الفرد)، فيشعر الفرد بالارتياح الداخلي، وخلاصه إلى راحة النفس واجمام القلب.

٢. التربية العلاجية الإرشادية بأداء الفرائض:

يدخل في إطار العلاجات الإرشادية استخدام طريقة التربية بـ (أداء الفرائض) التعبدية وغيرها، وبنحو يومي، ونظام محدد من التوقيت، والملاحظ أن الوصية الكريمة ذكرت أشكالاً من الطاعة لله في مجالات السلوك العبادي كدعوة الإمام الباقر (ع) للتحلّم، والثبات الانفعالي، وكف النفس عن السلوك المحرم، والثبات أمام عدوانية

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٨.

الغير، والتفكر، ومجاهدة النفس، وتدريب النفس على ممارسة الطاعات بعد تلخيصها من المعاصي والذنوب، وتنمية مشاعر صدق الخوف، وتدريبه على مغالبة الهوى، وكثرة الاستغفار، والذكر بالخلوات، والإقبال المخلص على قراءة الأدعية والمناجاة في الظلم، وغير ذلك من أشكال السلوك العبادي واستجاباته المتعددة.

ولقد ذكرت وصية الإمام الباقر (ع) لفظة (الطاعة)، وقرنتها أكثر من مرة بحسب طبيعتها، وطبيعة كل موقف، ومن ذلك قوله (ع): «يا جابر: استقل من نفسك كثير الطاعة لله إزاءً على النفس» وعاد النص إلى استخدام اللفظة ذاتها بمقطع صغير من جملة مماثلة وبنفس ألفاظها مثل قوله (ع): وهو يوجه كلامه لصاحبه جابر: «وتخلص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق، واستقلال كثير الطاعة» وهو استخدام محمود لتعزيز الدعوة إلى ممارسة سلوك عبادي مرغوب هو الإكثار من طاعة الله سبحانه.

بيد أن جملة في الفقرة الأخيرة من نص الوصية صاغها الإمام الباقر (ع) بكلمات أربع واضحات المعنى، وخالية من الالتباس والغموض، وهو قوله (ع): «ولا طاعة كأداء الفرائض» دون تحديد مباشر باسمها.

والمعنى المستفاد في الجملة السابقة «ولا طاعة كأداء الفرائض» أنه يفهم منه تنبيهه (ع) لأفضل أشكال الطاعات الربانية، وهي - كما هي واضحة - تشجيع الفرد المؤمن على أداء الفرائض اليومية، ويحتمل غيرها دون تحديد لشكل عبادي معين كالصلوات، وإن كانت الفرائض التعبدية اليومية في مقدمتها بكل تأكيد، فالفرائض بمعناها الشمولي لا تقتصر على أداء الفرائض اليومية دون غيرها، فكل عمل عبادي من الفرائض اليومية ومن غيرها كأداء الحقوق المالية وفريضة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ومجاهدة الظالمين، يمثل - بالنسبة للفرد المؤمن - أداة فعالة للتربية والبناء الروحي والمعرفي والأخلاقي.

ومع تأكيد فهمنا على المعنى الواسع لمفهوم الفرائض كالصلوات اليومية، والتوافل، والضرائب المالية كالزكوات والخمس والصدقات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخدمات التطوع الاجتماعي والإرشادي، فإنها في نظرنا فرائض معنية بقول الإمام الباقر عليه السلام، ولها دور عملي في التربية وطاعة الله سبحانه، وتعديل السلوك بما يتفق والنظرة العبادية السوية للمشروع التربوي الإسلامي، فالعبادات اليومية كالصلاة على سبيل المثال توفر للفرد الإحساس بالأمن، وتعينه على مغالبة المنكر، والانتهاز من فعل الفواحش، وتؤدي فريضة الصيام إلى المساواة بين جميع المسلمين، وتساوى مشاعرهم الوجدانية في الجوع وسائر النتائج التعبدية المترتبة على صوم الشهر الكريم، فصوم النفس الإنسانية عن الآثام كصومها عن الطعام، وهكذا كل فريضة عبادية^(١) لها نتائجها السيكلوجية التي يصب خيرها في مصلحة بناء الانموذج العبادي للشخصية المؤمنة.

٣. العلاج الإرشادي والتربية بالممارسة والمواقف العملية:

هو أحد أساليب تربية الذات وتقويم أدائها بالمعايير والمحددات الشرعية الإسلامية، ويراد بهذا الأسلوب أن الفرد المؤمن وهو يسعى إلى إعادة تربية نفسه أن يضعها في مواقف تغييرية عملية أو مواقف تعديل سلوك فعلية، ويخضعها لقواعد السلوك التي يريدها المشروع التربوي الإسلامي ليتم التغيير في مجراه الطبيعي، فلا تكفي لقلقة اللسان، وترديد الأمانى لتحقيق التغيير العبادي المطلوب، وإنما يبدأ الفرد الصيام أو الصلاة أو تصحيح أخطائه بالصلاة بمواقف عملية، والدخول فيها بأداء وتنفيذ يجعل الفكرة والشعور حركة عبادية، واقعية.

(١) انظر ما كتبناه في دراسة تربوية سابقة لنا، وتحت عنوان فرعي (العبادة وتكوين استجابة سلوكية مضادة سوية) من كتابنا (العلاج النفسي وتعديل السلوك بطريقة الأضداد)، ص ١٠٤

وقد تكون المواقف العملية التي تساعد على التربية الوقائية أو العلاجية متعددة، بيد أننا سنشير لمواقف تربوية ثلاثة يمكن استخدامها كمواقف تربوية عملية، واقعية تساعد على إنجاح عملية التغيير العبادي بجهود إرشادية صحيحة، وكي يفهم القارئ الكريم معنى مقصودنا بالتربية العملية نستعين بالأمثلة الثلاثة المتقاة، وكدلالة على إشارة نص الوصية لهذا النمط التربوي أو الأسلوب العلاجي في نص الوصية الخالدة.

١. المثال الأول:

يذكر النص في مدخله، وفي العبارة الثانية تقريباً نصيحة من الإمام الباقر لصاحبه جابر بقوله الكريم: «إِنْ ظَلَمْتَ فَلَا تَظْلَمْ، وَإِنْ خَانُوكَ فَلَا تَخْنِ، وَإِنْ كَذَّبَتْ فَلَا تَغْضَبْ، وَإِنْ مَدَحَتْ فَلَا تَفْرَحْ، وَإِنْ ذَمَّتْ فَلَا تَجْزَع».

هذه النصيحة تحتاج إلى تنفيذ عملي، فلا يكفي الاستماع لها والتغني بحكمتها، فالمهم في الأمر تنفيذها والعمل بها في حركة الواقع الاجتماعي، واستثمارها في موقف فعلي وقائم في العلاقات الاجتماعية بين جابر وأي مؤمن، وآخرين يعملون على استفزازه أو أنهم يخطئون بحقه فيكذبونه أو يظلمونه أو يخونونه، أو يكيلون له ذماً يؤذيه، فالرد هو موقف عملي بأية استجابة، فإن كان سباباً وشتائم وقبح قول فلا استجابة عملية ولكنها بشر مماثل، وبالرد على عدوان بمثله، وهذا لم تنصح به الوصية، وبقيت أمام المؤمن صيغة استجابة سلوكية مثل تسمو بالنفس عن انحرافات الناس وعدوانيتهم، وهي فعلياً لا تكون إلا في موقف عملي يرتفع بأخلاقيات الفرد، وتضعه في موقف ضبط انفعالي وسلوكي، والتزام تام بالتحلم والسيطرة على ظهور الانفعالات، فيكف الفرد نفسه عن مقابلة أذى الناس بأذى مثله، فيكون المبتدئ والراد بمستوى واحد من قبائح الكلام.

ويتعلم الشخص المؤمن من هذا الموقف العملي كيفية ضبط سلوكه الذاتي، وكيفية

التحكم في انفعالاته وإخضاعها لمنطق العقل وأخلاقيات الدين، وفن العلاقات مع الآخرين، ثم يوجه سلوكه واستجاباته العملية نحو أهداف عبادية سامية، وقبله كان جده أمير المؤمنين يأمر الناس بالتحلم، والتشبه بأفعال الحكماء، فقال عليه السلام بما لفظه: «إِنْ لَمْ تَكُن حَلِيمًا.. فَتَحَلَّمْ»^(١)، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ»، وقوله كذلك: «وَضَادُوا الْغَضَبَ بِالْحَلَمِ»^(٢) أي بكظم الغيظ وتدريب النفس على التحلم، وهي فرصة من واقع الحياة، ونعني أن يستفيد المرء من موقف الاستفزاز العدواني للتدرب على تنفيذ واحترام قيم الفضيلة، والانتصار للخير بالخير، وفي نص خارج عن نص الوصية أوصى الإمام الباقر عليه السلام أن تكون الغلبة بالخير لا بالشر، فقال عليه السلام: «الْغَلْبَةُ بِالْخَيْرِ فَضِيلَةٌ، وَبِالشَّرِّ قَبِيحَةٌ»^(٣).

٢. ومثل آخر تطبيقي قد مررنا عليه كأحد أساليب إعادة التربية والتدريب بمواقف عملية وهو حثه عليه السلام جابراً وكل مؤمن بأنه: «لا طاعة كأداء الفرائض» وجميع هذه الفرائض وفي مجالاتها المتعددة تحتاج إلى نشاط عملي، ونزوع سلوكي يساعد على التربية العملية للذات، وبمواقف عملية، فلا يتعلم المرء صلاة بحفظ الآيات والأذكار وكيفية حركات الصلاة وإن كان ذلك مفيداً، وإنما بممارسة عملية، ولا يصوم إلا بالجوع والامتناع عن شهوات البطن وآثام اللسان والفكر، ويتعلم الفوارق بين حال الجائع والشبعان، وتحسس حالته الوجدانية والفلسجية والأخلاقية، ولا يقال له إنه حاج بدون زيارة بيت الله الحرام وممارسة شعائر فريضة الحج في واقع عملي بأرض مقدسة، وبأنشطة السعي والطواف وحلق وقص الشعر ورمي الجمرات وغيرها من

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص ٥٠٣.

(٢) ريشهري، محمدي، ميزان الحكمة، ج ٧، ص ٢٣٩.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٨.

شعائر هذه الفريضة، وكذلك تؤدي الزكوات والضرائب المالية الشرعية بالأداء الفعلي وتسليمها للجهة المعنية، وهكذا فالطاعات تتطلب الأداء العملي للفرائض بمختلف أشكالها وصنوفها في الحياة الروحية للمسلم.

٣. ومواقف عبادية عملية في مجال الأخلاق والسلوك كالزهد والصدق والقناعة، وضبط النفس بالتحلم وتحمل الشدائد والصدمات العاطفية، والثبات النفسي والعاطفي في مواجهة استفزازات الناس وظلمهم، كقيم العدل، والإنصاف، والأمانة، والشكر وقصر الأمل، والرحمة، والعفو، والعز، واليقين، والطاعة، ومجاهدة النفس والفرع إلى التوبة المخلصة لله سبحانه، فجميعها لا تكون مقبولة بمحددات المشرع التربوي الإسلامي ومعاييرها إلا بعمل، وتطبيقات واقعية ملحوظة تحمل الناس أنفسهم على وصف ذوي الأخلاق بها، بل ونلاحظ في الوصية أوامر بتنفيذها مثل (انزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، واستجلب حلاوة الزهد بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، ولا قوة كَرَدَ الغضب)، ولا يمكن دفع حاضر الشر بدون استجلاب حاضر العلم، وهكذا ترد الرذائل بفضائل من اضدادها.

ومن الصعوبة أن ينتصر على شهواته وأمراضه السلوكية بالتمني، وبدون معرفة جادة بالنفس وخفاياها، وبدون ممارسة الذكر وكثرته في الخلوات من أجل ترقيق قلبه بأنشطة عملية كالأدعية وصلوات الليل والخشوع، وممارسة كل شيء يساعده على التخلص من قساوة القلب، وتبليد وجدانه الأخلاقي، ولا يमित الطمع في نفسه وما يترتب عنه من مذلة وتحقير وضعف ومهانة إلا ببرد اليأس، وهو الشعور العملي الحي المضاد بعز اليأس مما في أيدي الناس، وتذوق حلاوة الكرامة بدلاً من استجداء الناس، وإراقة ماء وجهه لهم، فالمرء - إذن - محتاج لتجارب عملية متواصلة يخوضها بنفسه كي يتعلم ويعبد الله ويتذوق حلاوتها.. بالتعلم القائم، وبالأداء الفعلي، وبالممارسة العملية.

كما أن الفرد من جهة أخرى.. كيف له أن يتخلص من (استهائته بالذنب) التي حذرت منه الوصية، ويتغلب على حالة رضاه بهذا الواقع المزري، الموبوء بمفارقة المعاصي بدون ممارسة عملية يتصدى فيها واقعاً للانحراف ومتاعبه، وفي الميدان العملي، فالخلاص من معصية الاستخفاف بالذنب، والتعبير الإيجابي عن عدم رضاه بحالة الخزي والعار المصاحبة لهذه الحالة يتطلب الثورة والتمرد وبدء التغيير وخوض تجارب جهادية مع شهوات النفس وانحرافات ومواطن الخلل والفساد في داخلها، وقد نبهت الوصية إلى أنه (لا فضيلة كالجهاد) وتحدد لهذا الجهاد شرفه بـ (مجاهدة الهوى) ومخالفته، فقال الإمام في وصيته لجابر: «ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا جهاد كمجاهدة الهوى»، وكما تقدم فجميعها مواقف تغيير عملية فعلية تنقل الذات من واقع آثامها إلى الاستقامة على الحق، ورشد العقل والسلوك، والرضا عن أفعال الذات بما يرضي الله سبحانه وتعالى، ويتمثل فيها الفرد المؤمن أحكامه الشرعية المتعددة في أعمال تعبدية.

٤. إعادة التربية العلاجية بالقيم الأخلاقية:

ذكرنا في السياق اللفظي والمعرفي للنص بعض القيم العبادية، مثل الزهد والصدق والقناعة، وضبط النفس بالتحلم وتحمل الشدائد والصدمات العاطفية، والثبات النفسي والعاطفي في مواجهة استفزازات الناس وظلمهم، كقيم العدل، والأمانة، والشكر وقصر الأمل، والرحمة، والعفو، والعز، واليقين، والطاعة.


٥. أسلوب التسامي الأخلاقي وعدم استخدام المعاملة بالمثل:

تعود الناس إثارة بعضهم في حياتهم اليومية، فقد ألفوا تنوعاً في استجاباتهم، وقد تكون بعض هذه الاستجابات متماثلة بعينها، وهذه حال كثير من الناس، فالظلم يرد عليه بظلم مثله أو أقسى، ومن خَوَّن غيره خَوَّنوه، بل وزادوا عليه بافتراءاتهم، ومن كَذَّب الناس ردوا عليه بغضب تتفاوت قوته باختلاف الأفراد، بل أن بعضهم تنحط استجاباتهم بأسوأ من قوة الإثارة الانفعالية، وهذه الاستجابات شائعة على مدار زمان في سلوكيات الكثير من الناس.

أمّا أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فلا تحظى ردود أفعال الناس، بخاصة المنحطة منها، بالرضا، وقد نهت وصية الإمام محمد الباقر (عليه السلام) عن معاملة الغير بنفس أفعالهم، بل كانت دعوته محاولة للتفكير فيما قيل للفرد، هل هي صحيحة فتستوجب التعديل، وإن كانت كذباً وتلفيقاً فجزاؤه الثواب الإلهي كما وعد الإمام الباقر (عليه السلام)، فجميع استجابات الناس مع بعضهم إمّا لكونها محرّمة أو أنها لا تحمل تدنيّاً أخلاقياً، أو خالية من الدوافع والبواعث النزيهة التي تشجع على تجاوز ما هو « سيء » بردود فعل أفضل وأسمى أخلاقياً وإنسانياً، ودينياً.

ولقد نهى الإمام الباقر (عليه السلام) عن كل أشكال الاستجابات التي لا تسمو بسلوك الإنسان وتعلي من قدره الشخصي كما في استجابات الحمقى، ومررنا مراراً بموقف التوجيه الإرشادي للإمام الباقر (عليه السلام) لصاحبه جابر الجعفي، ومطالبته بكف سلوكه عن الاستجابات وردود الفعل المماثلة مع ذوي المظالم، والاهانات المحقّرة لرغبة من الإمام الباقر (عليه السلام) في تعديل سلوك هؤلاء المحقرين، ومعاملتهم بسلوك أمثل بغرض تعديل سلوكهم بما يتفق والنظرة التربوية والأخلاقية والعبادية للمشرع الإسلامي، وكى لا يتعود المؤمن على استجابات الحمقى وأفعالهم، وردود أفعالهم السيئة، فيداخله القلق،

وعلل السلوك، والاضطرابات ومشاعر الحطة ودناءة الذات، والنظر للناس باستعلاء واستكبار.

كما أن غاية موقف الإمام الباقر  تربوية في المقام الأول، وتستهدف أن يشعر ذوو السلوك الأحق بمساوئ ما فعلوه، وأن يتحسسوا بعض الخجل في أنفسهم، ويتعلموا درساً في السلوك الخلقي الأمثل، ويدربوا أنفسهم على معالجة ردائهم بفضائل الخير، وهي أكثر سموً، وتحقيق راحة للنفس، وبنحو أقدر على الترويح عن الإنسان واجمام قلبه، وهذا بالتأكيد ما شددت عليه الوصية، وإن لم تذكر ذلك بالفاظ مباشرة، ولكن لكونها ما قيل في الإنسان بإمكانية حالتي (سقوط الفرد من عين الله، وأعين الناس) تفيد بالتفكير والتأمل والتعلم التربوي المستمر بعد معرفة الفرد نتائج عمله.

مصادر الكتاب ومراجعته

١. كتاب الإمام الباقر عليه السلام، بدون ذكر لاسم المؤلف، دراسة أعدتها دار التوحيد للتأليف، العدد السابع من سلسلة (أهل البيت عليهم السلام)، دولة الكويت، الصفا، الطبعة الثانية، سنة الطبع (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
٢. نور الأبصار في مواليد الأئمة الأطهار، تأليف جمع من العلماء.
ولادة الإمام الباقر، السيد محمد حسين الطالقاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ومنشورات مكتبة العلوم العامة، المنامة، البحرين، الطبعة الثانية، سنة (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
٣. الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، علي بن محمد بن أحمد ابن الصبّاغ، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة الطباعة (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م).
٤. تذكرة الخواص، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن فرغلي بن عبد الله البغدادي (سبط بن الجوزي)، مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، بيروت، لبنان، طبعة سنة (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
٥. كشف الغمّة في معرفة الأئمة، العلامة المحقق أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، لبنان، طبعة سنة (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
٦. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، تأليف العلامة الحافظ محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة سنة (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
٧. كتاب تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي

البغدادي، تعليق وتحقيق خليل المنصور، مؤسسة العطار الثقافية، النجف، العراق، الطبعة الأولى، سنة الطبع، (١٣٧٨ ش - ١٤٢٩ هـ).

٨. تحف العقول عن آل الرسول، الشيخ أبو محمد (الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الخامسة، سنة الطبع (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م).

٩. كلمة الإمام الباقر (عليه السلام)، المجلد الأول، والثاني، موسوعة الكلمة، تأليف: السيد حسن الشيرازي، من إصدارات هيئة محمد الأمين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).

١٠. الإمام الباقر: السيّد مهدي آية الله، ترجمة: كمال السيّد، العدد السابع من سلسلة (المعصومين)، مؤسسة أنصاريان، مدينة قم، إيران، بدون تاريخ.

١١. درر البحار في سيرة النبي وآله الأطهار، كمال السيّد، (عباس حسن الموسوي)، الناشر مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، طبعة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

١٢. كتاب الوفيّات، الشيخ حسين بن محمد آل عصفور الدرازي البحراني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).

١٣. الأئمة الاثنا عشر أو الشذرات الذهبية، شمس الدين محمد بن طولون، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، طبعة عام (١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م).

١٤. حياة الإمام الباقر، للعلامة باقر شريف القرشي.

١٥. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، محيي الدين محمد بن يعقوب، مراجعة أنس محمد الشامي، وزكريا جابر أحمد، دار الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة الطباعة (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م).

١٦. معجم (لسان العرب)، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم ابن

علي، طبعة دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، بدون تاريخ.

١٧. مختار الصحاح، الرازي، الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، طبعة مدققة، اخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة عام ١٩٨٦ م.

١٨. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، تحقيق ومراجعة محمد محمد ثامر، وأنس الشامي، وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، سنة الطبع (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م).

١٩. كتاب، (مجموعة وفيات الأئمة عليهم السلام)، مراجع من العلماء الأعلام، طبعة جديدة ومنقحة ومصححة، الناشر: انتشارات الشريف الرضي، مدينة قم، إيران، الطبعة الأولى، سنة الطبع (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م).

٢٠. كتاب، دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).

٢١. كتاب إسعاف الراغبين، محمد بن الصبان، طبعة قديمة.

٢٢. كتاب الوفيات، أبو العباس أحمد بن حسن بن الخطيب، نسخة إلكترونية مكتوبة.

٢٣. الهداية الكبرى، أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، سنة الطبع (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م).

٢٤. كتاب (غرر الحكم، ودرر الكلم)، التميمي، عبد الواحد الأمدي، منشورات الاعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).

٢٥. الارشاد التربوي والنفسي في المؤسسات التعليمية، الحريري، رافدة، وسمير الإمامي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، سنة الطباعة (٢٠١١ م - ١٤٣٢ هـ).

المحتويات

٧	كلمات خالدة
٩	الإهداء
١١	مقدمة الكتاب
	الحلقة الأولى (الإمام أبو جعفر الباقر (ع)، شخصيته، حياته، ومكانته العلمية)
٢٣	ولادته المباركة
٢٤	الرواية الأولى: اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ).
٢٥	الرواية الثانية: رواية الطبري في دلائل الإمامة.
٢٦	الرواية الثالثة: قول أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٢هـ).
٢٨	الرواية الرابعة: قول ابن الصبّاغ المالكي (ت ٨٥٥هـ).
٢٨	والرواية الخامسة: مع ابن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣هـ).
٣٠	الرواية السادسة: الشيخ حسين العلامة البحراني (ت ١٢١٦هـ).
٣١	تسميته المشهورة بالباقر
٣١	البقر بمعناه اللغوي.
٣٣	البقر بمعناه الاصطلاحي.
٣٩	منزلته ومكانته العلمية بين المسلمين
٣٩	أولاً: البشارة النبوية بولادة الباقر ومستقبل مكانته.
٤٢	ثانياً: نمو قدراته الذاتية التي حددت مكانته.

٤٣	ثالثاً: تصريحات علماء المسلمين بمكانة الإمام الباقر (ع).
٤٥	وفاة أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (ع).
	الحلقة الثانية (مقدمات أولية في دراسة الوصية كوثيقة إرشادية)
٥٣	مدخل الحلقة
٥٥	نص الوصية
٥٩	وصف عام ومجمل للنص وفرصة دراسته
٦١	تاريخ النص
٦٣	الإثارات الذهنية الرئيسية في نص الوصية أو موضوعاتها الأساسية
٦٥	مسوّغات وضع نص الوصية في مدخل الدراسة
٦٦	النظرة العلمية للنص
٦٨	مفهوم الوصية الإرشادية
٧٠	مصادر وصية الإمام الباقر لجابر الجعفي
٧١	أهداف دراسة وصية الإمام الباقر (ع).
٧٣	مصادر توجيه الإنسان وضبط حركته في النص
٧٥	مسوّغات دراسة وصية الإمام الباقر لجابر بن يزيد الجعفي.
٧٦	كيفية دراسة الوصية
٧٨	الدراسات السابقة
٧٩	عوائق الدراسة
	الحلقة الثالثة مدخل للعملية الإرشادية في وصية الإمام الباقر (ع) لجابر الجعفي
٨٥	مقدمة
٨٦	المفهوم اللغوي للإرشاد

- ٩٠ المفهوم الاصطلاحي للإرشاد
- ٩٩ أهداف العملية الإرشادية
- ١٠١ مصادر الاسترشاد وبنائعه الأساسية
- ١٠٤ مهارات الطرفين (المُرشد والمسترشد) في العملية الإرشادية
- ١٠٦ مكونات العملية الإرشادية
- ١١٠ المحادثة كأسلوب عام للعملية الإرشادية في نص الوصية
- ١١٢ جوانب المنهج الإرشادي (الوقائي والعلاجي والإنمائي).
- ١٢٠ أدوات ومصادر جمع المعلومات عن مشكلات الذات
- الحلقة الرابعة السلوك الإنساني في وصية الإمام الباقر (ع) مفهومه...
- ١٣١ المكونات الأساسية للشخصية الإنسانية
- ١٣٦ مفاهيم أولية في مدخل البحث.
- ١٣٧ مفهوم عام للسلوك.
- ١٣٨ تحديد معنى (المبادئ) ومفهومه العام.
- ١٤٠ مكونات السلوك وعناصره.
- ١٤١ أولاً: المثير والاستجابة.
- ١٤٥ انموذج تطبيقي لمجموعة من مثيرات السلوك الإرشادي واستجاباته:
- ١٥١ ثانياً: الهدف المراد تحقيقه.
- ١٥٤ ثالثاً: النية الإنسانية:
- ١٦٠ رابعاً: مبادئ تنظيم السلوك:
- ١٦١ أولاً: خصائص مبادئ تنظيم السلوك في نص وصية الإمام الباقر.

الحلقة الخامسة الانفعالات النفسية مفهومها، وشروط حدوثها...

- ١٧١ المقدمة
- ١٧٣ النصوص الانفعالية في وصية الإمام الباقر (عليه السلام)
- ١٧٧ تحديد مفهوم الانفعال
- ١٧٨ شروط حدوث السلوك الانفعالي
- ١٨٠ تأملات علمية في نص الوصية
- ١٨١ أولاً: ألفاظ انفعالية (مفردات ومصطلحات انفعالية).
- ١٨٢ ثانياً: قائمة السلوك الانفعالي وأنواعه.
- ١٨٣ ثالثاً: ربط المثيرات والاستجابات الانفعالية في مقاطع لفظية...
- ١٨٥ نماذج مختارة
- ١٩٤ رابعاً: أساليب التعبير عن الحالات الانفعالية في النص...
- ١٩٦ خامساً: شروط توجيه الانفعالات نحو أهداف عبادية:
- ٢٠٠ سادساً: خصائص السلوك الانفعالي.

الحلقة السادسة العوامل المؤثرة في ضبط السلوك الانفعالي

- ٢٠٧ مقدمة
- ٢٠٩ ١. العوامل الإيجابية:
- ٢٢٣ ٢. العوامل السلبية المؤثرة على تحقيق الاتزان الانفعالي:
- ٢٣٠ المفهوم اللغوي للضغط.
- ٢٣٢ الضغوط والتحديات في نص وصية الإمام الباقر (عليه السلام).
- ٢٣٥ تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي في نص الوصية الإرشادية:

الحلقة السابعة الحاجات والقيم الإنسانية في وصية الإمام الباقر (ع)

- ٢٤٥ مقدمة
- ٢٤٧ أولاً: الحاجات الإنسانية:
- ٢٥٧ ثانياً: الحاجات النفسية - الاجتماعية:
- ٢٦٤ أساليب ضبط الإشباع:
- ٢٦٦ القوى الضابطة للإشباع في مفردات الوصية:

الحلقة الثامنة مبادئ الإرشاد النفسي والأخلاقي في وصية الإمام الباقر (ع)

- ٢٨٣ مقدمة
- ٣٢٧ الحلقة التاسعة المشكلات السلوكية والحالات المرضية في وصية الإمام الباقر (ع)
- ٣٤٠ خطوات رصد المشكلات وعلاجها:
- ٣٤١ العوامل المؤثرة في المشكلات السلوكية وحالاتها المرضية (سلباً وإيجاباً):
- الحلقة العاشرة الأساليب الإرشادية - العلاجية في وصية الإمام الباقر (ع)

- ٣٥٩ مقدمة
- ٣٦٠ أولاً: الأساليب العلاجية ذات الطبيعة العقلية والإدراكية والمعرفية.
- ٣٧٩ ثانياً: أساليب العلاج الإرشادي ذات الطابع الروحي - الأخلاقي:
- ٣٩٣ مصادر الكتاب ومراجعته

